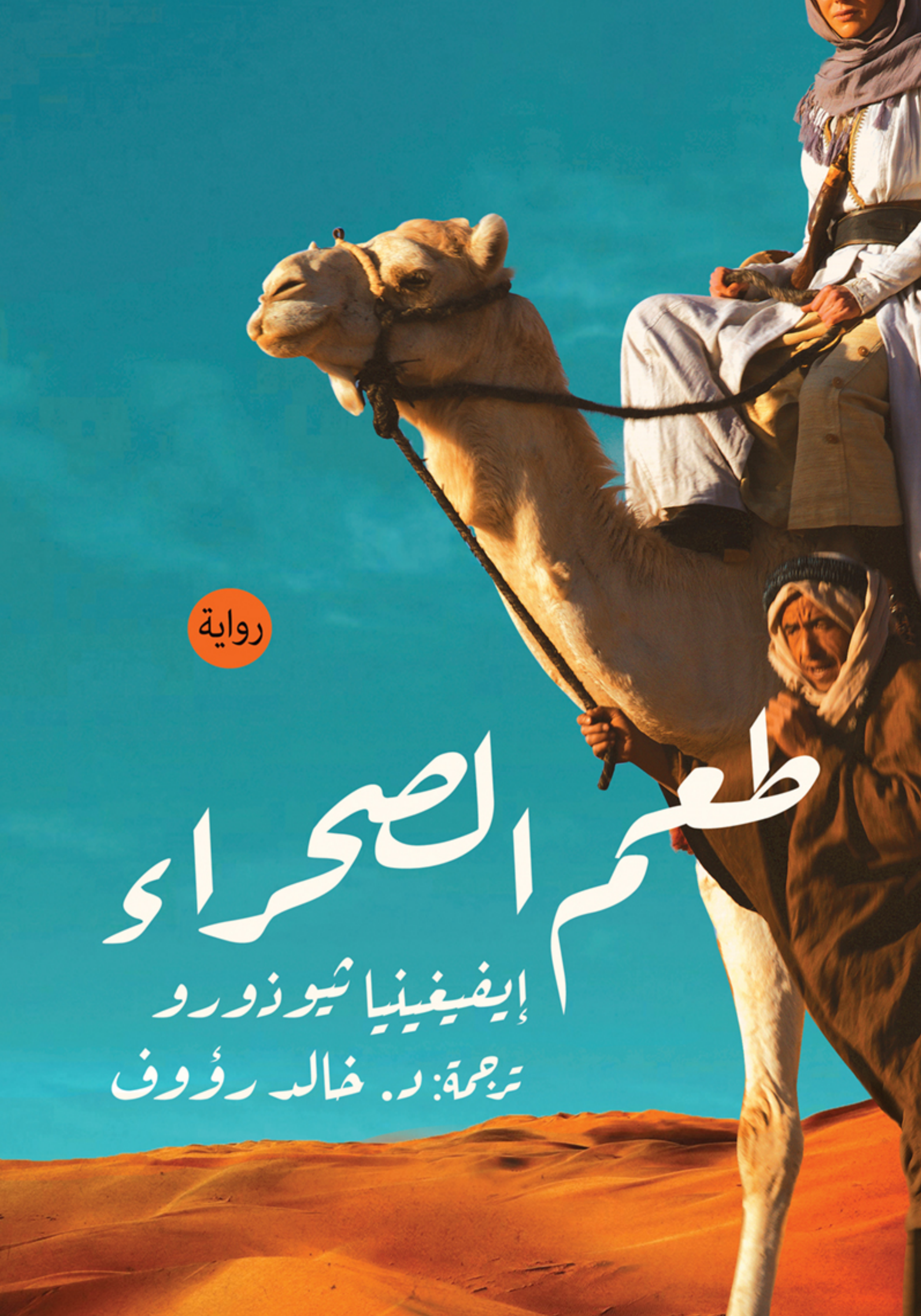

رواية

# طعم الصحراء

إيفيغينيا ثيوذورو

ترجمة: د. خالد رؤوف

# طعم الصحراء

رواية

**د.خالد رءوف/** درس التاريخ والآثار والأدب المعاصر في جامعة أثينا، الدراما والمسرح في مدرسة المسرح القومي اليوناني، وحصل على دكتوراة في تاريخ الفن الكلاسيكي اليوناني الروماني جامعة شيكاغو. درس اللغة اليونانية في جامعة أثينا وحصل على دبلومة في الترجمة من نفس الجامعة وعلى دبلومة أخرى في الترجمة من الإتحاد الأمريكي الهليني. له ترجمات عن اللغة اليونانية منها "جيران العالم" مختارات شعرية ـ يانيس ريتسوس؛ "ألكسيس زوربا، سيرته وحياته" ـ نيكوس كازانزاكيس.

................................

**طعم الصحراء**

**طبعة** 2019

**رقم الإيـــــداع:** 2019/2972

**الترقيم الدولي:** 978-977-821-99-6

**جميع الحقوق محفوظة ©**

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

Copyright © S. Patakis SA & Ifigenia Theodorou, Athens 2012

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

WWW.SEFSAFA.NET

elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

إيفيغينيا ثيوذورو

# طعم الصحراء

رواية

ترجمها عن اليونانية:

**د. خالد رؤوف**

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

**بطاقة فهرسة**

**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،**
**إدارة الشئون الفنية**

ثيوذورو ، إيفيغينيا

طعم الصحراء: رواية / إيفيغينيا ثيوذورو ، ترجمها عن اليونانية خالد رؤوف

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠١٨

٣٨٤ ص، ٢٤سم

تدمك ٦-٩٩-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص اليونانية

أ- رؤوف، خالد ( مترجم)

ب- العنوان

٨٨٣

رقم الإيداع: ٢٩٧٢/ ٢٠١٩

**ملحوظة:**

المقاطع من رسائل جاين ديجبي هي من كتاب السيرة الذاتية لـ:

Mary S. Lovell , The biography of Jane Digby,a Scandalous Life, Fourth Estate، لندن، 2003، في ترجمة حرة للكاتبة.

**إلى الذين رحلوا...**

# جيني

**قبـل أن تفتـح عينيهـا**، سـرَى صـوت غريـب إلـى أذنيهـا، صـوت المـؤذن المبحـوح المديـد المليء بالشـجن، جـاء متهاديًـا عبـر النافـذة المواربـة؛ أزاح السـتائر وقبـع فـوق ملاءتهـا، إيقاظ وهدهـدة فـي الوقـت نفسـه، سـحبها مـن نومتهـا الصباحيـة، وفـي اللحظـة نفسـها دفعهـا لتجد خيـط حلمهـا مـن جديد، بقيت بعينيهـا مغلقتين وبدَّلـت وضعها في الفراش وهي تشـعر ببهجة صبـاح يـوم عطلـة الأحـد، لكن طـرف الحلـم الأخير كان قـد ضاع منهـا.. دخل صـوت المؤذن في الغرفـة فطـرد الذكريـات وفُتـات النـوم، مشـاهد مـن الليلـة الماضيـة وطعم مـرٌّ بقي فـي حلقها؛ مـددت جسـدها تحـت الأغطيـة الدافئـة، فتحـت عينيهـا، تعرفـت علـى ملابسـها المنثـورة علـى المِقعـد وعلـى حقيبـة سـفرها التـي تلهـث علـى أرضية الغرفـة، يدخل بصيـص ضوء النهـار الذي مـا زال فـي طـور الـولادة مـن النافـذة المواربـة، صمـتَ شـجن المـؤذن للحظـة، راحـت السـاعة المجـاورة لهـا تهمـس فـي أنيـن، الرابعـة والنصـف صباحًـا.. بدلـت وضعها فـي الفراش وتشـبثت بآخـر أذيـال النـوم فـي رأسـها، بآخـر صيحـات المـؤذن، وغاصت فـي الحلم.

**عندما يأتي إلى دمشق**، تبهجه عطلة الجمعة وتغمره بإحساس وكأنه يخرق القواعد دون أي تهديد بالعقاب، ارتباك الأسبوع يشعره دومًا بشقاوة التلاميذ، في الوقت الذي تعجُّ فيه المكاتب والشوارع في أثينا بالحياة، اليوم هنا يشبه صباح يوم الأحد دون أي برنامج، خمول لا نهائي يصاحب كل حركة، في الشوارع تقل حركة السيارات، والحضور البشري خفيف كالنسمة الكسول التي تحرك أعلام الدولة المتسخة بعوادم السيارات التي تغطي كل أركان دمشق، في أيام الجمعة تصفو السماء من ردائها الرمادي فتُظهر حواف البيوت وخضرة المدينة لونها الحقيقي، القصر الرئاسي على قمة التل يفقد سَمْتَه المتجهم، وخطوطُه الحادة تكتسب صفة القوة التي تؤمِّن الهدوء على هذه الأرض، حتى صوت الأذان من أكثر من مائة مسجد في المدينة يملأ الأجواء بأنغام مطمئنة: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله...".

ارتشف رومانوس ما تبقي من قهوته ببطء، في هذه الساعة نزلت العائلات إلى مطعم الفندق لتناول الإفطار، رجال الأعمال ينعمون بنومهم اليوم دون التزامات أو مواعيد، أما السيّاح الذين شربوا قهوتهم على عجالة فكانوا في طريقهم نحو زيارة الأماكن التاريخية، توصف سوريا في الدليل السياحي العالمي بأنها الأرض التي كلما أزلْتَ قشرة منها اكتشفت المزيد أسفلها، هي الأرض التي اختلطت فيها الأديان والحضارات؛ تصادم فيها الآلهة، الملوك واللصوص، وتركوا آثارهم، قوافل التجار، سيوف المحاربين الصليبيين وحبر الرحالة، فسيفساء التاريخ والبطولات، كان ثمرة زواج مختلط، أب يوناني وأم سورية، مزيج صلب، والده كان معلمًا في التعليم المتوسط، ترك فصوله الدراسية وعمل في المجال الذي كان شغفه الدائم: السفر والرحلات، عندما تعرف على الشابة نادية بهلثي، وجد مباشرة في وطنها الوجهة التي فتحت طريقًا نحو تحوله المهني، بدأ ينظم الرحلات في الشرق الأوسط، معرفته الواسعة وعلاقات نادية في المنطقة كلها، هذا بالإضافة إلى العربية التي هي لغتها الأم؛ ساعد كثيرًا في أن يكتسب المكتب السياحي تميزًا في التخصص في رحلات الشرق الأوسط، هكذا لم تنقطع علاقة نادية بوطنها ولم يتوقف عقلها المبدع عن ولادة الأفكار والدوافع للسياحة من وطن لآخر، كانت دائمًا

تعتقد أن لديها وطنين.

كانت نادية ابنة لدبلوماسي سوري وجاءت إلى أثينا مع عائلتها في الخمسينيات من القرن العشرين عندما تولى والدها مهام سفير سوريا في اليونان، درست وهي صغيرة في مدرسة الراهبات الفرنسية التي كانت في ذلك الحين في إحدى بنايات شارع خاريلاو تريكوبي، كان شقيقاها معها في نفس المدرسة -سمير ونديم- وكانا يتابعان الدراسة في تلك المؤسسة الصارمة الخاصة بالإناث -سان جوزيف- ولأن المدرسة كاثوليكية؛ قررت الإدارة أن تستثني أبناء الدبلوماسي السوري، كانت تربطهم علاقات بإحدى الراهبات من دمشق، توسطت حتى يتم قبول الولدين الصغيرين مع شقيقتهم في فصول المرحلة الابتدائية، في كل صباح كانت سيارة السفارة تترك الأشقاء الثلاثة أمام بوابة المدرسة، وبهذه الطريقة لم يشعر الأولاد بالغربة في هذه البيئة الجديدة.

كانت نادية بما لها من موهبة فطرية في القَصّ دائمًا تحكي للأولاد حكايات عن حياتها في اليونان، عن المنزل الكبير في حي بسيخيكو، وعن السباحة في شاطئ فاليرو، وعن الراهبات اللاتي كن يعتنين بها برقّة عندما بدأت في التحليق بجناحيها في فناء المدرسة، وبعد ذلك -أيضًا- عندما بقيت في القسم الداخلي للمدرسة حتى انتهت من المرحلة الإعدادية، قبل انقضاء عقد الخمسينيات انتقل والدها إلى رومانيا، كان الأخ الأكبر قد بلغ الثانية عشرة من عمره؛ ولذا لم يكن باستطاعة الولدين أن يبقيا في مدرسة الإناث، وهكذا التحقا بمدرسة داخلية فرنسية في بيروت، بينما بقيت نادية في أثينا، كانت تتحدث اليونانية بالتوازي مع الفرنسية، فقد كانت تتلقى دروسًا باللغة اليونانية في مدرستها، وكان لديها صديقات يونانيات، وكانت تقسم إجازاتها الصيفية بين سوريا واليونان، طيلة هذه السنوات لم تتعلم فقط التحدُّث بتلك اللغات، ولكن التفكير -أيضًا- بتلك اللغات الثلاث، وصارت تتعرف شيئًا فشيئًا على أدق الخصائص والتفاصيل في كل مكان تعيش فيه، وبنضج نادر بالنسبة لسنها آنذاك راحت تتبنى من كل تلك الثقافات ما يناسبها أكثر مستندة إلى حقيقة أنها تعيش وحدها، بعيدة عن والديها وشقيقيها، كانت نادية دائمًا فتاة خجولًا وحذرة، نتاج خالص للتربية الكاثوليكية، وإن كانت

فـي أعماقهـا رغبـة متأهبة أن تعبر عن مشـاعرها الجياشـة، وهـو ما يرجع إلى جذورها الشـرقية، وأيضًـا لتطبعهـا بالطابـع اليونانـي حيـث نشـأت وترعرعـت بجـوار زميلاتهـا اليونانيـات، عندمـا انتهـت مـن المرحلـة الثانويـة ولـم تواجـه أي صعوبـات فـي التخـرج، بقيـت فـي أثينا للدراسـة، وبعـد ذلـك كل شـيء حـدث بشـكل تلقائي.

طلـب رومانـوس مزيـدًا مـن القهـوة، راح يلاحـظ زبائـن الفنـدق حولـه وهـم يسـتمتعون بفطورهـم فـي هـدوء، كان أغلبهـم مـن الأجانـب، كان هنـاك بالطبـع بعـض المحلييـن العابريـن مـن العاصمـة، كان يسـتطيع أن يميزهـم مـن بيـن بقيـة الشـرق أوسـطيين، مثـل العـرب مـن الإمـارات واللبنانييـن، رجـال يتسـمون بالبدانـة ويرتـدون قمصانًا بأكمام قصيرة، نسـاء سـمراوات بملامـح واضحـة، بعضهـن يرتديـن الجلابيـب البيضـاء وينتعلـن الصنـادل، ينبهـر دائمًـا بأغطيـة الـرأس النسـائية، فـي الماضـي كانت فقط النسـاء مـن دول الخليـج أو من إيران هـن من يغطين رؤوسـهن، الآن صـار الأمـر يـزداد، ويرى في الشـوارع في كل أحياء دمشـق فتيـات يرتدين الطُّرح البيضـاء علـى رؤوسـهن ويربطنهـا بمهـارة، يغطيـن شـعورهن ويكشـفن جباههـن، وجـوه نضـره وباسـمة، ويضعـن المكيـاج فـي عيونهـن اللوزيـة وعلى شـفاههن، أجسـادهن الشـهية محشـورة داخـل خيـوط البناطيـل الجينـز الضيقـة، وأخـرى تتمايل داخـل ملابـس فضفاضة، فتيات شـابات يجلسـن فـي المقاهـي المكشـوفة يخفين تحت أغطية رؤوسـهن شـعورهن وأفكارهـن وعيونهن خلـف النظـارات السـوداء، ودخـان الأرجيلـة يتهـادى من بيـن شـفاههن اللامعة، رومانـوس الذي يخطـو بثقـة بيـن ثقافتـي والديـه، يسـتطيع أن يفسـر هـذه الظاهـرة، التغييـر الجـذري لا يثيـر تسـاؤلاته ولكنـه يسـترعي انتباهـه فقـط، فقـد كان علـى كل حـال يراقـب باهتمـام ويقـارن مـا يحـدث فـي وطنيـه، "كأنـك تمـر بيـن حديقيتـن"، هكـذا كانت تقـول له أمـه، "تنظر لهما وتشـم عبيرهمـا، تقطـف زهـورًا وثمـارًا أينمـا شـئت، تسـتريح حيـث تشـتاق روحـك، أنت هنـا وهناك، تمسـك بيـن يديـك مفاتيحهمـا، فهما لـك...".

اعتنـت ناديـة بتربيـة ولدهـا بدقـة، الولـد الأخيـر فـي العائلـة، والـذي تأخـر مجيئـه بعـد محـاولات وقلـق، هـي التـي نشـأت علـى مبادئ مجتمـع شـرق أوسـطي، حيـث إن الولـد فـي البيـت هـو زينتـه، كان همّهـا الأول هـو أن تعلمـه لغتـه الأم، لـم تتوقـف عـن التحـدث

معه بالعربية منذ أن فتح عينيه السوداوين ونظر إليها، لم تبعده عن صدرها لعام كامل ظلت فيه تهدد الشيخ الصغير -كما كانت تلقبه مداعبةً- وتغني له أغاني عربية سمعتها من أمها، عائلتها كان لها جذور بدوية عميقة من ناحية وجذور مسيحية من الناحية الأخرى، على أرض إيميسا القديمة التي سميت بـ"حمص" في ما بعد، تشابكت تلك الجذور وصارت مثل لفافة الخيوط تاركةً على خلايا الذاكرة نيران الصحراء والصلوات في كنيسة القديسة زوني، كانت نادية فخورة بأنها ولدت في سوريا؛ إذ كانت تعتقد أن هذه الأرض قد احتفظت لقرون بعقيدتها حية، رغم التمدد العربي وسنوات الاستعباد العثمانية، مسيحيون من كل المذاهب احتفظوا بكنائسهم ومعتقداتهم متمتعين بتسامح ديني اكتسبوه بفضل إصرارهم، مما كان مثارًا لافتخارهم، فأين نشأت وازدهرت المسيحية كدين جديد؟ على أطراف الإمبراطورية الرومانية، في يهودا وفي فلسطين، وأين نشأت المذاهب التي هزت أرجاء بيزنطة؟ على الهوامش، هناك حيث كانت الجيوش الفارسية تضرب فوق حلبية وسيرغوبوليس، الأميرات الحمصيات كن يزين إمبراطورية السيفيريين وقصور روما، بينما الملكة زنوبيا الثائرة جرجرت الفيالق الرومانية حتى واحة بالميرا فاختلطت رمال الهضبة السورية بالغبار الذي ينثره اللاتينيون الصليبيون في طريقهم لأورشليم.

مرور اللاتينيين كان حاسمًا بالنسبة لأجداد نادية، عائلة والدها كانت تنحدر من سهول وسط إيطاليا، اختلطت ملوحة الشواطئ في لبنان والماء العذب لنهر برَدَى الذي كان يروي حدائق دمشق، لم تكن دمشق تبعد عن حمص سوى يوم سفر، كان الزواج هو ما عضد وجمع كل تلك الطرق لتتجه نحو البيت الذي تربت فيها نادية وأخواها وتعلموا أن يرسموا شارة الصليب على الطريقة الكاثوليكية ويتحدثوا العربية المخلوطة بالفرنسية، حتى استقلوا السفينة من الإسكندرية ووصلوا إلى ميناء بيريا ومنه إلى أثينا، كانت القصص عن الأجداد تغذّي فخر أبناء الدبلوماسي السوري، وعندما تزوجت نادية من بتروس كافانداريس اعتنقت المذهب الأرثوذكسي مثل أمها وجدتها، ولتخليد ذكرى أمها سمت ابنها الوحيد

الغالي على اسم أحد أبناء حمص، رومانوس ميلوذوس[1].

خـرج رومانـوس مـن المطعـم وقـد رُشـقت علـى ظهـره نظـرات التسـاؤل، مظهـره الأوربي لا يتوافـق مـع لغتـه العربيـة السـليمة، كانـت تسـلّيه وتعجبـه نظرات الدهشـة التـي ترتسـم على وجـوه محاوريـه، سـواء كانوا من زبائن الشـركة العائلية أو من أبناء وطنه -نصـف وطنه بالطبع-، الذيـن ينظـرون إلـى هـذا الرجـل الشـاب الطويـل النحيـل الـذي يتحـدث العربيـة مثلهـم تمامًا، كانـت الحركـة فـي قاعـة اسـتقبال الفنـدق ضعيفـة، ضـوء اليـوم الربيعـي يتراقـص علـى النجف الكريسـتالي والمرايـا المعلقـة بالقاعـة، كان رومانـوس يبحـث بيـن الأجانـب القلائل عـن زبائنه، ففـي هـذه المـرة سـوف يصطحـب مجموعـة صغيـرة مـن النسـاء -ثلاثـة أفـراد فقـط- جئن من لنـدن إلـى سـوريا لتقفـي أثـر إحدى نسـاء وطنهـن -جايـن ديجبي-، رحلـة خاصة صممتهـا نادية ببراعـة بـكل تفاصيلهـا، حتـى يومنا هـذا لا تكفُّ أمه عن ابتـكار الأفكار التي تسـلط الأضواء على مسـقط رأسـها، لكـن ضيفاتـه المتميـزات لـم ينزلـن مـن غرفهـن بعـد، غيابهـن عـن المطعـم لم يقلقـه؛ فالكثيـر مـن المسـافرين يفضلـون أن يتناولـوا فطورهـم فـي غرفهـم، وهكـذا منحهن مهلة إضافيـة، فمـا هـو معنى السـياحة؟ الاسـتمتاع بوقـت الفراغ، المبـدأ الرئيس لمكتب السـياحة هو احتـرام هـذا الوقـت الـذي يُدفـع ثمنـه غاليًـا، علـى أي حـال اليوم يبـدو رائعًـا؛ أول تعـارف على دمشـق، برنامـج هـادئ، عبـارة عـن نزهـة فـي المدينة وزيـارة للمتحف حيث سـتأخذ السـيدات طعمًـا مـن كل مـا سـوف يرينـه فـي رحلتهـن، المتحـف الـذي تحتـوي قاعاته علـى كنوز وأسـرار كانـت تحتفـظ بهـا الأرض فـي باطنهـا، بعـد ذلـك -وفجـأة فـي بدايـات القـرن العشـرين- حـوَّل الأوربيـون -وبعـد دراسـة- مجرفـة حفـر الآثـار إلـى أداة هامـة يصطحبونهـا معهـم فـي حقائـب سـفرهم وجـاؤوا أفواجًـا إلـى سـوريا التـي نفضت لتوهـا أربعمائـة عام مـن الاسـتعباد العثماني، أربعـة قـرون جثـم العثمانيـون علـى أكتافهم، «نفس الحـال كانت فـي اليونان...»، هـا هو عنصر مشـترك آخـر بيـن البلدين.

تعلـم رومانـوس منـذ صغـره أن يجـد عناصـر وخصائـص مشـتركة تربـط بيـن وطنيـه

---

1- رومانوس ميلوذوس كان أكبر وأشهر شاعر وكاتب أناشيد في الكنيسة الأرثوذكسية في القرن السادس الميلادي، وولد في إيميسا (حمص).

وتجعلهما مثل وشم على جلده لا يُمحَى، كان يبحث بدأب ليبرر وجود الحضارتين في وجدانه، مثلما يفعل الأطفال الذين يبحثون في ملامح وجوههم عما يشبه أبويهم، أخذ من والده الجبهة العريضة والشفاه المرسومة التي تمنح ابتسامة فاتنة، والجسد القوي، كانت جذور العائلة اليونانية تجمع بالتساوي قوة سكان جبال الأوليمب وكذلك الرعاة من إقليم إيبيروس، الذين كانوا يصحبون قطعانهم صعودًا وهبوطًا ويجري في عروقهم الحليب بدلًا من الدماء. «بدو الجبال»، هكذا وبكل بساطة كان رومانوس يشبّه الرعاة من إيبيروس ببدو الصحراء، ليساوي في عقله بين جذوره العائلية، من أمه أخذ سواد العيون والشعر الأسود اللامع الذي ما زال حتى اليوم كثيفًا يزين رأس نادية ويحيط بوجهها.

في نفس عمر أمه لا بدَّ أن تكون السائحات الإنجليزيات اللاتي وصلن ليلة أمس إلى دمشق، وفقًا للاتفاق الذي تم في أثينا، كان اللقاء معهن سيكون في قاعة الاستقبال في الفندق في الساعة الحادية عشرة صباحًا دون أي تأكيد تليفوني، حضر رومانوس إلى دمشق قبلها بيومين من أجل التفاصيل النهائية، لكنه في الحقيقة كان في أعماقه يحب أن يأتي إلى هذا المكان الذي يحبه كثيرًا والذي كان يفتقده كلما غاب عنه لفترة، هنا كان ينتابه شعور بالارتياح وعدمه في الوقت نفسه، وكأنه كان يجري بسرعتين مختلفتين ويحتاج إلى قليل من الوقت كي ينظم سرعته، كي يتواءم مع خطوة وإيقاع وطنه الآخر.

ألقى نظرة أخرى حوله، ربما يرى ثلاث سيدات في منتصف العمر، ثم إلى ساعة يده، لقد مرت خمس دقائق على الموعد المحدد، على الرغم من أنه قد توجه نحو قاعة الاستقبال، ردُّ فعل موظفة الاستقبال أثار شكوكه؛ قالت له الموظفة بأمانة مهنية:

- «لديَّ رسالة إليك يا سيد كافانداريس، تركتها على مسجل هاتفك».

سألها رومانوس غير مهتم بالمظروف الذي تعطيه إياه بينما كان يبحث في جيبه عن هاتفه الجوال:

- «أي؟».

قالت الموظفة بتردد:

- «لقد حدثت بعض التغييرات، لم تأتِ الزبائن ليلة أمس.. أي، أريد أن أقول، لقد جاءت سيدة واحدة فقط، في واقع الأمر، سيدة أخرى، اسمها مختلف عن باقي الأسماء التي قامت بالحجز..».

أجابها بقلق وقد أدرك أن برنامجه الدقيق قد بدأ في الانهيار:

- «لكنكِ لم تخبريني بالأمس..».

- «السيدة رالي وصلت متأخرًا ليلة أمس، ولم تشأ أن تقلقك، قالت لنا إنها سترتب كل شيء معك اليوم».

قال رومانوس وقد ألمَّت التساؤلات بعقله:

«السيدة رالي؟».

أليس هذا اسمًا يونانيًّا؟ كان قد حفظ الأسماء الإنجليزية لزبائنه وكان يحمل معه أرقام هواتفهن الجوالة على ورقة في جيبه، هذا الاسم الذي ذكرته له الموظفة يذكِّره بممثل معروف من السينما اليونانية القديمة كانت تعرض أفلامه في التلفاز أيام الآحاد عندما كان مراهقًا، أي علاقة يمكن أن تكون لسيدة يونانية بمسيرة الإنجليزية جاين ديجبي في سوريا؟ لم يلحق أن يكتب رقم المكتب في أثينا على هاتفه فباغتته الموظفة وقالت على عجالة:

- «إن السيدة رالي سوف تنتظرك في الحادية عشرة والنصف في بار «البارادايس»، في العمق هناك على اليمين».

يعرف رومانوس كيف يحافظ على هدوئه؛ شكرها مبتسمًا وهو يبتعد وتوجه ببطء نحو بار الفندق.

**اليـوم الجيـد يظهـر مـن أولـه،** هكـذا يقولـون، اسـتيقظت هـي وإحسـاس بالقنـوط يكتنفها، دخـل الضـوء إلـى الغرفـة، ضـوء قـويّ يُعمـي العيـون، تقوقعت فـي الفـراش في ضعف وشـعور باللاجـدوى، بحثـت حولهـا عـن أي علامـات تعيدهـا إلـى الواقـع، الواقع الـذي تتهرب مـن قبوله، للحظـة لـم تتعـرف علـى أي شـيء فـي الغرفـة، ذكـرى ظُهْـر سـتراتوس العـاري والقشـعريرة مـن لمسـته تشـعرها بألـم فـي المعـدة، ومضـة أضـاءت غيابـه فـي ذهنهـا، تغلـب عليهـا الحزن والشـكوى، انطبعـت صورتهـا علـى المـرآة المقابلـة للفـراش صدمتهـا فأجهـزت علـى مـا تبقـي مـن قواهـا، ولـم يبـدأ اليـوم بعـد، سـيطر عليهـا حـزن مديد تجـاه المـرأة التـي تراها فـي المرآة: امـرأة يائسـة، مهملـة، بائسـة؛ انهمـرت دموعهـا، لم تسـيطر عليهـا، لمـاذا تفعل هذا؟ مـن يكون بجوارهـا الآن ليواسـيها أو ينهرهـا، يهزهـا مـن كتفيهـا كـي تسـترد وعيهـا؟ هل هي المـرأة الأولى التـي انهـارت فيهـا بسـبب رجـل؟ لقـد صـار هـذا النوع مـن النسـاء القاعـدة، لماذا سـتصبح هي الاسـتثناء؟ نهضـت بصعوبـة تبحـث فـي حقيبتهـا عن حبوب الـدواء التـي أعطاها إياهـا الطبيب، "الإحسـاس بالرفـض الـذي تعيشـينه هـو أمـر طبيعـي، يحتـاج الأمـر للوقت لكـي تجتازيـه، لكنه سـيحدث، كونـي علـى يقيـن!"، كـم كان وقـع كلماتـه مطمئنًـا وكـم كان واثقًا!

وإلـى أن يحـدث هـذا، مـن سـيذهب إلـى المكتب، يا سـيد أحمق؟ من سـيواجه فـي الصباح الباكـر الشـخص الـذي كان قبـل قليـل يعصرهـا فـي أحضانـه ويرتشـف أنفاسـها والقبـلات؟ كيف سـتوجه لـه الـكلام بعـد أن كانـت فـي الليل تحتـرق من شـوقها والآن تحدثـه بصيغـة الاحترام؟

قـال لهـا الطبيـب: "مخاطـرة الارتبـاط بشـخص متـزوج لـه علاقـة بنضـج الشـخص نفسـه..." ، أي ارتبـاط وأي نضـج؟ هـراء! ابتلعـت حبـة الـدواء وراحـت تبحـث عـن سـيجارتها، ذهبـت نحـو النافـذة بخمـول وراحـت ترتشـف الدخـان مـع مخاطهـا فـي الوقـت نفسـه، هـي الآن فـي الأعالـي؛ لمسـت بنظرتهـا السـحب الخفيفـة التـي تغطـي السـماء ثـم غاصـت أسـفلها، أيـن هـي؟ لمحـت منـارة ومنحنيـات قبـاب تحيطهـا، صـوت

المؤذن.. متى سمعته؟ "اللعنة!"، قالت في نفسها؛ فكل شيء قفز إلى عقلها فجأة، لقد سافرت في آخر لحظة إلى اللامكان، لقد كان يكفيها كي تغادر أثينا، ولا شيء آخر، فقد بدأت تشعر أنها قد لمست نهاية حدودها، دفعتها أمها تقريبًا نحو فحص الجوازات "اذهبي، سألحق بك في الرحلة التالية، لا تلغي رحلة كهذه، ستتعافَى إيفيلين، ما أصابها ليس سوى كدمة خفيفة...".

جلست على الأريكة العريضة في جناحها.. نعم، جناح في الأدوار الأخيرة للفندق، صارت أمُّها تعرف كيف تستمتع بحياتها، "الأمر يحتاج إلى الوقت"، هكذا قال الطبيب، كم من الوقت احتاجت أمُّها المسكينة؟ عيناها متورمتان من قلة النوم، مع الضحك والبكاء، شجارات وعناقات، من كتب هذا العمل؟ هكذا هي الحياة يا صغيرتي جيني، آه يا حبيبتي، لا تبكي؛ سيأتي أبوك، سترين، سوف يأتي...".

دخنت سيجارتها بشكل آلي حتى نهايتها وهي سارحة بعينيها خارج النافذة، شعرت بالحرارة المنعكسة على زجاج النافذة تتسلل إلى جلدها، الجو مختلف هنا، الحقيبة مفتوحة على أرضية الغرفة، أحرقت نار السيجارة أصابعها، أخرجت من الحقيبة بلوفرين صوفيين وبنطلون جينز، ربما ستحتاج ملابس أخف، أين ستجدها في هذه المدينة المجهولة؟ كل شيء يبدو لها كحمل ثقيل، مثل جبل يقف بينها وبين النافذة، جبل شاهق بعيد ووعر، كيف ستعبره؟

انتفضت جرَّاء سماع صوت هاتفها، ما زالت تنتظر أن تسمع صوته يقول لها: "صباح الخير يا حبيبتي إيفيغينيا..." دون جدوى! مرت شهور وستراتوس يحتفظ بمسافة مهنية ويُبقي عليها بينهما بإخلاص راهب، لم يخرق عهده ولو مرة، أين ذهبت تحيات ما قبل النوم والرسائل النصية الليلية؟ أين ضاعت الرقة من صوته؟ كيف اختفى من حياتها؟ ما زال الهاتف يدق في إصرار؛ ترددت للحظة، لكنَّ الضوء الأحمر للجهاز على الكومودينو أخرجها سريعًا من المعضلة، جاءها صوت ثانٍ ينبهها أن الوقت قد حان لتستيقظ، من أي حلم سيئ؟ كم ستدفع حتى يصبح كل هذا أضغاث أحلام؟ المرآة لا تردُّ عليها سوى بصورتها السيئة، منفوشة الشعر شاحبة الوجه تحتاج للاستحمام، تتذكر أنها قد تركت رسالة في الاستقبال من

أجل الشخص الذي ستقابله في دمشق، في الحادية عشرة والنصف، تود لو ذهبت للنوم مرة أخرى، لكن مفعول حبة الدواء قد بدأ في العمل والشمس راحت تغسل الغرفة؛ مما يمنعها من التقوقع تحت الأغطية مرة أخرى، صور لأجساد يغسلها عرق العشق تتمدد تحت الشراشف، أجساد تفوح منها رائحة العشق والإجهاد تخترق ذهنها، أفاقت بعض الشيء، لا بدَّ أن تتذكر اسم المرشد السياحي، ستذهب معه لتشتري بعض الملابس الخفيفة؛ بالتأكيد سيتحدث بلغة أهل البلد، وجدت في الحقيبة دوسيه المكتب السياحي الذي نظم الرحلة لأمها وصديقاتها، على الغلاف صورة لحصانين أسودين يتبختران في الصحراء، والفارسان فوقهما منحنيان للأمام يطاردان الشمس وهي في طريقها للغروب خلف أطلال المدينة العتيقة، على اليسار يوجد اسم المكتب السياحي، في الأسفل وبحروف تبدو وكأنها سطرت على رمال الصحراء، تقرأ عنوان الرحلة: "على أثر جاين ديجبي".

**فنجان القهوة** الثالث الذي يحتسيه منذ الصباح، قهوة عربية قوية بالهال، أخذ يلاحظ الحركة خلف النافذة الزجاجية المطلَّة على الشارع، لكن عقله كان منتبهًا نحو مدخل القاعة كي يستقبل زبونته الوحيدة، تحدث مع الموظف في اليونان كي يوضح له أبعاد الموقف، إحدى السيدات البريطانيات أصيبت في حادث في أثينا وحالتها لم تسمح لها بالسفر، السيدتان الأخريان بقيتا مؤقتًا هناك وسافرت السيدة رالي بدلًا منهما، ليس هناك برنامج محدد، لكن هذا يمكن تحديده بالمشاورة مع الزبونة الجديدة.

كان رومانوس يقوم بالرحلة المسماة على اسم جاين ديجبي بكل سرور وليس للمرة الأولى، فبجانب البعد التاريخي الهام كان هناك بعد آخر يخفف من إرهاق المسافة البعيدة، حالة من الرغبة، عطر امرأة مُسكر وشعور بالمرح اللعوب، غالبًا السياح -وبالأخص البريطانيون- قد قرؤوا عن حياة جاين العاصفة، وعن قصص عشقها وفضائحها، وعن زيجاتها الفاشلة وطلاقها، ذروة مغامرات حياتها كانت رحلتها إلى سوريا وقصة العشق مع الشيخ الميزراب البدوي، وكانت وقتئذٍ في سن اعتادت فيها سيدات بلادها أن يهجرن كل متع الحياة ويستسلمن للذبول في صالوناتهم الباردة التي لا تراها الشمس، كل السيَّاح تقريبًا -كانوا في سن ناضجة، على الأقل حتى الآن- أناسًا يجرؤون على تقفي أثر تلك المرأة الإنجليزية غريبة الأطوار، التي هجرت الأسرة الملكية في موناكو وأثينا كي تعيش حالة عشق مع رجل يصغرها سنًّا تحت سقف خيمة بدوية فوق الهضبة السورية الشاسعة، التفاصيل الشيقة التي تنفتح خلال الرحلة لا تغزل قصة حياتها شيئًا فشيئًا فقط، ولكن قصة المنطقة بأسرها على اتساعها، في اليونان والشرق الأوسط في منتصف القرن التاسع عشر.

قرأ رومانوس حياة جاين ديجبي، لكنه سمع الكثير عنه من أمه، كانت نادية مغرمة تمامًا بالشخصية الخاصة، تلك المرأة الأرستقراطية الإنجليزية، وبالحب الذي أظهرته لبدو الصحراء، وأيضًا لتمردها وللقيمة التي كانت تعطيها لقوة

مشاعرها، هـذا مـا كان يثيـر حمـاس رومانـوس، لماذا -فـي رأيه- لأن هـذه الأشـياء كانت تغيب عـن نسـاء هـذا العصـر؛ فهـن يبخلـن بالحـب والمشـاعر، أو -كمـا كان يقـول- يَبْقَيْـنَ دائمًـا على السـطح، وبهـذا فهـن ينزعـن عـن العلاقة الشـغف والحقيقـة، عندمـا كان يقوم بتلـك الرحلة كان يحـب دائمًـا أن "يلعـب" مـع الزبائـن، اللاتـي كن يكتشـفن من خـلال مغامرات جايـن وجهًا آخر لسـوريا وربمـا بعضًا مـن مشـاعرهن الخفية.

وقفـت جينـي عنـد مدخـل الصالـة الكبيـرة، راحـت تبحـث حولهـا عـن شـخص يبـدو أنـه ينتظرهـا، مـن المفتـرض أن يكون رجلًا داكن البشـرة بشـارب مثل أغلب الرجـال الذين كانوا على متـن الطائـرة فـي الليلـة الماضيـة ومثـل موظفـي المطـار خلـف نافـذة أختـام التأشـيرات، بعض الجالسـين هنـاك التفتـوا نحوهـا لبرهـة ثم عـادوا يتابعـون حواراتهـم وينفثون دخان سـجائرهم، ليـس هنـاك نسـاء فـي هـذه السـاعة فـي القاعـة غيـر موظفـة الاسـتقبال التـي اصطحبتهـا نحـو طاولـة بجـوار النافـذة حيـث يجلـس رومانـوس، الرجـل الشـاب رفـع عينيـه بنفس الدهشـة التي بـدت فـي عينيهـا، وقعت عيناه شـديدتا السـواد فـوق عينيها الباهتتيـن من فرط البـكاء، ما زالت الدهشـة تغمـر عيونهـم، بينمـا ارتسـم علـى أفواههـم تعبيـر بالشـك والريبـة لـم يختـفِ حتـى عندمـا امتـدت يداهمـا مـن أجـل مصافحـة ضرورية.

قال رومانوس وهو ينهض من مقعده:

- "السيدة رالي؟ مرحبًا!".

اسـتجابت جينـي لدهشـتها وسـمحت لهـا بالسـيطرة عليهـا، "الرجل يتحـدث اليونانيـة"، كان هـذا هـو أول شـيء تفكـر فيـه وهـي تنهـار علـى الأريكـة المقابلـة لـه، هـي فـي حاجـة، بل في أمـسِّ الحاجـة لفنجـان مـن القهـوة وسـيجارة، لحسـن الحـظ مـا زالـوا هنـا يدخنون فـي الأماكن الداخلية.

حـاول رومانـوس أن يستكشـف المـرأة التـي تجلـس علـى الجانـب الآخـر مـن الطاولـة، إنهـا أصغـر بكثيـر ممـا توقـع، وتبـدو مرهقـة مـن الرحلـة الليلـة، الكنـزة الصوفيـة التـي

ترتديها تبدو كبيرة على جسدها وتمنحها مظهرًا بوهيميًّا، وأنها -على ما يبدو- لم تُعِدّ نفسها لرحلة إلى سوريا على الإطلاق، وبالأخص لمسيرة جاين ديجبي، قاطعت أفكاره وطلبت منه بالإنجليزية أن يطلب لها قهوة الإسبريسو، عندما شرح لها أنه نصف يوناني، وأن بإمكانهما أن يتحدثا باليونانية، رأى ملامح وجهها تسترخي والتعبير المقتضب على فمها تحول على مضض إلى ابتسامة؛ رددت جيني:

- "ابن زواج مختلط؟".

فكرت في أنها كان من الممكن أن تكون هي -أيضًا- كذلك لو أن أمها قد أنجبتها من زواجها الثاني من رجل الأعمال الإنجليزي، الذي من أجله انتقلت للعيش في لندن، راحت تنظر إلى محاورها طيلة الوقت الذي كان يعطيها فيه تفاصيل عن الرحلة التي كان من المفترض أن تتبعها المجموعة، بالطبع قبل إصابة إيفيلين.

- "الليدي ديجبي بدأت رحلتها من أثينا نحو الشرق الأوسط، لهذا طلبت مرافقًا، ترجمانًا من أجل هذا النوع من الرحلات، عندما وصلت قابلت الشيخ ميتزول الميزراب، الذي ذهب بها إلى بالميرا، كان رجلًا ذكيًّا، شابًّا يقترب عمره من الثلاثين".

حاولت جيني متابعة حديث رومانوس، بدا عليها بوضوح أنها غير مهتمة برحلة المرأة الإنجليزية بشكل خاص، استوعبت القليل من تفاصيل برنامج الرحلة التي كان من المفترض أن تقوم بها المجموعة إلى بالميرا، سيرًا على أثر خُطَى ليدي سابقة عاشت في الصحراء بجوار قبيلة زوجها البدوي، فهم هذا رومانوس وسألها وهو ينحني ليشعل لها سيجارة:

- "ما الذي أتى بك إلى سوريا يا سيدة رالي؟".

أرادت أن تفاجئه، ولتقطع عليه سيل الثرثرة والهراء:

- "قصة حب فاشلة".

أول لحظة تشعر فيها بأنها تتسلى أو تقضي وقتًا ممتعًا منذ أن استيقظت

فـي هـذه المدينـة المجهولـة، والآن تجلـس وتحتسـي القهـوة مع رجـل غريب يحكـي لها قصص الحـب بالطريقـة التـي يرتلـون بها الأناشـيد في المـدارس الابتدائية، "لا بدَّ أن تسـخري من ذاتك، فهـي وسـيلة تسـاعد كثيـرًا، لا، لا يجـب أن تشـفقي علـى حالـك، السـخرية مـن النفـس تريـاق، جربـي"، آه لـو كان طبيبهـا النفسـي حاضرًا الآن ويشـاهدها!

تـرك رومانـوس عـود الثقـاب ينطفـئ بيـن أصابعه، "قصة حـب فاشـلة"، يا له مـن تطابق مع جايـن! هـذا لـو أن محاورته لا تسـخر منه.

قـرر أن يأخـذ الأمـور مـن منطلق ترفيهـي ويتركها تتطـور تلقائيًّا، هـي زبونته وسـتكون دائمًا علـى حـق، راح يتابـع حركاتهـا العصبيـة وهـي تدخـن غيـر محتملـة انتظـار قهوتهـا، عندما وصل النـادل أخيـرًا، كانـت جينـي قد أشـعلت بالفعـل سـيجارتها الثانية، بدأت تشـعر بالحر فـي كنزتها الصوفيـة وبالصمـت المفاجـئ للشـخص الـذي يجلـس أمامهـا، ربمـا يضايقهـا، تود أن تسـأله عن اسـمه؛ عـرَّف نفسـه علـى أنـه رومانـوس كافانداريـس، لكنهـا تفضِّل ألَّا توجه له أسـئلة شـخصية، هكـذا سـتلجأ إلـى الإنجليزيـة المجنونـة التـي بسـبب أمهـا وصديقاتها اللاتـي بـدأن رحلتهن من إنجلتـرا إلـى موناكـو ثـم أثينـا وكـن على وشـك الوصول إلى دمشـق ليلـة أمس.

- "كيف انتهت قصة جاين مع شيخها؟".

سـألت وقـد اكتشـفت فجـأة أن ثّمَّـة تشـابهًا بيـن اسـميهما، تحويـر بسـيط فـي اسـم جايـن يصبـح جيني.

لاحـظ رومانـوس شـيئًا مـن الريبـة يصحـب دائمًـا حديث مـن لا يعرفـون القصة بعمـق، لكن علـى عكـس الآخريـن، زبونتـه الجديـدة لا تشـكك في عشـق جاين للشـيخ، لكنها تشـير مباشـرة إلـى نهايـة ارتباطهمـا، لمـاذا كل هـذه المـرارة وكل هـذا التشـاؤم؟ كان بمقدورهـا أن تسـأل عن أمـور كثيـرة عـن علاقـة أرسـتقراطية أوربيـة برجـل بدوي! لكـن لماذا يجـب أن تكـون هناك ثمة نهاية؟

سألها وكأنه يعطي صوتًا لأفكاره:

- "لماذا يجب أن تكون هناك نهاية؟".

قالت وبدا في صوتها نبرة مشاكسة:

- "لماذا؟ لأن في قصص العشق الكبيرة دائمًا هناك نهاية، وأنانية كبيرة".

- "توفيت بعد إصابتها بالدوسنتاريا".

قال رومانوس محاولًا أن يستبق المرأة الشابة إذ إنه شك في رؤيته لموجة من الدموع تجاهد لتتكوم في عينيها، ونجح؛ إذ إنها راحت تتحدث بتهكم، حب كهذا ينتهي هكذا! بدأ الموضوع يعجبها.. هكذا؛ بالدوسنتاريا أفضل، فهكذا الفراق لا يؤلم، هذا أفضل من أن يفتح الآخَرُ الباب ويغادر، خطوات ستراتوس وهو يبتعد على الدرج وهي قابعة في الفراش الفارغ تعد الدقائق وتأمل في عودته، وأنَّ كل هذا كان محض مزحة.

أضاف رومانوس:

- "كانت تقترب من السادسة والسبعين".

ربما تفصيلة كهذه تجفف عينيها الممتلئتين.

سألت مندهشة، محاولة دون جدوى أن تمنع الموجة الثانية من الدموع:

- "هل كانا معًا حتى تلك اللحظة؟".

- "اصطحبها حتى المقبرة ممتطيًا فرح -مهرتها البيضاء المفضلة-".

يحاول جاهدًا أن يفتنها بمزيد من التفاصيل التي في الغالب تثير حماس زبائنه:

- "قبل أن تغرب الشمس بقليل، توقفت عربة أمام البيت، أحباء جاين وضعوا جثمانها على العربة، في الأمام كان الشيخ، يتبعه مجموعة من الفرسان في منظر مهيب، الموكب الصامت عبر جسر نهر بـرَدَى تحت باب توما[1]، بالضبط في المكان

1- باب توما: أحد أبواب مدينة دمشق القديمة، في سوريا، سمي باب توما بهذا الاسم نسبة للقديس توما أحد رسل المسيح الاثني عشر حيث كانت دمشق مقصدًا ومنطلقًا للرسل والقديسين على مر التاريخ، يقع باب توما في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة دمشق القديمة، بني أول مرة في عهد الرومان، وأعيد بناؤه في زمن الملك الناصر داود سنة 1228م.

الذي عبرت منه جاين لتصل إلى دمشق قبل سنوات طويلة، وآنذاك -أيضًا- في صحبة الميزراب».

تركت دموعها تسيل، اللعنة! ليعتقد السيد الحكاء الطروب ما يشاء، لكن قصة حب كهذه لا تحكى في الصباح الباكر.

سألته وهي تجفف وجنتيها بالمنشفة الكتانية للبار:

- «أهي مدفونة هنا؟».

- «نعم، في دمشق».

في الغالب يجيب عن السؤال على مقبرة جاين بأنها توجد في المقابر البروتستانتية، لكنَّ أحدًا من زبائنه كبار السن لم يطلب قطُّ أن يراها، الحالة النفسية لأناسٍ في هذا العمر ربما لا تسمح بمثل هذا النوع من الزيارات، وبالأخص بعد رحلة مرهقة لأيام، دائمًا كان يحب وتشغله فكرة أن يبدأ البرنامج بالعكس: رحلة مدام ديجبي الميزراب من النهاية إلى البداية، لكن، من يبدأ إجازته بزيارة للمقابر؟

قالت له باقتضاب مفاجئ مُغيرة الموضوع:

- «سأحتاج إلى ملابس أخرى، الجو حار هنا..».

فهمت أنها كانت سخيفة عندما انفجرت هكذا على نحو مفاجئ؛ كانت تواجه صعوبة في السيطرة على دموعها، تجاوز رومانوس ضعفها بتروٍّ ولياقة.

- «هذا أمر سهل، هنا في المنطقة الكثير من المحالِّ تفتح أبوابها في يوم الجمعة.. لكن، أرجوك، ما هو اسمك الأول؟».

قالت له مستمتعة بدهشته:

- «جيني، لكن إن أردت فاسمي هو إيفيغينيا».

"**أفضل أن أناديكِ إيفيغينيا**"، مال ستراتوس برأسه نحوها قائلًا تلك الكلمات، ربما لأنه أراد أن يقلل المسافة التي تفصله من الآن فصاعدًا مع مرؤوسته عندما يناديها باسمها الأول، المكتب الذي يفصلهما لم يكن عائقًا من أجل اقتراب لحظيّ، لكن دخول السكرتيرة كان يقطعه، بقيَ وجهه ساكنًا متجمدًا، لكنه عاد بجسده إلى مكانه الطبيعي على مقعد مكتبه المريح في مكتب المدير، في الفترة القصيرة التي عملت فيها جيني في مكتب دراسات الهندسة المعمارية لـ ستراتوس ويورغوس باناس استطاعت لفت انتباهه لمرات قليلة فقط، كانت لقاءاتهما تستغرق وقتًا قليلًا في قاعة الاجتماعات وفي حضور زملاء آخرين ودائمًا تحت ضغط زمني، جاءت إلى المكتب قبل ستة أشهر تتوق إلى أن تثبت نفسها، وأنها لم تحصل على الوظيفة بسبب علاقات والدها مع يورغوس باناس الأخ الأصغر والذي ينشغل بالعلاقات العامة للشركة. يورغوس باناس كانت تربطه علاقة بوالدها ميخاليس راليس - ممثل- الذي بعد أن مر بالمسرح استهلك موهبته في أفلام سينمائية مشكوك في جودتها، بعد ذلك انشغلت الصحافة بأخبار مغامراته وفضائحه العاطفية.

لا تذكر جيني الكثير عن حياتهما معًا، كانت صغيرة عندما انفصل أبواها، وبعد ذلك كانت ترى أباها على صفحات المجلات وفي السينما أكثر مما تراه في البيت، لم يكن أبًا حنونًا يأخذها في نزهات، ولم يحاول أبدًا أن تكون هناك علاقة أو ارتباط خاص مع ابنته، بالطبع في افتتاح أفلامه كانت تحصل على أفضل المقاعد في الصالة وتحظى بابتسامات ومداعبات أشخاص من الوسط الفني، مما كان يزيد إعجابها به، دائمًا كانت تشعر بالنقص وتشعر بالغيرة مع الأولاد الآخرين الذين كانوا يتمتعون بوجود الأبوين بالقرب منهم؛ لأنهم كانوا يعبرون عن إعجابهم بوالدها الجميل دون أن يشعروا بالنقص الذي تشعر به هي نظرًا لغيابه الدائم، هذه الغيرة صارت تكبر بالأخص عندما كانت ترى صوره على صفحات المجلات، كان ميخاليس دائمًا بين أحضان نساء فاتنات، أكثرهم من محيط عمله، صور لقطات من الأفلام أو لحظات خاصة، في حضن أبيها الذي تشتاق إليه، حضن أبيها البعيد والممنوع عليها تقريبًا، دائمًا ما يشغل هذا الحضن امرأة أخرى، غريبة أو غريمة!

"لحسـن الحـظ لـم ترث شـيئًا مـن صفات المحـروس المدلـل..."، سـمعت جدتها تقـول ذات مـرة، السـيدة العجـوز لم تكن تعنـي بالطبع ملامح زوج ابنتها السـابق، بالتأكيـد، فجيني الصغيرة لـم تكـن تحظى بوجه جميل ولا بابتسـامة سـاحرة تخلب لـب المعجبات، ولا بطـول فارع، كانت تشـير بمـا تقولـه أكثـر نحـو شـخصيته المهـزوزة وعـدم نضجه، وكمـا كانـت جيني طفلـة هادئة ودءوبـة، كانـت الجـدة تشـكر الـرب أن الشـر قـد انـزاح من بيتهـم؛ يكفـي أن ابنتها عانـت كثيرًا، ما ذنـب الطفلـة الصغيرة؟

آه! أمُّهـا، أماليّـا خاروبولـو، تلـك التعيسـة المحظوظـة، كان بيـن يديهـا أحـد نجـوم السـينما وفقدتـه.. كيـف يُسـمَّى هـذا؟ لعنـت حظهـا، ألْسِـنةُ النميمـة كانـت تقـول إن أماليّـا لـم تفقـد نجمهـا فقـط، ولكنهـا فقـدت قـدرًا لا بـأس بـه مـن كيانهـا ووجودهـا؛ لأنهـا عندمـا تزوجـت الممثـل الواعـد دفعـت قربانًـا للفـن السـابع، ثمنًـا لا بـاس بـه بقيمـة إحـدى أهـم البنايـات في وسـط أثنيـا، هـذا بخـلاف نفقـات الـزواج والمعيشـة في الفـترة التـي عاشـاها معًـا، لكـن كيـف تحتفـظ بـرالي بالقـرب منهـا، بـكل هـذه النرجسـية الذكوريـة، وهـي امـرأة لا تملـك الحضـور الـبراق، وفي مـا بعـد، ولا حتـى الشـباب الـذي كانـت تتمتـع بـه النسـاء الـلاتي يشـاركنه بطولة أفلامـه؟ إن أماليّـا؛ وبالرغـم مـن اسـمها الملـكي -التعليـم الرفيـع والجـمال العـادي- لم تكـن تحظـى بـشيء مـن الـذي يُفـتَن بـه ميخاليـس راليـس؛ لـذا كان الكثـيرون مـن محيطهـا ومـن الوسـط الفنـي يعلقـون عـن الـزواج غـير المناسـب والكثـيرون منهـم يتنبـأ بانهيـاره الوشـيك، "ضاعـت البنـت..."، كان يقـول الشـامتون، كان مـن الممكـن أن تتجـه حياتهـا منحـىً آخـر، امـرأة ضئيلـة الحجـم، لا يعلـو جسـدها أي فتنـة مثـيرة، كانـت عـلى العكـس تمامًـا مـن صورة زوجهـا الاجتماعيـة، العديـد مـن منتجـي السـينما كانـوا يراهنـون على عـدم تجانـس الزوجين، كانـوا يجـزون عـلى ألسـنتهم ويسـألون نفـس السـؤال الـذي كان يعـذب الجميـع: "مـاذا وجد في هـذه المـرأة؟"، بالتأكيـد في البدايـة شـعر الرجـل بالإطـراء مـن حـب أماليّا الأرسـتقراطية له، لكـن عـلى كل حـال لم يكـن سـوى رجل وسـيم يبيع ابتسـامته للكامـيرا وروحه للشـيطان، فقير ووسـيم، فُـتن بوجودهـا وحبهـا، وفي النهايـة اسـتراح بالاحتـمال الـذي أظهرتـه له زوجتـه نحوه ونحـو ظروفـه، حتـى ابنتهـما، التـي جاءت للحيـاة بعد أن دبَّـت الأزمة بينهما، بـدا وكأن وجود

الطفلة سوف يعطي مهلة وفرصة أخرى لزواجهما، لكن سلوك ميخاليس الأرعن دفع أماليّا أن تطلب الطلاق كي تنقذ ما تبقي من كبريائها وثروة عائلتها، لبعض من الوقت كان الجميع يعيش على أصداء هذا الطلاق، وكانت جيني في المنتصف، في قلب ساحة الحرب التي اندلعت، ليس من أجلها هي، ولكن من أجل تفاصيل ثروتهم، أوقات سيئة.

تمر الآن جيني بأوقات سيئة، آخر علاقة لها انهارت تمامًا بمشهد سيئ في بيتها، مثل تلك المشاهد السيئة التي كان يلعب والدها بطولتها، الزوجة، الزوج الخائن والعشيقة، فيلم رأت مشاهده مرارًا وتكرارًا، إلا أنها في هذه المرة تلعبه هي، في الحقيقة! عندما ذهبت إلى المكتب في أول مرة، انتبهت إلى الأخ باناس الأصغر، رياضي بسلوك مهذب يعجب الإناث ويتمتع بثقة بالغة بالنفس، كان يترك خلفه ذيلًا من النجاحات من هذا النوع، لم تجرؤ أن تقوم معه ولو بمحاولة صغيرة، فقد كان الفشل مؤكدًا لا محالة، يورغوس باناس ينتمي لنفس نوعية أبيها، كانت له معايير من الطراز الأول، بالأخص في ما يخص مظهر النساء اللاتي يكّن بصحبته، كانت جيني في حالة بحث عن رفيق، وهذا يعني مغازلة، رفقة وثرثرة وعلاقات مؤقتة تستغرق بضعة أسابيع، بعد ذلك، الفراغ واللامبالاة التي تستمر لوقت مماثل أو ربما أكثر على حسب نوعية الرجل.. عمّ كانت تبحث؟ بالتأكيد عن الأمان الذي حرمت منه إزاء طلاق أبويها، كانت تتطلع إلى السعادة، وهو المفهوم الذي كان مجهولًا بالنسبة لها؛ إذ لم يكن لديها نموذج تطابق عليه أو تقارن من خلاله، هكذا كانت تستهلك نفسها في مطاردة كل فرصة جديدة على أمل أن تكون هذه المرة أكثر نجاحًا من المرة السابقة، عمومًا لم تكن تذكر أي فترة من حياتها كانت تشعر فيها بسعادة خاصة، دائمًا ما كان يحدث شيء ما، باستثناء العام الذي التحقت فيه بكلية الهندسة.

كانت تعتقد حينها أن ثمة شيئًا سيتغير، لكن نجاحها مرَّ عابرًا على أبيها وأمها على السواء، وكانت تلك الفترة التي تستعد فيها أمها للزواج من رجل الأعمال البريطاني، صارت أماليّا في الخمسين من عمرها، وها هي تبدأ حياة جديدة، وكانت تعتقد أن دخول جيني إلى كلية الهندسة كان أفضل فأل حسن يمكن أن

يغير المشهد الجاري في أثينا، بابنة صارت طالبة جامعية تستطيع الآن أن تنتقل للعيش في لندن دون أي تردد أو شعور بالذنب، وهكذا تركت جيني خلفها.

حينها أقامت جيني علاقة مع أحد زملاء أبيها، سقطت حرفيًا في أحضانه، كان مجرد ممثل فاشل دخل في مرحلة يراقب فيها تزايد تجاعيد وجهه وفقدان خصلات شعره من على جبهته برعب شديد، وجد في عيني جيني البريئتين كل الإعجاب الذي كانت تخزنه لأبيها، بعد سنتين، انتهت قصة الحب، لقبها وعلاقتها منحا مجلات النميمة وقودًا للكتابة، فكانوا يعلقون على فرق السن بينهما، وبالطبع بعبارات شامتة ومهينة من نوعية: "ماذا وجد في هذه المخلوقة البائسة عديمة الطعم؟ ليس هناك ما يميزها سوى اسم والدها المشهور!"، آلمها كثيرًا هذا الأمر، دموع ويأس ورفض والدها لها الذي رفع صوته وأصبعه في وجهها: "مع من تورطتِ؟ ممثل رديء لا يساوي شيئًا!".

منذ ذلك الحين صارت اختياراتها سلسلة من الفشل والإخفاقات، ربما تركت نفسها ليتم اختيارها، كانت تعطي الانطباع أنها متاحة، على استعداد دائم لكل شيء، عندما ترملت أماليّا من زوجها البريطاني؛ تذكرت ابنتها التي تركتها في أثينا، التحول الذي حدث في الحياة الشخصية للفتاة أثار قلقها، فقد عانت هي كثيرًا حتى خرجت من مسار صداماتها الداخلية، كانت تتعرف في شخص جيني على شبابها الفاشل، بالطبع الآن معنوياتها مرتفعة للغاية، فهي الآن ليس لها أي علاقة بزوجة ميخاليس راليس الفاترة غير المرئية، هرعت لطلب العون من التحليل النفسي وجراحة التجميل فصارت شخصًا آخر، فالمزج بينهما صنع معجزات، عندما عادت إلى أثينا لم يعرفها أحد فتبدل كل شيء، كما حدث مع العلاقة التي أقامتها ابنتها مع أستاذها في كلية الهندسة، "يا أمي، سينفصل عن زوجته! لقد وعد بذلك.."، إصرار الصغيرة وسذاجتها كان يثير غضب أماليّا، جرجرت جيني حرفيًا التي كانت تذوب عشقًا في أستاذها إلى أريكة المحلل النفسي، الحالة واضحة جلية: عقدة أوديب، عدم الشعور بالأمان، الإحساس الدائم بالرفض، رغبة في تدمير الذات، المسار نحو الوعي بالذات كان بطيئًا ومؤلمًا، فقد كانت تصر أن تبحث في كل رجل يقترب منها عن نموذج الأب، الأستاذ بالطبع لم يهجر زوجته،

انتقلت جيني إلى جوار أمها في لندن وكرّست حياتها للدراسات العليا وعلاقة مع بلجيكي من عمرها كان يدرس للحصول على شهادة الدكتوراه من الجامعة نفسها، "أخيرًا سترى ماذا يعني عشق الشباب.. يا لها من فتاة حمقاء تبحث دائمًا عن العجائز!"، كانت صديقات أماليّا يقلن بارتياح.

عندما عاد البلجيكي إلى الضفة الأخرى من المانش ووضع نهاية لعلاقتهما، انهارت جيني لمرة أخرى، قصة حب فاترة، ودموع حارقة، أرسلتها جيني إلى أثينا وطلبت المساعدة من زوجها السابق، وبهذه الطريقة وبواسطة ميخاليس وجدت جيني نفسها في شركة عائلة باناس.

تأقلمت مع إيقاع أثينا دون أي صعوبات، لكن حالتها النفسية ظلت سيئة، انعكاس الشك والحزن المطبوعين على وجهها كانا يلفظان العشاق المحتملين من حولها، اهتمام ستراتوس المفاجئ رفع من روحها المعنوية، كانت في حاجة إلى ذلك، سنُّه ومركزه أشعراها بشيء من الإطراء، فقد كانت فتيات أخريات في الشركة غير مرتبطات أو ليس لديهن تحفظات ليثرن رغبة رجل مثل ستراتوس في الستين من عمره، لكن الأهم أنه كانت هناك السيدة باناس، امرأة فاتنة تنبض بالحياة، هي مركز حياته، كان زواجهما يمتد لعقود، خلاصة الإرهاق والملل بالنسبة لآخرين كان نتاج السنوات والحب، على كل حال، كان الجميع يلاحظ في السيدة باناس قدرًا من النرجسية والريبة، كانت امرأة شبعَى، حتى أن الطريقة التي كانت تلقي بها التحية كانت تدلل على هذا الشبع، كانت تمثل تحديًا للعوز العاطفي لكل من حولها، وجدت جيني فيها المنافس المثالي الذي كانت تبحث عنه في كل علاقة، منذ تلك اللحظة بدأت تسعى إلى تواصل أكثر مع "الرجل الأول" كما كانوا يطلقون عليه في الشركة، لم تنشغل على الإطلاق بالسبب المفاجئ لهذا الاهتمام المفاجئ الذي أظهره نحوها، كانت الفكرة في أنه يغازلها تعزز من ثقتها وترفع معنوياتها، كلماتها وإيماءاتها لم تكن تترك أي احتمال لمعنى آخر، كانت تفتح أمامه الطريق وتكسر أي حاجز أو شبح للتردد.

قال لها ذات ظهيرة كاسرًا بذلك جليد الحواجز بينهما، على الأقل من جانبه:

- "ألمح مسحة حزن على وجهك".

حينها بدأت تحدثه عن شعورها بالوحدة، وعن مشاكل حياتها الشخصية واحتياجها لعلاقة؛ قال ستراتوس متسائلًا:

- "وكل الوسط الفني حولك..".

وكان يعني الأجواء السينمائية التي ورثتها عن والدها؛ عارضته جيني بشكواها محطمة مقاومته أكثر فأكثر:

- "مرت شهور ولم أذهب للسينما".

ذهبَا إلى عرض سينمائي مسائي في حي باجراتي، بعيدًا عن وسط المدينة كي يتجنبا نظرات الفضول، لم تعد تذكر الفيلم الذي شاهداه، كان يكفيها أن ستراتوس قد ترك مكتبه مبكرًا، لكنه لم يعد إلى بيته، خضوع مرن، تذبذب واعد.

همست في أذنه داخل قاعة السينما:

- "أشعر بالذنب لأنني أبعدتك عن عائلتك في ساعة كهذه ، لكنني ممتنَّة لحضرتك".. تواطؤ ضمني، على شاشة عقلها ولجزيئات من الثانية أومضت صورة مارا وأولاده، صوت جيني يهمس في أذنه والنشوة الصغيرة التي شعر بها بتغيير برنامجه اليومي كانا بمثابة تبرير كافٍ على فعلته، ففي نهاية الأمر ما الذي فعله؟ لقد ذهب إلى السينما فقط، في تلك الساعة كانت مارا دائمًا غير موجودة بالبيت، وأولاده كانوا إما في دروسهم أو في الجامعة، غاص في أريكته المخملية وفي الشعور الغريب الذي تسببه له تلك المرأة الشابة، ما الذي جذبه إليها؟ ليس بها أي شيء مميز، ربما على العكس كما يعتقد، فهي ليست حتى بالطويلة، وليس لها ملامح مميزة، ربما عيناها الزرقاوان الحزينتان، ذلك التخلي.. في هذا العمر! بكم سنة يكبرها؟ ربما ثلاثون، هو عدد السنوات التي قضاها مع مارا، بدأ يعقد حساباته متجاهلًا حبكة الفيلم، وضع تاريخ ميلادها بين سنوات زواجه ومولد ابنه الصغير عندما كانت هي في المرحلة الثانوية، بالتأكيد نظريًّا فقط كما هو دائمًا، كان يمكن أن تكون ابنته.

عندما انتهى الفيلم تعجل أن يضعها في سيارة تاكسي ويعود هو إلى المكتب، لمحت جيني ظلال تلك الأفكار في عينيه فور أن أضاءت أنوار قاعة السينما، الشعور بالذنب يرفرف، الإحساس التآمري الذي كان يربطهما وهما يشتريان بطاقات السينما كشفتْهما، لم تجزع على الإطلاق، فلم تكن المرة الأولى في كل الأحوال، حيته بامتنان وشكرته على الساعتين اللتين قضياهما معًا وأرسلت شكرًا على نحو غير مباشر لزوجته في إطار العمل، رفعًا للحرج وتعديلًا للوضع، بشكل مؤقت.

ليومين أو ثلاثة حاولت جاهدة أن تبتعد عن مرمى بصره؛ اختارت بعناية الطريقة الناعمة الهادئة التي ستوقعه بها في شباكها ببطء، من خبرتها فهمت أن ستراتوس هو رجل لا يبحث عن بدائل ليشعر بذاته، مغازلته كانت دائمًا ناعمة وأنيقة لا تضايق أبدًا، لم تلمح أبدًا في نظراته أو إيماءاته أي نوع من الهياج أو العجلة، سألت زملاء آخرين بشكل غير مباشر عن طريقته في الشركة في ما سبق قبل مجيئها، لم يعطِ أبدًا أي فرصة كي يُسمع أي شيء عنه، ستراتوس ومارا كانا نموذجًا للزواج المثالي، شجعها هذا أكثر أن تستمر في حصاره، سوف تجد الفرصة -ذات مرة- أن تقتحم قلعته، ستكون البوابة ذات مرة بلا حراسة، حينها ستهجم، هذه الضعيفة بلا معنى، جيني الصغيرة، ستهجم متسللة إلى الداخل، ستحطم الجدران، ستنهار أمام سعادتها، ستتألم مجددًا، لكنها لن تكون وحدها.

في اللقاء التالي لكل الزملاء، والذي تم قبل أن يغادر ستراتوس في رحلة عمل لخمسة أيام، دخلت جيني إلى قاعة الاجتماعات متأخرة، دخلت إلى الحمام قبل قليل وأغلقت على نفسها وقطرت في عينيها قطرات من سائل طبيعي، من موقعه كمدير، انتبه ستراتوس إلى عينيها الحمراوين، عندما عاد من رحلته طلبها للحضور إلى مكتبه وأهداها منديلًا حريريًّا زبرجديَّ اللون، "لونه يليق بلون عينيكِ"، قال لها هذا التعليق العادي، وفهمت جيني أن مسألة اقتحامها لبوابة القلعة صار وشيكًا.

**من أحد المحلات بجوار الفندق** الذي يبيع المنتجات الأوربية بشكل أساسي، اشتريا بلوزتين وقميصًا.

- "إن دمشق مبنية على هضبة ترتفع ثمانمائة وخمسين مترًا، الجو اليوم حار، لكن الهواء يأتي باردًا في الليل"، قال لها رومانوس: "سوف تحتاجين إلى بنطلون مريح، من أجل الجمال"، أكمل وهو ينظر إليها بتساؤل: "ووشاح رقيق من أجل تراب الصحراء".

بدأت جيني تشعر بالبهجة، نزعت عنها البلوفر الصوف وشعورها بالنسيم الخفيف على جسدها بدَّل من مزاجها، بعد صلاة الظهر بدأت الناس تملأ الأرصفة على استحياء وبدأت المحالُّ تفتح شيئًا فشيئًا في الشوارع الرئيسة، في المقاهي المكشوفة كان الصبية والبنات يحتسون القهوة تحت أشعة الشمس، بينما أمهات شابات بأوشحة مربوطة بذوق على رؤوسهن يدفعن عربات أطفالهن ويزنَّ خطواتهن فوق الكعوب العالية، أما الرجال فلا يتركون امرأة دون أن يأكلوها بنظراتهم بالمعنى الحرفي للكلمة.

تلاحظ جيني المنارات السامقة بين بنايات رمادية من القرن السابق، تحاول أن تنقذ شيئًا من مجد قد مضى، نوافذ مفتوحة وشرفات منحنية، متشابكة مع بنايات جديدة وقبيحة تشي بمواد رخيصة وذوق متدنٍّ.

قالت له: "أنا مهندسة معمارية".

لم يفوّت رومانوس الفرصة كي يفسر لها وجود هذا العدد الكبير من البنايات التي تحمل عناصر من الطراز الأوربي، احتلال البلاد لستة وعشرين سنة من قِبَل الفرنسيين بأمر من الحلفاء تركت خلفها ذكريات سيئة، آه! اللغة الفرنسية كانت اللغة الثانية للأجيال السابقة.

- "أمي تخرجت من المدرسة الفرنسية".

علقت جيني وقد انقلب مزاجها وهي تتذكر المحاولات الدءوبة لأماليّا كي تعلمها اللغة الفرنسية في سن كبيرة.

لم يذكر هو أن أمه -أيضًا- قد تخرجت في نفس المدرسة، من مبادئ شركتهم عدم التدخل في الشؤون الخاصة.

تساءلت جيني وهي تغير الموضوع:

- "لماذا يهملون منازلهم هكذا؟".

أجابها بشيء من الحزن:

- "هذا بسبب نقص في المال أو الذوق".

هو نفسه عندما يأتي إلى دمشق يشعر بالحزن عندما ينظر إلى اهتراء تلك البنايات من عصر الوصاية الفرنسية، ويغضب من ذلك الطراز المعماري الذي استخدمه الحلفاء السوفييت لجيش الأسد في السبعينيات، ليس لديه مبرر للعشوائية التي بنيت بها البيوت الجديدة، ولا الوقاحة التي أزالوا بها الواحة التي كانت تحيط بالمدينة، الآن نفس المدينة تحشر الملايين من سكانها في شوارع ضيقة وبنايات أسمنتية، يومًا بعد يوم تأكل ما تبقي من تلك الجنة الضائعة.

قال لها:

- "كانت دمشق تسمى بـ "لؤلؤة الصحراء"، الحدائق والبيوت والمنارات محاصرة بجدران المدينة، هذه الجنة كانت أول ما رأت عينا جاين، وهذا المنظر سيعلَق في ذاكرتها للأبد، هذه المدينة، ضائعة داخل الواحة، رآها النبي من بعيد، لكنه أبَى أن يقترب، هذه الجنة الأرضية كان بوسعها الانتظار، كان محمد مكلفًا كي يحظى أولًا بالجنة السماوية، وبفضله اجتاحت الجيوش العربية واحتلت الأراضي السورية البيزنطية التي كانت تئن تحت وطأة حكم القسطنطينية، في هذا الإقليم النائي كان الهراطقة والنسطوريون والمونوفيزيون وثوار من الأقاليم ضد ضوابط المجمعات المسكونية، رأوا عرب الوليد كمحررين والنبيل المسيحي بن صيرون، جد يوحنا الدمشقي، يتولى التفاوض من أجل تسليم دمشق، وضع الفاتحون أول بذرة للتسامح الديني الذي ما زال يثمر حتى اليوم في سوريا، صفوا جيوشهم على حدود المدينة ونَصَّبوا البابا يوحنا الدمشقي وزيرًا، في قلب المدينة

وبجوار كنيسة يوحنا المعمدان، بنوا مسجدًا بسيطًا صغيرًا، لسنوات طويلة بقي المسيحيون والمسلمون يعبدون ربهم مارين أولًا من نفس الفناء".

قالت له مستغلة لحظة صمت فيها:

- "أنت تحكي بشكل شيق".

أجابها وهو يفرد ذراعيه محاولًا أن يبين مدى اتساع البقعة المشتركة التي يعيش عليها الشعبان:

- "لقد درست التاريخ في لندن، يستهويني منذ كنت طفلًا صغيرًا، عندما يكون المرء يونانيًّا سوريًّا، لا يدري من أن يبدأ".

اختياره لدراسة التاريخ كان نتيجة لهويته المزدوجة، لكنها كانت تتطلب تناولًا مختلفًا للتاريخ، تحليلًا جديدًا لعناصره، فحياد المؤرخ ما هو إلا وَهْم، كل تحليل تاريخي له مؤرخه، الحقيقة لا تُدَرَّس، تنكشف لهؤلاء الذي يقرؤون التاريخ من زوايا مختلفة.

رفعت جيني كتفيها، لم يكن لديها أي فكرة عن سوريا حتى قبل أمس، علاقتها بالتاريخ انتهت مع انتهاء المدرسة، وكان اهتمامها وحبها للرياضيات يعطيها امتيازًا أمام هؤلاء الشغوفين باللغات والعلوم النظرية، لو لم تكسر إيفيلين ساقها، كان يمكن ألا تكون هنا، في هذا المكان، حيث الناس يتكلمون لغة حادة تقريبًا، والهواء يتذبذب وصوت المؤذن كل أربع ساعات، يثير الرجال هنا استغرابها حيث يسيرون مشبكي الأيادي، والفتيات اللاتي يرتدين ملابس عصرية ويربطن الوشاح على رؤوسهن، تتساءل عن الصور الضخمة لاثنين من الرجال مرفوعة في الميادين وعلى البنايات والأعمدة، معًا أو كل على حدة، ملامحهما تبدو متشابهة، وفي الوقت نفسه لا يشبهان بعضهما، وبالأخص في الطريقة التي ينظران بها إلى من يشاهدهما، الرجل الأكبر تعلو وجهه ابتسامة طفيفة وينظر بحنو إلى الأمام، إلى الناس، الشاب الآخر، يركز نظرته في المدى بعيدًا عن البشر، بعيدًا في الأفق كأنه يرى شيئًا في العمق يأتي فوقهم، شيئًا لا يعرفونه، تذكرت جيني بعض الأفلام

التـي شـاهدت فيهـا مثـل هذه الصور تنزع مـن مكانها عندما تسـقط الأنظمة في أوربا الشـرقية، أفيـش ضخـم لأبيها ينـزل من على واجهة المسـرح مع أحد أعماله الفاشـلة.

- "هل النظام هنا شيوعي؟".

سـألت، ربمـا بتـردد؛ لأنهـا بسـؤال كهذا قـد يتضح مـدى جهلهـا بالبـلاد، وعلى العكـس تمامًا ممـا توقعـت، فلـم تتلـقَّ أي ابتسـامة سـاخرة، تـردد رومانـوس قليلًا قبـل أن يبدأ في دائرة شـرح جديـدة بهـذا المحتـوى، إن السياسـة مثـل الرمـال المتحركـة، ومـاذا يقـول عـن هـذا العصـر؟ إن العالـم العربـي يترنـح، تنهـار أنظمـة فـي غضـون أيـام وزعماؤهـا يخنقـون الثـورة في الدمـاء أو يهربـون كاللصـوص، ليبيـا تمزقهـا الحـرب الأهلية، وفي مصـر يغزلون الأمل من أجـل حياة أفضل، الحكومـات المسـتبدة تدفـع ديونهـا واحدة تلـو الأخرى.

عندمـا يكـون زبائنـه مرتابيـن وعلـى علـم بالوضـع السياسـي فـي المنطقـة، يتطـور الحـوار بشـكل أفضـل، إن الشـرق الأوسـط جمـرة تحتـرق ببطء، توازنـات دقيقـة، تحالفات هشـة، عداء، كراهيـة ودم، دمـاء ولاجئـون، كثيـر مـن اللاجئيـن! سـمة أخـرى مشـتركة بيـن الوطنيـن، أنـاس متألمـون لرحيلهـم، وآخـرون متألمـون لمجيئهـم يحاولـون أن يضربـوا جذورهـم فـي الموطـن الجديـد، إلـى هنـا وصـل المسـيحيون الفـارون لينجـوا بحياتهـم مـن أتاتـورك، الفلسـطينيون مـن أجـل أن يجـدوا ركنًـا مضيافًـا بعيـدًا عـن سـفك الدمـاء والتضحيـات البشـرية فـي غـزة، وقبـل قليـل كان العراقيـون يفـرون إليهـا هروبًـا مـن جحيـم بغـداد، ولـو أن لورانـس العـرب دفـع بـدو الصحـراء ليطلبـوا حريتهـم مـن العثمانييـن؛ لـكان الإنجليـز والفرنسـيون هـم مـن مزقـوا حلـم سـوريا الكبيـرة، رسـموا علـى الخريطـة لبنـان وإسـرائيل، بينمـا أهـدوا الإسـكندرونة والأناضـول إلـى الأتـراك، أخيـرًا الاسـتقلال، فـي نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، بحثـت سـوريا فـي هـذا المحيـط العدائـي عـن الحلـف الـذي سيؤمِّـن لهـا التقـدم، المهزومـون فـي حـرب فلسـطين، ظهـر الضبـاط لأول مـرة فـي المشـهد السياسـي يحلمـون ببلدهـم فـي مركـز حركـة عربيـة عامـة، سـوريا ومصـر امتزجـت أنفاسـهما، قامـا بوحـدة لـم تحتمـل كثيـرًا، كانـت سـوريا دائمًـا دولـة بـلا نظـام فعلـي، كانـت فـي حاجـة إلـى قواعـد لـم تكـن تملكهـا وكانـت أشـبه

بقدر يغلي على وشك الانفجار، حرب الجولان فتحت غطاء القدر الذي كان يغلي منذ زمن فانفجر من داخله كل الفخر المجروح لشعب لم يعرف سوى الهزائم منذ بدايات القرن، الضباط القوميون تولوا زمام السلطة، والقائد الشاب الأسد الذي كان يبلغ من العمر أربعين عامًا فقط، وهو من منطقة اللاذقية العتيقة، أمسك بزمام السلطة بقوة لثلاثين عامًا، حتى نقلها إلى ولده الثاني.

- "وماذا عن الابن الأول؟".

سالت جيني وهي تطرد من ذهنها الأخوين باناس، ملمح لا تستطيع الهروب منه، كم من المرات يأتي ستراتوس إلى ذهنها؟ ولكم من الزمن سيظل يحدث هذا؟

- "لقد لقي حتفه في حادث سيارة، السيارة تحطمت تمامًا".

لا تحب مثل تلك القصص؛ لأنها تتحاشى السياسة، جيلها أصابه القرف من الثرثرة حول ثورة مجمع العلوم[1]، رأت أبطال تلك الليلة يرتدون الحُلل الثمينة وينطقون بلسان السلطة بنفس كفاءة السابقين، وكلهم معًا تثقلهم الفضائح الاقتصادية ويجمعهم الإفلات من العقاب.

وُلدت جيني بعد فترة الديكتاتورية العسكرية واجتياح الأتراك لقبرص، في الثمانينيات حيث تبدأ ذاكرتها، في الوقت الذي كانت فيه الديمقراطية الشابة تحاول أن تزن خطواتها الأولى والاشتراكية تجتاح البرلمان، طلاق أبويها الذي حطم حياتها الهشة، لم تدرك أنه على هذا الطرف من الخريطة كانت تهب آنذاك رياح نوع آخر من الاشتراكية، بينما كانت هي تلعق جروحها، الألعاب التي كانت تدور في الشرق الأوسط كانت تلتهم نشرة الأخبار كاملة في التلفاز، كان دق بيروت بالمدافع ينقل على الهواء مباشرة، ونساء وأطفال فلسطين يرسلون يأس الحرب في كل بيت، والعراق تحترق مثل روما نيرون... لا، لا تعرف شيئًا عن الشباب الذين تقابلهم في الشارع يسيرون مشبكين أذرعهم، ولا عن الفتيات اللاتي يربطن رؤوسهن بأوشحة بيضاء ويسرن بكل هذه الثقة، لكنَّ إحساسًا جميلًا يغمرها

1- ثورة مجمع العلوم أو الهندسة، أو ما تسمى بانتفاضة الطلاب في سبعينيات القرن العشرين على الحكم العسكري الديكتاتوري في اليونان.

عندما تقابلهن في الشارع، لا تشعر بأي ارتباك، أو غضب، في بلد مسلم ما هو وضع النساء اللاتي يقمن بالمغازلة ويدخنَّ النرجيلة في المقاهي ويكشفن عن أذرعهن في الشمس؟ وجاين ديجبي؟

- لماذا جاءت جاين ديجبي إلى دمشق؟

- كانت تطاردها قصة حب فاشلة، أشباح الماضي والحب الضائع.

كانت جاين قد تبعت عشيقها فيليكس إلى أوربا وعاشت في الظل في باريس، بعد ذلك استقرت في موناكو تنتظر عشيقها دون جدوى كي ينتقل إلى العاصمة البافارية، هناك تعرفت على الملك الألماني لودوفيك، الذي انبهر بجمالها وشخصيتها، كانت علاقتهما مليئة بالرقة والحب معًا، منح جاين الحماية وصداقة لا تقدر بثمن في الفترة التي كانت تصدق فيها وعود فيليكس الواهية، وفي النهاية، وبعد توجيهات من الملك، تزوجت البارون فون فينينجين، واضعة النهاية لقصة العشق التي كلفتها النفي؛ لكن الريف الألماني صار أنشوطة، ولم تلبث المقاومة التي لم تتأخر مرة أخرى، واندلعت القلاقل، وضعت نصب أعينها أحد النبلاء اليونانيين وأحضان البحر الدافئة.

الكونت سبيروس ثيوتوكيس، طموح ومفلس نصب شِراكه حولها وغاص كلاهما في البحر، جددتها أمواج البحر الأيوني وبحر إيجة قوَّاها، وصلت جاين إلى أثينا، حيث كان ابن عشيقها السابق، أوثوناس الشاب يحاول أن يفرض النظام في بلد تسوده الفوضى وصار مملكة لتوه، المعماريون الفافاريون كانوا قد صمموا الشوارع والقصور كي يغيروا من منظر هذه القرية البائسة، الشيء الوحيد الذي كان بقي من التاريخ العتيق كان اسم الأكروبول، إكليل مرمري، جوهرة فريدة، كسبت جاين قلب وثقة الملك أوثوناس وأثارت غضب الملكة أماليّا، فقد كان صيت قصص حب الليدي السابقة قد وصلت حتى الأبواب المغلقة واشتهرت فضائحها، تعرفت في البلاط الملكي على خريستوذولوس خادزيتروس، كان زعيم المسلحين وشخصية مثيرة للجدل، كان يؤجر للقصر خدماته العسكرية، نظير فرض الأمن والحماية في الشوارع الخطرة في المدينة اليونانية الصغيرة، كان خادزيبتروس

يمارس تأثيره على الملكة أماليّا الشابة التي نصبته ضابطًا بسرعة وعبرت فتنته وجاذبيته حدود البلاط الملكي. طلاق جاين من سبيروس ثيوتوكيس وفقدان ابنهما في الخامسة من عمره أغرقاها في الحزن والألم حتى وجدت مواساة بين الأحضان الناضجة لخادزيبتروس، كان رجلًا طويل القامة، وسيمًا، في الستين من عمره، يتمتع بخفة ظل وثقة بالنفس، سعدت جاين بحبه لها، دون أن تعطي أي أهمية لدائرة المجتمع الضيقة في العاصمة، في السادسة والأربعين من عمرها ولم تزل جميلة، ثرية وفارسة مدهشة، تثير إعجاب الجميع وغيرة الملكة، وأخيرًا وبعد تجوال طويل وجدت ميناءها وألقت بنفسها بين أحضان الرجل الناضج الذي كان يحبها ويرغب في الزواج منها، صار خريستوذولوس هو كل حياتها، وكما كانت العادة، عندما تعشق، لم تكن تعطي أهمية لأحد.

- «كان الأمر جميلًا كي يكون حقيقيًّا».

رددت جيني وهي مأخوذة بالحكاية، وتحاول في الوقت نفسه أن تطرد ذكرى مريرة من رحلة إلى إيبيذافروس[1]، كانت هي وستراتوس خارج العالم، أبحَرَا بقارب في مساء يوم جمعة، كانا في البحر، خلفهم الشاطئ وأمامهم الأفق المفتوح، كان اليود والحرية يتخللان مسامها، وصدى ضحكاتها يكاد يفوق ضجيج ماكينة القارب، بعيدًا عن الجميع، كان بمقدوره أن يمد يده ويضعها على كتفها دون خوف من نظرات الفضول، كان باستطاعتهما التلامس، أن يستسلما إلى تلقائية اللحظة، سبحا في خليج صغير ناءٍ عند الغروب وتبادلا الأحضان بشغف على سطح القارب، مارسا الحب بوحشية وألقيَا في قاع البحر كلَّ التردد تاركين أحاسيسهما تنفجر بعنف، أنفاس وكلمات اخترقت الذاكرة، والتصقت بها للأبد، يا لها من ليلة! كان ستراتوس مثل مراهق يرتشف النشوة بعيدًا عن ظلال الواقع وعن التهديدات التي تنتظره على الشاطئ، الملح والعرق كان يتصبب من

1- تقع إيبيذافروس في وسط اليونان في مدينة أرغوليذا التي يبلغ عدد سكانها حوالي 1769 نسمة، موقع عدة آثار قديمة بما فيها مسرح خارجي شهير، تم بناء هذا المسرح في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو أكثر مسرح مصون من بين المسارح اليونانية الأخرى، ويتسع لأكثر من 12,000 شخص، ويتمتع بسمعة وشهرة، ويزوره في الصيف كثير من السياح لمشاهدة مسرحيات إغريقية قديمة تؤدَّى باللغة اليونانية الحديثة، ويوجد قرب هذا المسرح آثار معبد قديم يخلد إسكليبيوس إله الشفاء المزعوم عند الإغريق، وقد بني هذا المعبد في القرن الرابع قبل الميلاد.

جسـديهما، العقـل متوقـف.. الظلـم والبحـر، الحيـاة الحقيقيـة، بعيـدًا عـن اليابسـة، على أرض لم توطأ مـن قبل.

- «حقًّـا، لم تسـتمر طويـلًا»، أكـد لها رومانـس، لم تحتمل جاين الخيانة، كان باسـتطاعتها أن تحتمـل الكثـير مـن أجلـه، لكن لا، لا أن تتشـارك فيه مع امـرأة أخرى.

المنافسـة! مطـاردة واصطيـاد في الوقـت نفسـه، كـم مـن السـنوات كانـت جينـي تحـارب! ظنـت أن تلـك المـرة سـوف تنجـح، كـم جرحها سـتراتواس بالوهـم الـذي كان يغزلـه في أيامهما ولياليهـما معًـا.. كانـت هنـاك أيام تسـكرها الفرحة عندما تجـد الزهور على مكتبهـا في الصباح، وعـلى الهاتـف الجـوال رسـائل رقيقـة، ونظراتـه العابـرة التـي تعـد باللقاء القـادم، الليـالي التي كان يسرقهـا في شـقتها عندمـا كانـت الشراشـف تمتـص رغبتـه وهـي تقطـر في فمـه القبـلات الطازجـة وتتمـزق في الصبـاح عندمـا تتركه.

«كل شيء كان وهـمًا كبـيرًا، يـا عزيـزتي إيفيغينيـا. كل شيء»، المراهـق الـذي كانـت تمسـك بيـده مـزق قلبهـا عـن عمـد، كان صوتـه ينكسر عندمـا كان يتحـدث عـن أسرتـه، عندمـا كان يذكـر زوجتـه، الـزوج الأبـدي الـذي ضـل طريقـه وشرد قليـلًا، ثـم عاد نادمًـا، قصة تصـل لفيلم أو لعـرض مسرحـي أو لملهـاة كوميديـة صارخـة، قصـة تصلـح لـكل الأنـواع الدراميـة التي برع فيهـا أبوهـا، وكأنهـا كانـت تـراه هـو يلعـب بطولتها.

كان باسـتطاعة جينـي أن تحتمـل، لمـرة أخـرى نجحت المنافسـة أن توجه الضربـة القاضية، لكـن الآن ليـس هنـاك زوجـة مجروحـة، فقـط رجـل جريـح غـاص في حضنهـا السـاذج، جينـي التـي لم تكـن أبـدًا البطلـة في ثالـوث غـرام؛ إذ إن المـارد الـذي طـرد سـتراتوس بعـد أن غـرس حوافـره في جسـدها كان وهـمًا، كالوحـش الـذي ظـل يعـض فيهـا يومًـا بعـد يـوم حتـى خارت قواهـا، وسـالت دمـاؤه هـو.. الشـك في أن مـارا لديها علاقـة مع أخيـه كان أمرًا يشـعره باليأس، حطـم كل جـدار للحمايـة أسسـه بجهـد ودون كلـل حول مركـزه المهنـي. إن العائلـة عمل ثمين ومكلـف، في أي شيء أخطـأ في حسـاباته؟ وهـل ما زعزع أسـاسـات بيته كانت زوجتـه، أم أخاه؟

كان ستراتوس لسنوات غارقًا في تصاميمه المعمارية، صب كل تركيزه واهتمامه على هدف واحد: نجاحه المهني، كان يتعطش كثيرًا لهذا، كان طموحًا لأقصى درجة، كان يعيش من أجل تحقيق هذا الهدف، مثل حصان السباق، كان يجري تاركًا خلفه الغبار وصوت خطواته، ويورغوس؟ بشخصيته البوهيمية وأصدقائه الذين كانوا يأتون للمكتب الهندسي بالزبائن، كان ينعم بنجاح أخيه، كان يقتسم معه البناء الذي شيده، كيف يمكن لكل هذا أن ينهار؟ أصاب ستراتوس اليأس، كان يرفض أي تأكيد لشكوكه، كان يكتفي بوهم أن كل هذا ما هو إلا محض هراء خياله الجامح، لكن في أعماقه كان يشعر بالخطر الذي يهدد وجوده، مخدوع من الذين يحبهم أكثر من أي شيء في الحياة.. راح يبحث عن وسيلة للإنقاذ، عن المخرج الذي كان يسعى إليه في كل تصميم لبناية، طريق للهروب من ذلك الظرف الرهيب الذي كان يعيشه، وكي يستمتع بالورطة، ألبس شكوكه حُلَّة تنكرية، ارتدى قناع الزنا الذي كان يراه على وجه مارا، ولاء جيني وإخلاصها له كانا بلسمًا، الترياق الذي خدره قدر ما احتاج تأثيره، بعدها بدأ العذاب من جديد، تحولاته المستمرة أضفت حدة كبيرة على العلاقة غير الشرعية وبدأ سلوكه يتغير.

نمت أصداء تلك الحدة إلى مسامع مارا، رن جرس ما.. هي المحاطة دائمًا بالرجال في عائلتها، إخوة، زوج، أخي زوجها، عشيقها وولدين، كانت تعرف سلوك الرجال من كل وجهاته، قضت سنوات تتمرغ في متاهة الخيانة، حب شبابها كان يورغوس باناس، لم يكن يتطور بالشكل الذي كانت تأمله، حينها اكتفت بستراتوس المتواضع، سريعًا ما أصابها الإحباط، حياة زوجية بلا روح لامرأة مفعمة بالحياة، امرأة قوية الشكيمة، بحثت عن مخرج، في البداية كان ولداها، ثم تجارة أبيها، وفي النهاية أحضان أخي زوجها، سنوات من الحرمان، كانت قد تحررت من كل القيود العاطفية، راحت تستمتع بشخصية يورغوس المتحررة وبفراشه، ولد صيادًا، لكنه مطارد دائمًا بسطوة أخيه الأكبر، كان يقودها الخيال والتلقائية، تلاقيا وأنفق كل منهما على نفس الشرشف كل الحدة والقسوة الناتجة عن غضب دفين نحو ستراتوس، إلا أن مارا على الرغم من هذا، لم تكن لتضحي بزواجها من أجل بضع ساعات من ممارسة العشق، «أليست

هـذه هـي أفضـل وسـيلة لتحافـظ عـلى شـبابها؟ لكـن يجـب أن تكـون ممارسـة الحـب ذات جـودة!»، كانـت قـد أجابـت شـخصًا قـد سـألها ذات مـرة عـن حالتهـا الصحيـة، «ممارسـة الجنـس... مـع رجلـين!»، أضافـت مازحـة فأخرسـت محاورهـا السـاذج.

كانـت قـرون استشـعارها متأهبـة؛ لكونهـا تعيـش حيـاة مزدوجـة، شـمَّت فـي الهـواء وجـود امـرأة أخـرى بجـوار زوجهـا، لـم تتأخر حتى تكشـف الـدور الـذي كانت تلعبـه إيفيغينيـا راليس، تعاملـت مـع الأمـر بنفسـها، حاصرتـه بقسـوة بيـن المحافظـة والواجـب، أمـران كان سـتراتوس يعبدهمـا بـورع وتفـانٍ، الطـلاق الـذي طلبتـه بـات تهديـدًا معلقًـا فوق رأسـه، حد سـيف مدبب مـن الخـوف والخيانـة، اعتـرف علـى الفـور بخطئـه وتخلـى علـى الفـور عـن شـكوكه، فلـم يعـد هنـاك سـبب لهـا، لـم يشـأ أن يـرى السـبب الـذي يضع صفـاء العائلـة على محـك المخاطـر، أراد أن يطـرد الآنسـة رالـي مـن الشـركة، كدليـل على توبة نصوح، لكن مـارا كان إنسـانًا ذا قلب كبير ورباطـة جـأش، كيـف يمكـن أن تراقـب تلك الشـابة بشـكل أفضـل، هـذه النحلة التي غـارت من زهرتهـا؛ أبقـت عليهـا فـي خليتهـا، فـي المركز! لقـد حافظت على بيتهـا طيلة هذه السـنوات ولم يمسـه أي نـوع مـن الاضطـراب؛ لـن تـدع فتـاة سـهلة انتهازيـة متسـلقة تجـرح ولديهـا، هما من أرادت أن تحمـي بالأسـاس، ضحايـا أزمـة زواجهـا كانـت هرموناتهـا الشرسـة وجيني، تـم محوهما للأبـد، لكـن ولأن الانتقـام هـو طبـق يـؤكل بـاردًا، اعتنـت مـارا بـأن تعـرف جينـي أن حياتهـا غير المسـتقرة جلبـت الاضطـراب إلـى حياتهـا، سـامحت خيانة زوجهـا، لكنها لم تسـامح سـوء ذوقه.

سألت جيني بعد أن خرجت أخيرًا عن صمتها الذي حملها بعيدًا للحظات:

- «أي خيانة فرقتهما؟».

أجاب رومانوس بتهكم خفيف:

- «علاقة خادزيبتروس التافهة مع خادمتها».

وأضاف: «يبدو أن هذا الـ خادزيبتروس لم يكن يتمتع بذوق رفيع».

- «أتـدري شـيئًا يـا سـيد كارافانداريـس؟ لا أدري عـن خادزيبتـروس، لكـن شـيئًا

فشيئًا صرت أتعاطف مع هذه الإنجليزية! أفضل، لو أن الأمر لا يضايقك، أن نبدأ بالعكس».

- «يعني؟».

- «لنبدأ من النهاية، لقد أعجبني بشكل خاص مشهد الشيخ وهو يرافقها إلى مثواها الأخير ممتطيًا مهرتها المفضلة».

سال رومانوس مندهشًا:

- «هل تودين أن نبدأ من المقابر؟».

- «إن نهاية القصة مبهرة، نعم، سأحب أن أرى مقبرتها».

**يسافر إلى سوريا مرتين أو ثلاثًا في العام**، لحاجة داخلية أكثر من أي شيء آخر، فالمكتب السياحي في اليونان، وبالرغم من الأزمة الاقتصادية ما زال يعمل كالساعة، يونانيون وأجانب بدأ يزيد اهتمامهم بالشرق الأوسط، حيث إن الثورات في تونس ومصر، والحرب الأهلية في ليبيا وجهت عيون المسافرين شرقًا نحو تركيا والبلاد المحيطة بها، أقل تلك الرحلات كلفة كان يجعلها أكثر إغراءً، بينما في السنوات الأخيرة بعد أن حدَّثت سوريا من مستوى فنادقها وحسنت وطورت من الخدمات، تبقي خارج المنافسة؛ لكونها تحتوى على تنويعة من الأماكن الأثرية المختلفة، رومانوس لا يرافق السياح في رحلاتهم، لكنه يستثني فقط وطنه الثاني، في تلك الرحلات المتكررة يتابع تطور البلاد، وفي الوقت نفسه يتشارك مع زبائنه في الدهشة إزاء بلد يتطور بإيقاع بطيء وخاص، وداخل طابعه الإسلامي تظهر أقلياته، تبدو غنيَّة الماضي دون أن تفرق بين الحضارات التي نشأت على أرضها وبين حدودها الحالية، غياب التحيز، ينتمي إلى تاريخ سوريا أتباع الإسكندر الأكبر والأباطرة الرومان والبيزنطيون المتدينون والعرب الفاتحون والصليبيون الغربيون، لا تخفَى بالطبع سمات الاحتلال العثماني والفرنسي، فبكل فخر تظهر الحانات والأسواق من العصر العثماني مع بعض الزينة المعمارية من الفترة الفرنسية.

لم يعش رومانوس بالطبع حقبة الخمسينيات والستينيات، لكن من خلال نظرة الزوار العجائز كان يستطيع أن يبعث اليونان في هذين العقدين، إذ إنه صار نتيجة متفقًا عليها أن سوريا تُذَكّر باليونان في ذلك العصر، هكذا كان السيَّاح يواجهون الوضع السائد في دمشق وسوريا بأسرها بتفهم، الأولاد الحفاة الذين يلعبون في الشوارع، البغال والحمير التي تجر العربات المحملة بأنواع المحاصيل المختلفة، والنساء اللاتي يحملن جِرَار المياه أو الصواني على رؤوسهن، في المدن، عشوائية البناء والتعمير تخنق الأفق، والنزوح للمدينة يُكدس السكان في بنايات قبيحة، حيث تختنق العائلات كثيرة العدد بين جدران مصمتة أمام شاشات التلفاز، صلبان الكنائس المنتصبة بجوار منارات الجوامع تنضح بشكل ما بالانطباع الذي يولده

الإهمال الحكومي، ومبرزة تسامح الإدارة مع حقوق العبادة للأقليات الدينية، التي هي ليست بالقليلة، تتعايش في سوريا مسيحيون أرثوذوكس، كاثوليك وبروتستانت، أرمن من مختلف المعتقدات، مسيحيون أشوريون وكاثوليك شرقيون، مسلمون من السُّنة والشيعة والعلويين، الدروز والإسلاميون، التعايش الرائع لتلك الأديان يرجع إلى المسار المشترك عبر القرون، واليوم تدعمه الحاجة إلى أن تستمر السلطة في يد الأقلية العلوية التي تحكم البلاد، الوجه الشاب الذي يهيمن على الأفيشات الكبيرة التي تطل على كل الشوارع، يهدئ بهدوئه الأرواح وبنظرة عينه يوجه المواطنين نحو المستقبل، التواجد الدائم للأب الأسد بجواره يمثل تذكرة بالماضي الذي أسس لحكمهم.

أسر حاكمة! خاصية أخرى مشتركة بين الوطنين، ببساطة في اليونان لدى اليونانيين متسع من الاختيارات بين أبناء الثلاث أو الأربع أسر الذين يحتكرون المشهد السياسي، "يا صغيري، هذه أشياء لا تقال، لا هنا ولا هناك.. على الأقل في اليونان هناك ممارسة برلمانية"، كان العم نديم يقول محبطًا آراء ابن أخته الثورية، الأخ التوأم لنادية، بعد أن أنهى دراسته في الخارج، عاد إلى دمشق وعمل مستشارًا في أحد البنوك اللبنانية، عاش لسنوات في اليونان، حين كان والدهم سفيرًا في أثينا، أحب كل ما هو يوناني، كان يزور أخته باستمرار في أثينا، وعندما كانت تسنح له الفرصة كان يستخدم بكل فخر لغته اليونانية التي تعلمها في مدرسة سان جوزيف، كان رومانوس يحبه كثيرًا، كان مرجعيته في دمشق، الشخص الذي يربطه بالعائلة وبالشرق، "إن رومانوس يوناني سوري، وليس سوريًّا يونانيًّا"، كان يعلنها ويضحك بصخب في تجمعاتهم العائلية، هنا وهناك، ويقرع كأسه المليئة بالعرق أو الأوزو، وكانت نادية تعلق على هذا بقولها: "خالك يرتبط دائمًا بالمكان الذي يعيش فيه، لم ينسَ اليونان، انظر كيف هي علاقته بلبنان"، كان طبعه المرح لا يترك متسعًا للحزن، حتى تعليقاته السياسية كان يعرضها ببراعة وبجرعة كبيرة من خفة الظل، بالنسبة له كان كل شيء يحمل امتدادًا سياسيًّا، كل شيء كان ينتهي هناك، "إن سوريا في حاجة إلى ملك، هل تذكر فيصل؟ أنَّى لك أن تذكره؟ يعني، ملك آخر"، كان يقول متهكمًا على النظام القائم، سخرية مليئة

بالأشواك.

عندما عرضت نادية فكرة أن يبيع المكتب السياحي رحلة إلى سوريا مبنية على مسيرة جاين ديجبي، ضحك نديم بقوة، "أها! تدني الأرستقراطية البريطانية، من الفُرُش الملكية في أوربا إلى خيمة الشيخ البدوية"، لم تكن السياسة الإنجليزية محط احترام على الإطلاق من جانبه، فكان يعتبر الإنجليز هم المسؤول الأول عن كل مآسي العالم، "انظر حولك: اليونان، قبرص، الشرق الأوسط، ودعني لا أذكر أماكن أبعد، في البداية جاؤوا ورسموا الأماكن، بعد ذلك بالقلم الرصاص سحبوا خطوطًا ورسموا حدودًا".

ها هو اختلاف بين الوطنين: الحدود، واجه صعوبات كبيرة كي يتعلم خريطة اليونان في المدرسة، سواحل وخلجان وشبه جزر وعدد لا يحصى من الجزر، خطوط السواحل التي يبللها البحر معقدة للغاية، على العكس تمامًا من الخطوط المستقيمة التي تغوص في رمال الصحراء، وبناء عليها منحوها أسماء بدو العراق وسوريا أو الأردن.

مع خاله نديم وأبيه قام رومانوس بأول رحلة له إلى الصحراء، كان بتروس كافانداريس يُكِنُّ إعجابًا كبيرًا لوطن نادية، أراد أن يضع ميزانًا قويًّا في ما يخص تربية ابنه -كما كان يقول- كي يستطيع الولد أن يحمل على عاتقيه ثقل حضارتين، الخال، والأب والابن زاروا في البداية إيبيروس وقبيلة الساركاتساني في سامارينا في شمال اليونان لكي يتعرف الصغير على أجداده في الأرض التي ولد فيها، بعدها ذهبوا إلى الهضبة السورية، خارج حمص، اكتشف رومانوس أرض جده الكبير في الخيام السوداء، وتذكَّر مرة أخرى الرائحة الحادة للحليب المخضوض الذي شم رائحته لأول مرة في سامارينا، آه! تلك الليلة تحت النجوم بين نيران البدو ورائحة الحيوانات!

بقيت هذه الذكرى راسخة في رأسه، وعندما تتوق نفسه للعودة إلى سوريا، يبحث في كل مرة عن الفرصة كي يعيش تلك التجربة التي لا تُنسى، لكن الآن صار الوقت ثمينًا، يجري بسرعة عجيبة ولا يدع أي مجال أو مساحة لرفاهية رحلة

شخصية، لـم يكـن زبائنـه يشـاركونه الرغبـة فـي عيـش تجربـة الخيـام البدويـة ورائحـة عـرق الأجسـاد فـي الصحـراء الجافـة، كانـوا يفضلـون الشراشـف المكويـة في الفنـادق ووسـائل الراحة فـي بيوتهـم، محـاكاة لروتينهـم اليومـي فـي بيئة مختلفـة، قدر ما عبـروا عن شـغفهم بالبلاد، في أغلـب الأحـوال يصيبهـم الإرهاق بسـرعة ثم يرون بقيـة الرحلة من خـلال الكاميـرا الفوتوغرافية، القليلـون هـم مـن يسـتمتعون بالرحلـة مـن أجـل الرحلة، يعشـق رومانوس مثـل هـؤلاء الزبائن، الذيـن يستكشـفون بأبصارهـم وأسـماعهم، يشـمون ويتذوقـون ويلمسـون، لا يلتقطـون الصـور الفوتوغرافيـة، يطبعـون فـي أذهانهـم النـاس والتصاويـر والموسـيقى والأصـوات، يُضفـون حيـاة علـى المواقـع الأثريـة خـارج نطـاق المتاحـف العصريـة، وكأنهم أنفسـهم يتحولون إلـى جزء من المـكان الـذي نُهـب، ويتشـكلون مـن جديـد ممتطيـن خيالهـم، الغالبيـة مـن هـؤلاء المسـافرين ذوي الطابـع الخـاص، يسـمونهم الرحالـة في مكتب السـياحة وليسـوا سـيَّاحًا، تسـتهويهم الحقبة البيزنطيـة فـي البـلاد، قليلـون مـن هم عشـاق لحضـارة ما بيـن النهرين فـي العصر الأشـوري، كل مـن يختـارون رحلـة جايـن ديجبـي بالطبع يهتمـون بتاريخ سـوريا، لكـن الأكثرية تشـعل خيالهم شـخصية المـرأة الإنجليزيـة، خليـط من الطموح والرومانسـية؛ لكونهـا كانت نذيـرًا بتحرير المرأة وخلاصهـا مـن العقليـة المحافظـة المصمتة.

هـذا الطريـق يريـد رومانوس أن يسـلكه، فبعـد أن تغيرت الظـروف نوعًا ما فـكل الاحتمالات مطروحـة، جينـي بنفسـها جـاءت بالفكـرة واقترحـت أن تبـدأ الرحلـة مـن النهايـة، بـدءًا مـن المقابـر البروتسـتانتية وقبـر جايـن، وشـيئًا فشـيئًا راحـت تدخـل إلـى روح الرحلـة، وتقتـرب بود مـن الليـدي السـابقة عبـر الأسـئلة، علـى مضض أو بسـذاجة، تحـاول أن تتكيف مع المـكان، في مركـز سـوق المدينـة القديمـة المزدحـم، الـذي يـدب فيـه الحيـاة، المصلـون والسـيَّاح، تتسـلى جينـي بحركـة السـيارات البطيئـة وتنظـر حولهـا بِنَهـمٍ حتـى لا تفـوّت أي تفصيلـة مـن الشـوارع والأرصفـة، أن تسـتوعب كل المنحنيـات المعماريـة في الجوامـع، وتلاحظ المعروضـات التجارية فـي المحـال المفتوحـة، قـررا أن يسـيرا وفقًـا للخطـة بطريقـة ارتجاليـة، للتنقـلات سيسـتخدمان سـيارته المسـتأجرة، ومصاريـف الرحلـة سـتتحملها جينـي التـي سـتدفع ثمـن البنزيـن،

علـى الجانـب الآخـر، وفقًـا للاتفاق الجديد سـيتحمل هـو تكاليـف طعامهم، أو كما قـال، لا يصح فهـي فـي صحبتـه، نفحات نبل ذكـوري، اعترضت دون جـدوى، بعد زيارة المقبـرة، وفقًا للبرنامج كان دور الطعـام السـوري الأصيـل وجولـة في المدينة القديمة داخل الأسـوار.

تقـع المقابـر البروتوسـتانتية مـع مقابـر المذاهـب الأخـرى خـارج السـور الجنوبـي بالقـرب مـن بوابـة القديـس بولـس المعروفـة اليـوم باسـم باب كيسـان الـذي يقـود إلى الحي المسـيحي فـي المدينـة القديمـة، الآن يحفُّها طريـق جديـد تاركـة فوقهـا طبقـة ثقيلة مـن عادم السـيارات القديمـة والحديثـة، سـيارات جيب جديدة وقديمة، وحافلات كبيرة، مجتمع يسـير على سـرعتين مختلفتيـن علـى الأسـفلت، فـي نفـس المكان قبـل قرنين مـن الزمان كان الفرسـان يرفعـون غبار هـذا الطريـق بجيادهـم، الميـدان القديـم ضاع وسـط البنايـات العشـوائية، لا يذكر علـى الإطلاق بالطريـق الـذي كان يـؤدي إلـى مكـة، مـن هنـاك كانـت تتحـرك كل عـام قوافـل الحجيـج، آلاف المسـلمين مـن الأناضـول والقوقـاز وبـلاد الفـرس، جمـال ومجوهـرات وحرائـر وسـجاجيد فـي حراسـة العسـكر طيلـة طريـق الرحلة، في بدايـة القافلة فوق أحـد الجمـال كان المحمل، حمولة مغلفـة بالحريـر المذهـب، كان بداخلهـا الصنـدوق الـذي يحمـل غطـاء الكعبة المطـرز بالذهب الخالـص، هديـة مـن السـلطان من أجل أن يغطـي بها البناء المقـدس، كانت الرحلـة في الصحراء المضيافـة تسـتغرق أربعيـن يومًـا، كان الحجـاج يواجهـون مخاطـر اللصـوص والمـرض، بالأخـص الكوليـرا، لكـن عند عودتهم إلى دمشـق كان يجلبون الشـفاء النبوي، رؤسـاء الطوائف المسـيحية مع السـلطات الرسـمية كانـوا يسـتقبلونهم ويكرمونهم.

وقـف رومانـوس بالضبط عند بوابـة القديس بولس، أمام المقابر الكاثوليكية، من فوق السـور المنخفض رأت جيني قمة بعض الصلبان المرمرية ورؤوس تماثيل للعذراء، وبحكم الاعتياد المهني راحت تلاحظ القوس الحجري، من هذه البوابة وداخل الشباك هَرَّب المسيحيون الأوائل القديس بولـس كـي يتجنـب نفي اليهود، الجدران بجوار البوابة التي ما زالت في حالة جيدة يسـتخدمونها كأسـاس لبعض المسـاكن الحجرية تمنح شـرفاتها العشـوائية الآيلة للسـقوط إطلالة على الشـارع

مباشرة.

تـدور السـيارة حـول المربـع كـي تدخـل إلـى شـارع المنـازل الفقيـرة وتمـر مـن كل بوابـات المقابـر -حـي الأمـوات- خـارج كل بـاب، صبيـة تصـل أعمارهـم حتـى العشـرين مثـل حـراس الموتـى يقفـون تحـت ظـلال الأشـجار يتجاذبـون أطـراف الحديـث فـي مـا بينهـم بصـوت عـالٍ، مقابـر البروتسـتانت توجـد مـن الناحيـة الأخـرى للطريـق، ملتصقـة بصـف مـن الـورش، ولـو أن اليـوم جمعـة تصـدر منهـا أصـوات الماكينـات الغاضبـة، سـقط بصرهـا علـى لوحـة حديديـة سـوداء فـي حالـة جيـدة: "PROTESTANT CEMETERY"، أناقـة المدخـل لـم يكـن لهـا أي علاقـة بمـا هـو فـي الداخـل، رقعـة صغيـرة مهملـة حتـى مـن النـاس التـي تطـل شـرفاتهم علـى هـذا الفنـاء، بقايـا بعـض الممـرات تصـل إلـى المقابـر المنسـية المهملـة دون أي نـوع مـن العنايـة.

سألت:

- "ألا يأتي أحد إلى هنا؟".

- "ربما لا..".

أجابهـا رومانـوس متجهًـا نحـو اليسـار فـي العمـق، فـي ركـن صغيـر مـن المقابـر، ناحيـة جـدران البيـوت المجـاورة ذات الطابقيـن التـي تشـير إلـى أيـن تنتهـي بالضبـط حـدود الموتـى وأيـن تبـدأ حـدود الأحيـاء، مـن النوافـذ المفتوحـة للبيـوت المجـاورة تُسـمع أصـوات المـاء والأشـواك والسـكاكين علـى الطـاولات، "الحيـاة فـي القبـر بجـوار المطابـخ"، فكـرت جينـي وهـي تتبعـه.

وقفَـا تحـت إحـدى أشـجار التفـاح، ظـل ثقيـل مـن شـجرة العالـم، شـجرة الخطيئـة الشـعبية، علـى أغصانهـا ترتـاح أرواح الموتـى وجذرهـا يصـل إلـى العالـم السـفلي، مـن جذعهـا صنـع رمـح أخيليـاس وعصـا هيراكليـس، الشـجرة التـي "تبكـي" ويجـري فوقهـا مثـل الدمـوع المـنُّ والسـلوى للعـرب، الدمعـة الجافـة التـي تأخذهـا الريـاح وتصيـر المـن والسـلوى مـن السـماء، شـجرة رمـز لسـيدة القبائـل، قبـر جايـن ديجبـي الميـزراب يتمـاس مـع جـذع شـجرة التفـاح الثلاثـي، محاطًـا بسلاسـل علـى شـكل صليـب، يمكـن تمييـزه عـن

القبـور الأخـرى، على مسـتوى ارتفاع الأرض تقريبًـا، الأرض التي أحبتها جاين حبًّـا جمًّا، الجرانيت الداكن بشـكله المسـتطيل وسـطحه المتـدرج يتبع خطوط جسـد جاين الطويـل بمنحنى طفيف عنـد الصدر والذراعيـن المعقودين، يغطيه صليب متدرج، الحروف المنقوشـة ناحية اليسـار:

*"جايـن ديجبـي، ابنـة القبطـان هنـري ديجبـي، ولـدت فـي الثالـث مـن أبريـل عـام 1807، وتوفيـت فـي الحـادي عشـر مـن أغسـطس 1881".*

في الأسفل، وفي سطر آخر:

*"أومن برحمة الرب للأبد".*

عنـد أقـدام القبـر، كانـت هنـاك قطعـة مـن الخـزف الحجـري مـن بالميرا غيـر متجانسـة مع المنظـر الكلـي، وضـع ميتـزول تحـت أقـدام محبوبتـه حجـرًا مـن الأرض التـي عاشـا فيهـا قصـة حبهـم وكُتـب فوقهـا بالفحـم باللغـة العربيـة:

*"السيدة ديجبي الميزراب".*

تـرك الكاتـب اسـمها الخالـد تربـت عليـه ظـلال أوراق شـجرة التفـاح ذات الجـذوع الثلاثـة، الرجـال الثلاثـة الذيـن أحبـت في حياتهـا! والدها، لودوفيـخ الفافاري وميتزول، بقيـت جاين للأبد تحـت حمايـة تلـك الظـلال، كل الآخريـن -أزواجًـا وعشـاقًا- بقوا رواسـب في كأسـها.

مـررت جينـي أصابعهـا علـى الحـروف المحفورة، بالنسـبة لها ليس لهـا أي من الذيـن أحبتهم فـي حياتهـا، أبوهـا بعيـد عنهـا، هـو محـض صورة علـى الجـدران، وَهْم، أمـا الآخـرون فهم محض أجسـاد احتضنتهـا، أجسـاد جافـة من المشـاعر، ولكنها أسـرفت فـي إنفاق كلمـات الحب!

تصـدر أصـوات أطفـال وصريـر كراسـي مـن النوافـذ المفتوحـة، رفعـت جينـي عينهـا نحوها، روبـان باهتـان وملابـس أطفـال معلقـة علـى حبـل الغسـيل ينفخهـا الهواء.

- "هل كان لديها أولاد؟".

- "خمسة، بالإضافة إلى ليونيذاس الذي مات صغيرًا، في السادسة".

- "أعني هل أنجبت من الشيخ؟".

- "لا، على الإطلاق.. عندما جاءت إلى سوريا كانت في السادسة والأربعين من عمرها".

- "وهو؟".

- "كان يصغرها بعشرين سنة".

آه! هذه هي الحداثة في عصرنا، يا لها من روح أصيلة! بالتأكيد عائلتها الإنجليزية والمجتمع أدانوا تمرد جاين، ماذا عن المجتمع البدوي المغلق؟ لكن ما كل هذه الثقة في تلك العلاقة، بالأخص عندما كان هناك العديد من الفتيات في طريق الشيخ الجذاب؟ العادات في تلك القبائل تسمح بتعدد الزوجات، التنافس! كيف تخلصت جيني من المنافسة والغيرة؟ راح فيروس الغيرة يأكل في أحشاء جيني مرة أخرى، أشباح النساء وأسباب إهانتها وتحطم كبريائها راحت تحوم في عقلها من جديد، عشيقات ميخاليس راليس، زوجة أستاذها، مارا.

- "إن البشر يفضلون العذاب".

علق رومانوس، قرأ كثيرًا عن جاين ديجبي، أعجبه كم تنفق ببذخ قطعًا من نفسها، وكان يبرر لها ثورات الشك في الفترات التي كان يغيب فيها ميتزول مع القبيلة في الصحراء، أثيرت الإشاعات أن له امرأة أخرى، مما أصاب جاين بالحزن، لكن كبرياءها وأنانيتها تحملا وجود امرأة أخرى في حياتهما حتى ولو بشكل مؤقت.

- "كانت تعذبها فكرة أن ميتزول يشعر بحب قوي نحو امرأة أخرى".

- "هكذا يحدث دائمًا"، رددت جيني مع نفسها.

- "ربما، لكن.. طلق ميتزول المرأة الشابة من أجل جاين، وبعد موتها لم يتزوج

مرة أخرى".

ألقـت جينـي نظـرة أخيـرة على القبـر الجرانيتي، حجـر تحمل عبر السـنوات والأزمان، قاسَـى مثـل القـوة التـي كانت تحملها فـي عقلهـا وقلبها السـيدة الميزراب.

**رائحة الشواء تهرب** من المطبخ وتصطدم بالجدار العالي للفناء الداخلي، في المنتصف تتمتم النافورة، النُدُل يحومون حول الطاولات ذات الأغطية الملونة، والصبية مرتدين الطرابيش والأزياء المحلية يعدون فحم الأراجيل، الدخان الكثيف يتوقف قليلاً فوق الزبائن ثم يطير ليلتصق بسقف الفناء الصناعي، تبدل دور البناية القديمة وقبلت أن تلعب دورها الجديد في معبد الاستهلاك والربح، لكنها لا تزال تحتفظ بكل عناصر فخامة ماضيه، كشهود على الفترة التي كان يجلس فيها الأغا وزوجته في الحديقة الندية الداخلية تحت أشجار الليمون والرومان ويرتشفان العصائر المحلاة، في الجهة الجنوبية يفتح الإيوان[1]، غرفة مرتفعة ومفتوحة لها سقف طويل وأرائك منخفضة، أكثر أماكن المنزل نداوة في أيام الصيف الخانق، الأقواس والجدران التي تدعمها مزينة بتبادل بين الحجر الداكن والفاتح، وهو أسلوب يحدد ويبرز الأبواب وكل النوافذ.

قال رومانوس وهو يصب العرق في كوبيهما، يضيف الماء الذي يعكر الكحول مثلما يحدث مع شراب الأوزو:

- «هذا هو أحد العناصر المعمارية من فترة المماليك».

قالت جيني متسائلة وقد فتنها الطراز المعماري للمنزل:

- «المماليك؟».

- «وهؤلاء أيضًا.. لا يشعر السوريون بالعار إزاء أي محتل مر من هنا، فقد استوعبوهم وهضموا كل عناصرهم».

- «أعرف طراز البناء الدائري الذي يُسمى المريبط[2]، أول منازل بُنيت على

---

1- الإيوان: مصطلح يستخدم منذ العصور القديمة للإشارة إلى فراغ مبني طويل وضيق أمام القاعة، في كثير من الأحيان مفتوح على الخارج.

2- اكتشف عالم آثار ما قبل التاريخ، جاك كوفان، في المريبط، عمارة بدائية شكّلت فتحًا جديدًا في فهم عمارة المنطقة والعالم، ففي حوالي عام 8300 قبل الميلاد، ظهر بيت كبير مستدير قطره ستة أمتار، مكون من حفرة عمقها نصف متر وحائطها مدعم بأوتاد متقاربة، مغطى من الداخل بطلاء من الغُضار، بلغ سمك هذا الجدار البدائي حوالي 10 سم.

ضفة الفرات».

ابتسم رومانوس.

- «الإنسـان المبـدع صنـع أول المنـازل المربعـة فـي جـرف القمـر، وكان أول مـن زرع أول بـذور القمـح علـى ضفـاف الفـرات وتـرك أول ملامح الاسـتقرار، البيت كمـلاذ، المسـتوطنات تلك تشـي بـأول ظهـور للمجتمعـات وبشـائر ظهـور المـدن، القصـر فـي مـاري كان يحتوي علـى فناء داخلـي مركـزي قبـل قاعـة العـرش الكبيـرة حيـث كان الملـك الكاهـن يسـتقبل سـفراء الممالـك مـن بيـن النهريـن، كان الحـرم المقـدس لحياتهم الشـخصية يوجد فـي أجنحة منفصلـة، الزوجات والعشـيقات والراقصات وعازفات الفلوت والخادمات، الخلية الأولى التي سـينتج عنها الحرملك».

أحـرق العـرق حلقهـا، الماضـي لغـز يُعـاد تكوينـه، ذكريـات مثل أسـقف خاصـة، دائمًـا يريد البشـر أن يخفـوا دواخلهـم، يبنـون الجـدران وينعزلـون، عمـاد بهـو المجتمـع اليونانـي، الحيـاة الخاصـة المحصنـة بعيـدًا عـن فضـول الأعيـن!

بيـت خاريـس ماتوسـيس فـي بيليـوس كان بنـاءً ناجحًـا شُـيِّد بمـا يليـق وعملـه الأكاديمـي، خلـف الفنـاء المسـيج كانـت تعيـش علاقاتـه غيـر الشـرعية، سـافرا معًـا إلـى بيته الريفـي حيث كان يصمـم إبداعاتـه علـى الـورق بعيـدًا عـن صخـب وفوضـى المدينـة، وفـي الاسـتراحات كان يصمـم دروبًـا علـى جسـدها، كانـت ترافقه في مؤتمراتـه الدولية، فـي الطائرة، غربـاء بين غرباء، فـي الفنـدق فـي غرف مجـاورة، حوارات وإعلانات وسـهرات عشـاء مـع زملائه، متأخـرًا في الليل كان البروفيسـور الجـاد يتسـلل هاربًـا مـن غرفتـه ويختلـط بظلها، بقيت ظلًّا في حياتـه لعامين.

- «أحيانًا أعتقد أنني أرهقك بقصصي».

قال لها رومانوس وهو ينظر إلى جيني التي غابت عن حديثه.

دخـان طبـق الكبيبـة المحشـوة بحبـات الرمّـان أمامهمـا ورائحـة أوراق النعنـاع تفـوح مـن أطبـاق السـلاطة وشـرائح الباذنجـان المشـوي تفتـح الشـهية.

- «علـى العكـس تمامًـا، كل مـا تحكيـه هـو شـيق جـدًا، لكنـي أشـرد كثيـرًا لأن مـا تتكلم عنه يسـتحضر أمـورًا أخـرى فـي عقلي».

- «مثل ماذا؟».

- «كان لدينـا بروفيسـور فـي مـادة تاريخ العمـارة، كان عبقريًـا في التصميم، شـرح لنا عناصر عـن القنـوات فـي ذلـك العصـر، وعن نظم إمـدادات المياه فـي المدن قبل آلاف السـنين»

أجابت جيني واندهشت من السهولة التي تتقاسم بها ألغاز عقلها مع رومانوس.

- «عندمـا واجـه الإنسـان الطبيعـة روضهـا ودمرهـا، لدينـا هنـا مخـرج سـينما ومصـور عظيم اسـمه محمـد رومي»

قـال رومانـوس وتـردد قليـلًا عنـد كلمـة «لدينا»، وكأنـه يرد على جينـي بنفس نبـرة الاعتراف، صدام بيـن وطنين.

ولـد رومـي فـي بـلاد ما بيـن النهريـن الحيثية، بالنسـبة لـه «كلنـا أبنـاء الفـرات»، ووادي النهر هـو مهد الإنسـانية وطفولتهـا، عندمـا كبـر رومـي أدرك قيمـة أجـداده، عـاد إلـى هنـاك حامـلًا كاميرتـه ووهـب نفسـه لتصويـر المنطقـة وسـكانها، كان شـاهد عيـان علـى غـرق الـوادي بميـاه الفـرات عندمـا بُني سـد الأسـد الكبيـر الذي وضع نهاية لعطـش الأرض، غرقت الحقـول في أطنان الميـاه وغـرق النـاس فـي الألـم والغضـب واختفـاء قراهم، حضـارات غارقـة تحت بحيرة واسـعة مثـل البحـر، ومـن «البحـر»، كما كان دائمًـا أهل المنطقة يسـمون الوادي العميـق، النهر الواهب للحياة.

أنهى رومانوس وصفه قائلًا: «مثل بدوي، ليس لديَّ سوى عقلي كي أحفظ فيه الذكريات».

قالت بنبرة ساخرة:

- «هل هذا ما تقوله أنت أم الـ رومي؟».

- «يقوله رومي، لكنها -أيضًا- قناعتي..».

كان يريـد أن يقـول لهـا كـم أحـب أنهـا لـم يكـن لديهـا كاميـرا فـي المقابـر، أنهـا لا تنظر إلى الأشـياء مـن خـلال عدسـة الكاميـرا، لكنـه لم يجـرؤ أن ينطـق بتصريـح هكذا.

- «هناك ذكريات لا يتحملها العقل، هل لديك ذكريات؟».

سألته، استفزته كي يترك جانبًا قصصه ومعلوماته والحديث عن الآخرين.

تفاجـأ رومانـوس، تصبـح فضوليـة دون أن تعي، شـعر بالتحدي، لكن مركـزه يمنعه أن يتخطى حدوده، فاستسلم:

- «تجـري فـي عروقـي دمـاء بدويـة، أحـد أجـدادي من بعيـد من ناحيـة أمـي كان ينحدر من قبيلة سـيمبا».

وقبل أن تفكر في الأمر، هربت منه الكلمات وتسمرت في منتصف الطاولة.

- «أقترح عليكِ زيارة لخيام البدو في الصحراء، هكذا، وخارج البرنامج..».

لـم يكـن لديهـا الوقـت للتراجـع، قبِلـت جينـي، ومضـة مفاجئـة سـرت فـي نظرتهـا الشـاحبة مثـل البـرق فلمعـت عيناهـا الزرقاوان فأضـاءت وجهها كله، «تسـتطيع أن تصبـح جميلة»، همس رومانـوس فـي داخله.

غمرهـا شـعور بالارتيـاح، إحسـاس جميـل ومختلـف مثل طبقـة الكريـم التي تمتصها البشـرة تحـت الشـمس، قطـرة مـاء على الشـفاه فـي وقت الحمـى، مضى زمـن بعيد ولم تشـعر ببصيص أمـل صغيـر ينفـر مـن داخلها، هناك شـيء آخر بعيد عـن ذلك الرفـض الحزين لوجودهـا ولذاتها، كـم هـي ممتنَّـة لذلـك الرجل الـذي كان بالأمس غريبًـا! لو أن أحدًا قـال لها إن عرضًـا كهذا يكفي -مجـرد زيـارة لخيـام البـدو- مـن أجـل أن تغيـر مزاجهـا، لتلقَّت الأمر كمزحة سـيئة وسـخرية في غيـر موضعهـا، لكـن ليـس هـو العـرض، ولا وجـود رومانـوس الـذي يسـتولي علـى انتباههـا مـن الصبـاح بقصصـه، هـل هـي أسـطورة جايـن ديجبـي؟ هـل تأثرت بكـم المصادفـات التـي تتقاطع فـي حياتهمـا؟ لكـن اليـوم، امـرأة منهما تبكي جراء قصة حب فاشـلة ولا تبتغي سـوى نسـيان كل

شـيء! وجودها الآن في دمشـق يرجع إلى صدفة، هذه المدينة تمنحها إحساسًا مختلفًا، الجو، البشـر المختلفـون الذيـن تقابلهـم، اللغـة الغريبة التي تسـمعها، الصـور والأصـوات والروائح، كل شـيء مختلـف عـن الأمـس، لكـن فـي الوقـت نفسـه ثمَّة قـوة تأتي بـكل هـذه الأشـياء وتجعلها قريبـة جـدًّا حتـى إنهـا تشـعر بأنهـا لها، لا تريد أن يشـرح لهـا رومانوس عـن التغير الـذي يحدث بداخلهـا، أن يعبـر عما تشـعر به.

جاءت فطائر اللحم بالعجين مصحوبة بالأرز المطبوخ بالمكسرات والزبادي الخفيفة.

اقترحت عليه بإلحاح:

- «حدثني عن البدو إذن».

قبائـل عربيـة كانـت تسـكن أرض سـوريا وتعمل برعـي الأغنام والجمـال، كان البـدو يقطعون آلاف الكيلومتـرات كل عـام سـعيًا وراء غـذاء حيواناتهـم وخيامهم تنتقل لمسـافات قليلة حسـب فصـول السـنة، كان البـدو ينقسـمون إلـى مجموعـات صغيـرة، ويصطدمـون كثيـرًا في مـا بينهم، الترحال وسـرقة الحيوانات كان أسـلوب حياة بالنسـبة لهم، التبشـير بالمسـيحية أولًا ثم بالإسـلام فـي ما بعد سـاعد فـي انتشـار هاتيـن الديانتين.

التنقـل الدائـم جعـل البـدو بمثابـة حلقـة الربـط بيـن شـعوب المنطقـة، مسـلحون ورجـال حـرب، فـي بعـض الأحيان كانوا سـياطًا للقوافل والمسـافرين، وفـي أحيان أخرى كانـوا تجارًا فقط ولكـن فـي مـدن كاملـة كانـت بعيـدة عـن مركز السـلطة، فرسـان عتـاة ومحاربـون أشـداء وتجار مهـرة، نصبـوا خيامهـم واسـتوطنوا علـى الهضبة وفـي الواحـات محتفظيـن بعاداتهـم وتقاليدهم وتـراث مجتمعاتهـم المنغلقـة تحـت الخيـام التـي كانـوا يصنعونهـا من جلـد الماعز.

قبيلـة ميتـزول الميـزراب كانـت هـي المسـؤولة عـن حمايـة بالميـرا مـن هجمـات القبائـل الأخـرى، مقابـل مائـة وخمسـين جمـلًا فـي العـام، جمّالـون وقـادة مـن القبيلـة كانـوا المصاحبيـن الرسـميين لأي أوربـي يصـل إلـى سـوريا ويبغـي زيـارة آثـار بالميـرا

القديمة، هذه المدينة الحدودية صارت مركزًا تجاريًّا هامًّا في فترة الإمبراطورية الرومانية؛ لأنها كانت تخفي بين طبقات واحاتها أهم الخيرات، الماء! ماء وفير، مليء بالأملاح الربانية، يتدفق من مئات الآبار وينشر رائحته النفاذة المخترقة في الهواء، ممّا جعل بالميرا محطة ضرورية للقوافل التي في طريقها إلى بغداد.

مدينة رب الشمس والقمر، معبودة هادريان، صارت للأبد مرادفًا لزينوبيا، الملكة الثائرة التي تعدت سلطة الأباطرة الرومان واصطدمت معهم، الملكة الفخورة المغرورة، واجهت فيالق ماركوس أوريليوس ورأت جنوده يدوسون على عرشها ويخفون وطنها، تم جرُّها أسيرة إلى روما لتزين نصر الإمبراطورية، تم ربطها بسلاسل من ذهب، لا توجد أي أدلة تاريخية عن كونها، ومن ذلك الموقع الصعب، أوقعت في غرامها أحد أعضاء مجلس الشيوخ وتزوجته وعاشت معه في أحد القصور خارج روما، لم تعد بعدها أبدًا إلى بالميرا، ولا حتى بالميرا عادت إلى سابق عهدها مرة أخرى أبدًا، الفلاحون الذين كانوا يستوطنون حولها كانوا يعيشون في أبراج، مقابر مدينة الموتى، ليحتموا من قيظ الصحراء ومن الرمال، وفي بيوت الأرستقراطيين والتجار، في الفترة التي بدأ فيها الأوربيون يزورون هذا الطرف من العالم، السكان المحليون منعوا بقاء الأجانب في بالميرا الأثرية أكثر من أربع وعشرين ساعة، وفرضوا رسم دخول على الفرد، لم يكن بوسع جاين ديجبي أن تصل إلى مبتغاها من دون مساعدة الشيخ ميتزول الميزراب.

أفرغت جيني كوبها وضحكت ببراءة، احمرّت وجنتاها قليلًا، وثمة رغبة لعوب تحوم في عينيها؛ قالت له وهي تدفع بكوبها نحوه:

- «لقد رأيت زينوبيا مقيدة بالسلاسل الذهبية».

تردد رومانوس قبل أن يصب العرق والماء البارد، فهو لا يعرف حدودها في الشراب، لكنه ابتهج من زوال الحزن عن وجهها.

- «قبل سنوات، لا أدري كم.. في أحد المعارض في تورينو، لا تسألني عن اسم الفنان».

- «ماذا كنتِ تفعلين في تورينو؟».

أجابته وقد هجم الحزن على وجهها من جديد:

- «ذهبت إلى أحد مؤتمرات العمارة».

كي يمر الوقت، قضيا الساعات الصباحية يتجولان في الأسواق في أزِقَّة الميدان الرئيس وزارت الكنيسة التي بها كُفِّن المسيح، في النهاية انسحبت إلى أحد المعارض كي تقتل الملل وهي تنظر شاردة إلى اللوحات بالألوان الشاحبة والمواضيع غير الشيقة، توقفت أمام لوحة زينوبيا وبدا لها أنها تقف أمام مرآة، كانت هي الملكة المهزومة نفسها وسلاسل الأسيرة السورية هي ضعف جيني في الوصول إلى السعادة، غير منقوصة ومقطعة لشرائح، ولكن كاملة، في الليل أكلت وحدها في الغرفة وراحت تنتظر خاريس يدق بابها.

أكملت بمرارة:

- «لم أكن أعلم أن زينوبيا قد بدلت الوضع».

- «النساء لديهن أساليبهن..».

أجابها بمرح كي يعدل الأجواء، لكنه نجح في العكس؛ خيم الحزن على وجه جيني وكأن رومانوس قد داس على زر داخلي يضبط تحولاتها النفسية؛ سأل على استحياء:

- «هل قلت شيئًا ما؟».

أجابته بنبرة اعترافية:

- «لم أقض وقتًا ممتعًا في تورينو».

أومأ رومانوس إلى النادل، لقد حان وقت تحلية الأجواء.

- «نقول إن الشربات يذوب في الفم ويأخذ معه الآلام».

- «أنت محق، كانا يعطياني دائمًا الشوكولاتة بعد أن يتشاجرا، كان أبواي يتشاجران حتى عندما لم يعودا يعيشان معًا»؛ شرحت له وأكملت: «لا أحتمل طعم

الشوكولاتة».

- «إن مـا أقدمـه لـك الآن ليـس له أي أثـر من ذكريات الماضـي، صدقيني.. النسـاء في الخيام خـارج حمـص يخبـزن أرغفـة صغيرة بحجم لقمـة، يحمصنها في الزبد السـاخن ثـم بعد أن تجف كـن يضعـن فوقهـا قطعة من جبـن الأغنام، في النهاية يسـكبن عليه الشـربات.

كان رومانـوس لا يـزال صغيـرًا عندمـا كان يذهـب مـع خالـه نديـم إلـى الحقـول التـي كانـت لعائلتـه ويؤجرونهـا إلـى بـدو الهضبـة، خارج المدينـة وقبل أن تبـدأ صحراء الباديـة كانوا يقضون ليلـة أو اثنتيـن فـي خيـام البـدو، رائحتهـم الزنخـة المختلطـة بروائـح الحيوانـات كانـت تبقـي فـي ملابسـه التـي لـم يكـن يبدلهـا فـي الفتـرة التـي كان يقضيهـا معهـم، انبهـر بالنزهـات علـى الخيـل وبإشـعال النيـران قبـل أن تغرب الشـمس ثم الموسـيقى وضحـكات الرجال، عيون النسـاء المضيئـة كانـت تبـرز مميـزة مـن تحـت أغطيـة الوجـوه، عيـون ثقيلـة مرسـومة بالكحـل لتشـد الانتبـاه وتحمـي مـن رمـال الصحـراء فـي الوقـت نفسـه، القليل مـن الرقـص كان يفضـح الأرداف تحـت الملابـس الواسـعة، كان رومانـوس يطـوي جسـده على أرضيـة الخيمة، واجـه صعوبات في الأكل بيديـه؛ أن يسـتخدم أصابعـه ليـأكل الجريـش بلحـم الغنـم المسـلوق، طعـم لا ينسـى ولا يمكـن العثـور عليـه الآن.

قال له ضاحكًا بينما النادل يترك أمامهما الطبق:

ــــ «كان القليـل مـن المطاعـم تقدمـه، لكـن ليـس فـي اسـتطاعة الجميـع أن يصنعـوه، آه! طعـم الصحـراء! اسـتمتِع بـه، مـا يقـدم لـكِ هـو امتيـاز فـي الحقيقـة لا يحظـى بـه سـوى القليل من النـاس».

جربـت جينـي لقمـة، حـلاوة السـكر ورائحـة الجبن الطازج تسـيطر علـى فمهـا، لا تتذكر، ولا تريـد أن تفسـد مزاجهـا، لكنهـا علـى ثقـة أن هـذه ليسـت هـي المـرة الأولـى التـي تجـرب فيهـا حلـوى كهذه.

**كان لديه أصدقاء كثيرون في دمشق،** فنادية كانت ترسل ابنها كل صيف إلى سوريا بين أبناء عائلتها وأصدقائه، عندما ولد رومانوس في بداية الثمانينيات، كانت أصداء التفجيرات في بيروت تصل إلى اليونان، الاجتياح السوري للعاصمة اللبنانية فتح جرحًا بين البلدين، لم يعرف رومانوس ولم يعش بيروت القديمة الكوزموبوليتانية، باريس البحر المتوسط، لبنان بالنسبة للأكبر سنًّا بقيت قطعة من سوريا الكبيرة اقتُطعت بعنف من أضلعها من قِبَل الحلفاء الغربيين، أحفاد المحاربين الصليبيين الذين طُردوا قبل زمن، كان اللبنانيون يتأملون البحر بصحبة حُماتهم الجدد بعد أن ولَّوا ظهورهم للسوريين الذين بقوا ينظرون بحنين من أعلى إلى لبنان على الجهة الأخرى، وادي البقاع والجولان، «أوطاننا المنهوبة التي لا تُنسى في يونيا ليس لها أي علاقة بالحلم السوري في استعادة هضبة الجولان»، كانت نادية تقول لزوجها أحيانًا، بينما كان رومانوس يبحث من جديد عن عناصر مشتركة ونقاط للتلاقي بين الوطنين، لم يكن ينجح في هذا دائمًا، هنا ما زالت الأمور مائعة، من تحدث عن أوطان ضائعة؟ في التسعينيات فشلت كل محاولات المصالحة وتلاشت كل التوقيعات التي تمت في مدريد وواشنطن وأوسلو، في الوقت نفسه الذي كانت اليونان فيه تحمل اليورو في جيبها وترتدي حذاءها الأوربي، كانت سوريا تعيش محاصرة بالأعداء.

اختار أن يدعم أمله وأن يسعى نحو آفاقه في أن يحلَّ كرة الخيط التي ورثها من زواج نادية وبتروس كافانداريس، «يا رومانوس، لا تخلط الأمور! احتفظ بوطنيك كلّ على حدة»، كان خاله نديم يقول له، «هل أخلط أنا بين لبنان وسوريا؟»، هذا الكوزموبوليتاني كان لا يزال يستطيع أن يحتفظ بتوازنه على الحبل المشدود بين البلدين، ويغادر في كل عطلة متحملًا مشقة الإجراءات الحدودية حتى يصل إلى بيروت التي تخطت أهوال التدمير واستعادت شيئًا من مجدها القديم، ورغبة واضحة في الاستمتاع، الحرب الأهلية التي استمرت لسنوات طويلة والتهديدات الإسرائيلية شكلت في وجدان الناس إحساسًا عابرًا ومؤقتًا بعدم الجدوى، كان أصدقاؤه يسرقون الوقت كي يذهبوا للاستمتاع في لبنان المجاورة بكل ما حرمتهم

منه نظرة الأسد الحامية على الأفيشات.

الاحتكاك بالتاريخ في سنوات دراسته أبعدت رومانوس عن الألعاب السياسية والمصالح الدولية، عاش خمس سنوات في لندن ودرس في جامع لندن، في إحدى الكليات المتخصصة في الحضارات الشرقية، كانت تلك الفترة التي تقرر فيها سوريا الانفتاح على الغرب وسياسة اقتصادية منفتحة مترددة، بينما في اليونان كان الاشتراكيون في سُدَّة السلطة، الحروب التي في ركن يخصه من العالم، كانت أمرًا محبطًا بالنسبة له، عاد إلى اليونان، أنهَى خدمته العسكرية وانبرى إلى العمل، تولى مسؤولية تسويق المكتب السياحي خارج اليونان، رحلة جاين ديجبي كانت مجرد حجة لزيارة سوريا المعاصرة، كان لا يزال لديه أصدقاء من الطفولة عندما كان يأتي ليقضي الإجازات الصيفية بجوار جدته، لكنه كان بالنسبة لهم دائمًا اليوناني، كان يتحدث العربية بطلاقة، لكنه كان مختلفًا قليلًا -لكن دائمًا- كان حينها يأتي بهواء أثينا معه إلى هضبة دمشق، كان يثير أذهانهم وينطلق الغبار خلفه أينما عبر على المشهد القروي السوري للعاصمة السورية، كان يفتح حقيبته ويخرج مجلات سيندي و**Nitro** و Playboy وواقيات ذكرية فكان يشعل مخيلة أقرانه، كان يخرج منها -أيضًا- عطورًا فرنسية رقيقة بالبرغاموت والليمون، كانت مواساة بالنسبة لها، ابتعادها عن المنزل الصيفي في بيروت كان له أثر عميق في نفسها، لم تكن تحتمل أن تشاهد دمار المدينة وأطلالها، "لا أحتمل الحروب"، كانت تردد وحدها.

ميلاد الجدة رينا كان في مارس 1920، في العام الذي أعلن فيه فيصل ملكًا على سوريا، يا لها من بشارة آنذاك! إلى أن تمشي وتتكلم الصغيرة، تم نفي فيصل وقطع وقسم الإنجليز والفرنسيون وفصلوا في ما بين سوريا ولبنان وفلسطين، كانت الجدة في الخامسة من عمرها عندما قذف الفرنسيون دمشق بالقنابل ودمروها كي يخنقوا الثورة.. حريق[1]، حريق كبير، هكذا سمى الدمشقيون الميدان بجوار السوق المغلق، بقي سقفه المعدني شاهد رصاص القائد سراي، أشعة الشمس

---

1- الكلمات بالخط المائل وردت في النص الأصلي بخط مائل وباللغة العربية.

ما زالت تخترق ثقوب الرصاص في السقف المعدني حتى اليوم فتضيق *السوق* في النهار، وكأنهم قد علقوا في السقف مئات النجوم، أي طفل يستطيع أن ينسى القنابل ويحذف ضجيجها من ذاكرته الرقيقة؟ "حروب، حروب، لم أرَ شيئًا آخر في حياتي غير الحروب"، كانت الجدة تعطي صوتًا لأحزانها عن طريق الشكوى، كانت تحمل سمير رضيعًا في أحضانها عندما قصف الفرنسيون المدينة بالقنابل في 1945، "كانوا يرفضون الانقشاع عنا والرحيل، لم يرحلوا، وعود ووعود، لا شيء غير الوعود".

في 1946، بعد عام، صارت أخيرًا سوريا بلدًا حرًّا، والجدة كانت واحدة من أوائل زوجات الدبلوماسيين في الدولة الجديدة، تركت عشها، على استحياء في البداية، إلى بغداد، بعد ذلك إلى أثينا، "كانت أيامًا جميلة!"، كانت تقول هذا دائمًا، ثم بعد ذلك أبعد، لم يتوقف الحنين بداخلها تجاه وطنها والأولاد الذين تركتهم خلفها، فلم تكن تستطيع أن تأخذهم دائمًا معها، "إلى أي مدرسة سترسل سمير في بوخارست 1960؟"، كان زوجها يخدم في تركيا عندما لقيت سوريا هزيمة ساحقة في 1967 في حرب الأيام الستة، وكان يخدم في موسكو في عهد بريجينيف عندما وقع القائد العسكري الأسد الاتفاقيات مع السوفييت، الإسرائيليون اقتحموا لبنان عندما كان الجد والجدة في بيروت يستمتعون بالبحر والبريدج في شرفات الفنادق، "حرام! حرام مدينة كهذه... لقد دمرها اليهود، **quell dommage**!"، رغم أنها كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة، لم تنسَ أبدًا حقدها تجاه الفرنسيين، لكن الآن ترى تهديدًا آخر: التخلف والتعصب،"آه! لحسن الحظ يا ولدي خلقت نصف يوناني! يا لحسن الحظ! بعيدًا، بعيدًا عن الحروب".

كانت تضمه في حضنها وتحكي له عن الحياة الدبلوماسية لزوجها وعن رحلاتهما، وتجنح بعيدًا للوراء فتحكي له عن بدو حمص وعن روابط عائلتها مع قاسم أتاسي، أول المناضلين من أجل استقلال سوريا، مع قصص الجدة التي عمدته في متاهة الكتابة، بصبر الحياكة والتطريز كانت ترشد أصابعه نحو دوائر ومنحنيات الكتابة بالحروف العربية، كان رومانوس يأسر قلبها معطيًا إياها الإحساس أنه ينتمي إلى مكان آخر. إنه مختلف ومميز، شعور غريب، شيء أشبه

بحركـة الجناحيـن، المقـدرة علـى فك الألغاز هنا وهناك، مؤامرة معسـولة للغة، في دمشـق كان يُقبَـل علـى أنـه يونانـي، لكنه كان يمتص بشـراهة من الفائـض الاحتياطي لنفوذ عائلته السـورية، كان هـذا يبـدو واضحًـا عليـه، "كان يصيح"، عندمـا يعـود إلـى أثينـا ويصيـر السـوري الغريب ذا اللقـب اليوناني.

بعـد وفـاة الجـدة رينـا، كان رومانـوس يشـعر ببهجـة عارمـة فـي كل مـرة يأتـي ويقابـل فيها صحبتـه مـن سـنوات المراهقـة، كان يسـتطيع أن يتقاسـم معهـم الذكريـات الصيفيـة ويتبـادل التجـارب والخبـرات مـن الدراسـة فـي الخـارج، أو يتحـاور معهـم فـي أمـور متعلقـة بالبـلاد ومسـتقبلها، قصـص حبـه القديمـة والمغـازلات البريئـة، ذكريـات حلـوة بقيـت عالقة علـى جدار ذاكرتـه، وشـرخ، نفـس الشـرخ الموجود في صـدر الإلهة صانينيـه ذات الصدر العـاري، في الغرفة ذات النوافـذ الزجاجيـة الكبيـرة حيـث يـرى حديقـة بيتهـا المظلمـة مثـل الشـوق إلـى جسـدها، مضيئـة مثـل نـور عينيهـا، عندمـا لمـس هـذه البنت لأول مـرة، عندما وضـع أطـراف أصابعه على صدرهـا، " صانينيـه تعنـي الزعـف"، حتـى الأسـماء كان يترجمهـا، بافلـوس فـي أثينـا كان يصبح بولـس، ويعقـوب فـي دمشـق كان يغـدو ياكوفوس، تطلُّـع لا ينتهـي، الهويتان كانتا مثـل جناحين مزروعيـن فـي كتفيـه جاهـزة للطيران.

فـي هـذه المـرة أخبرهـم واتفقـوا أن اللقـاء في المسـاء، حيـاة الليل هنـا تبدأ متأخـرًا، موعد اللقـاء كان أحـد البـارات فـي ضواحـي المدينـة، مكانهمـا المفضـل الجديـد، طاحونـة مائيـة تـم تجديدهـا فصـارت مكانًـا لتجمـع الشـباب، دعـا جينـي لتتعـرف علـى جانـب آخـر مـن المدينـة، بعيـدًا عـن الصـورة التقليديـة للمدينـة القديمـة، بعيـدًا عـن الفتاريـن الغربيـة ونجـوم الفنادق، لتحتـك بشـباب سيملكون بيـن أيديهـم مفاتيـح البـلاد فـي المسـتقبل القريب.

بُنيـت الطاحونـة علـى أحـد فـروع نهـر بـرَدَى، يبـدو واضحًـا بيـن البيـوت الفقيـرة المنتشـرة فـي المـكان، مياه فـرع النهـر تتقاطـع فـي ثـلاث قنـوات تمـر مـن تحـت البنايـة، مثـل سـفينة بيـن البـوص، خلفـه تبـدو كتلـة الجبـل المظلمـة، بنـي فـي الداخـل بحجـارة كبيـرة صلبـة لتتماهَـى مـع الطـراز القديـم بـذوق وعنايـة، صفـان مـن الأقـواس علـى

ثلاثة أعمدة تفصل مخزن الغلال، وكأنه مكان ملكي، الكُوَى في النوافذ تشهد على سماكة الجدران، والدَّرَج كذلك يشهد على البراعة في المعمار، الإضاءة خافتة وشعلات الشموع تأتي معاكسة لصخب الموسيقى التي تهز أرجاء المكان، الغرب والشرق يتعانقان بقوة تحت أصداء موسيقى الروك، رائحة دخان السيجار الثمين تمنح عناقًا للرغبة، ضمانًا للمستقبل، بينما صوت الكوكاكولا في الأكواب يؤكد على الطعم الذي يناسب كل شيء.

أدركت جيني وقد غمرتها الدهشة أن المكان لا يختلف في شيء عن أماكن عديدة في أثينا، خلف البار المضيء كانت زجاجات الكحول تتلألأ مرصوصة في ترتيب دولي، النساء يجلسن في راحة على المقاعد العالية والرجال يصوبون بنفس الطريقة نحو أهدافهم، المكان ليس له أي علاقة بالمطعم الذي كانا فيه في الظهيرة.

- "أمر لا يصدق... مشهد مختلف تمامًا!".

قال رومانوس مازحًا:

- "الوجه الآخر للقمر".

يخرج البلد شيئًا من عزلته، وهي في حاجة للصحبة، الوقت الذي قضته وهي تتنفس زفيرها لم تفقدها شهيتها للحياة، كيف يمكن للعالم أن ينظر للداخل؟ من يستطيع أن يبقيه خارج العصر؟ التكنولوجيا هي باب مفتوح على مصراعيه، بوابة بلا حواجز، بالنسبة للمرتابين يكفي التلفاز أن يكون أكبر نافذة في البيت، الشعب ينظر في اتجاه الأفق، نحو المنارات العالية التي تخترق السماء في فخر، تعد المؤمنين، مجد للإله الواحد، من أجل مستقبل البلاد التي تتعلم من جديد كيف تقف على قدميها، انتهى زمن ضيق الأفق.

كانت تسمع حواراتهم، كم من الزمن تقوقعت مثل الدودة لا تحتمل النظرات والأحاديث وأقل لمسة، بعيدًا، بعيدًا عن الجميع.. البشر يهددون، يقتربون وتفوح من أنفاسهم الأنانية والطمع، يجرحون ويبتعدون، يولون ظهورهم ويرحلون،

يبقـي منهـم ضحكهـم أو صمتهـم، وهـذا الصمت يحـدث ضجيجًا ويؤلـم أكثر من أي شـيء آخر، رأس سـتراتوس المطأطـأ، كلمـات لا تخـرج مـن بيـن شـفتيه، كانـت مثـل شـفرات صامتـة حادة، أغلـق البـاب دون صـوت، لكـن صـوت خطواتـه علـى الـدرج مـا زال يـدق فـي رأسـها، أيـن هـو سـتراتوس الآن؟

راحـت تتابـع الأزواج فـي المجموعـة ودبـت فيهـا الغيـرة، إحـدى البنـات وضعت رأسـها بين أحضـان رفيقهـا، الجسـد يتكلم، "أنت لي، أسـتطيع في أي لحظة أن أسـتند عليـك"، أجابها رفيقها ومـرر ذراعـه علـى كتـف صديقته، لفتـة لطيفة توحـي بالامتـلاك، كالقط الذي يحـدد منطقته.

أصـوات وضحـكات ودخـان وكحـول، أنـتِ فـي بـار يـا جينـي! مغازلـة وقلق مـن أجـل الليلة التـي تتبختـر فوقهـا، عليـك أن تختـاري! وحيدة!

أصـاب القلـق رومانـوس الـذي كان بجوارهـا، هل ثمة شـيء ليس علـى ما يرام؟ تغيُّـر مزاجها بـدا واضحًـا على وجههـا، وفي الطريقـة التي تتجنب بهـا الحوارات.

انحنى وسألها:

- "هل نغادر؟".

أومـأت بالنفـي برأسـها، لا، سـتبقي! لم تعـد تحتمل الوحدة فـي غرفتها، النزال غيـر المتكافئ مـع الذكـرَى الـذي تخـرج دائمًـا مهزومـة منـه، تفضـل الضـوء الخافت فـي البـار، اللغـة الصاخبة مـن الطـاولات المجـاورة، الكحـول والصحبـة، مثلمـا في بلدهـا، هربـت جيني مـن عزلتها وراحت تبحـث، سـوف يتبعهـا، سـتضبط إيقـاع خطواتهـا، لن يغيب عـن عينيها، إنهـا في أيـدٍ أمينة، نظرة رومانـوس الناعمـة ينضـح منهـا الهـدوء مثـل تلـك النظـرة علـى الأفيـش فـي كل أركان المدينـة يقـف هنـاك مرشـدًا وحاميًا، الرئيس، يتحدث بجسـده إلى كل الأجسـاد التي تتحرك في الشـوارع وعلـى الأرصفـة، "تعالـوا معـي! لدينـا طريق أمامنـا، لكنني هنـا، كي أقودكـم.. أنا!".

شـيخ الصحـراء مثـل ميتـزول الميـزراب، أميـر قبيلتـه، يعـرف كل الـدروب فـي الهضبـة، كل الينابيـع التـي سـتطفئ الحيوانـات فيهـا ظمأهـا، يعـرف كيـف يطـرد الغـزاة،

وهجمات الجيران الأشرار، ولو أراد يمكنه أن يهجم على معسكرات الأعداء، يتحدث لغة الأجانب الذين يتجولون في بلاده بطلاقة، يرشدهم أو يخطفهم، يتوقف هذا دائمًا على المقابل، يثق البدو به، يحبونه، من لديهم غيره على أي حال؟ ويوقرون زوجته ويطلقون عليها اسم السيدة الأولى.

ستبقي هنا! هنا حيث رتبت جاين ديجبي حياتها من البداية، على الأرائك المنخفضة في الإيوان وعلى الوسائد الصوفية في الخيام البدوية، تشرب لبن النوق والليمون بالنعناع، تمتطي الأحصنة العربية في الصحراء وترتدي القفاطين وتغطي رأسها، تحملت مشقة النفي وصعوبات الحياة بعيدًا عن وطنها، عشقت شيخها.

ستتبع جيني أثر جاين، ستنزع الماضي من على جسدها كملابس متسخة من أجل الرحلة التي تعد نفسها للقيام بها، ستقبض على الفرصة التي وُهبت لها، وستتطلع في هذه الأرض المجهولة حيث وجدت نفسها بمحض الحظ والصدفة، من يدري؟ ربما جيني أخرى، جيني جديدة، في الصحراء؟ في الصحراء، في وادي الفرات، ستتعمد في مياه النهر الهادئة، ستشرب بقوة، ستخرج منه مختلفة ومتغيرة، في أعماق الشرق، ستشرق، من البداية، نعم، هناك حيث وُلد الإنسان، ستولد هي -أيضًا- من جديد.

**لم تغمض عينًا**، لم يكن بسبب الكحول، ولا بسبب وساوسها التي تبقيها ساهرة في الليالي؛ كان الكتاب الذي أعطاها إياه رومانوس قبل أن يودعها ليلة أمس، "سيرة جاين ديجبي"، كتاب للجيب، لين الغلاف والأوراق، قُرِأ آلاف المرات، على الغلاف كانت عيناها الكبيرتان الزرقاوان تهربان من عيني القارئ المتفحصة، كانت تنظر عاليًا في المدى البعيد، كأنها على أهبة الاستعداد للصعود للسماء، هاربة.

كانت حقيبتها تتسع للكتاب، لكن الليلة لم تتسع له، نامت قرب الفجر والكتاب مفتوح على صدرها، نامت دون حبة المنوّم، لأول مرة منذ شهور.

فتحت عينيها بعد أن دخل ضوء النهار للغرفة؛ قفزت من تحت الشراشف على عجل ونزلت تحت الماء ثم أخذت تفكر في جسدها كأنها تريد أن تكشط من على جلدها كل طبقات الماضي السميكة منها والرقيقة، الحزينة والسعيدة؛ كل هذا يثقلها، حتى أنها كادت تجرح بشرتها وكأنها تعاقبها لأنها استسلمت للمسات كاذبة، وكانت من الضعف ألّا تقاوم أو ترفض، ينزلق الماضي من عليها مع الماء والصابون مثل السخام، ويدور كالدوامة للحظة على ساقيها ثم يختفي في مصرف المياه، ها قد رحلت الصور! فلتبقَ ورقة الذاكرة بيضاء كي يتسنى لها أن ترسم وجوهًا جديدة وابتسامات وعناقات وقصصًا جديدة كتبت بكلمات مغايرة، أسطح ومنازل وأماكن، ماضٍ مختلق.

وُلدت جاين ديجبي في "دروست" البريطانية في بدايات القرن التاسع عشر، الابنة الكبرى للقبطان ديجبي، عاشت طفولة رائعة مع إخوتها وأبناء عمومتها في بيت الجد حيث كانت تلجأ الأم أثناء غيبات زوجها في البحر، كانت الطفلة المدللة للجد وللأولاد، تعلمت من صغرها أن تحصل على ما تطلبه أيًّا كان، وكان جمالها هو حليفها الدائم، الإعجاب الذي كانت تحصل عليه منحها ثقة بالنفس ونورًا في وجهها مما كان يبرز طولها الفارع، هكذا وبسهولة وجدت زوجها الأول، اللورد إلينبرو، أرمل بلا أولاد يكبرها بخمسة عشر عامًا، الذي قدر شبابها وجمالها وقدرهما بلقب

النبالـة الـذي أهداهـا إيـاه، روح العـروس المتمردة وانشـغال اللورد المسـتمر بأعماله كان سـبب بعـض الصخـب فـي الأوسـاط الاجتماعيـة الراقيـة فـي لنـدن، فـكان الجميـع يتابـع صفحـات الــ **Times** ويلتهمهـا كلمـة كلمـة ليعـرف تفاصيـل وتطـورات العلاقـة بيـن الزوجيـن، والسـبب كان أميـرًا دبلوماسـيًّا ينتمـي للبـلاط الملكي النمسـاوي؛ ألهب مشـاعر الليدي فتم فصله مباشـرة فور أن انفجـرت الفضيحـة، كانـت جايـن عاشـقة وحامـلًا فلجـأت إلى أوربـا وبخاصة بعـد أن وصمت بالزانيـة إلـى جـوار الرجـل الـذي أحبتـه ومن أجلـه ألقت بالمجـد والألقـاب في نهـر التايمز.

"يا للغرام!".

ابتسمت جيني أمام المرآة وهي تحاول أن تخفي قلة نومها خلف نظارات شمسية كبيرة.

كان رومانـوس ينتظرهـا فـي المطعـم للفطـور، توتـر لوهلـة مـن النظارات السـوداء وبشـرتها الشـاحبة التـي كان منظرهـا يدعـو للقلق.

- "صباح الخير، ألم تنامي جيدًا؟".

تعجلت في الإجابة:

- "على الإطلاق... الليدي إيلينبرو دفعتني للسهر".

تنفـس بارتيـاح، فأمامهمـا يـوم طويـل ومرهق، لم يُـرِدْ أن يبدأ يومـه بتغيير البرنامج، شـربت جينـي عصيـر البرتقـال دفعـة واحدة ثم ألقـت بظهرها علـى المقعد؛ قالـت مازحة:

- "كانت ذات قلب متمرد".

- "كانت تتخطى الحدود، في الحقيقة".

- "في عصرنا هذا الحدود يتم تخطيها بسهولة".

- "لا أتحـدث عـن هـذه الحـدود، لـو أن الأمـر فـي يومنـا هـذا لحصلـت الليـدي علـى

سراويل الأمير النمساوي"، أجابها وندم على الفور للكلمة التي استخدمها.

صمتت، ربما يكون رومانوس محقًّا، لو أنه اليوم لدفع فيليكس زفارتشنيبرج ثمنًا كل كيلو من وزن ابنته ذهبًا وألماسًا ليبعد عنه عشيقته، لكن جاين كانت منفية من بريطانيا برضيعة وعشيق غير مكترث، دثرت يأسها بملابس خضراء أنيقة وأقنعت نفسها بأن قصة حبهما تمر بفترة صعبة بسبب عمله، أصرت أن تنتظر، فكانت تعشقه.

أصر رومانوس:

- "أتحدث عن نكران الذات وإيمانها بحبها".

اعتدلت جيني في جلستها، "هل هذا الشخص يهزأ بي؟ هل يوجد رجل يتحدث عن نكران الذات؟ اليوم كل رجل سيفسر سلوك امرأة كهذا على أنه ابتزاز نفسي أو سذاجة، سوف "يهرب" بخفة، تمامًا مثلما فعل فيليكس، سواء كان دبلوماسيًّا أم لا، سيفعل ما في وسعه حتى يهرب من الفخ، صعد طعم مرير إلى حلقها، لكنها قاومته، أفرغت رأسها من الأفكار السوداء، راحت تتأمل الوجنات المرمرية للإنجليزية، لم يكن ينقصها الجمال والحسن والدلال، ولكن هجرها الدبلوماسي، عاد الكابوس لوهلة.

- "هل هناك امرأة أخرى؟".

- "لا أعتقد، في ذلك العصر على الأقل لا.. لقد خاف زفارتشينبرج من تبعات علاقة كهذه على عمله ومركزه وضغوط العائلة، كانت هذه العلاقة بالنسبة له أمرًا عابرًا".

هكذا بهذه البساطة، أمر عابر، كم يقولونه كلهم بهذه السهولة! "كل شيء كان وهمًا يا عزيزتي إيفيغينيا.. سطحيًّا"، مر ستراتوس من أمامها كالبرق، نهضت على نحو مفاجئ واتجهت نحو بوفيه الإفطار، كانت الرعشة على شفتيها سوف تكشف أمرها، وهو ما لم تُرِده، تتذكر أنها لم تتناول حبة دوائها في الصباح، "اللعنة! كيف نسيتها؟" لا! لم يكن وهمًا، ولا حتى السهر في بيتها، ولا عرق جسديهما، ولا

سيَّما خيانة مارا، لغم تحت فراشهما، كم تُسمع هذه الجملة بهذه السهولة، كانت علاقة سهلة وعابرة! كل ستراتواس وكل فيليكس يطوي أنانيته في هذا الغلاف الجذاب: "سطحية!" ثم يستريح ويترك للآخر الإحساس بالفقدان، تعلم جيدًا كم كلف جيني هذا الهجر، لم تكن في حاجة لأن تقرأ كل هذه الصفحات فعبرتها، حينها، كانت آنذاك، رسائل لا يُرَدُّ عليها؛ اليوم، هواتف لا تدق، يوم عيد الميلاد يُنسى، الوحدة والعزلة والأمل، أي قدر من الأمل سيتسع له قلب فتاة ساذجة تعلمت فقط أن تنتظر؟

عادت إلى الطاولة بطبق فارغ، اشتمَّ رومانوس بشائر عاصفة مفاجئة على وشك الهبوب؛ فذهب عقله نحو تبديل البرنامج أو إلغائه، لكن جيني التي يصعب التنبؤ بتصرفاتها وبعد أن شربت كأسًا أخرى من عصير البرتقال، تبعته خاضعة إلى الزيارة الصباحية لأسوار المدينة القديمة.

في أسواق دمشق الشهيرة، الأسواق المغطاة التي يتجلى فيها كل سحر الشرق، البضائع والبشر يتحدون تحت الحجارة المعمرة، روائح البهارات والأجساد وأصوات الباعة المتجولين، النقود التي تتبادلها الأيادي، ألوان.. ألوان كثيرة في كل مكان، الأخضر الحيوي والأحمر المشتعل، جدائل ذهبية وأوشحة بيضاء على رؤوس الفتيات، خيالات سوداء لنساء وملابس داخلية لافتة في الفترين، انبهرا من التضاد، يتوقفان بين الحين والآخر ليلتقطا أنفاسهما ثم يهجمان من جديد في الزحام الذي يتحرك في كل اتجاه، إلى الخلف وإلى اليسار وإلى اليمين، قفاطين وأوشحة من الحرير الطبيعي والصناعي ومناشف قطنية، عطور ثقيلة، مشغولات ذهبية وأنتيكات، صناديق من العاج وسجاجيد والقهوة والشاي، كل هذا في طريق واحد مستقيم، طريق Via Recta الروماني، الذي بقي صامدًا كمركز للمدينة عبر القرون ويتجمع فيه البشر من كل أرجاء البلاد، على يمين ويسار الشارع تفتح أبواب الحوانيت أفنية ومحال حولها، حيث التجار يخزنون بضائعهم ويقومون بمفاوضات البيع والشراء، بالضبط فوق أحد المداخل المهيبة كان هناك موظف يراقب الطريق والفناء ويرصد ليل نهار الحركة في الخانات كلها.

في تلك الأماكن استوطنت في البداية السفارات الغربية التي كانت تستغل ثروات الهند البعيدة وبلاد فارس وبغداد، بهارات وشاي وحبوب الخردل والحرير والأرز وجوز الطيب والأحجار الكريمة والجلود الثمينة محملة في قوافل كانت تصل إلى دمشق وتحمل على السفن المتجهة إلى مرسيليا وجنوة. البوابات الحديدية المزدوجة للسفارات كانت تحفظ أسرار الاتفاقات وثروات الأجانب محفوظة وآمنة عن فضول الأعين، فقد حولوا الخانات إلى غطاء لحيواتهم، جزر صغيرة لأوربا البعيدة داخل أعمدة السوق الصاخب، تبدو جيني مستمتعة، أخيرًا.

انحرفا نحو سوق البهارات، روائح تصيب بالدوار، الفلفل والقرفة والزعفران، تلال من الألوان مرصوصة بجوار بعضها وبجوارها الخزامى وجوز الطيب واليانسون والهال والنعناع، اشترت جيني الشاي بالورد الدمشقي وصابون الغار، خليط من الزيت ونبات الغار؛ شردت -في المحل- في الأحجار السوداء الخفيفة والمناشف الخشنة، تلك الأشياء التي يصطحبها الرجال إلى حمام نور الدين المجاور، أقدم حمامات المدينة والذي يعمل منذ أيام الفتح العربي، يكتنفها شعور أسطوري لا يصدق، "أليس في بلاد العجائب"، علاء الدين يسافر على بساطه السحري، سُمع صوت المؤذن من المسجد الصغير في السوق مدويًا، هكذا كما يحشرون على أطراف الشارع، رجال حفاة يهرعون إلى عمق الحمام، يفرد التجار قطعة قماش خفيفة على أبواب دكاكينهم، شفافة لكنها ثقيلة مثل الباب الحديدي، لا تخرق طيلة وقت الصلاة.

توقفا أمام خان أسد باشا، بوابته بارزة تحت القوس المطعم بالمقرنصات المنحوتة، تدعوهما للمرور إلى الداخل، نفس الفناء المربع والنافورة الرخامية في المنتصف، ومع تلك الفخامة العثمانية ارتفعت فوق أربعة أعمدة بارزة، ثماني قباب تغطي الفناء تاركة الضوء يسقط عموديًّا من القبة المركزية التي بقيت مفتوحة، أبدت جيني إعجابها بطراز البناء وعناصره المعمارية والزخرفة المعقدة، راحت تحسب التصاميم لكن فجأة دفعها خيالها بقوة وحشرها في الفناء الذي يعج بالحيوانات والأغوات والتجار والموازين والخيرات والبضائع المكومة على الأرضية والأرصفة قبل أن يذهب إلى المخازن، "رائع!"، فكرت وهي تطرد صورة

خاريس التي ظهرت أمامها فجأة منحنيًا فوق لوحة تصاميمه في بيته في بيليو، اشترى رومانوس الراحة المعجونة بالفستق الحلبي، **Sham Fistik**، *الشام*، هو الاسم العربي الدارج لسوريا ودمشق، وصل الفستق الحلبي إلى إيجينة في القرن الماضي فتحسنت تحت الشمس اليونانية، مثل الفستق، في قراطيس على قمم فاليرو، وفي أوانٍ زجاجية في مطبخ الجدة رينا.

تذوقت جيني الحلوى بتلذذ مع نظرات التجار والمارة الشرهة، راحت تتذكر جزءًا من كتاب سيرة الإنجليزية الذي كانت تقرؤه ليلة أمس.

كيف تثير ملابسي النظرات الوحشية للرجال العرب الذين يلتفون حولي!

بجوارها تمر دراجة كادت أن تحتك بها وعربات تجر أطفال يصفرون ويصرخون، في أحد المحال على الناصية جربت بعض العطور من الزيوت النباتية كالياسمين والخزامى، كان رومانوس يتسلى من ردود أفعالها، داخل عينيها المندهشتين رأى صورة سوريا من جديد التي تتشكل في عيون الأجانب في رحلة جاين ديجبي، لكن هل ترى جيني سوريا الخاصة بها في هذا الخليط من التراث والروعة؟ هل تلاحظ قلق الناس اليومي؟ الناس الذين يهرولون بالأغراض على ظهورهم وفوق العربات، هذا الزحام والحركة الفوضوية، الحرمان والعوز والفقر والفكر، البربرية الحديثة، رجال حنت ظهورَهم هموْمٌ ثقيلة، نساء يرتدين الأسود يحملن أطفالًا، أوشحة بيضاء على رؤوس شاخصة، علامة على سيطرة الدين والهوية العربية، بأي قدرٍ يشعر أنه عربي؟ هل هؤلاء هم أهله، كل هؤلاء الذين يقابلهم في الشارع، يتعرقلون فيه، يمرون بجانبه أو يسقطون فوقه؟ محاصرون في السوق الضيقة يجرون عرباتهم وبؤسهم خلفهم، يتعرقلون ويقفون، يستعيدون توازنهم محملين بالإيمان الذي ينفخ الريح في الشراع، بحارة الصحراء، هؤلاء الذين لا يرون البحر، هل يشبههم في أي شيء؟ هل هناك اختلاف؟ بالطبع لا، فهذا يُرى بالعين المجردة، الديانة ربت الفروق التي تُرى، تشرح وتفسر، إخلاص وطاعة العقل بلا حدود، "الله أكبر، لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله"، يسوع روح الرب والنبي محمد، يشعر بداخله بشرخ ما؛ ومن هنا يقفز الاختلاف، تمامًا مثل الحشائش التي تنبت

بيـن بـلاط الأرضيـات ولا يجـرؤ أن ينمـو ويكبـر، يبقـي قصيـرًا وضعيفًـا، لكنـه هناك، ربمـا يكون هـو نفسـه هـذا الاختلاف، محشـورًا بين وطنيـن، بين لغتيـن، وكلما بحث عن تشـابهات وجمعها الواحـدة فـوق الأخـرى، في النهاية يبقـي هو المختلف، بعينيـن إحداهما زرقاء والأخرى سـوداء.

بريق ينعكس من السلاسـل والمجوهرات في سـوق الذهب، السـوق المغطاة تنتهي وأشـعة الشـمس تغسـل الواجهـات التـي توجـد فـي الجانـب المكشـوف مـن الشـارع، أسـاور مطعمـة بالأحجـار الكريمـة معروضـة أمـام نهم الزبائن وشـهوة الأعيـن، الذهب دائمًا هو الحلم والشـوق والتنهيـد الخفي.

مـرت جينـي بجـوار المحـال بلا مبـالاة فانتبـه رومانوس على الفـور، أين ذهب ذلـك الحماس الـذي كان لديهـا عندمـا اشـترت صابـون الغـار؟ كـم تختلف هـذه المرأة عـن كل الفتيـات اللاتي عـرف مـن قبـل، مـا هـو الشـيء الـذي يربط امـرأة بالذهـب؟ لـم يسـتطع أن يفهمه أبـدًا، كانت جوليـا، أولـى علاقاتـه، قد تأثـرت كثيرًا عندما أهداهـا خاتمًا بحجر أحمر، كانت بنتًا لأب مسـيحي وأم يهوديـة، أصابهـا رعـب شـديد عندما عرفـت أن أمه سـورية، "لكنها تتحـدث اليونانية بطلاقة، يعنـي، لـم تخسـر شـيئًا.. لـم أرَ أنهـا أعـادت لـك الخاتـم"، قالت لـه نادية بمـرارة، وشـعرت لأول مـرة بمسـؤوليتها عـن ألـم شـيخها الصغيـر، كراهيتهـا لإسـرائيل موروثة مـن الجدة رينـا، انفجرت فـي جوليـا: "مـا ذنب الفتـاة؟ هكذا تربت"، تذمـر بتروس -أيضًـا- لأنهم ضايقوا زوجتـه، لم يهتم بأمـر رومانوس، كان أمرًا بسـيطًا يخص النسـاء وسـيتخطاه.

- "ألا تحبين المجوهرات؟".

سأل جيني التي أجابته بابتسامة على طرف فمها:

- "الهدية الحقيقية هي التي لا يمكن استعادتها".

هي أعادت كل شيء، لم تحتفظ ولا حتى بصورة واحدة، ماذا ستفعل بها؟

جـاءت إلـى ذهنهـا جايـن، التـي كانت تفضل الهدايـا الصغيرة التـي كان يمنحهـا إياها حبيبها الشيخ.

*عزيزي ميتزول، كم أقدر دليل حبك، كم هي مختلفة عن الهدايا الثمينة التي كنت أتلقاها من اللورد إيلينبرو.*

وفقًا للعادات القبلية، هدية الزواج من العريس إلى العروس هي سوار فضي، كدليل قوي على نجاح زيجتهما، شيء له نفس المعنى بالخاتم في بنصر اليد اليمنى، أهدى الشيخ إلى جاين مع السوار الثقيل زوجًا من الدبابيس الفضية معلقة في سلسلة كانت ترتديها دائمًا في عنقها، حتى تنزع الشوك من أناملها العارية.

تتذكر جيني بمرارة قبلات ستراتوس على أطراف أصابع قدميها، قشعريرة.

- "ألم تحتفظي بأي شيء؟"، أصر رومانوس ثم ندم على فضوله.

- "بلى، لقد احتفظت بشيء"، أجابت بعد تردد طفيف ثم أكملت: "لكنه لن يبقى طويلًا".

**بالماء والطحين تُصنَع أشهى المأكولات**، يحتاج الأمر فقط لفرن جيد كي يكتسب العجين رائحة الخشب المحروق والوجه المُحَمَّص، تذمرت معدة جيني الجائعة أكثر من مرة ولم تنخدع براحة الفستق[1]، وهكذا جذبتهما الرائحة الآتية من الفرن الذي كانت تخرج منه الأرغفة الرقيقة الساخنة في تلك الساعة بعد انتهاء الصلاة. البائع المتجول يدور في الشوارع بين السجاجيد المعلقة والهدايا التذكارية ودكاكين الحلاقين والورش، كل أنواع الورش، من الأبواب المفتوحة يظهر الرجال بداخلها منحنين يحاربون الإلهام أو الروتين، أصداء المذياع وطنين الماكينات، قبل أن يصلا إلى الجامع توقفا أمام مقهى مكشوف يليق تمامًا بأجساد الرجال الخاملة في الظهيرة يجلسون تحت ظلال الجامع يهدهدون أفكارهم ويبللون أجوافهم وأحاسيسهم بعد التعاطي مع الإله.

ظهرت المقاهي لأول مرة في مكة، وكانت مكان التقاء المؤمنين بعد الصلاة، من مكة إلى حلب، ثم انتقلت بعد ذلك إلى إستانبول ومنها إلى أوربا، قديمًا كان الناس يمتصون مع الدخان قصص الحكائين الذين كانوا يفتنون الناس بنبرة أصواتهم وإيماءاتهم وهم يحكون عن بطولات نور الدين وصلاح الدين الذين حاربوا الفرنجة وحرروا البلاد من الصليبيين، كان الحكاؤون يقصون الحكايات عن الإيمان والشجاعة وانتصارات وعظمة وأمجاد الأجداد الأفذاذ، كانت الحكايات تنتشر من فم لآخر مثلما كان يحدث مع ملاحم هوميروس في قديم الزمان والشعراء المتجولين في العصور الوسطى.

قال رومانوس مازحًا: "في المدرسة في اليونان لم أدرس شيئًا عن هزيمة البيزنطيين في موقعة اليرموك وفتح دمشق، بينما جدتي رينا كانت هي من حكت لي عن انتصار العرب".

دائمًا تتواجه قوى الخير وقوى الشر، يصطف الجيشان رافعين أعلامهما ورائحة الدم ترفرف في الهواء قبل أن تصطدم الأجساد، ورومانوس يقف في المنتصف،

---

1- راحة الفستق في بلاد الشام هو ما يُسمى في مصر بالملبن.

أهو بيزنطي أم عربي؟

- "كنـت أكـره درس التاريـخ فـي تلـك السـنة، كان يجـب عليَّ أن أنحـاز لفريق مـن الفريقين فكنـت أشـعر بالمهانـة، أنـا لـم أكن أحـارب مع أحـد؛ فآثـرت أن أصبح متمـردًا".

نظـرت إليـه جينـي بتعاطـف، كـم هـو غريـب هـذا الرجـل! يـا لهـا مـن رفاهيـة أن ينقسـم نصفيـن بيـن جيشـين علـى صفحـات كتـاب، والنصـر والهزيمـة معروفـان مـن قبـل، لا يعـرف رومانـوس معنـى أن يكـون بيـن أب وأم ينهـش كل منهمـا جسـد الآخـر، أن يتبـارزا بالنظـرات الحـادة والتهديـدات، بكلمـات كالشـفرات تقطع قلبها، كم تتشـابه طفولتهما! هـو محارب عذري لـم يطلـق رصاصـة، هـل هـو فـي مثـل عمرهـا؟ هكـذا يبـدو لهـا، راحـت تنظـر إليـه مـن خلـف نظارتهـا السـوداء وتتسـاءل كيـف كان يعيـش هـذا الرجـل فـي غابـة مثل أثينـا، أي وسـيلة ابتكر كـي يهـرب مـن النمـور التـي تقتـرب بخطوات صامتـة خبيثة ثـم تلتهـم غنيمتها بلا رحمـة؟! هل سـالت منـه الدمـاء مـن قبـل؟ عـن أي معـارك يتحدث؟

- "هل لديك علاقة؟".

لم يفاجأ من سؤالها، وهو معها كان عليه أن يكون مستعدًّا لأي شيء على الدوام:

أجابها:

- "منذ عام".

ومنعته النظارة السوداء أن يتفحص ردة فعلها.

- "ألا يشغلها غيابك الدائم؟".

الأزواج هـم مـن يغيبـون، الأزواج هم من يخونون، هل هناك ثمة اسـتثناء لا تعرفه؟ بالنسـبة لها تلك هـي القاعدة.

- "ليست هناك أي مشكلة في هذا، الثقة هي الأساس الذي تُبنى عليه العلاقة".

ارتسمت ابتسامة طفيفة على وجه جيني، أهو ساذج أم مُدعٍ؟ لا يهمها، اندهشت من فكرة أنها لا تشعر بالحاجة لأن تحصل على إعجاب رومانوس، أن تثير اهتمامه.

كان يسيطر عليها إحساس مبهم، يميل أكثر نحو الرهافة الممتزجة بالفضول تجاه هذا الرجل الشاب، وبالأخص تجاه علاقته بهذا الوطن، فهو يفرده أمامها مثل قطعة قماش ثمينة ونادرة، وبين طياتها ترى إنسانًا منقسمًا، طفلًا عاجزًا، مثلما كانت هي أمام انهيار عالمها الصغير، مع من كانت تحب أن تكون؟ مع أبيها أم أمها؟

وصلا إلى الجامع الأموي، هدد[1]، زيوس السلوقي، جوبيتر الروماني، ويوحنا المسيحي يتناوبون في نفس المكان، خلاط الزمان، تاركين آثارهم هنا حيث يصلي المؤمنون عبر القرون.

عندما سيطر العرب على دمشق في منتصف القرن السابع، بنوا في البداية مسجدًا بجوار كنيسة يوحنا المعمدان، في نفس المكان بنى الوليد الأول وهو يؤسس الدولة الأموية الجامع الدمشقي الكبير كي يرمز لعظمة الرب، متأثرًا بشدة بالنماذج المعمارية البيزنطية، شيَّد الجامع الكبير الذي كان عبارة عن ثلاثة ممرات ملكية تفصلها أعمدة كورنثية الطراز بمحاذاة جدار القبلة نحو مكة، في المنتصف ممر عريض تعلوه القبة، من أجل بنائه جاء من إستانبول بآلاف الصناع الذين طعَّموا الأقواس الداخلية للممر المغلق بفسيفساء رائعة، مناظر وحدائق وأنهار، جنة مصنوعة من الزجاج الأخضر ومكعبات ذهبية خالصة، تقول الأسطورة إنه لا يمكن لأي عنكبوت أن يغزل هناك بيتًا ولا ليمامة أن تصنع عشًّا، كل هذا أكلته نار المغول ولم تترك منه سوى القليل منه يبرق اليوم تحت الشمس.

تلفعت جيني بشال طويل زبرجدي اللون، غطت به شعرها ووجهها وكتفيها

---

1- هدد أو حدد أو أدد: هو أحد أهم آلهة سوريا القديمة حيث انتشرت عبادته بين شعوبها من شمالها وإلى ساحلها مرورًا بدمشق وحتى بلاد الرافدين، وقد كان حدد إلهًا للعواصف والأمطار أو إلهًا للطقس حيث تذكر الأساطير القديمة عنه أنه كان يتجول على متن عربته في السماء ويجلد الغمام بالسوط لتتساقط منها الأمطار بينما كان ثوره يزمجر مسببًا صوت الرعد الذي يهز أركان الدنيا.

حتى ركبتيها، خلعت حذاءها بتذمر خارج بوابة الفناء، يتقابل هناك السياح والمصلون الخارجون من المسجد، كتيارين متناقضين يتحركان في فوضى، ديانتان تتقاربان تارة إلى حد التلامس، أو تتصادمان متبعتين اتجاهات أخرى، في الممر الداخلي المغلق، الرجال والنساء والأطفال يقفون حفاة على الرخام ويسيرون تحت الأقواس، الأجانب يلتقطون الصور التذكارية ليحفظوا في ذاكرة الكاميرا بريق فسيفساء الصناع البيزنطيين المهرة، الميضأة تقع في المركز تحت القبة، من أجل الوضوء الذي هو أمر ضروري لكل مسلم قبل دخول المسجد.

سارا حافيين على السجاجيد السميكة في الممر ذي الأعمدة البارزة، النجف يغمر المكان بضوء وفير، قدَّرَت جيني طول الممر بنحو مائة وثلاثين مترًا، روعة، لكن لا يوجد شيء من سحر الكاتدرائية القوطية أو غموض المعبد الأرثوذكسي.

قال لها بطريقة تآمرية:

- "تغيب الأيقونات".

تلك العيون التي تقطر حزنًا، مثل الشموع التي تذوب أمام الأيقونات، الوجوه الرهبانية، الصرامة الروحية والحزن، تعبير السماحة والرحمة، أجنحة تمتد فوقك وتحميك بينما تصلي تحت القبة البيزنطية المثبتة كسماء أخرى مثيلة.

- "لا، ليس هذا، فالكنائس الكاثوليكية ليس بها أيقونات، لكنها مليئة بالضوء الدافئ الذي يتخلل زجاج الأساطير والألم المنحوت على تمثال العذراء أمام ولدها المصلوب. الأقواس المنحوتة التي ترفع النظر والروح، خطوط حادة وزوايا حادة، ترفض الجاذبية، ارتفاع الحجر المنحوت الذي أحياه إزميل الفنان المبدع بحدَّة وكثافة بديعة، حجر وزجاج، الرغبة اليدوية لفن العصور الوسطى".

سألته:

- "ماذا يحدث مع المسحيين هنا؟".

- "يتعايشون هنا منذ قرون".

أصرت جيني:

- "نعم، ولكن تحت أي ظروف؟".

التسامح وقبول الآخر، آلهة البابليين والأرمن يُعبَدون معًا، هيراكليس وأثينا سافرا من اليونان واستقرا بقداسة هنا في الماضي العتيق بجوار بعل وعجلبول، بينما نشأت الكنائس الأولى في الأراضي القاحلة، كان المؤمنون بأريوس ونسطور وسيفيروس الموحد يمثلون المعارضة للسلطات الكنسية لمجمع نيقيا وخلقيدونيا، كما كان المتمردون والثوار ضد سلطة إستنانبول من المسيحيين واليهود والمسلمين يتعايشون لقرون ويستقبلون معًا كل سلطة جديدة، مر عليهم العباسيون من بغداد، والفاطميون والمماليك من القاهرة، وفي النهاية العثمانيون، كانت الأرض هنا مرحبة دائمًا بكل الطوائف الإسلامية مثل العلويين والدروز، ولكل مسيحي مُعَمَّد وراهب للجسد والروح.

قال رومانوس معترفًا:

- "كانت هناك فترات سيئة..".

- "والآن؟".

- "الآن التسامح هو السائد بالنسبة للأقليات، فالرئيس عَلَويّ، العلويون هم من المسلمين الشيعة، احتفظوا ببعض العناصر المسيحية والمعتقدات الوثنية، نزحوا من جبال أنطاكيا، ينظرون بعين نحو البحر الأبيض المتوسط وبالعين الأخرى نحو وادي نهر العاصي، متمردون في الجبال بلا مساجد، وحب للخمر والنساء المكشوفات الشعر وللحرية، عاشوا قليلًا مستقلين تحت حكم الاحتلال الفرنسي ثم بعد ذلك ولفترة قصيرة مستقلين تمامًا، ثم حشروا مرة أخرى في أحضان الأم سوريا، والآن هم من يحكمون، فعائلة الأسد العلوية من اللاذقية".

- "وأنت؟".

- "أنا؟".

- "نعم، أنت.. ماذا أنت؟".

توقفا في منتصف الجامع، رفعت عينيها تبحث فيه عن آثار بدوية أو صليبية أو بيزنطية، راحت تبحث في عينيه بإصرار وتربص كي تكشف عن شيء دفين، شيء يخصه، لا شيء، هو رجل نحيل معبأ بالسلوك الحضاري وينحدر من عائلة محلية عريقة، كان رومانوس يقاوم نظراتها المتفحصة، عيناها قاسيتان، كضوء أزرق يمسح تباعًا وجهه كالمجسات، كدورية في مطاردة ساخنة، لكن دون جدوى.

قالت له في النهاية وكأنها كانت تحدث نفسها:

- "يبدو أنك عشت كل ما تحكيه، هكذا يبدو".

ظهر إحباطها وهي ترتدي نظارتها مرة أخرى، انتهى التواصل، كلماتها أصابته في الصدر مباشرة، راح ينظر إليها بدهشة، لم يمر يومان على لقائهما وها هي تنطق بحقيقته. نعم، هكذا يشعر أنه قد عاش تلك الآثار وهذا التاريخ، نفس الشيء على الضفة الأخرى من البحر، كجرعات تقطرت داخل روحه ببطء، ميراث ثقيل، انقسام قاسٍ من قبل أن يدرك الدور الذي عليه أن يلعبه في كل مرة يبدل فيها الوطن، هوية مزدوجة، عربي هو أم يوناني؟ أم الاثنان معًا؟ زيت وخل، أي منهما يطفو على السطح عندما تهدأ الرجرجة؟ من الأفضل ألّا يكون أيًّا منهما، بحار رحال، زائر لليابسة ووطنه هو شراع ومرساتان.

أدارت ظهرها مبتعدة في صمت نحو المخرج، خرجا من البوابة المؤدية نحو الميدان، ارتديا أحذيتهما على عجل، انحنت جيني فتركت شالها الزبرجدي يسقط بين أقدام المصلين كأنه قطعة من الجلد الجاف من جرح قديم، ثم اختلطت مع الجموع، تاركة خلفها انبهارًا بالمباني ومقاييس طُرُزها، راحت تحسب المساحات في المعبد القديم، في الواقع الجامع الأموي والفناء كانا هما الجزء الأساسي من معبد زيوس والميدان خارجه، كان المكان الذي يحيط به، طبقًا لحساباتها. هذه الأطلال من الأعمدة التي تقف الآن في المقابل، كانت الفناء الخارجي للمعبد وبوابة كبيرة تستخدم الآن كمدخل لسوق الحميدية المغلقة، أكبر أسواق المدينة، بوتقة

سوداء تبتلع المئات من البشر الذين يضيعون في داخلها.

بقيت شمس الظهيرة خارج الأزِقَّة المظلمة وراح النسيم يكتنف الزائرين، محال مضيئة تبيع الملابس بصفة أساسية، والباعة الجائلون فرشوا بضائعهم على ألواح عالية، الأولاد على الدراجات ينقلون صواني القهوة، ورضع منهكون يبكون في أحضان أمهاتهم وكأن الدوار قد أصابهم من التعب والزحام، طابور طويل أمام أحد المحال، رجل بذراعين عاريين يضرب البوظة البيضاء ويمطها، بينما آخرون يغمسون الأقماع في الفستق المبشور، ذروة الاستمتاع، الآيس كريم يُحلّي الأجواء من جديد ويرسم على وجهيهما الابتسامة.

كريم البوظة والمقاعد الوثيرة، لحق رومانوس وميض منها في مقهى وحلواني "زونارس"، في الثمانينيات، كانت نادية تحاول أن تأسر الخالات السوريات عندما يأتين في زيارة إلى أثينا وكانت تأتي معهم لورا العروس الجديدة، والزوجة الثانية للعم نديم، كان رومانوس يأكل الآيس كريم بالملعقة وهو متكور في أحضانها، كانت نحيلة كجذع شجرة وعلى وجهها فضول دائم، كانا قد عادا لتوهما من رحلة شهر العسل في أوربا ومرا على أثينا ليقابلا باقي العائلة قبل أن ينتقلا للإقامة الدائمة في أمريكا حيث وجد نديم عملًا هناك، لم يقضيا سوى ليلتين في اليونان، "لا يزال هناك الكثير من الأشياء لترياها، يجب أن تبقيا بضعة أيام أخرى"، أصرت عليهما نادية، لكن أخاها كان على عجلة من أمره تلك المرة ليغادر أثينا التي كان يحبها كثيرًا، مثلما غادر وكأنه مطارد من وطنه، حيث إنه خاف من قسوة النظام آنذاك، كان زواجه مجرد حجة، كانت العمات يقلن إن لورا كانت تتوق للعودة إلى بلادها، كانت أمراضها تنتظرها في أمريكا.

- "أي طبيب كان؟ سألت جيني وهي تقرمش قمع الآيس كريم".

- "طبيب نفسي".

أجاب رومانوس، لكنه لم يدرك أن عينيها قد انطفأتا خلف نظارتها السوداء.

لا بدَّ أن تتقاسم الفشل، هذا ما كانت تؤمن به أمها، لم تتقاسم أماليّا انهيار

أسـرتها مـع ميخاليـس راليـس، فـذاك كان يـدور مـن بلاتـوه إلى آخـر حامـلًا همومه هـو، صارت جينـي المتلقـي الأوحـد ليأسـها ولرحلتهـا الطويلـة التي كانـت تنتظرهـا كمطلقة.

كثـرة الشـكوى وجنـون أمَاليّـا كانـا بمثابـة الروضـة بالنسـبة لجينـي، التـي سـريعًا مـا بـدأت تشـعر بعـبء مسـؤولياتها تجـاه وضع أمهـا، ففي عقلهـا الصغير البـريء بدأت تبني التفسـيرات، كانـت هـي المذنبـة، ليـس فقـط لرحيـل ميخاليـس، ولكن لعـدم عودته أيضًـا، وعندمـا كان يأتي كان يمنـح ابنتـه أحضانًـا مقتضبـة تشـبه توقيعـه للأوتوجرافـات، حنانًـا مختصرًا ومشـاعر جوفاء، تـرك خلفـه فـي البيـت مراهقتيـن غيـر ناضجتيـن، وعنصـر الحـب مكتـوب علـى الشاشـة بخـط عريـض، اسـتمرا هكـذا لعقـد مـن الزمن.

عندمـا تزوجـت أمَاليّـا مـرة أخـرى، غـادرت إلـى لنـدن تاركـة جينـي فـي أثنيـا، مر زمـن حتى تـدرك أنهـا "لـم تـربِّ ابنتهـا... لكنها رَبَّـت المـرض بابنتهـا"، هكـذا كانـت تقـول بعـد أن أعـاد التحليـل النفسـي تعميدهـا، علاقـة المرأتيـن كانت تمر دائمًا بصعـود وهبوط متكـرر، بينما كانتا تحـاولان دون جـدوى أن تسـتقل كل منهـن عـن الأخـرى، كانـت أمَاليّـا تتعكـز علـى ابنتهـا بينما كانـت الابنـة ترفـض بإصـرار كل أشـكال تدخـل الأم في حياتهـا، كانـت أمَاليّا تحاول أن تشـرح لها كيـف لا يجـب أن تقـع فـي نفس الأخطاء التـي اقترفتها فـي الماضي، لكن جينـي ودون أن تدرك كانـت تفعـل العكـس تمامًـا، وكأنـه قـد وجب عليهـا أن تجرب وتـذوق نفس العـذاب الذي أنهك أمهـا، كأنهـا كانـت تريـد أن تـذوق الألم الـذي يربط أمَاليّـا ويقيدهـا بالماضي، فشـل الأولى كان يتـرك الأخـرى فـي مرحلة الاسـتعداد لخوض نفـس الاختبار لتعلُّـم نفس الـدرس، "اعتمادكما على رجـل أكبـر يشـهد علـى رغبـة دفينة فـي البحث عـن أب، رفض نمـوذج الأم الذي يسـيطر عليكما هـو طبيعـي جـدًّا"، مُركبـات معروفة وعلاجـات مكلفة.

- "كانت عيادة معالجي النفسي في شارع هارلي، هل يذكرك اسم الشارع بشيء؟".

أجابها ضاحكًا:

- "شيء مختلف تمامًا".

الليدي جاين إيلينبرو قابلت عشيقها الدبلوماسي في بيته، رقم 73 في نفس الشارع، كانت تترك العربة على ناصية الشارع وتسير المسافة المتبقية على قدميها حتى تصل إلى عش العشق وهي تغطي وجهها بنقاب أبيض، شهادة أحد الجيران صارت موضوعًا مثيرًا في جريدة الـ **Times** اللندنية ودليلًا قويًا لإصدار قرار الطلاق الذي كان يدينها، زنا بَيّن.

- "لكن لماذا كنت تلجئين للتحليل النفسي؟".

- "كان التوازن يغيب عن حياتي".

سألها بتردد:

- "والآن؟".

- "ما زلت أبحث، الانسجام لا يوهَب".

- "هذا نفس كلامهم، تعالي، سأريك شيئًا".

وجَّهها وهو يشير لها إلى الطريق الذي يقطع السوق المظلمة يسارًا.

- "كلام من؟".

في القرون الوسطى الإسلامية كان العلماء العرب عاكفين على ترجمة جالينوس وإيبوقراط، وكان الأطباء يراقبون الجسد الإنساني ويقيسون الألم ويحاولون اكتشاف الدواء من الأعشاب ومن خلال التجارب في معامل بدائية، فلاسفة وعلماء فلك وكيميائيون وأطباء وعلماء كانوا يرتبون حكمة القدماء ويخطون خبراتهم في مجلدات ثقيلة، متتاليات للمعرفة الغربية الكلاسيكية، مركز الخلافة في قرطبة الإسبانية صار مركزًا للتنمية والعلوم، بينما في ما بعد رسخت ابتكارات ومستحدثات العرب في أوربا من خلال الحروب الصليبية، معانٍ وكلمات كانت مجهولة تمامًا بالنسبة للغرب مثل الخلط والتكرير والتبخير والكثافة، والتي تبناها

فـي مـا بعـد الأوربيـون، الملاحظـة والتجربـة كانت هي الأسـس التي مـن خلالها يتسـنى الوصول إلـى النتيجـة، العـرب كانـوا هـم أول مـن أنشـأ مستشـفى، ومؤسسـات علاجيـة، ليسـت لعـزل المرضـى كمـا كان معتـادًا فـي الغـرب، منازل مـن أجل المرضـى وكانت في الوقت نفسـه مدارس للطـب، حيـث كان الأسـاتذة والطـلاب منشـغلين بموضوع تـوازن الجسـد والروح.

وجـدا مستشـفى كهـذا داخـل خليـة صاخبـة للسـوق، قـوس البوابـة بـه خليـة نحـل منحوتـة بروعـة، بـارزة بيـن الدكاكيـن السـياحية فـي سـوق الخياطيـن، بيماريسـتان نـور الديـن، أي مستشـفى نـور الديـن، اليـوم هـو متحـف لتاريـخ الطـب العربي، يغلـق حديقتـه الداخليـة أثناء يـوم علاجـي حقيقـي، وحـول الحديقة قاعات سـرية للمعرفة تقاسـمها العـرب مع العالم بأسـره، أسـطرلاب وخيـوط لقيـاس المسـافات وأدوات جراحيـة وإسـفنج للتخديـر ومخطوطات لتشـريح الجسـم البشـري ووصفـات وتركيبـات كيميائيـة، فـي نوافذ العـرض المظلمة في المتحـف يضيئها تقـدم الإنسـانية التـي تشـع نـورًا، حـط الصمـت علـى جينـي التـي توقفـت عنـد كل معـروض، أسـماء مجهولـة بجـوار كل معـروض معـروف جدًّا بالنسـبة لها، الشـوري، ابـن النفيـس، الفارابي، المعلـم الثانـي بعـد أرسـطو هـو ابـن سـينا الـذي صـار معروفًـا في الغـرب باسـم إفسـينا، والذي وضـع بصمتـه فـي عالـم الطـب بعـد أن وضـع قانونًـا وأفقًـا لتحديـد الأوبئـة وكيفيـة انتقالهـا، سـحرة القـرون الوسـطى الذيـن خلطـوا في أوانيهم فلسـفة أرسـطو وتعاليـم القـرآن وجمعوا في زجاجـات، قِطـرًا ثمينًـا، خلاصـة الطبيعـة والفكـر، مـاء وصابـون للنظافـة، كحـول للتطهيـر، زيـت وعسـل للبشـرة، الخبـازى والكزبـرة لضغـط الـدم، الأفيـون للتخديـر، نبـات الناردين للأعصـاب، القرنفـل للأسـنان، الكمـون والهندبـاء للكبـد، تبقـي العطـور فـي النهايـة، اسـتخدمها الحلبـي مع المـاء والموسـيقى كـي يهـدأ النفس، ويطـرد العواصف التي تقتحـم الروح، ويخفف مـن الجنون.

"لا تكفي فقط هذه الأشياء"، قالت جيني لنفسها.

- "هل تحب نوعًا من الموسيقى بشكل خاص؟".

- "الموسـيقى لا تخفـف الفقـدان، ليـس هنـاك نـوع مـن الموسـيقى يخفـف الألـم، علـى

العكس، الذكرى والموسيقى ينطبعان في الذاكرة في الوقت نفسه، ولا ينفصلان أبدًا، يتعانقان ويرقصان في مكان ما في اللاوعي للأبد، يتألمان".

يهجم ظل ما في عيني رومانوس، وكرد فعل على تلك الذكرى الخبيثة التي تسللت وكادت تخنقه، خرج إلى الشمس.

- "هذا الركن كان مفاجأة"، قالت جيني وهي تتبعه نحو الحديقة.

شجرتا ليمون تطلان على النافورة المحاطة بأصص نباتات وزهور؛ جلست على إحدى الأرائك تحت الظل في الإيوان، وراحت تتخلص من إرهاق المشي والوقوف طيلة اليوم، صوت خرير الماء في الحديقة يهدئها، صوت فريد، واحة صغيرة، منعزلة عن ضوضاء السوق المركزية، تتخيل جيني أنها تستمتع بحديقتها بينما تصفها لذويها، في محاولة يائسة أن تقرب بين عالمين، قدر ما يستطيع هذان العالمان أن يتقاربا على صفحات المراسلات، أنا الآن أجلس في حديقة ظليلة في دمشق وحولي من كل اتجاه الزهور والنباتات المتسلقة وخرير المياه من كل اتجاه.

مددت جيني جسدها وراحت بعينين مغلقتين تبحث عن موضع سقوط الشمس في الفضاء المكشوف، كعبَّاد شمس في الظهيرة، إرهاق وصفاء يتوازنان بداخلها بشكل كامل، جسد وروح في انسجام، وجه مستسلم مسترخٍ دون أي تعبير، وقف رومانوس في مقابلها يراقبها في صمت، يعرف طاقة المكان القوية، حَسَب العرب بدقة المكان الذي بنوا فيه مشفاهم، الباب دائمًا يقع في الشمال والإيوان في الجنوب، الطاقة الإيجابية تطرد الطاقة السلبية، الخرز الأزرق يطرد الحسد.

- "أين وضعتِ شالِك؟"، سألها رومانوس فجأة عندما أيقن أن شالها الزبرجدي يغيب من على كتفيها.

فتحت عينيها متكاسلة كأنها تخرج من كهف مظلم إلى الشمس.

أصر رومانوس:

- "هل ضاع منك؟".

أجابته بلا مبالاة:

- "لا بدَّ أنه سقط مني".

- "سوف تحتاجينه غدًا أكثر من اليوم".

- "ماذا سنفعل غدًا؟".

نهضت جيني من على المقعد.

- "سنذهب إلى بالميرا".

"ربما تكون هذه الرحلة أكبر مغامرة في حياتي وترحالي!" قالت الإنجليزية معترفة في أحد خطاباتها.

نفس الشيء تفكر فيه جيني الآن وهي تنهض فجأة من على المقعد.

- "لا يهم، سنشتري آخر، إننا قريبان من السوق على أي حال، هيا بنا!".

قال لها بتردد طفيف:

- "كان ذلك اللون يليق بك كثيرًا".

ابتسمت له بامتنان وهي تمد يدها نحوه لتجذبه برفق نحو باب الخروج.

- "سأشتري شالًا أبيضَ شفافًا، مثل هذا الذي كانت ترتديه جاين عندما قابلت عشيقها في شارع هارلي... أو شالًا رماديًّا نصف شفاف! مثل الذي كانت ترتديه في الصحراء، the Sitt el Mezrab، السيدة مِزراب".

كانت عيناها الزرقاوان تشعان، وللمرة الثانية بدا له أن جيني يمكن ألَّا تكون نسخة من جاين، إلا أنها، أحيانًا، لديها سحر وعظمة سيدة الشيخ.

**ضجيج المدينة يدخل من الشرفة المفتوحة**، عوادم السيارات وضوضاء أبواقها وفوضى الشارع تتسلق حتى الطابق الثالث للمنزل وتحاصر الغرفة،**Place de l'Etoile**، الميدان الصغير، صورة طبق الأصل للميدان الباريسي، محاط ببنايات منخفضة ترجع إلى أوائل القرن العشرين، شرفات أنيقة، كان أرستقراطيو دمشق يشاهدون موكب الرابع عشر من يونيو السنوي احتفالًا بسقوط الملك. كان الفرنسيون يحتفلون بالحرية والأخوة والمساواة خارج حدودهم، يا للنفاق، دليل جلي على السيطرة والنفوذ بنيت على أكتاف غريبة، على جدار الصالون هناك صورة كبيرة معلقة لعصر يسبق إعلان الدولة السورية، الجدة رينا تقف في الشرفة وتحمل سمير حديث الولادة، بينما في عمق الشارع يرفرف العلم الفرنسي، يشغل الغرفة أثاث لامع منمق يرجع طرازها إلى عقود سابقة ولوحات حداثية على الجدران، صالون يعكس تناقضات حياة المدن التي تشهد على الرفض للتراث المحلي، كان هذا أول شيء لاحظته جيني عندما دخلت شقة نديم.

قال لها مستبقًا ملاحظاتها:

- "لا يعني هذا أنني لا أحب وطني، لا! لكنني عشت بعيدًا لسنوات طويلة، يعني، عادات أخرى، عقلية أخرى".

نفي اختياري، التخلي عن بلد المولد، كان نديم سريع البديهة، الأخ التوأم لنادية، هو بالضبط تكملة لها، في تلك الولادة قفزت في الوقت نفسه أجيال من الأجداد على شكل خلايا بشرية مكثفة في بطن الجدة رينا، الولد الأشقر والبنت السمراء، تراقص مزدوج للماضي، المحاربون الصليبيون وأمراء بدو الصحراء في حبل سري واحد، ملامح مختلفة، شخصيات مختلفة؛ لأنه على قدر كون نادية هادئة ورزينة، قدر ما هو نديم كثير الكلام ومفعم بالحيوية، فماذا كان يعني اسمه؟ رفيق الشراب والمرح!

- "يعني، اسم على مسمى!"، قال وهو يميل بكأسه، في صحتنا! تعجل أن

يظهر أنه لم يَنْسَ لغته اليونانية التي تعلمها في مدرسة سان جوزيف.

تلطفت الأجواء مع شراب العرق البارد في الكؤوس، لم تندم جيني على الإطلاق لقبولها دعوة رومانوس إلى منزل خاله، لقد عاد لتوه من بيروت وأحضر معه من لبنان أجبانًا أوربية وشرائح لحم الخنزير، أشياء شهية تغيب عن دمشق، كما أحضر نبيذًا عالي الجودة من وادي البقاع.

قال متسائلًا وهو يشرب كأس العرق عن آخره:

- "آه، بيروت! عالم آخر، إن المدينتين تشبهان الليل والنهار، لكن من يستطيع أن يعيش بلا ليل؟".

إن حلم سوريا الكبرى قاد الجيش السوري مرتين إلى لبنان مؤججًا الحرب الأهلية، وعلى مقربة اليهود الذين يلقون بالزيت في النار، اشتعلت المنطقة وصار الشك كالرماد وسَوَّد أرواح الناس.

قال وهو يهز رأسه:

- "تعرفون أنتم اليونانيين عن الحروب الأهلية".

مرت سحابة سوداء في عينيه، أشكال مظلمة حوله في الغرفة، على اللوحات خطوط معوجة، نظرات تائهة، وجوه مثل أقنعة مخيفة، بشر بلا ملامح، منحوتات ثقيلة، أجساد مشوهة من الأمراض التي تنهش دواخلها، أعضاء بلا تناسق، بطون مبقورة، فروج مقززة منفرة، ألم منحوت على معدن وحجر.

تجرأت جيني وسألته:

- "لمَ كل هذا القبح؟".

- "الفن الحديث يجرب دائمًا"، تعجل رومانوس وأجاب، متأهبًا للدفاع، إجابة سهلة، نسخ من الكتب السياحية الخفيفة، محامي الدفاع، وفي الوقت نفسه المتهم الذي اقترف ذنب التيار التشكيلي الجديد نحو الأشكال المظلمة، وإنه غير موجود

فـي الخـارج، فـي كل مـكان، ضـوء النهـار وتناغـم الماضـي، نسـب التماثيـل القديمـة والرواقيـة فـي المنحوتـات علـى شـواهد القبـور، أشـكال القديسـين الهادئـة، تجسـيد الطبيعـة فـي المتاحـف البيزنطيـة والأيقونـات، الألـوان وتنويعاتهـا فـي فـن الأرابيسـك، مـن أيـن يسـتقي الفنانـون المعاصـرون كل هـذا القبـح؟

قال نديم:

- "مـن داخلهـم، ومـاذا يكـون هـذا القبـح غيـر رد فعـل؟ الفنـان يعبر عـن مقته للنظـام، عن الاسـتعباد الروحـي الـذي يعيشـه، عـن الرقابـة، عـن غيـاب أي نـوع مـن الفكـر السياسـي، عـن السـجون والمعتقليـن السياسـيين، عـن الأمـل الـذي يضيـع".

قاطعه رومانوس:

- "لكـن يـا خالـي، الفنانـون يعيـدون إنتـاج الواقـع، الواقـع اليومـي فـي كل مـكان فـي أنحاء العالـم يوحـي بالظلام والمشـاعر الشـريرة".

وصلـت ريـاح الحـرب الاقتصاديـة حتـى الشـواطئ الشـرقية لحـوض البحـر المتوسـط، فـي شـمال إفريقيـا اتخـذت الحـرب شـكل الحـروب الصليبية ضـد جنـون القذافي، لكن هنا سـيحتدم نـوع آخـر مـن الحـروب، فـي أحشـاء فلسـطين المفتوحـة كل جـراح يجـرب عدتـه، لبنـان ينـزف كجسـد مصـاب ويفقـد أبنـاءه، الأغلبيـة المسـيحية مهددة لتصيـر أقليـة، التهديـدات تشـير إلى طريـق الهجرة.

- "لكـن بالطبـع لا أوافـق أن يمسـحوا جوخ السـلطة، هذا ما أقوله، الفنانون ينسـخون الواقع، يهـزون الآخـر كي يصحو مـن نومه، يحرضونـه، إن الفن ثورة".

- "الأمر يحتاج لمزيد من الوقت..."، قال رومانوس معترفًا.

- "وقـت؟ حتـى يصبحـوا زبائـن أو يتماهـوا مـع السـلطة؟ عندمـا أرى فنانيـن يختلطـون بمشـاهير المجتمـع.. هـذه علامـات مجتمـع نائـم".

قال رومانوس معارضًا:

- "لكن رافائيل كان يتلقى أوامر من البابا".

- "هـذا مـا أقولـه يـا ولـدي.. نـوم! نوم عميـق، هيا! فـي صحتنـا.. صحتنـا وسـعادتنا[1]!»، قال بمغـزى وهـو يرفع كأسـه.

نظـر بعينيـه الزرقاويـن بتفحـص، ربمـا هـذه اللعبـة بالألفـاظ مـع رومانـوس قـد سـببت لهـا الارتبـاك؟ ثـم نظـر برقـة إلـى ابن أختـه، كم يحبـه! أكثر مـن كل أبنـاء العائلة، لم يكـن محظوظًا ليـرى أولادًا لـه، حـرث زوجتيـن فـي حياتـه ولـم تنجبـا، دعك مـن هذا.. كـم يشـتاق لليونان!

- «تعالـوا لأريكـم شـيئًا، كـي تعرفـوا مـاذا أقصـد»، قـال لهـا وهو يمد لهـا يده ليسـاعدها في النهوض.

فـارس فـي منتصـف العمـر بحـركات رقيقـة، يمـلأ المـكان بطاقتـه، يصحبهـا إلـى الغرفـة المجـاورة، الجـدران مغطـاة مـن أعلاهـا إلـى أسـفلها بالكتـب، العناويـن بثـلاث أو أربـع لغـات، معرفـة مهملـة علـى الأرفـف بتنظيـم وترتيـب تـام، صـور فوتوغرافيـة في إطـارات فضيـة، تمثال صغيـر علـى المكتـب لامـرأة عاريـة بجناحي مـلاك، جناحان سـيخففان الجسـد من وزنـه الفاني، كل مـا أخـذ معـه مـن أثينا فـي طريقه إلى المدرسـة الداخلية فـي بيروت، رفرفة إلـى وطن آخر، حنيـن ممتـزج بالحزن.

- «كـم أحببـت أثنيا! كانـت الفتيـات تحيطنـا طيلـة الوقـت فـي المدرسـة، كان أخـي الأكبـر سـمير خجـولًا بعـض الشـيء، أمـا أنـا فكانـت راهبات المدرسـة يطلقـن علينـا ملائكـة، والفتيات كـن يطلقـن الدعابـات طيلـة الوقـت، كـم كان ممتعًـا الوقـت الـذي قضيته هنـاك!».

اعتلـى وجهـه تعبيـر لطيـف مـن الذكريات، فتحـول وجهه إلى وجـه طفولي مفعم بالشـقاوة والحيوية.

- «بعـد ذلـك ولمـرة أخـرى، حُبسـنا فـي بيـروت، لكـن علـى العكـس تمامًـا، كانـت

---

1- قال مؤكدًا على كلمة سعادة باليونانية «χαρά» والتي تنطق «خارا»!

المدرسـة الداخليـة للصبيـة فقـط، فـي البدايـة كان صعبًـا لأننـي كنت أشـتاق لناديـة التي بقيت فـي أثينـا، يقولـون إن التوائـم يتمتعـون بعلاقـات خاصـة، يعنـي، كان سـمير معـي، كنـت أحـب الراهبـات، لكننـي نسـيت سـريعًا تلـك المدرسـة، لـم يكـن بوسـعي شـيء! يعيـش القلـب حيث ينمـو، وأنـا كبـرت بالفعـل فـي لبنـان، لا تخـرج بيـروت من روحي أبـدًا»، قال لنفسـه فـي النهاية بنبـرة حزينة.

عـاد الآن وصـار قلبـه حجـرًا، كان لديه منزل في بوحِبـاب على الجبل، ومنـه كان يتأمل البحر، فـي الحـرب الأخيـرة كان قـد وصـل لتوه فـي عطلة الأسـبوع من دمشـق عندما بـدأ القصف، رأى مـن شـرفته الطائـرات الإسـرائيلية وهـي تقصـف المطـار، كان دخـان الانفجـارات يحـرق الأرواح والعيـون، ومـن قبلهـا القلـوب، كيف تصبـح عدوًّا لأبناء وطنك، مع شـباب تقاسـمتم معًا سـنوات المراهقـة والمعلميـن والأصدقـاء، وليـس من أجل شـيء غيـر المصالح؟

- «هنـاك صـدام داخلنـا، مثـل اليونانيين، النـزاع هو رب الاثنين، ليشـقنا، لنقتـل بعضنا بعضًا، يعنـي، انظـري كـم طائفـة مسـيحية صرنـا! لهذا رحلت؛ كـي لا أرى الدماء تسـيل، مـن الأفضل أن أكـون متمـردًا، الانشـقاق أشـبه بـالإرث العائلـي، بالجينات الوراثيـة تنتقل من جيـل إلى جيل».

بعد ذلك ولكي يغير الأجواء، قفز بخفة إلى موضوع آخر.

- «أنـا مثـل تلـك الإنجليزيـة الأرسـتقراطية، أذهب حيثما تشـتهي الرياح، فـي كل مدينة قصة حـب، تبـدل الرجال والديانات حسـبما يناسـب سـريرها»، انتهـى من جملته وهـي يضحك بقوة.

- «خالي!»، اعترض رومانوس الذي لديه فكرة ورأي آخر عن جاين ديجبي.

- «هـل مـا أقولـه كـذب؟ أمـك تقدرهـا كثيرًا وحسـنًا تفعـل، الإنجليزيـات السـاذجات يدفعن الأمـوال كي يسـيروا علـى أثرها».

- «أنـت مخطـئ يـا خالـي، كانـت روحًـا متمـردة لا تستسـلم بسـهولة، بالنسـبة للعصـر الذي عاشـته لـم تكـن متحفظـة ولم يكـن العشـق مثـل الفاكهـة المحرمة».

- «دائمًا كانت تختار الرجل الخطأ».

أصر رومانوس:

- «بالنسبة لجاين كان العشق هو الهواء الذي تتنفسه».

قال نديم وهو يملأ كأسيهما:

- «بالنسبة لي تشخيص للغرور الإنجليزي».

ابتسمت جيني، أعجبها كثيرًا خال رومانوس، جعلها تشعر بالارتياح وإن كانت قد تعرفت عليه منذ قليل، يترك لها مساحة لتتمدد شيئًا فشيئًا، لتتكيف وتسترخي، نظرته الرقيقة عندما ينظر إلى ابن أخته تشعرها بالغيرة، «أنا أحبك، ابْقَ هادئًا، أنا بجوارك»، بإمكانها أن تفعل أي شيء من أجل نظرة كهذه! لا بدَّ أن هذا الولد محظوظ للغاية، من هنا جاء بخطوته الواثقة، فالتراحم والمودة واضحان بينهما، يتسلى رومانوس بأسلوب خاله عندما يظهر عداوه للأجانب مستخدمًا في ذلك قصة العشق لليدي السابقة، على الرغم من أنه يعتبرها شجاعة وتقدمية بالنسبة لعصرها، امرأة مفعمة بإنكار الذات والاحترام للثقافات التي قابلتها في رحلتها.

أنهى نديم كلامه ضاحكًا:

- «كانت تعتقد أنها مركز العالم، وأنها ستحصل على كل شيء بأموالها، وماذا حدث في النهاية؟ صارت تهرول خلف الشيخ حتى هرمت».

سألت جيني على استحياء:

- «هل كانت منفية في الحقيقة؟ لأنها لم تعد إلى وطنها أبدًا».

- «وصمة الزانية، المجتمع البريطاني دفع لها بنفس العملة، نفس الغرور».

- «لكن هناك رجال عظماء عشقوها».

- «عظماء؟» ردد بدهشة، «لودوفيك المجنون والكونت المزيف وأوثوناس واللص خادزيبتروس؟ أتمزحين الآن؟!».

قالت له:

- «أنت لا تُكنُّ أي احترام لها على الإطلاق».

أجابها الخال نديم وخيَّم عليه حزن مفاجئ:

- «لم أحب أبدًا ولم تناسبني قط النساء الجميلات».

سحابة داكنة ثقيلة غيمت على عينيه وانعكست في عينيها، مدهوشة تعرفت جيني على هذه النظرة، شعرت بشيء من الألفة، وبتيار دافئ يخترقهما، هذه النظرة تراهن بكل ما تملك أنها رأتها من قبل، لكن عليها فقط أن تتذكر متى.

- "**إلى بالميرا؟ وماذا ستفعلين في بالميرا؟**".

- "سياحة يا أمي، ماذا يفعل الناس في بالميرا؟".

صرخت أماليا عبر الهاتف:

- "قلنا إنني سآتي إلى دمشق، لماذا لا تنتظرينني؟".

- "أنت من قلت يا أمي، أنا لم أقل شيئًا كهذا".

- "لن تذهبي إلى أي مكان! سوف تنتظرين".

صراخها أشعر جيني بالارتباك؛ أكملت أماليّا بلا تراجع:

- "سأبحث عن مقعد في الطائرة".

- "يا أمي، أنا في الطريق بالفعل".

حاولت جاهدة أن تتمالك أعصابها ودموعها التي بدأت تتجمع بين جفنيها، نفذت تعليمات المحلل النفسي في اللحظات المتأزمة مع أمها، لكن أماليّا اليوم تخرق الاتفاق وتتخطى القواعد والحدود التي رسموها لعلاقتهما.

- "في الطريق؟ مع من أنت في الطريق؟".

كان صوتها حادًّا، يوحي بغليان غير طبيعي بالنسبة للحالة.

أغلقت جيني هاتفها الجوال، التفتت بوجهها نحو نافذة السيارة وراحت تحدق في الطريق الذي يركض معهما، بنايات بلا شخصية، نخل مهمل، وكالات للسيارات، كل شيء يتحرك بسرعة الطريق السريع الذي يتنفس بصعوبة من الزحام والتلوث، الهواء رمادي وثقيل من زفير المنطقة الصناعية، اليوم الأحد، لكن في سوريا أسبوع العمل يبدأ من يوم السبت، شيئًا فشيئًا، وكلما ابتعدا عن وسط المدينة انحسرت وتقلصت أي علامة للون الأخضر.

في البداية صارت الأشجار هزيلة ضعيفة تميل إلى الجفاف ويصغر حجمها، إلى أن تصير في النهاية إلى شجيرات أو حشائش تسري على الأرض الصفراء للهضبة التي تحاصرها، مرتفعات منخفضة تغلق مدى الأفق حولهما، تحبس كل وجهة نظر أو فكرة للهرب من المكان الجاف، طريق مسدود وخانق، في فمها شعور بالعطش، لكن هذا لم يستمر طويلًا، فجأة تحول الطريق واستقام على مداه ينقض للأمام بتهور، روعة الاتجاه المستقيم للأمام أمر فريد، وكأن ثمة بابًا يفتح أمام مساجين الهضبة يتطلعون للهروب فور أن يجدوا طريقًا نحو اليسار، يتطلعون إلى البحر، أو التوجه لليمين سينقادون من مدى الصحراء إلى ضفاف الفرات، التعقب الأبدي للماء، سر الحياة ومانحها النادر.

الجوال يدق بإلحاح من جديد؟ هكذا هي دائمًا أمها، عناد وشكوى.

- "لا بدَّ أنها قلقة عليك"، تدخل رومانوس الآن.

عقله مع الجالسة بجواره وهو يقود السيارة، يشعر بالتواتر الذي سيطر عليها بعد حوارها مع أمها.

أجابته هي متجاهلة رنين الهاتف:

- "لا أظن..".

كانت أماليّا تظن أنها ربما تستطيع أن تكمل مغامرة جاين ديجبي من حيث تركتها، انقطعت الرحلة في أجمل لحظاتها، قبل قليل من المغادرة نحو الشرق الأوسط، الصديقات الثلاث من لندن كُنَّ قد زرن باريس وموناكو وصقلية وكيركيرا ليحصلن على طعم الطريق الذي سلكته الليدي التي كانت تترك خلفها أزواجًا وعشاقًا، الحادثة التي تعرضن لها حدثت في أثينا، لكن أماليّا كانت تتوقع تأجيلًا، مجرد تأجيل صغير للرحلة، جيني ببساطة كانت البديل لإيفيلين المصابة، لكنها الآن تفسد كل مخططاتها وتسحب منها شارة القيادة.

كانت بالنسبة لأمها دائمًا بمثابة وسادة وحشية ملاكمة في الوقت نفسه، المستَقبِل لكل اضطراباتها وثوراتها الرخيصة أو الكتف الحنون الذي تلجأ

لمواساته، هـذا أمـر يصعـب تخطيـه، قـدر ما حاولـت المرأتـان، كانت هنـاك مرات لجـأت فيها أماليّا إلـى الحـل السـهل، أثنـاء زواجهـا الثانـي مـع البريطانـي دايف، كانـت جيني تقـوم بدورها بإخـلاص، بعـد ذلـك، عندمـا بقيت وحدهـا مرة أخـرى، كاد عدم الشـعور بالأمان يخنقهـا، وهكذا وبـلا وعـي سـعت أن تعـوض ابنتهـا عـن غيـاب ميخاليـس راليـس، جـرح عميـق لـم يندمـل رغم مـرور سـنوات طويلـة، لكـن هـذه المرة لـم تكن جينـي متاحة.

مـن السـاعة التـي وصلـت فيهـا إلـى سـوريا، شـعرت أن شـيئًا يتغير بداخلهـا، تحسـن مزاجها وكان كل تفكيرهـا يبتعـد أكثـر فأكثر عن سـتراتوس، أصبحت أكثر رحمة بنفسـها، فتحت لنفسـها نافـذة صغيـرة لتتنفـس أخيـرًا، كانـت رفقـة رومانـوس رائعـة، وشـعرت بذلـك أكثـر بطاقـة الجـو التـي كانـت تشـعرها بأنهـا تلائـم هـذا المـكان الجميـل وتليـق بمرافقها الـذي يبدو كأنه الشـيخ الميـزراب الأصلـي يتأهـب ليستكشـف طريـق الصحراء.

كلمـا ابتعـدا عـن دمشـق قلَّـت حركـة السـيارات، يمران علـى سـيارات نقل قديمـة وحافلات سـياحية ومـدن تظهـر لقليـل مـن الوقـت علـى أطـراف الصحـراء ثـم تختفـي، مسـافات شاسـعة عاريـة وعلـى اليسـار كتـل مـن المرتفعـات الجبليـة تعلـو قممهـا صخـور حـادة متوحشـة مثـل قلعـة متأهبـة للحـرب، طبيعـة حصينـة، خلـف الجبـال الوعـرة وجـد المسـيحيون الأوائـل أول ملجـأ وخبـؤوا هنـاك إيمانهـم وكنائسـهم، حتـى أنـه وإلى يومنـا هذا صـار المكان وجهـة للصلاة وتقديـس معجـزات القديسـة ثيكلا والقديـس سـرغيوس.

كان رومانوس يلاحظها بطرف عينه، باسـتثناء المكالمة الهاتفية مع أمها، فهي تبدو اليوم أكثر هـدوءًا مـن أي يـوم آخـر، لكن هـل يعرفها؟ علـى الإطلاق! صار يـدرك مع مرور الوقـت أن جيني تمنحه شعورًا يصعب عليه وصفه، وكأنه مدين لها بشيء، يحاول أن يكون حذرًا؛ لأن مبدأ العمل يقضي بعدم التدخل في شؤون الزبائن، تصبح نادية مديرة قاسية، الموظفون والمرافقون يتوجب عليهم الاحترام التام تجاه العميل ووقت فراغه الثمين الذي استأمن عليه المكتب السياحي؛ لهذا

تذمرت من رومانوس عندما خرق القواعد مع الآنسة رالي، حقيقةً، ما هو سر إصرار رومانوس؟ لم يستطع أن يشرح لأمه، وهي نصحته فقط بالحذر، "إنها ابنة صديقة قديمة من المدرسة، ابنه الممثل ميخاليس راليس، هل تذكره؟"، كان يذكره بالتأكيد، في الصباح عندما حاول أن يوجه الحديث نحو أبيها، غيرت جيني الموضوع على الفور فتراجع رومانوس.

الطريق أمامه يمتد في تحدٍّ، طريق مستقيم، كمحراث يحرث البلاد، علامات الحياة الوحيدة كانت بقعًا من الحشائش على الأطراف والمساحة الشاسعة للهضبة تقطعها واحات صغيرة تظهر على استحياء ثم تختفي، هواء جاف يهب فيرفع الرمال التي تدور على الأسفلت ثم تذوب بغرابة أمام أعينهم.

قال رومانوس:

- "عندما أسافر في الصحراء ينتابني شعور أنني أسافر بالبحر".

أجابته

- "البحر يوقظ أحاسيسك، أما الصحراء فربما تهدئها".

شعرت بملوحة على جلدها وهياج يصعد إلى عقلها، شعرت بطعنة أسفل بطنها واكتنفها الألم من جديد، تُرى أين يكون ستراتوس الآن؟

أصر رومانوس:

- "السكون في الصحراء يساعد المرء على لملمة أفكاره، كل هذا المكان اليابس يحرك كل الرواسب داخله، يجعل المرء يختبر حدوده".

- "هذا بالضبط ما أعنيه، تدرك الحد الأدنى لوجودك".

صمتا قليلًا وكأنهما يستمتعان بتطابق أفكارهما.

- "كم مرة قطعت هذا الطريق؟".

- "مرات كثيرة، لم أعدها أبدًا".

- "دائمًا مع عميلات؟".

بعد الرحلة الأولى التي قام بها مع أبيه وخاله، عاد رومانوس مرة أخرى مع نادية وأخواتها، ثم بعد ذلك بعدما كبر عندما صار طالبًا، جاء مع أصدقائه وزملائه في الدراسة، كان يشارك الأجانب في تجاربهم الأولى في الصحراء، وعلماء الآثار أو التاريخيين الذين كانوا يعملون في بالميرا ويبحثون عن صور وذكريات مقترضة ليُثروا ألبوماتهم الفوتوغرافية وسيرتهم المهنية، قرؤوا النقوش على الحجارة وعرفوا كيف يسيرون بين الأطلال، انبهروا بعظمة وقوة المدينة التي كانت كالميناء في الصحراء، تجمع الضرائب وتمجد الرب، كانوا يلفون رؤوسهم بالأوشحة في العواصف الرملية وعرفوا بسهولة كيفية التعامل مع الجمال، كانت الرمال تحرق دواخلهم وكانوا يقضون الليالي على الهضبة الباردة، لكن كيف يكون سهلًا أن تفهم العربي؟ حاول لورانس العرب ولأسباب تخصه أن يفعل هذا، صار ينظر بموارية إلى الكون عبر حجاب حضارتين. إن من يشم الينابيع الربانية في بالميرا، يبقي عاريًا، يعرض بشرته الأوربية البيضاء للشمس بروح خاوية.

بدت الخيام البدوية الأولى متفرقة في هذا البراح، كبقع داكنة في الصحراء الفاتحة اللون، انبهرت جيني من المناظر، حيوانات وأولاد تهرول، وثياب معلقة، وبدلًا من الجمال، سيارات نقل صغيرة، مناظر لا تليق بالمكان المحبب لجاين ديجبي، صهاريج مياه بدلًا من ناقتها المفضلة، التي كانت تطعمها جاين عصيدة مصنوعة من القمح والحليب.

آنذاك، كانت هذه الرحلة تستغرق خمسة أيام، الخيام والطعام كانت من محتويات القافلة، على جانب كل جمل حقائب من القماش والصوف مرصعة بشرائط حريرية ملونة وريش النعام، أربطة تنتهي بخصلات معلقة تتمايل وتصل حتى خطوات الحيوانات الكسولة على الأرض، في أعناقها أجراس معلقة، الأذن المدربة لقائد القافلة تميز بين أصوات الأجراس، لا يجب أن تتخلف أي ناقة عن باقي القطيع، بصره الحاد مثل الصقور يراقب حولها ويترقب أي هجوم محتمل من قبيلة أخرى، المساحات الخضراء كانت الخطر الدائم في الصحراء، كان يهجم

اللصـوص المغيـرون علـى الرحلـة، يضربون الرحالة حتى يُغشـى عليهم وينهبـون الرحلة بالكامل، الحـرب دائمًـا في دمائهم، يحاربون ويسـرقون الحيوانات ويخطفـون المرافقين للرحلات.

كانـوا يتحولـون فـي الليـل إلـى رجـال رقـاق القلـوب ويهـدون الأغاني إلـى القوافـل والرفاق وزملائهـم المحاربيـن فـي هـذا الترحـال الخالـد على الهضبـة، مؤمنيـن بالرب الذي سـاندهم في مغامراتهـم، يفرشـون بسـطهم فـي اتجـاه مكـة لأداء فريضة الصلاة، مـن يعرف الصحـراء المديدة أفضـل منهـم؟ يبحثـون عـن طعـام للحيوانـات مـن الربيـع حتـى شـهر أكتوبـر، تجـار ومروضـون لأفضـل الخيول.

سألت جيني:

- "والنساء؟".

- "هل تقصدين الحرملك؟".

- "لا، علـى الإطـلاق، أتسـاءل مـاذا وجـدت فـي الشـيخ، امـرأة روضـت كل هـؤلاء الرجال من بارونـات إلـى ملوك".

- "أرى أن الخال نديم لم يقنعك، أنتِ تقرئين التاريخ من ناحيتها".

- "أنا امرأة، ألتمس لها الأعذار".

- "هي ليست في حاجة إلى هذا، صدقيني".

- "لو لم تدعم جاين لما أحسنت في عملك".

- "أنا لا أدعمها هي فقط".

- "من غيرها؟".

- "وميتزول أيضًا".

- "آه! نعم! تضامن ذكوري، هل حقيقي أنه كان لديه نساء أخريات؟".

- "كان مسلمًا، لكنه كان يحميها قدر ما استطاع".

- "هل كان يحبها؟".

- "أظن أنه كان يولي اهتمامًا لأبسط رغباتها ويلبيها قبل أن تطلب".

سألته على استحياء:

- "هل هو صعب بالنسبة لرجل أن يحب هكذا؟".

- "أن يتقاسم حبه؟".

- "لا تلعب بالكلمات! أعني العكس، أن يكون مخلصًا ومتفانيًا لامرأة واحدة".

- "في زمننا هذا شيء كهذا يُعد رهانًا كبيرًا".

- "أنت؟ هل أنت مخلص؟".

مفاجأة غير متوقعة، استنكار مباشر.

- "لن أغامر وأضحي بعلاقة جيدة من أجل شيء عابر بسهولة، لكن لو أن مشاعري تغيرت فسأنهي العلاقة على الفور، أنا متأكد من هذا".

لحظات قاسية من الماضي مرت أمام عينيه، انعكست في الصحراء غير المتناهية، صورة كاتيا، البريئة من الجهل، ضحكتها التي لم تصل إلى قلبه، شعور بالذنب وخوف، الإحساس بالواجب ورياء الالتزام، عذاب لحسن الحظ لم يستمر طويلًا، عاصفة رملية دخلت حياته، إعصار قذف بعلاقته إلى اليابسة، ماذا عساه أن يفعل؟ يعجز عن المقاومة، عندما وقف أمام كاتيا، عرف أنه قد نضج، ساعة سيئة بالنسبة لكل منهما، طعنة بلا مخدر، مفاجأتها، ذلك الوجه المنحوت الذي كانت تعشقه، بقيت منه ذكرى لم تُمْحَ أبدًا، أفيش ملصق على حائط عقلها.

فتحت جيني النافذة واستقبلت ببهجة لمسات الشمس الدافئة الأخيرة، أوفى رومانوس بوعده واقترب من باليرا في الساعة المناسبة، قبل الغروب بقليل، يُسعده عدم صبرها وتلهفها، لكن المدينة دائمًا ما تفعل هذا مع الجميع، بالقوافل

أو الجحافل الرومانية والفلاحين والأثريين والسياح، بلا أي استثناء، لا تزال متماسكة مختبئة خلف التلال المنخفضة بإصرار حتى الانحناء الأخير، وبعد احتفال من الخضرة المتوحشة، خضرة داكنة وحيوية من النخيل وأشجار الزيتون، تبرز أعمدة المدينة المتناسقة بمهابة، ما تبقي منها يُذَكِّر بأن الانسجام والجمال يشيخان في جمال.

قلل رومانوس من سرعة السيارة مانحًا جيني الفرصة لتتصفح الصفحات التي تركت عليها علامات في سيرة الليدي.

سافرنا طيلة اليوم دون توقف، ربما متبخترين لنصل قبل غروب الشمس، الدخول إلى تدمر كان بمثابة انتصار، خرج كل القرويين ليستقبلونا، معابد وأقواس وشوارع معبدة، كانت تدمر تبرق في بياضها تحت أشعة الشمس التي تخفت فتعطي الحجارة اللون الذهبي، "إنها بالفعل جميلة"، قالت جيني وهي تغلق الكتاب.

وكأن كل شيء تم طلاؤه بلون الغروب الوردي الذي خيم على الأطلال، الطريق بعد مدينة الموتى يمر على بعد أنفاس من معبد بعل الضخم، ثم يدور حول المدينة العتيقة ويقف أمام قوس ثلاثي ثم يبتعد على استحياء، على اليمين وعلى اليسار أشجار النخيل تمد أغصانها مثل المراوح والجدران الناصعة البياض تقبض على حدائق وينابيع بالميرا مغلقة.

قالت جيني منبهرة:

- "يستحق الأمر رحلة شاقة تستغرق أربعة أيام".

بناء منخفض على حدود المنطقة الأثرية تقريبًا تحول إلى فندق، منذ العصر الذي بدأ فيه الباحثون والأثريون يأتون لاستكشاف مدينة زينوبيا المتمردة، الشرفة الأرضية من الفندق عانق معبد بالسامين الآرامي[1]. تجسيد للسماء التي تأتي بالسحب والأمطار، رب الهدية، في السماء وفي بالميرا، رب الخصوبة والرحمة

1- إله السماء والأمطار.

ومكافأة الدعوات الشخصية، يبرزه حجمه الصغير إذا ما قورن بمعبد بعل، آه! بعل كان رب الأرباب، ولد وتربى في بالميرا، أنشأ كاتدرائيته الأولى تاركًا دومًا مكانًا لأرباب من الدرجة الثانية، عبادات قديمة لبدو الهضبة، التسامح الديني منقوش على مذبح المعبد القديم، سماء بالميرا كانت تتسع للجميع، أعمدة شامخة وحجارة ملقاة على الأرض كلها مطلية باللون الأحمر، لم يشأ كل من رومانوس وجيني أن يفوتهما المنظر، بقيا في الشرفة يشاهدان الغروب في عرضه اليومي، اليوم أمام مشاهدين قلة، تجمعات السياح تأتي بعد شهر إبريل، صمت عجيب يحيط بهما وتخرقه فجأة صيحات وتلويحات البدو داخل المدينة العتيقة، جذب السياح، يحيون اليوم بالتبختر فوق خيول سوداء وجمال بيضاء، يقطعون كل الطريق المعمد ويختفون في حدائق الواحة، سحابة رملية ارتفعت فوق الأطلال، ومع الغبار من ركض الخيول والحيوانات تهبط شيئًا فشيئًا في ضوء النهار، خيوط بنفسجية خفيفة وحمراء تلفف الأفق حولهم، وتتحول السحب للون الداكن وكذلك الحجارة، الليل لا يقوى على الانتظار والنسيم يهبط من على الجبال مبدلًا مشهد الألوان والمشاعر.

ذكَّرته مبتسمة:

- «قد وعدتني بالبدو والخيام».

- «لم أتراجع عن وعدي».

يغمره بالفعل إحساس غريب معها، ثمة انسجام، احتياج داخلي مُلحّ في الاقتراب منها، شعور يسعى دائمًا لتفسيره ويهرب التفسير منه، يتساءل لو الظرف كان مغايرًا هل كان سيغازلها، ربما لا، جسدها متناسق، لكن ليس بها ما يدفع للاهتمام العاطفي، نظرتها غير المبالية المستسلمة تأتي على عكس عبارتها الذكية ونباهتها، لم يتردد في أن يركز في الهدف، مُظهِرًا أنه لا يكتفي بقشرة الأشياء، ترك للآخر الانطباع بأنه لا خطة لديه، بالتأكيد عيناها الزرقاوان في بعض اللحظات تضيء وتهب موجة داخلية تحيي ملامحها الباردة، لكن لقليل من الوقت فقط، أشبه بورقة تنتظر الريح كي تهتز، أدرك رومانوس فجأة أنه يأتي لأول مرة

إلـى بالميـرا مـع امـرأة واحـدة، لـم يَـدْعُ إلـى سـوريا كاتيـا ولا زوي ولـو لمـرة واحـدة، تـرك هذا الجـزء مـن حياتـه خـارج علاقاتـه العاطفية، لـم تكن أي امرأة ممـن أحب أو تقاسـم معها الفراش تعـرف عـن سـؤاله الخفـي، كان يخبئه غيـر راغب في المشـاركة، لكن جيني فـي الجامع حاصرته بسـؤالها: «وأنـت، مـن تكـون؟» متـى وُجِّـه إليـه نفـس السـؤال؟ لكـن أي مسـاحة أعطاهـم؟ لـم يعرفـوا شـيئًا عـن قلقـه العميـق، علـى الرغـم مـن هـذا، مـاذا اسـتطاعت جينـي أن تعـرف فـي غضـون أيـام قليلـة؟ وجـدت الطريـق بسـهولة، تسـتطيع أن تتحـرك فـي الخفـاء، وتتعـرف علـى عمـق الأشـياء، مـاذا قالـت لـه أيضًـا: «لقـد عشـت كل هـذه الأحداث التـي تحكـي عنها».

قالت له وقد قطعت حبل أفكاره:

- «غدًا سأخرج للرسم».

- «رسم؟».

- «لماذا فوجئت؟».

- «الآن لا نرسم، نلتقط الصور الفوتوغرافية».

- «تعلمت هذا من أحد أساتذتي».

- «هـل تدريـن أن جايـن -أيضًـا- كانـت تجيـد الرسـم؟ لقـد تركـت دفاتـر بهـا رسـوم بالألوان المائيـة والتصاميـم، ليـس فقـط عـن بالميـرا، هـذه الدفاتـر بالإضافة إلـى يومياتها كانـت مصادر بديعـة لمعرفـة حياتهـا والعصـر الذي عاشـته».

قالت جيني لنفسها تقريبًا:

- «كانت امرأة غريبة».

- «لماذا تقولين هذا؟».

- «ألا تجدها أنت غريبة؟».

- «أنـا قلـتُ لـكِ، أراهـا تقدميـة للغايـة بالنسـبة لعصرهـا، ليسـت سـاذجة، كمـا يقـول

خالي نديم».

- «بالنسبة لي هي تذكّرني بورقة تنتظر هبوب الريح كي تتحرك».

لـم يسـتطع رومانـوس أن يخفـي دهشـته، لقـد أعطـت جينـي كلمـات لأفـكاره، للفكـرة التي كانـت لديـه عنهـا، فـي الضـوء الخافت يحـاول أن يجد ويـرى القوة التـي تمنحها القـدرة على أن تقـرأ دواخلـه، انحنـى نحوهـا وراح يبحـث ليجـده، أراد أن يقتنـع بـأن هذا الشـيء موجـود، وأن هـذا ليـس انعكاسًـا للصحـراء، نفـس بارد يربـت على وجنتـه، لحظة ولمـس فمه شـفتيها، هدوء، صحـراء، قبلـة حانيـة، بـلا صوت، فتحت عينيها على اتسـاعهما، حزن يسـري علـى وجهها فتتحول سـماء بالميـرا الداكنة إلى اللـون الأزرق.

**تنقضُّ المصادفات على حياتها وتقلبها رأسًا على عقب**، يصيبها الجزع لأن أمرًا كهذا لم يكن له نتائج طيبة أبدًا، تعلمت أن تخاف، صدفة جاءت بزوجة المحامي ماكيس أناستاسيو إلى باب بيتها، في ذلك اليوم، تصنَّع أنه ذهب مبكرًا إلى المحكمة، التخفيضات في محلات الملابس النسائية التي على بعد مربعين سكنيين من شقتها، قادت السيدة أثاناسيو إلى الشارع الذي تسكن فيه جيني في نفس اللحظة بالضبط التي وجد فيها المحامي مكانًا ليصف سيارته أمام البيت.

صدف سيئة، قاتلة كسكاكين حادة، لهذا هرولت من الشرفة وأغلقت على نفسها في الغرفة، أغلقت الستائر فاندفعت بالميرا المضيئة إلى الداخل متجاوزة النخلة المتربصة بالخارج، كانت الصدف، القصص ولوحات جاين ديجبي المرسومة بالزيت تحاصرها من كل جهة .

*هناك نخلة خارج الغرفة، في مكان جميل في حديقة بها ينابيع دافئة داخل مجموعة من الأشجار المتشابكة، وجدت الفرصة للاستحمام تحت بدر مكتمل يتلألأ.*

اتصل بها رومانوس على هاتف غرفتها مباشرة واعتذر لها بشدة على رعونته، كما قال، تعجلت في تهدئته، فقد كان يغمرها شعور غريب أن يعتذر أحد لها من أجل قبلة لم تطلبها، خسارة، كانت قد بدأت تشعر بالارتياح معه، دون صراع بين الشك واليقين المهلك للروح، انتابها قليل من الخوف، بعيدًا وعلى طرف العالم في منتصف الصحراء مع شخص غريب! فكرت في الاتصال بأمها، لكن هيستيريا أماليّا منعتها، تركت هاتفها الجوال مغلقًا في حقيبة يدها وفضلت أن تبدل ثيابها وتخرج للتمشية.

المكان الأثري يبدأ عند درج الفندق، دون أي سياج، فقط بعد الدروب البدائية التي تقود نحو معبد بلسامين الأنيق، لم يبقَ من فخامته سوى قلب المذبح، المعبد في الكنيسة المسيحية لاحقًا، تبرز شجرة تين من الداخل، ألعاب نارية شديدة

الخضرة على نفس السقف، هذا ما تفتقده منذ زمن، جلست جيني على أحد الأعمدة الساقطة على الأرض، غمرتها السكينة وشعور بالصفاء، في تلك المدينة الميتة تشعر أنها بعيدة عن كل ما يؤلمها منذ زمن، وكأن أسوار هذه المدينة تمنع دخول الفرح أو الحزن، أين يكون ستراتوس الآن يا تُرى؟ هل يتخيلها تجلس بين الأعمدة؟ ابتسمت جيني، وحيدة في الظلام وعلى شفتيها قبلة رقيقة.

تفتقد الثرثرة في رفقة رومانوس، سعة مداركه وقدرته على الوصف، اكتسبت الرحلة بعدًا أكثر تشويقًا بسبب حبه الكبير لوطنه الثاني، ربما يحمل نفس الحب في قلبه لليونان، لكنه بسبب بعده عن سوريا يعبر عن مشاعره بشكل أقوى، الأشياء التي نفتقدها تُلح علينا أكثر من غيرها، تنظر جيني إلى الأعمدة المضاءة من بعيد، تود لو تذهب إلى هناك إلا أنها لا تجرؤ على الحركة من دونه.

شعرت به قريبًا منها في اللحظة الأخيرة، بالقدر الذي لا يفزعها.

قال لها بصوت تشوبه نبرة تردد:

- "لم تكوني في انتظاري".

- "على العكس! فليس لسوريا طعم من دونك".

تلقى إجابتها بارتياح، وقف في مقابلتها وأحنى رأسه ينظر إلى أطراف حذائه، كتلميذ بليد يطلب العفو من معلمه دون كلام، لم يكفه الاعتذار عبر الهاتف، يتصاعد الغضب إلى حلقه ويكاد ينفجر، يعرف أنه قد تخطى فجأة الخط الأحمر الذي يضعه في الغالب، ما الذي حدث له وجعله يفعل هذا؟ بمَ يشعر تجاه هذه المرأة على أي حال؟ راح يسلط نظره عليها في حذر خشية أن يضايقها، استبقته جيني:

- "هل تريد أن نذهب إلى صفوف الأعمدة المضاءة؟".

لم ينتظر كلمة أخرى، جملة منها وكل شيء يعود إلى مكانه الصحيح، آه، يدين لها بامتنان كبير، فهي تجعل كل شيء سهلًا! يعود كل منهما إلى دوره، هو في الأمام وهي تتبعه بنصف خطوة، الرفيق المرشد والسائحة المطيعة، الشيخ

الميزراب والإنجليزية الأرستقراطية؟

- "إننا نشبه قليلًا البدوي وديجبي"

قالت له ونثرت حولها بصراحة ما كانت تفكر فيه؛ توقف فجأة واستدار نحوها:

- "يعجبني هذا، لقد دخلتِ إلى عمق الأشياء مباشرة، هل تفعلين هذا دائمًا؟".

كانت نبرة صوته يشوبها قدر من الاتهام، فنظرت له متسائلة:

- "كيف خرجت بنتيجة كهذه؟".

- "لا أدري".

- "أنت أول شخص يقول لي شيئًا كهذا".

وصلا إلى القوس الأثري الثلاثي لبالميرا، الكشافات المضيئة على الأرض تضيء المكان حولها وتجعله يبدو أكثر ضخامة، خرج وجهاهما من الظلام واكتسبا حيوية الأبطال، من البوابات الثلاث، البوابة الرئيسة تقود نحو الطريق الرئيس، ألف ومائتا متر، الأعمدة ذات التيجان الكورنثية على اليمين وعلى اليسار تدعم في الغالب أفاريز تحمل تماثيل نحاسية، كان السكان هنا يكرمون المواطنين البارزين مثل التجار المهرة الذين كانوا سببًا في ثراء ونهضة بالميرا. محطة القوافل، الطريق المعمد على عكس كل المدن الرومانية كان مفروشًا بالرمال من أجل الجمال التي كانت تدخل المدينة محملة بثروات الشرق، كان التجار يعبرون الفرات ويتوقفون من أجل المؤن والإمدادات في واحة تدمر، بعد ذلك كانوا يقطعون الهضبة المديدة حتى يصلوا إلى شواطئ البحر المتوسط، ومن هناك كان الطريق البحري يقود نحو روما، قدر الأباطرة أهمية المدينة ومنحوها الامتيازات، عشق هادريان هذه المدينة وأعلنها السيفيريون مقاطعة رومانية وأعفوها من الضرائب العقارية، بالضبط كما يحدث في شبة الجزيرة الإيطالية، الـPax romana سهلت حركة القوافل وحولت بالميرا إلى مركز تجاري عالمي، حمامات عمومية، مسرح، محال ثمينة، معابد وميادين كلها بُنيت من الحجر الأحمر الذي تشتهر به المنطقة، مقفل عليها

بسياج طبيعي للواحة الكثيفة بالنخيل وأشجار الزيتون والفاكهة، الأسوار بُنيت في ما بعد، القبائل القديمة صاروا يتأوربون شيئًا فشيئًا وتغيرت أساليبهم وعاداتهم ومالوا أكثر للرفاهية، فبنوا قصورًا فارهة ونسبوا إلى أنفسهم أسماء يونانية بجوار أسمائهم، في أواخر القرن التاسع عشر اكتشف الأثريون في الأسوار القديمة قائمة تعريفة ضريبية، قائمة مكتوبة بلغتين، اللغة اليونانية واللغة المحلية، وكان يذكر بها بالضبط ضريبة كل منتج يمر من المدينة، أقمشة وبهارات وأغنام وجمال وعبيد ورقيق، كل شيء كان يخضع للضريبة المباشرة من سلطات المدينة، التي كانت تشهد الثراء والرفاهية مثل روما الميتروبوليتانية.

غارت زينوبيا من قوة روما، الملكة المتمردة نحتت عرشها في السهل اليوناني وفتنت بخصالها رجالًا عظماء من عصرها، مثل مطران أنطاكيا بافلوس ومعلمها ثم رئيس وزرائها في ما بعد، وفيلسوف الأفلاطونية الحديثة كاسيوس لونجينوس، استغلت الصراعات الداخلية في الإمبراطورية والنزاعات الدامية من أجل العرش، طردت الفرس من منطقتها ثم استولت على مصر، العماد الرئيس لروما، لم تكن المرة الأولى بأي حال التي يتمرد فيها أحد الثوار ويشكك في سلطة المركز، شهوة زنوبيا للسلطة جعلتها خارجة عن السيطرة، قام لمواجهتها ماركوس أوريليوس الذي عسكر في ذلك المكان البعيد في الإمبراطورية واخترق معسكرات الأناضول وإيميسا (الرها)، بعد ذلك ومثل سهم مشتعل راحت الجيوش الرومانية تقطع الصحراء إلى أن حاصرت بالميرا، مدينة التسامح الديني، حيث كان يعمل قس موسى مع كهنة ميثرا والمسيح، تم أسر الملكة وجرها إلى روما، لم تتعافَ بالميرا أبدًا بعد أن صب عليها ماركوس أوريليوس غضبه المدمر، إلا في ما بعد عندما أخرجها الأثريون من تحت التراب، المدينة الوردية المغدور بها.

سألته:

- "هل تؤمن بالصدف؟".

بالتأكيد يؤمن بالصدف، وإلا لما كان ابن نادية!

قالت له مشجعة:

- "احكِ لي عن صدفة في حياتك".

حاول رومانوس أن يكسب بعض الوقت، فهي تستخدم المساحة الشخصية مرة أخرى ودون وعي تمنحه حرية ما، فكر أن يبدأ من النهاية، نعم، من الأفضل أن يبدأ بالنهاية، بشيء سهل وسلمي.

- "تم إلغاء مقابلة في لندن وجئت إلى دمشق كي أصاحب مجموعة والدتك".

لم تَبْدُ راضية، أصرت:

- "صدفة أخرى، أهم".

تلعب جيني الآن معه وهو قد فهم هذا، ارتخت الحدة بينهما، الليلة الفاترة والمكان الذي يعود للزمن الماضي حرراهما، جعلاهما أكثر مرونة مثل الخيالات التي تتراقص حولهما دون أن يسببا أي نوع من الخوف، "لنلعب إذن"، قال رومانوس.

- "أمي وأمك كانتا زميلتين في الدراسة"، قال لها وهو يستمتع بالدهشة والاستفهام اللذين ارتسما على وجهها.

- "زميلتان؟ أين؟".

- "في المدرسة الفرنسية، في نفس الفصل".

انفجرت جيني في ضحك صاخب قطع الظلام إربًا.

- "في نفس الفصل؟ هذه بالفعل مصادفة!"، ثم ملأتها بذور الشك.

- "هل أنت جاد؟".

- "بالتأكيد".

- "هل تعرف أبي؟".

- "ومن لا يعرف أباك؟!".

- "لا، لا أقصد من السينما، أعني، لو أنك تعرفه شخصيًّا، قالت والتفكير في ميخاليس راليس يعقد حاجبيها".

- "لا أظن"، تعجل رومانوس في الإجابة بعد أن رأى رد فعلها؛ "دورك الآن، حاولي بجهد لتجدي صدفة قوية".

سألته متجاهلة تحديه:

- "هل لا تزال أمهاتنا تتقابلان؟".

- "على الأغلب لا".

- "ها هي صدفة جيدة، أن يتقابلا بعد سنوات".

- "ليست بالفكرة السيئة".

- "لم تكن لأمي أبدًا صديقات"، قالت له وهي تتساءل من نبرة الاعتراف في صوتها وكلامها.

- "في الوسط الفني ربما لا يمكن الحصول على صداقات حقيقية"، أضاف هو متضامنًا.

- "كانت تشعر دائمًا بالتهديد، في وضع دفاع".

صمت، يعجبه ميلها للاعتراف.

أكملت جيني:

- "كن كلهن منافسات شرسات، على استعداد تام أن يأخذن منها رجلها".

عندما وُلدت لم تشهد بزوغ نجم والدها عندما كان ميخاليس راليس يسعى جاهدًا أن يبقى في الوسط الفني المسرحي، كان قد نضب الدعم المادي العائلي حيث لم تعد أماليّا تساهم في تمويل عروضه المسرحية، فلجأ ميخاليس إلى

السينما، لـم يغفـر هـذا لهـا أبـدًا، إغـلاق الصنبـور كان بالنسـبة لـه بمثابة تشـكيك فـي موهبته، عرفـت جينـي فـي ما بعـد عن خياناتـه لأمها وضعفه أمام النسـاء، النسـاء الأخريـات، وعن حياته الخفيـة المزدوجة.

- ظلـت أمهـا تأمـل لسـنوات، عاشـت حياتيـن معًـا، قبل أن أُولـد كانـت الزوجة المهانـة التي تغلـق أعينهـا دائمًـا، المـرأة التـي تعـرف لكنهـا تتصنـع بالجهـل، كـم أكـره تلك النسـاء! لـم أفهم أبـدًا لمـاذا يرضخـن للخيانـة، انكسـر صوتها فـي نهايـة الجملة.

هـي تعاقـب تلـك النسـاء، تلـك الغبيـات! تنـام الواحـدة منهن مـع رجلهـا على قبـلات غريبة وتشـم عطـر المـرأة الأخـرى، وعندمـا تغمض عينيهـا تتخيـل الأخرى، العشـيقة، عاريـة بلا خجل، لا تحـب أبـدًا أن تكـون فـي وضعهـا، تفضـل أن تكون الأخرى، العشـيقة، السـارقة!

- "والحياة الأخرى؟"، سأل هو، كي يمحو انهيارًا جديدًا.

- "كانـت أسـوأ، سـنوات مـن الشـجار العنيـف والبـكاء، طُلقـا بالطبع، لكن الشـر اسـتمر، أين كان يجـد كل هـذا الغضـب؟ في الحقيقـة لا أدري".

فهـم رومانـوس السـبب الـذي يجعل جينـي مليئة بـكل هذا الحـزن، على أي طفولة سـتتكئ، كيـف سـتبني حياتهـا الباقيـة، أي مضـادات للمقاومة سـتكوّن لتواجه الصعاب التي سـتأتي في ما بعـد؟ كـم تختلـف سـنوات طفولتـه عنها، أمـه نادية، كانت حجـرًا رمليًـا ورديًّا من بالميـرا، بازلت أسـود مـن البصـرة، حجـرة من الشـرق تبرق بجـوار رخام أثينـا، قطرت في دمـاء عائلتهـا اليونانية عنـاد وتصميـم العائلـة الحمصيـة التـي أنجبـت كاراكلا[1] والغـروب، وسـيميون السـتيليتي الـذي فـاز بالخلـود بعـد أن تسـلق السـماء خـارج حلـب، النسـاء في بيتهـم لهن نفـس الأكتـاف القوية لتماثـيل الكارياتـذا والنظرة الرقيقة لتماثيل الجارية، الإيمان بالقدر وبالمخاطرة أيضًا، هناك حيث

1- من أبرز الأباطرة الرومان الذين تركوا آثارًا اجتماعية هامة، وكان حكمه ملفتًا للأنظار، حكم من 211 - 217، كاراكلا، له أصول بونيقية من أبيه سيبتيموس سيفيروسو السوري، ومن أمه جوليا دومنا الشهيرة ابنة مدينة حمص التي كانت ذات نفوذ وقوة وسلطة في الإمبراطورية الرومانية، ولد في لوغدنوم (الآنليون، فرنسا) سميلوسيوس سبتيموس باسيانوس. وفي سن السابعة تم تغيير اسمه إلى ماركوس أوريليوس أنطونيوس أوغسطس لتأكيد الانتماء إلى أسرة ماركوس أوريليوس، اتخذ لقب كاراكلا، نسبة إلى إزاره المميز كالبرنس الذي كان يرتديه والذي أصبح موضة.

وطئت أقدام الأميرة السورية جوليا والملكة زنوبيا المتهورة.

عانقت نادية زوجها وقررا معًا أن يهربا من الحلقة الخانقة للموظف العمومي، كان بتروس كارافانديس أستاذًا للغة، وشهرًا بشهر كان الراتب يصل إلى المعمل الجديد، كانت استقالته مخاطرة لم يسقط إثرها ضحايا، على العكس تمامًا: فتحت طريقًا في الجبل، مثلما حدث في المعلولة، عندما نجت القديسة ثيكلا من مطاردة قائد الفيلق الروماني العنيفة، معجزة! لكن بدلًا عن الدير كما حدث في هضبة القلمون، كبر المكتب السياحي الذي فتحه بتروس ونادية، أول رحلة عملية لهما كانت في نفس الجبال، في بيت النسر، مخبأ المسيحيين السوريين، الجهد والعمل كي تكبر أعمال العائلة وانسجامها، على الرغم من هذا، كانا فخورين بكل ما أنجزاه وممتنين من أجل بنتيهما وشيخهما الصغير، أورانيا وإيراتو ورومانوس، «عندما يحتوي الاسم على حرف الراء» كانت نادية تقول بإصرار وتقاوم رغبة حماته أن تسمي الأولاد بأسماء أخرى.

«ألا ترين اسم ابنك؟ بتروس! ها هو يحتوي على حرف الراء في المنتصف كالصخرة!»، كانت الجدة كوستاندينا تعارض، «لكن اسمك ليس به راء»، كانت تقول لها بريبة، «في الماضي كان اسمي نادرية»، كانت زوجة ابنها تجيبها ضاحكة، ثمة راعٍ هنا يعرف الدروب المتاهية للأساطير السورية؟ كان بتروس يضحك من تحت شواربه، لقد فاز بالجائزة الكبرى في اللوتارية وكان يرسم شارة الصليب شكرًا وحمدًا بينه وبين نفسه.

ترك رومانوس أفكاره؛ سألها باهتمام حقيقي:

- «والآن؟».

- «احتاج الأمر سنوات من التحليل النفسي وزوجًا جديدًا كي تقف على قدميها مجددًا».

«أعني والدك».

- «آه! لم يعد يعني لها شيئًا».

فاجأته بأسلوبها التلقائي.

- «وأنتِ؟».

- «يمكنك أن تفترض أنه ليس لدي»، أجابته بصوت يرن مثل طرق المعدن.

تجمدت هي نفسها مندهشة من قسوتها، لم تسمع نفسها من قبل تقول شيئًا كهذا، نقلت إليه تيارًا باردًا وقف بينهما، يروح ويجيء ولا يدفئ أبدًا، سرت في بدنه قشعريرة.

- «إن ما قلتيه قاسٍ جدًا، أليس كذلك؟».

- «بل هو أكثر قسوة عندما تعيشه، أنت لا تعرف مدى قسوته».

في جلسات التحليل النفسي الأخير كان إصرار المحلل النفسي واضحًا:

«يكفي أن تخرجيه من داخلك، هو أمر صعب وبالطبع سيؤلمك، بل من الممكن أن يخفيك، فلا تخافي! انطقيها، أيًّا من كان من هو أمامك، يكفي أن تسمعي نفسك تقولينها».

رفعت عينيها ونظرت إليه، لا تدري ماذا سترى، لكنها جرؤت، كيف ينظر لها، يا إلهي! أرسل لها نظرة خاله نديم الهادئة المطمئنة، التي شعرت بها بالأمس، وكأنها كانت هي المستقبل لتلك النظرة الحانية، كأنه يقول لها: «أحبك، اطمئني، أنا هنا بجوارك...» نفس الدفء والحنان، لكن العينين السوداوين لهذا الشيخ ليس لهما أي علاقة بعيني العجوز الزرقاوين، الفارس النبيل المحارب من ليلة أمس.

**بعد كل هذا غضبت من نفسي *لأنني تكلمت عن الماضي.. لماذا؟***

غمرتها أحاسيس مختلطة طيلة الليل، من ناحية كانت تشعر بارتياح الاعتراف، ومن ناحية أخرى شعور بالذنب والخجل أنها عرّت روحها هكذا أمام شخص غريب، لم تعد قادرة أن تضع الأشياء على كفتي ميزان لتزنها، الشك والقلق لم يتركا الخلاص يهيمن.

لمرة أخرى تأخرت في النوم، أرهقها تعب اليومين الأخيرين وتكاد توشك قواها على النفاد من الأرق، لكنها كانت ترفض أن تبتلع حبة المنوم، كان يكفيها أن رفيقها هذه الليلة -أيضًا- سيكون كُتيِّب السيرة الذاتية لليدي السابقة،غاصت في صفحات الكتاب وثَقُلَ جفناها فقط قرب الفجر.

وصلت جاين ديجبي إلى الشرق الأوسط عبر أزمير في عام 1853، نزلت في يافا وطلبت مرافقًا، مترجمًا يرافقها بأمان إلى أورشليم والناصرة ومن هناك إلى حدود سوريا، قابلت الشيخ ميتزول الميزراب على ضفاف بحيرة طبرية، وسوف يقودها إلى دمشق وبالميرا، كانت طلعة الشيخ باهرة، كان يتحدث عدة لغات ويكتب ويقرأ العربية، وكان مهذبًا، لكن أكثر ما بهر الإنجليزية كانت براعته في ركوب الخيل، وثبت أنه مفيد ورفيق بهيج، كانت معلوماته دائمًا دقيقة وحضوره خفيفًا، سواء كان يرافقها في مكان إقامتها في دمشق أو عندما يكشف لها الدروب السرية *للسوق*.

هو أنسب شخص يرافقها إلى بالميرا، فقد كانت قبيلته هي المسؤولة عن تأمين الرحالة والتجار الذين كانوا يرغبون في زيارة مدينة زينوبيا، أعد القافلة بعناية، وطيلة الطريق في الصحراء كان خدومًا، شرح لها كيف تصعد على ظهر الجمل مثل النساء البدويات، وكيف تغطي وجهها كي تتجنب الرمال، وكيف تنام بل وتقرأ وهي متقوقعة على السرج، في بالميرا أشار لها إلى الأطلال وراح يراقبها طيلة الوقت الذي كانت ترسم فيه أكوام الحجارة ووجوه الفلاحين، كانت جاين

تُكنُّ لميتزول احترامًا لا حدود له، فارق العمر بالطبع كان بمثابة مكابح لأي أفكار مختلفة، لكنها وعدته أن تعود في العام القادم.

عودتها إلى اليونان كانت إحباطًا تامًّا، لم يعُد هناك أي شيء يربطها بهذا المكان الذي عاشت فيه الكثير من اللحظات الجميلة، دون أي تردد وضعت إعلانًا للبيع على بيتها وأدارت ظهرها لأثينا، كان الشرق يمارس عليها قوة لا حدود لها، لكن عرض الزواج الذي تلقته من الشيخ كان تحديًا بالنسبة لها، في سن ترى فيها الزمن يدير لها وجهه المظلم، كانت تشتاق أن تُعشَق بشغف من جديد، أن تشعر بالنشوة، أن تملأ ذراعيها بجسد قوي يملؤه الحب، العائق الوحيد أمام جاين كانت زوجة الشيخ، كان شرطها صارمًا لا ينتهك، تستطيع أن تتبنى عادات الحياة البدوية، لكنها لن تحتمل تعدد الزوجات، حتى يدبر ميتزول أمر طلاقه، كانت جاين قد ذهبت لزيارة بغداد ونينوى وبابل.

ضوء النهار يمنح صحراء بالميرا شكلًا آخر، ألقت جيني نظرة من النافذة، كل شيء يبرق، حتى حالتها المزاجية صارت أفضل بالمقارنة بالأيام السابقة، ربما يعود السبب إلى تلك الناقة البيضاء ذات الأحجبة الملونة التي تقف على بعد أمتار من مدخل الفندق، وكأنها تنتظرها.

*أهداها ميتزول أجمل ناقة وجدت، أحبتها جاين على الفور وأسمتها ودادا، في أغلب الليالي في الصحراء كانت جاين تستيقظ بعد أن تشعر بحكة لطيفة لشوارب ودادا في قدميها.*

جلست لتناول الإفطار في قاعة زجاجية تلامس تقريبًا معبد بالسامين وتركت نظرتها تجوب في عرض المدينة، في العمق طريق هيرمس المعمد، دون الأضواء يبدو أكثر إبهارًا، ليس هناك أي علامة على وجود بشري، يا لها من تجربة رائعة! بالميرا العتيقة دون أي جماليات أو تدخلات سياحية، نظيفة ووحيدة في قلب الواحة، من دون دنس الحشود الزائرة، أثر تحمل الإهمال كل هذه القرون في رفقة الزمن الصارم الذي كشط حجارتها دون أن يفسد جمالها، هكذا تقريبًا كانت جاين ديجبي مع شيخها في هذا المكان المحبوب، كانت تقترب من سن الخمسين

وانتهـت لتوهـا مـن مغامـرة عاطفيـة كلفتهـا الكثيـر، وعدت نفسـها بشـباب ثـانٍ، بحيـاة جديدة بعيـدة عـن نفـاق الصالونات، رسـمت بالقلم الرصـاص كل حجـارة المدينة، وبالأمل عاد جسـدها واسـتقام كـي تتبختـر مـع حبيبهـا فـي الواحـة، بينمـا فـي الليـل كانت تسـبح عاريـة فـي الينابيع تحـت لهـب عينيـه، الإنجليزيـة المنفيـة خسـرت وطنهـا، لكنها ربحـت الجنة.

كانـت جينـي تنتظـر رومانـوس غيـر صابرة، أين هـو الآن؟ لماذا لـم يظهر بعـد؟ تعجبها فكرة أن اليـوم كلـه لهمـا، القهـوة التـي قدموهـا كانـت سيئة والفطـور كان فقيـرًا بلا طعـم، لكن هذا لـم يعنِهـا، المنظـر الـذي أمامهـا والشـعور أنهـا ربمـا تكـون الشـخص الوحيـد فـي هـذه المدينة يجعلانهـا تتمطـى باسـتمتاع تحـت السـماء الدافئـة، كنبتـة في صوبة تكبـر ولا تقوَى علـى الصبر كـي تخـرج للهـواء لتزهـر، صارت تسـتمتع بكل لحظـة في بيتهـا الزجاجي هذا الـذي يتلامس مع مـاضٍ يرجع لقـرون مديدة.

رأت مجموعـة مـن الخيالة تقترب، الجمال تتقدم ببطء وكسـل، سـروجها ذات الألوان الفاقعة تأتـي علـى عكـس تام من لـون الرمال البيضـاء حولها، حصان أسـود يتقدم بحيوية يحـاول جاهدًا أن يؤثـر علـى إيقـاع الحيوانـات الخاملـة، يطيـح الفارس بسـياط بشـكل دائـري في الهـواء ويبدو كأنـه يصيـح، دون أن يصـل الصـوت البعيـد إلى جيني، مشـاهد من فيلـم "لورانس العـرب" تأتي إلـى ذهنهـا، أحـد الأفـلام القليلـة التي شـاهدتها مع أبيها في أحد أيـام الآحاد حيـث أخذها ذات ظهيـرة للغـداء ثـم ذهبـا، تتذكر هذا جيدًا، إلى سـينما "أسـتي" في شـارع كورائي، تطـرد الذكرى المريـرة سـريعًا ثم تخرج مـن المطعم.

أصـوات البـدو تمـلأ الهـواء الصباحـي بينمـا يقتربـون مـن الفنـدق، آه! إنهـا تـراه، علـى ظهر أحـد الجمـال! المسـافة تخـدع أحيانًـا، هـل هـو رومانوس؟

*هل تخيلت أم أنني أرى ميتزول في كل بدوي يرتدي عباءة بيضاء؟*

ارتسـمت ابتسـامة عريضـة علـى وجههـا، بالطبـع هـو! منتصـب القامـة بينهـم، يشـبههم تمامًـا لكنـه يختلـف عنهـم كثيـرًا، شـيخها! تؤنـب نفسـها لأنهـا تنجـرف بسـهولة

إلـى مشـهد سـاحر يتجلـى أمامهـا، الآن وصـل الوفـد المرافـق إلـى مدخل الفنـدق، الخيـال فوق الحصـان الأسـود كان أول مـن قفـز حتـى قبـل أن يهـدأ الغبـار الـذي ارتفـع جـراء مـروره، انتفض الحصـان بعصبيـة ثـم تبـع صاحبـه، ربطـه بجـوار الناقة البيضـاء الصابرة التـي تنتظر منـذ الصباح أمـام درج البنايـة، وصلـت الجمـال الأخـرى، حَنَـتْ سـيقانها الرفيعـة وجثـت علـى ركبهـا مصدرة هديـرًا طويـلًا، أوامـر مقتضبـة بالعربيـة، همهمـات الحيوانـات، الغبـار الثائـر إثـر رفسـها ورائحة القطيـع التـي تفـوح فـي الهـواء، كل هـذا غيـر المشـهد جذريًـا، انزلـق رومانـوس مـن علـى ظهر الجمـل وجـاء نحوهـا بمـزاج مرح.

- "صباح الخير! هل أنتِ مستعدة لرحلتنا إلى بالميرا؟".

أجابته ضاحكة:

- "لا أعـرف إن كنـت أسـتطيع، سـيكون عمـلًا بطوليًـا إن اسـتطعت أن أصعـد علـى ظهـر الجمـل".

اقتربـا معًـا مـن الحيـوان القابـع علـى ركبتيـه، نتـوءات علـى ركبتيه وجفـون مرتخيـة، كمامة بدائيـة وسلسـلة مربوطتـان علـى فكـه، من سـرجه تتدلى حقائـب من القمـاش مليئـة بالبرتقال، وخصـل فاقعـة تزحـف الآن علـى الأرض، أوضـح لهـا كيـف تجلـس علـى السـرج ثـم كيـف تمـرر سـاقها مـن الناحيـة الأخـرى، لهـذا يلـزم البنطلـون الواسـع الذي اشـتريناه من السـوق.

قال لها وهو ينزلق مرة أخرى إلى الأرض:

- "إنها الطريقة السياحية".

- "والأخرى؟".

- "طريقة البدو أكثر تعقيدًا، تحتاج إلى تدريب، سوف ترين".

- "وأنت؟".

- "لقد قلتُ لكِ، تجري في عروقي دماء السيمبا".

- أحـد البـدو يشـبك يديه ويدعوها لتـدوس عليها، رفعهـا رومانوس وهو يمسـكها بقوة من الجانبيـن، «خفيفـة كريشـة»، فكـر فـي نفسـه، مررت سـاقها مـن الناحية الأخرى للسـرج وشـعرت بـأن الحيـوان يهتـز كي يقدّر وزنها، تتشـبث بقـوة وتنتظر؛ لف رومانوس وشـاحًا أبيـض خفيفًا حـول عنقها.

- سألها:

- «ستصبحين فجأة على ارتفاع كبير، لا يصيبك الدوار، أليس كذلك؟».

- هـزت رأسـها بالنفـي، لمح في عينيهـا بصيصًـا مـن التردد، ربـت بيده على ظهرها، لمسـة خفيفـة لـم تكـد تختـرق قميصهـا القطنـي، لكنهـا كانـت كافيـة لتحـرق جلدهـا، أعطـى البـدوي الأمـر للحيـوان لينهـض؛ راحـت جينـي تتمايـل، بـدا وكأنهـا تفقـد توازنهـا، إلا أنها تشـبثت بقـوة ومالـت بحدس إلـى الأمام، رائحـة الحيوان أصابتهـا بالدوار، أغلقـت عينيها تحـاول أن تسـتجمع قواهـا وتركـز، الضوضـاء حولهـا وصـوت بَخْتَـرَةِ الحصـان يجبرانها أن تفتـح عينيهـا بالضبـط فـي اللحظـة التـي كان رومانـوس يصعـد علـى عنـق الجمـل، نهض الحيـوان الآخـر، وبنفضـة خفيفـة، تـرك عنقـه وانزلـق على ظهـر الجمل.

- هـل يمكنـك أن تعشـق إنسـانًا مـن ابتسـامته أو مـن عينيـه؟ مـن الطريقـة التـي يتحدث بهـا، أو مـن الطريقـة التـي يمـارس بهـا الحـب؟ مـن صوتـه أو حتـى مـن الشـك أنـه لا يفتـح لـك قلبـه؟ يمكنـك أن تعشـق شـخصًا مـن الطريقـة التي يصعـد بها علـى جمل؟ ما هـي معاييـر العشـق بالنسـبة لشـخص؟ بـه شـيء خـاص، أم أنهـا كلماتـه التـي تدخل في كبتـكِ الدفيـن، مـا الـذي ينفركِ فـي النهاية من هـذا النامـوس التقليدي، مرضى يعشـقون الطبيـب أو اكتمـال القمـر الـذي يبـدل كل شـيء فيكتشـف زميـلان فـي العمـل فجأة الكيميـاء المتوافقـة فـي مـا بينهما.

- كـم تبـدو غريبـة كل هـذه الأمـور! تتمايـل بنشـوة فـوق الناقـة البيضـاء التـي تبـدو

وكأن المياه قد انفجرت تحتها وصارت تسبح، تستمتع بما يحدث لها، تخزن في ذهنها كل شيء يحدث حولها، الحصان الأسود يتقدم في الأمام يشير إلى الطريق، بينما مجموعة صغيرة تسير بلا عجلة نحو مدخل بالميرا، عندما وصلوا أمام الأقواس الثلاثية، شعرت جيني بقشعريرة تسري في جسدها.

*"كنت أركض خلفه فوق الناقة بخطوات قصيرة، أشعر بسعادة غامرة، مثل فتاة في الخامسة عشرة من عمرها".*

عبروا البوابة وانفتح الطريق المستقيم أمامهم، صرير الرمال تحت حوافر الحيوانات والصيحات المفاجئة للسكان المحليين في الهواء، كان رومانوس يلتفت نحوها بين الحين والآخر، انبهر من جلستها المنتصبة فوق الجمل، وكأن الأمر يجري في جيناتها، الوشاح الأبيض يلف رأسها، جسدها يهتز إزاء خطوة الناقة الكسول، سيطر عليه تأثر غير مفهوم وليس له تفسير، لم يشعر هكذا من قبل أبدًا عندما كان يُرشد أساتذته وأصدقاءه في مدينة زينوبيا، وفي مرات أخرى قطع هذه الصحراء وهو يشرح مدى أهميتها بالنسبة للشرق والغرب، بشبهة غطرسة عن الأطلال وتاريخها، لكن الآن كل شيء مختلف، يشعر بالفخر، ينتابه إحساس جميل، لكن ليس بسبب المدينة والمعابد والقصور التي تمر بجوارهم، إنه فخور بجيني، نعم، هذا هو! لا تبدو أبدًا كسائحة، هي تمسك بزمام الجمل بهذا الثبات وكأنها قد مرت من هنا من قبل.

*مثل ملكة جميلة من الشرق.*

ينحرف الموكب في كثير من الأحيان، يخرج عن طريق الأعمدة ويمر بمحاذاة حمامات دِقلديانوس، تقترب من السوق وباب المسرح القديم، ثم تستمر نحو شمال المدينة، طريق مستقيم يتقاطع مع طريق آخر بصفوف من الأعمدة يقود نحو مخرج المدينة وإلى وادي الموتى.

كان سكان بالميرا يكرمون موتاهم، فكانوا يدفنونهم في بروج عالية خارج الواحة أو في مقابر عائلية تحت الأرض لم يكن ينقصها شيء من فخامة قصور الأحياء، تماثيل جنائزية منحوتة وجداريات، وشواهد القبور تظهر الثراء في المقابر

الأثريـة، والاكتشـافات تدلـل علـى أن أهل بالميرا كانوا يعشـقون حياة الرفاهية ولـم يتخلوا عنها حتـى بعـد المـوت، بجوارهـا تـم العثـور علـى مومياوات لموتـى وقواريـر عطـر ومصابيـح زيتية وأشـياء ثمينـة، بينمـا بقايـا الأثـواب والأقمشـة كانـت تـدل علـى أن أهـل بالميـرا كانـوا يصنعون ملابسـهم مـن الكتـان المصـري والحريـر الصينـي، سـترات قصيـرة وبناطيـل واسـعة، تتنـورات مطويـة وأوشـحة وصنـادل رقيقـة وأنيقـة وأحذيـة جلديـة، حيـاة ناعمـة، تطلـع الأحيـاء والموتى إلـى حيـاة مـا بعـد الموت.

خيـم عليهـم الصمـت بينمـا كانـوا يعبـرون بيـن أطـلال الأبـراج العاليـة ذات الثلاثـة والأربعة طوابـق، تلـك كانـت المنـازل التـي يحتفظـون فيها بأجسـاد أحبائهم قبـل أن تصبح فريسـة لطمع السـكان المحلييـن، مـع هـؤلاء قضـت جايـن بضعـة أيـام فـي رحلاتهـا التـي قامـت بهـا وحدهـا وهـي تنتظـر الشـيخ دون جـدوى، خليـل الوحـدة كانت المراسـلة وبعـض الوجـوه المألوفة التي لـم تكف أبـدًا عـن مشـاركته لأفكارهـا وتجاربها.

*ذهبـت مـع حـاج عجوز إلـى المقابر يحفر بحثًـا عن المومياوات، ألقى بعظامهـا الجافة بعد أن شـق كفنهـا الأخضـر والأحمـر بـلا أي شـعور بالذنـب! مقابرهم الثمينـة ما زالت تبـدو جميلة، كأنهـا بُنيت بالأمـس، أوه! كم أخشـى الموت!*

جايـن تواجـه المـوت، يُظهـر لهـا أسـنانه، مربيتهـا المحبوبـة، والداهـا، معشـوقها الملـك لودوفيـك، وشـيئًا فشـيئًا أفـراد عائلتهـا يرحلـون عن الحيـاة، ارتباطهـا بوطنها كان فقـط من خلال الأوربييـن الـذي يأتـون لزيـارة سـوريا ولـم يتوانوا عـن التعـرف على الليـدي الغريبـة التي بدلت الصالونـات الفيكتوريـة بخيمـة فـي الصحـراء، الخـوف مـن المـوت كان يركـد فـي روحهـا، وفقط حبهـا للشـيخ كان يعمـل كعامـل مقاوم ويسـلحها بقوة لا تنضـب، كانت تمتطي الخيـول العربية بفخـر بجـوار حبيبهـا ميتـزول وتنام تحت النجـوم كالمرأة الوحيدة للشـيخ، تحظـى باحترام البدو كأنهـا جـزء مـن قبيلتهـم، أحبتهـا القبائـل وقبلوهـا كفرنجيـة أجنبية، خارقيـن عُـرف قبائلهم بهذا الاسـتثناء، لكـن فـي كثيـر مـن المـرات كانـت تأتـي إلـى بالميـرا وحدهـا بحثًـا عـن الشـيخ بعـد غيابـه الطويـل، عندمـا كان القلـق علـى حياتـه أو الشـك فـي وجـود امـرأة أخـرى كجـرح موجع؛

جرح له رائحة الغيرة وعدم الثقة.

حطت جيني عينيها على ظهر رومانوس أمامها، كتفاه القويتان وعنقه العاري يجلبان لها توترًا مألوفًا وهي التي تتعاطى في الشهور الأخيرة مع ألم الحرمان ونقص العناق الذكوري. ممارسة الحب بوحشية مع ستراتوس يحضر إلى ذهنها، الخجل واليأس جراء الهجر مَحَوَا بسرعةٍ النشوةَ الوحشية وعناقاتهما المسروقة غير الشرعية، عندما كان يُقبّلها كانت صورة مارا تزيد من الهذيان، هو لها كلية، حتى ولو لقليل من الوقت، حينها لم تكن تعرف أنها كانت كطبق الانتقام الذي يؤكل باردًا، يذهب تفكيرها إلى المرأة التي تشارك رومانوس الحياة، تُرى كيف هي زوي؟ هل أتيَا معًا إلى بالميرا؟ هل عقد لها الوشاح حول عنقها قبل أن تبدأ الرحلة؟ الأخرى، المنافس الشرس، المرأة الشبح، تبرز مهددة من داخل أبراج الموتى ترتدي ثيابًا خفيفة وحليًّا لامعة، وجود أثيري يسير بجوار رومانوس، يغطي وجهه، يدعوه ويفتنه، البحث اللانهائي عن الغريب وعن المجهول، الحصان المتمرد يأتي على بعد أنفاس منه تقريبًا بجواره وبطريقة سحرية وُجدت جالسة خلفه، الجسد القوي للغريب ملتصق فوقه ويخفي ظهره عن جيني، الآن اتحد الجسدان وصارا جسدًا واحدًا وراحا يتبختران أمامها، يبتعدان بسرعة تاركين خلفهما سحابة من الرمال، سخرية لا تحتمل بالنسبة لجيني التي تترجرج بإيقاع ثابت فوق سرج الناقة البطيئة، ياللعار! وحيدة! شيئًا فشيئًا شعرت بالدوار، أبراج الموتى حولها تهتز وتتحرك فوق الصحراء وكأن ثمة قوى سفلية تحرك مكانها بلا سبب، بعضها يقف مائلًا بخفة وبعضها يسقط على الرمال، صيحة! الناقة البيضاء ارتعدت، خف حملها الزائد وراحت تجري بلا سيطرة للأمام وللخلف، والحصان الأسود بالخيَّال البدوي عاد مسرعًا وتوقفت خطواته أمام المرأة التي سقطت.

لم تكن جيني تشعر بالألم، ما زال الدوار يُشتتها وصارت أنفاسها تتقطع، الغبار الذي ارتفع من حوافر الحيوانات وأقدام الرجال الذين التفوا حولها يُصعّب من الأمر، شكلوا دائرة حولها لكن أحدًا لم يجرؤ على لمسها؛ ميزت وجه رومانوس وهو يرفع رأسها بخفة، أخيرًا، جاء الشيخ بجوارها! حاولت أن تبتسم لكنها لم تستطع، فقدت وعيها على الفور.

**لا يـزال نديـم منتعشًـا بعـد حـمَّام الصبـاح،** أخـذ الصحـف مـن علـى الطاولـة الصغيـرة فـي الصالـة واتجـه نحـو غرفة السـفرة، بخـار القهوة الجاهـزة ورائحة الخبـز المحمص يداعبـان أنفه، لعـق بلسـانه شـفتيه الغليظتيـن باسـتمتاع، أفضـل لحظـة فـي اليـوم! بعـد نـوم جيـد، كان يؤدي هـذه الطقـوس الصباحيـة ببهجة، درع حقيقي لاسـتكمال اليـوم، دون أن يعني هـذا أن يومه كان مليئًـا بالمصاعب.

كان نديـم فـي وضـع جيـد، وفي هذا العمر كل شـيء كان يتحـرك بهدوء في مسـاره، الروتين بالنسـبة لـه كان مصـدر سـعادة، وظيفـة هادئـة، ومتحرر مـن أي واجبـات عائلية، ليـس عليه أي التزامـات، لـم يتبـقَّ لـه سـوى أن يعتنـي بصحتـه ويسـتمتع بوقتـه، ابتسـم ابتسـامة خفيفـة فـي اللحظـة التـي لذعـت حلقـه فيهـا أول رشـفة للقهـوة، نظـر إلى سـاعته قبـل أن يُلقي نظـرة على الصحـف، لقـد صـارت العاشـرة، لا بـدَّ أن تينـا لا تزال فـي المكتب.

فكـر فيهـا ومـرَّر يـده تحـت البرنـس، ربـت برقـه علـى ردفـه وشـعر ببهجـة لطفـت جسـده كلـه، كان انتصـاب قضيبـه يمنحـه الثقـة بالنفـس دائمًـا في الخامسـة والسـتين من عمـره، ورقته الرابحـة! كان هكـذا يبهـر كل رفيقـة لـه بتحيـة صبـاح لا تختلـف كثيـرًا عـن طقوسـهن الليليـة، كانـت الفـرص لا تغيـب عنـه أبـدًا دون أن يضيـع أيًّـا منهـا، الشـكر للـرب!

النسـاء اللاتـي كُـنَّ يُظهـرن لـه الطيبـة مبكـرًا، كُـنَّ دائمًـا محبوباتـه، فـي مدرسـة الراهبـات الفرنسـية كان دفء العنـاق متاحًـا، فـكان يحـكّ ظهـره علـى أثـداء لـم تنضـج بعـد، كان نديـم صغيـرًا وبريئًـا وحساسًـا بعينيـه الزرقاويـن تصدر شـزرًا من بعيد ورموشـه الطويلـة تجذب نحوه لمسـات البنـات الأكبـر. فـي مراهقتـه كان يختلف كثيـرًا عن أخيه حـاد الطبـاع، وكان في صالون أمـه يسـلي صديقاتـه بحكـي النـكات وتقليـد الأشـخاص فـكان يضحكهـن حتـى الصيـاح، ليحظى بالقبـلات التـي كانـت تتـرك آثـارًا حمـراء سـاخنة علـى وجنتيه.

كان دائمًا هـو روح الصحبـة، فـي الجامعـة فـي لنـدن كان الطريق سـهلًا نحو فُرش الفتيات، ممـا كان يصيـب زمـلاءه بالغيـرة الشـديدة، لم يكـن باسـتطاعتهم أن ينافسـوا العربـي ذا العيون الزرقـاء بدفئـه الشـرقي وسـلوكه الأوربـي، مزيـج يفتـن ويبهـر، كانـت قـد مـرت سـنوات قليلـة علـى عـرض فيلـم "لورانـس العـرب"، الـذي لقـي نجاحًـا مدويًـا، بـزغ نجـم بيتـر أوتـول الـذي لعـب دور الدعـم لنضـال العـرب التحـرري ضـد الأتراك، سَـمْتُه النحيـل الأبيض بجـوار المتمردين البـدو أصحـاب البشـرة السـمراء، ونظرته العميقـة بعينيه الزرقاويـن كانتا من الأشـياء التي بقيت فـي تاريـخ السـينما، كان نديـم مثـل تومـاس لورانـس الحقيقـي، لـم يكن لديهمـا القامـة الفارعة للممثـل، تفصيلـة صغيـرة بالتأكيـد ضاعـت مـع شـهرة وصـدى الفيلـم، كانـت الوحـدة مـع مصر قـد انتهـت لتوهـا وتولـى حـزب البعـث السـلطة فـي دمشـق، بينمـا بـدأت الحـرب البـاردة بيـن القوتيـن العظمييـن تكتسـب شـيئًا فشـيئًا درجة حـرارة الغرفة، نضـال العرب كان يجب أن يُنشـر إلـى العالـم مغلفًـا بـورق الهدايـة، حصـل الفيلم على سـبع كرات ذهبيـة وموسـيقى موريس زار. النظـرة الناريـة لعمـر الشـريف زعيم البـدو والطابع المتوسـطي لأنتوني كوين كان لهمـا أثر النار فـي الهشـيم علـى الشاشـة الفضية، رباطـة جأش وهـدوء بيتر أوتول نقـلا له ذلك الإيمـان العنيد للعـرب بالقـدر، مزيـج بيـن القلـب الشـرقي والعقلانيـة الغربيـة، سـاحرة هـي عدسـة السـينما! أليسـت لهـذا سُـميت بالفن السـابع؟

كان نديـم طالبًـا جديـدًا فـي لنـدن، درس الاقتصـاد، وعلـى التـوازي كان يدرس التاريـخ فكوَّن رأيًـا عـن المنطقـة المتوتـرة التـي ولـد فيهـا، وعـن ألعـاب ومصالـح الذهب الأسـود، نـزاع حامي الوطيـس حتـى آخـر نقطة دم بين المسـيحيين واليهود والمسـلمين، الشـعب الفلسـطيني موزع علـى مخيمـات اللاجئيـن، يواجـه المجهـول فـي ألعـاب السـلطة، نديـم المسـيحي الكاثوليكـي، جـزء مـن أقليـة مسـيحية فـي دولـة مسـلمة، كان يبحث من خـلال والده بشـكل أكبر عـن هوية خاصـة بـه فـي أوربـا حيـث ولـدت الثـورات الطلابيـة، وكان لديـه مسـاحة أكبـر لينمـي تفكيـره المعـارض، كان يعيـش فـي لنـدن، لكنه رفض، كمـا كان يقول، تمثيل السياسـة البريطانيـة مبتعدًا عـن ملامـح تومـاس إدوارد لورانـس، كان يعتبـره مغـرورًا وأنانيًـا، منشـقًّا بيـن غـروره الإنجليـزي

والعاطفة العفوية التي كان يشعر بها تجاه المناضلين العرب، كان الصدام الدامي لا مفر منه، كيف يمكن أن يتسع الجسد لروحين؟ لا يمكن أن يكون غربيًّا وبنفس القدر عربيًّا.

فَطِنَ نديم لهذا مبكرًا واستوعبه، وهكذا لم يعانِ قط من أزمة الهوية، أو هكذا كان يعتقد، استغل نجاح الفيلم إلى أقصى حد ممكن، "عاش أفضل مغامرات حياته الجنسية في تلك الفترة"، كان يقول ضاحكًا: "كانت النساء تتخيل معه أنها تعيش في خيام بدوية في الصحراء"، في نظرة عينيه الزرقاوين كُنَّ يبحثن عن الحزن والحذر في الثائر الإنجليزي، لكن لم يكن يصيبهن الإحباط عندما كُنَّ يقابلن سخرية نديم وتعليقاته اللاذعة بدلًا من المحارب، وبدلًا من رباطة جأش الضابط واحتماله في حرب الثوار، كان هناك بوهيميًّا محبًّا للحياة بمزاج مرح لعوب، فَكُنَّ يَذْبْنَ على وسادته في نهم.

رفع سماعة الهاتف واتصل بدينا، سيلقي عليها تحية الصباح، فلم يستطع أن يقابلها قبل الأمس، لم يخلط أبدًا عائلته في علاقاته الشخصية، ليلة السبت كانت مقررة لابن أخته، ولا تستطيع أي تينا في الدنيا أن تقحم نفسها بينهما، أحضر رومانوس معه إحدى عميلاته، لكن نديم -كجينتلمان يفهم في الأصول- لم يكسر خاطره، ففي البداية ظن أن الأمر قصة غرامية، لكن عندما غادر الشابان أدرك هو نفسه أنه لم يدع عينيه عنها طيلة الليلة، وأنه فعل كل ما في وسعه كي يكون مضيفًا جيدًا، ثمة شيء غريب جعله يبدو أكثر ألفة، ويجعلها تشعر بالراحة بينهما حتى وصل به الأمر ليُريها تمثال نيكي ساموثراكي الذي يعتبره ذكرى ثمينة من الفترة التي عاشها في اليونان.

كان هاتف تينا مشغولًا، تنهد نديم تنهيدات صغيرة ليهدأ قضيبه المنتصب ثم عاود الاتصال مرة أخرى، كانت تينا تعمل في منظمة حكومية للاجئين، وفي هذه الساعة بالتأكيد ستكون في اجتماع ما، تعرف عليها في حفل استقبال في UNDP[1] قبل عام ونصف وأعجب بتلقائيتها في التعامل مع الرجال، الذين كانوا

1- UNDP: United Nations Development Program.

كأسراب يتهافتون عليها بنهم وإصرار، لكنها بهرته أكثر لأنها كانت تتعاطى مع الألم اليومي للعراقيين الذين اقتُلعوا من وطنهم، ورغم ذلك استطاعت أن تحمي نفسها ولا يمسها كل هذا البؤس الجاري حولها، وفي الصفحات الكثيفة أو معسكرات اللاجئين، وكأن جلدها كان يصده ويردعه، جلدها الناعم المشدود الذي كان يستند على جسده الأبيض الشائخ ويملؤه بالرغبة.

كانت تينا تقترب من الأربعين، كانت تشع ثقة يرجع سببها إلى نجاحها المهني في حقل يسيطر عليه الرجال، حيث كان عليها أن تدعم حقوق الإنسان وبالأخص النساء والأطفال، لم تكن هي المرة الأولى التي تعمل فيها في بلد عربي، لكنها كانت المرة الأولى في بلد أجداده، كانت تتحدث العربية بإيقاع بطيء وأسلوب أنيق وتؤكد على ما تقوله بحركات من يديها شديدة البراعة فتشبه راقصة مثبتة على الباركيه، تلك الحركات الرقيقة كان تخلب عقله وتنومه مغناطيسيًّا تقريبًا، وكانت تأتي على عكس جسدها الرياضي القوي، كانت تستطيع أن تهدّئ شخصًا وفي الوقت نفسه تدفعه نحو أكبر تغيير في مصيره، كان نديم واثقًا من جاذبيته فلم يستغرب تفضيلها له على الإطلاق، جذبها له خفته وثقته بنفسه، كل الطاقة التي كانت تفقدها طيلة اليوم في المكتب كانت تعوضها في الليل بجواره، فكانا بعد تناول العشاء يتحاوران في البيت أو يخرجان مع الأصدقاء، كان نديم يشد الستار وهي تترك البؤس الذي تعيشه في الصباح، كانت تنجرف من ذكائه والبهجة في عالمه الصغير، كانت تترك نفسها للتيار مُمْتَنَّةً للحظ الذي جاء به في طريقها.

سورية من الجيل الثاني، ولدت في ليدز، مدينة إنجليزية صناعية، محصورة بين عائلة محافظة والريف البريطاني، قامت بثورتها سريعًا كي تتجنب مصير الفتيات من وطنها، ولأن فكرة أن تجد نفسها متزوجة بالتعارف مع أحد أبناء وطنها كانت تصيبها بالرعب؛ تركت خلفها الحي المسود من دخان المصانع وغادرت إلى لندن، عملت ودرست في الوقت نفسه وأنهت دراسة القانون في الوقت الذي كانت فيه الأمم المتحدة بعد حرب الخليج تدعم الحوار العربي الإسرائيلي، وجلس الأسد الأب على طاولة المفاوضات بهدف وحيد: استعادة هضبة الجولان، دون جدوى بالطبع! سريعًا ما اختطف تينا مع الحركات المستقلة لدعم حقوق الإنسان، وفي

عـام 2000 بعدالانتفاضـة الفلسـطينية الثانيـة صـارت عضـوًا مؤسسًـا فـي منظمـة غيـر حكوميـة باسـم "Save the Innocece"[1] التـي كان أهـم أهدافهـا المـرأة والطفـل، بعـد أن عملـت فـي برامـج متعـددة فـي المغـرب ومصر وقطاع غـزة، تولت مسـؤولية إدارة المنظمة فـي الدولة التي تركهـا أبواهـا منـذ سـنوات مـن أجل عيـش أفضل.

كانـت عائلتهـا تنحـدر مـن أنطاكيـة وذاقـت هـول اللجـوء وهجرت بلدهـا عندما شـد الحلفاء خطًّـا هنـاك، اقتطعـوا جـزءًا كبيـرًا مـن سـوريا وأهـدوه للأتـراك، حينهـا كان جدهـا لأبيها مسـيحيًّا أرمنيًّـا، أخـذ زوجتـه وأولاده الثلاثـة وفـر إلـى حلـب. جدتهـا فوتينـي كانـت مسـيحية مـن أزمير، كانـت مطـاردة هـي الأخـرى مـن قِبَـل الأتـراك، لـم تحتمـل الألـم ومشـقات نفـي جديـد، تركـت خلفهـا ثلاثـة أبنـاء فـي حاجـة للرعايـة والحـب، ميلكـي تـزوج فـي عجالـة مـن حلبيـة أرمنيـة، مـن فـرط حسـدها وغضبهـا مـن عقمهـا أخفـت كل أثـر لفوتينـي تعيسـة الحـظ، ذهبهـا القليـل وملابسـها ومشـطها، حتـى الكسـتبان الـذي كانـت تسـتخدمه فـي الحياكـة والتطريـز، حطمـت الزوجـة الجديـدة كل شـيء مـن فـرط غيرتها، حتـى التصاويـر القليلـة للزوجين قطعتهـا لنصفين وحكمـت علـى أم الأولاد الثلاثـة بالفنـاء، حتـى أنهـم لـم يعـد لهـم أي ذكـرى لمـرور أمهـم علـى هـذه الحيـاة، كان الابـن الأكبـر فقـط، ولـد تينـا، هـو من أَسْـمَى أصغـر بناته على اسـم أمـه، كان يذكرهـا ولـو بشـكل خافـت، وجـه فوتينـي ولمسـتها الحانية.

اتصـال تينـا بهـذا الوطن البعيد وضعها في غـرف داخلية عميقة، أصابتهـا صدمة قوية، وفقط عن طريق خبرتها مع البؤس والشـقاء وإيقاع عملها، سـاعدها ذلك على أن تتخطى هذه الصدمة، الوطن الذي تعلم أنه يتنفس بصعوبة، مخنوق بالقانون العسـكري منذ سـتة وأربعين عامًا، يربي مواطنيـن منهكيـن محكومًـا عليهـم بمطـاردة قوتهم اليومي ويبنـي الزنازين لكل من يرفع رأسـه، دولـة طاغيـة، بـدأت تينـا العمـل، اسـتقبلت سـوريا آلاف اللاجئيـن من فلسـطين والعـراق، أحياء كاملـة مـن معسـكرات اللاجئيـن الفلسـطينيين في دمشـق، حيث حُشـر الأطفال فـي أزقة ضيقة يشـربون مـاء غيـر نظيف، لم تكـف المنظمات الدولية أو المؤسسـات غيـر الحكومية التي كانت

1- أنقذوا البراءة.

تكتب المستندات من أجل الاحتياجات الطارئة للاجئين المتكدسين في مخيمات جرمانا واليرموك، وأيضًا على الحدود العراقية السورية، منطقة محايدة، يتكدس فيها المئات من البشر. أغطية بدائية، الماء بالبطاقات، أمراض، حيوات مهددة، ظروف العمل كانت صعبة بالنسبة لتينا التي استقبلت وجود نديم كرذاذ الندى في حياتها، لم تهتم مطلقًا بفارق العمر بينهما، الرجال في حياتها كانوا مجرد عامل مكمل، تشحن بهم بطارياتها، مثل صواعق تطرد الضغوط التي تتكوم في جسدها من حدة العمل، يهدؤونها ويسلونها، لكن في واقع الأمر كانت تينا تجد الأمر شيقًا للغاية، وكانت تلاحظ بهوس مهني تقريبًا حقيقة أن نديم في هذا العمر هو معلق بين وطنين، بين سوريا ولبنان، كل هذه السنوات في مخيمات اللاجئين زودتها بقرون استشعار حساسة كي تستطيع أن تلمس الجروح العميقة المكبوتة الناجمة عن النفي والاستيطان، تعلمت أن ألمًا كهذا يَهدأ فقط، لكنه لا يُشفَى.

في عطلة الأسبوع على الحدود السورية اللبنانية، على قمة جبل حرمون في ذيل موكب السيارات التي في طريقها إلى بيروت، كانت تينا تنبهر من صبر ذلك الشيخ المراهق الذي كان يهدم كل مخططاته لكي يعبر من ناحية الجبل إلى الناحية الأخرى، أن ينزل إلى سهل البقاع ثم يصعد مرة أخرى إلى جبل لبنان في طريق شديد التعرج إلى أن ينحدر في زخم بيروت، هناك حيث احتقان الشوارع والفوضى المرورية والتلوث تمثل مصدر سعادة في الحياة، أبواق السيارات أفضل من دوي المدافع! حوادث السيارات أفضل من انفجار السيارات المفخخة، سالت الكثير من الدماء، من الأفضل أن يسيل النبيذ! اثملوا يا إخوة! اسعدوا! طالما ما زلتم إخوة، النبيذ الفاتر للوادي كان يسبب الحزن! موج البحر الكبير الذي يلامس أقدامكم علّه يأتي لكم برسائله، اسمعوا صوته، البحر يوحد! في عصرنا هذا البشر والحضارات والدول تأتي وتتعانق، كم أنكم صُم أيها البلهاء الذين ما زلتم تتمزقون؟

هكذا، كان نديم يبدو له وكأنه يتمزق، في أعماقه كان يسهر الليالي يحاول أن يجمع أجزاء روحه، كان هناك حيث يريد أن يكون، كان يبقي هنا ويشتاق لهناك، فارس أصيل للمحاربين، لم يشأ أن يظهر هذا، محصن خلف قلعته، من الفتحات الضيقة التي كان يصد منها الهجمات المتتابعة التي يشنها انقسامه الداخلي، تحمل،

كانـت تينـا تقـول لـه عندما كانـا ينتظران فـي طابور السـيارات الطويـل "كن ممتنًّا أنك تسـتطيع أن تنعـم بهمـا، هنـاك لاجئون لا يرون أوطانهم سـوى فـي أحلامهم".

تذكـرت اغتـراب والديهـا اللذيـن منعهمـا الفقـر مـن العـودة إلـى الوطـن، قَبِلـت العمـل في سـوريا لأنـه لـم يكـن بمقدورهـا أن تنسـى قصة الجـدة فوتيني، التـي حكاها لها أبوها بعد سـيل مـن الأسـئلة اللحوحـة عـن مصدر اسـمها، شـعرت بالشـفقة والحزن من أجـل المرأة التـي طُردت مـن بيتهـا مرتيـن مـن قِبَـل الأتـراك ومـرة ثالثـة مـن الأرض التـي ولـد عليهـا أولادها، كسـيندريلا التـي تجمـع غبـار الحكايـة، الأميـر لا يطلبهـا أبـدًا، أبعدتهـا ذكرياته، أحبـت تينا اسـمها منذ ذلك اليـوم؛ لأنهـا كانـت تشـعر أنه هو الدليل الوحيد، رسـميًّا علـى الأقل على أن الجـدة فوتيني كانت موجـودة فـي هـذا العالـم، وضعـت أقدامهـا علـى الأرض، درسـت وبنـت نفسـها دون أن تحشـر نفسـها أبـدًا علـى الهامـش، لكن منـذ اللحظة التـي وطأت فيها أقدامها أرض سـوريا، باتت تشـعر أنهـا لاجئـة، منفيـة مثـل جدتها، لهذا كانت تُفني نفسـها من أجـل اللاجئين الصغار، هذا الشـعور تحـول إلـى حمـاس وصـار يعتصرهـا، علـى الرغـم مـن هـذا كان هنـاك نديـم الـذي كان يمنحهـا التـوازن فـي هـذا الإسـراف المجهـد، ربمـا وفي يـوم ما سـتقترح عليـه أن يذهبـا لزيـارة أنطاكيا، كـي تتقاسـم معـه اغترابها الشـخصي الخفـي المُلِحّ.

قالت له مداعبة:

- "أنتَ لاجئ كوزموبوليتاني".

قال معترضًا:

- "لكنني لست لاجئًا".

انحنت وقبلته قبلة عميقة:

-" يعنـي، أنـت منقسـم، مـن الأفضـل أن تكـون هكـذا بيـن بلدين عـن أنت تكون هكـذا بين امرأتين".

كان نديـم قـد سـوَّى هـذا الأمـر بداخلـه، بالتدريـج قسـمها علـى قلبـه، بالنسـبة لـه

كانت لبنان الحياة الحلوة، في سنوات المراهقة، ملوحة البحر وصوت الأزيز في الليل. سوريا كانت جذوره وحكايات أمه، هواء دمشق وشعلات البدو على الهضبة، الانقسام جاء به آخرون، وعليهم كان يصب اللعنات.

بعد الحرب العالمية الأولى بقي الفرنسيون في المنطقة بقرار الحلفاء الشهير لخمسة وعشرين عامًا ونجحوا في أن يوسعوا الخلافات بين السوريين واللبنانيين، غذّوا إحساس السيطرة لدى سكان الشاطئ والانطواء لدى الإخوة على الهضبة، شدوا خطًّا وخلقوا حدودًا جديدة وسيطروا على الطرق البحرية من بيروت وطرابلس فأجبروا السوريين أن ينشؤوا موانئ جديدة: اللاذقية، لاوذيكيا العتيقة، وطرطوس، التي كان اسمها أنترادوس لدى الصليبيين، لم تكن سوريا تستطيع العيش في بيت مفاتيحه في جيب اللبناني، الشك والريبة بين الناس الذين كانوا شعبًا واحدًا حتى أمس، أدى إلى الصدام النهائي، من ناحية كان المسيحيون الجدد أصحاب الامتيازات في لبنان، ومن الناحية الأخرى المجتمع السوري ضيق الأفق، في المنتصف كان هؤلاء الذين لم تستوعب عقولهم كيف وبسهولة يمكن لأجنبي أن يحدث الانقسام.

ألقى نظرة على الصحف التي تحضرها له سانديا كل صباح، المرأة التي تعتني بالبيت، كان يقرأ دائمًا صحيفتين بلغتين أجنبيتين من بيروت وصحيفتين بالعربية من دمشق، القلاقل في كل مكان حولنا، في ليبيا قام الغربيون باستعراض ديمقراطي عبر الهواء، لم يشأ نديم أن يتوتر في الصباح، تصفح جريدة **L'Orient** اللبنانية وأنهى قهوته، اليوم لديه موعد في المكتب وبعدها غداء خفيف مع السفير التركي من أجل تمويل حدث ثقافي في الأوبرا؛ مجاملات بين الدولتين في محاولة بدأت منذ قليل لتقارب جديد، عقدت الاتفاقيات التجارية والسياحية التي كانت ترمز لمحو العداء ومشاعر المهانة، الأراضي المغتصبة كانت تقف كالشوكة في حلق السوريين، المطرانية الأرثوذوكسية في أنطاكية صححت مسارها في الطريق المستقيم لدمشق، لكنها كانت تملأ المسيحيين الأرثوذوكس بالمرارة والقلق على أبناء دينهم، كان نديم يدعم سياسات النظام؛ لأنه كان يؤمن بقدرات بلده، عندما كان شابًّا كان معارضًا ومشككًا، فغادر سوريا بنية الدراسة أو بحثًا عن فرص

مهنيـة أفضـل، بعـد وفـاة الأسـد الأب آمـن بانفتـاح الرئيـس الجديـد، شـريك ورفيـق في المسـار الجديـد؛ لأنـه كان يـرى أن الغيـاب الاجتماعي للدولة يترك مسـاحة للجماعات المتعصبة لتنشـط فـي الأحيـاء الفقيـرة وتـزرع التطـرف، الإخـوان المسـلمون كان ينشـرون الكراهيـة ويحصـدون الدمـاء، تحالفـات مؤقتـة وروابـط وطنيـة كانـت تدعـم النظـام الـذي كان يحـاول أن يتـوازن بين الشـرق والغـرب. التـراث والتطـور، فتـرة صعبـة، فـي منطقـة لا يتعلـم أحـد فيهـا مـن الأخطـاء، مقابـر جديـدة للموتـى فـي غـزة وحمامـات دمـاء فـي بغـداد، الأعـداء صـاروا يشـبهون الضحايـا وأصدقـاء بأنيـاب ثعلـب، شـهوة الرعـب، حوصـر الوطـن وصـار يبحـث عـن متنفَّس، كانـت هناك حاجـة إلـى دعـم دولـي، لكـن لم تغـب بالطبـع التعليقـات اللاذعة علـى الهجوم السـلس وتدفق رأس المـال الأجنبـي، "هـل رأيـت التركـي؟ يريـد قروشًـا، هـل رأيـت آخـر؟ يريـد المزيـد"، كان يقـول ضاحـكًا فتنفجـر تينـا فـي الضحـك وتغمـره بالقبلات، كانـت تجمع البـراءة فـي عملها بين الأطفال المسـاكين في معسـكرات اللاجئين، براءة وغضبًا للظلم الذي يشـوه أجسـادهم ويُفقس فـي عقولهـم بيـض الانتقـام، كان نديـم يخطـط كـي يمنحهـا بقية يومـه، لم يرهـا منذ عـدة أيام، ففـي رحلتـه الأخيـرة إلـى بيـروت لم تسـتطع أن تصحبـه، كانا قد قـررا أن تكـون علاقتهما هادئة بـلا أي التزامـات ومبنيـة علـى القـدر الـذي يسـتطيع أن يمنحـه كل منهمـا للآخـر دون أن يكـون علـى حسـاب التزاماتهـم المهنيـة، عندمـا كانت تغيـب في رحلات عمـل، كان نديم يجـد الفرصة كـي يقابـل أصدقـاءه وأسـرة أخيـه سـمير الذي يعيـش في دمشـق في بيـت العائلة فـي المدينة القديمة.

اتخـذ فـي حياتـه مسـارًا مختلفًـا عن نديم، متـزوج منذ سـنوات طويلة ولديه ولـدان، لم يترك دمشـق أبـدًا؛ إذ إنـه كان مؤمنًـا أن واجبـه هـو أن يسـاهم فـي تقـدم وطنـه بملاقيطـه ومشـرطه الجراحـي، التنقـلات الدائمـة للأب الدبلوماسـي كان لها أثر ونتيجة عكسـيان، أراد سـمير أن يمدد جـذوره فـي مـكان واحـد لا غيـر، وكان يرفض بإصـرار أن يلقـي بنظره علـى لبنان المجـاور مثلما فعـل أخـوه، كان يذهـب للخارج فقط ليحضر المؤتمـرات العلمية وأحيانًا ليزور نادية في اليونان، بالنسبة له الوطن كان أن يعيش مستقرًّا في بلده، لم يكن الرجلان يشبهان بعضهما بأي شكل من

الأشكال، كانا يتقاسمان لقبهما فقط والسمعة الطيبة في مجتمع المدينة، بقدر ما كان نديم كوزموبوليتانيًا محبًّا للحياة، كان سمير انعزاليًا مكرسًا حياته لهدفه، أنجب أحدهما ولدين، كان للآخر طلاقان، لكن عندما كانا يتقابلان كانت تلك الفوارق تختفي وتبقى فقط النظرات الرقيقة التي تلمس الوجوه وبشكل سحري تُخفي كل تجاعيد وشروخ الزمن.

تمطى نديم وألقى بالصحف التي تحمل الرسائل بين السطور، زادت كثافة الوكلاء الدوليين، كانت البلاد تخرج شيئًا فشيئًا من عزلتها، تلك العزلة التي كان سببها التدخل المستمر في الشأن اللبناني، والدعم الذي تقدمه لمنظمة حزب الله الموالية لإيران، صار الرئيس يتحدث مع زعماء أوربيين، حيث كان الجميع يريد لسوريا أن تبتعد عن الانفجارات المحتملة، هبت رياح ربيع تجديد خفيف ورفع فستان السيدة الأولى ومعها ثقة دمشق التي كانت تخرج من على الهامش وتصعد على المنصة على أهبة الاستعداد لتلعب دورها في عمل قديم، كيف نقول هذا بلغة سينمائية؟ ريميك، كان نديم يعشق السينما! هاهي فكرة جيدة لهذا المساء، تم افتتاح قاعة سينما جديدة بنظام دولبي وسوشي وبار داخلي، التقط هاتفه الجوال ليرى مواعيد العروض، في تلك اللحظة دق الهاتف.

هدوء! كلمة ذات ثقل كبير ومعنى واسع، تعلمه من أبيه، جاكبهلسي، أحد أوائل الدبلوماسيين لنظام الأسد، كان رجلًا متواضعًا قليل الكلام، يحتفظ بمسافة بينه وبين الأشياء ويزن أفكاره مرتين قبل أن يتكلم، وإلا فكيف كان بإمكانه الاستمرار كسفير لدولة جديدة؟ هدوء! أمر احتاجه نديم لعدة مرات في حياته، احتاج للهدوء والكياسة ليواجه هيستيرية زوجته الأولى وتبعات الطلاق المكلفة، والمرة الأخرى احتاج لهدوء أكبر عندما كان يتعامل بمحافظ عملائه إبان الأزمة الاقتصادية في نيويورك.

رومانوس! على الجانب الآخر من خط الهاتف وجاء صوته مقتضبًا وكلماته محددة، معانٍ دقيقة، فهم نديم على الفور خطورة الوضع وإن لم يكن صوت ابن أخته يحمل أي نوع من التوتر، إصابة جيني في الصحراء كان أمرًا يلزمه بتعامل

يأتي بنتائج فورية، اتصل نديم بأخيه وبينما كان يرتدي ملابسه الداخلية وجواربه اتصل بوزير الصحة مباشرة على خطه الشخصي؛ صديق من الطفولة، كرس نفسه هو الآخر لنهضة الوطن، هدوء! لو أن الفتاة في خطر، كان يجب أن تقدم لها أفضل المساعدات الطبية بأي طريقة، كان من الممكن أن يصيب رومانوس شيء، تحدث الكثير من الحوادث من حيث لا يتوقع المرء، ماذا سيفعل؟ نفس الشيء كان يجب أن يحدث الآن، وكأن الأمر كان متعلقًا بأحد أبنائه.

عندما كان يرتدي قميصه تلقى إجابة من سمير، تحدث طبيب المستشفى عن احتمال وجود كسر في الذراع الأيسر واشتباه في ارتجاج سيتم السيطرة عليه على الفور، الرد من وزير الصحة تلقاه نديم بينما كان يربط حذاءه، ستتحرك سيارة إسعاف مع طبيب متخصص من حمص إلى هنا، على بعد 150 كيلومترًا من بالميرا ليتم التأكد أنه ليس هناك أي آثار أخرى جراء السقوط، تنفس نديم الصعداء ثم ألغى الموعدين اللذين كانا في برنامجه، ذهب نحو الجراج وترك رسالة لتينا مفادها أنه غادر إلى بالميرا في أمر طارئ؛ لأن أحد أقاربه تعرض لحادث صغير.

***وصلنا إلى شرفة هادئة ومنعزلة،** دخلنا من أحد جوانبها حيث توجد بوابة عتيقة إلى حديقة رائعة بها أشجار زيتون وبرقوق ورمان، في الليل كنا ننام في الخارج في الهواء الطلق حيث النسيم الدافئ الخفيف تحت إحدى أشجار النخيل.*

تشعر بالرطوبة على وجهها وتشم رائحة ليمون خفيفة مثلما كانت تفعل أمها بالكمادات على جبهتها عندما تداهمها الحمى، ربما يكون ما تسمعه هو حفيف أوراق الشجر التي رأتها في الفناء، أم أن هذا الصوت يكون صوت المكيف أو طنين البراد؟ جفناها ثقيلان ولا تستطيع أن تفتح عينيها من الألم الذي تشعر به في ساعدها حيث ترتدي ساعة يدها غالبًا، تُرى كم الساعة الآن؟ أين تكون؟ هل لا تزال في حديقة النخيل؟ مع من؟

بدأت في استرداد وعيها شيئًا فشيئًا، لكنها لا تقوى على فتح عينيها، تأتي إلى عقلها ذكرى شاحبة لأرضية الشرفة والباب الحجري، ثم الأشجار ذات الثمار الناضجة، برتقال ناضج ورمان أحمر يتدلى فوقها، هل ينضجان في نفس الموسم؟ تتذكر الرمان المكسور على خشبة المسرح مثل حبات اللؤلؤ والياقوت تنهمر على الباركيه، وغطاء زجاجة الشمبانيا التي تنفجر وتنهمر فوق رؤوسهم، «سنة سعيدة! سنة سعيدة! سنة جديدة سعيدة»، أمنيات وعناقات وقُبَل وضجيج أصوات، أبوها الوسيم في منتصف خشبة المسرح متألق في قميصه الأبيض ورابطة عنقه الساتان كان حضنًا مفتوحًا للجميع، يلمع شعره شديد السواد تحت الأضواء والضحكات التي يأتي صداها إلى منتصف المسرح، بلا ميكروفون، حوله النساء والرجال في ملابس احتفالية، حلل ليلية وفساتين عارية الظهر وعطور ودخان سجائر، أمها، في مكان ما هناك تحت الخشبة هي الأخرى، جادة وغريبة بين المسرحيين الذين يستقبلون العام الجديد كأنهم ينفذون أدوارهم في مسرحية.

«سنة سعيدة، ياعزيزي ميخاليس»، صيغة الملكية في تلك الجملة بدت في غير محلها مثل القبل التي تبادلاها على عجل، انحنى الأب اللامع نحو أماليّا -كان أطول منها بكثير- وترك على وجنتيها ابتسامته الجميلة،

«جيني يا صغيرتي، تعالي وقولي سنة سعيدة لبابا»؛ هرولت بحذائها الصغير على الدرج الخشبي وهجمت على خشبة المسرح لتلقي بنفسها في أحضانه، كم ستود لو كانت مكان تلك الشقراء الفاتنة التي أحاطت عنق والدها ! سبلاتش! وانفجرت حبات الرمان على خشبة المسرح، «آه! لقد اتسخ حذاؤك يا جيني» صاحت أماليّا، «قولي سنة سعيدة لأبيك!»، رفعها أحدهم فشمت رائحة أحمر شفاه تلك الشقراء الفاتنة على شفتي والدها، والتي كانت لا تزال تقف مبتسمة إلى جواره، «سنة سعيدة يا بابا!»، آخر عيد رأس سنة حضرته معه.

شعرت بألم حاد لا تعرف مصدره، هل هو في رأسها، أم في أعماقها؟ ربما في يدها، كما كانت تشعر من قبل، في معدتها، هناك هو الألم الشديد، راحت تترقب، خافت جيني، لا تفتح عينيها لأنها تخشى أن تفقد الحديقة الجميلة والأشجار، ستفتح عينيها وترى تلك المرأة الشقراء تمتص رحيق أبيها، عناق! هذا ما تريده، أن تتغطى وتنام في أحضان أبيها، كم هو بعيد حضنه الدافئ! ما زالت تتذكر حضن أبيها بقوة مع رائحته الطازجة وذقنه الشائكة، كانت تحب أن تحك خديها على ذقنه، كانت تتألم لكنها كانت تضحك من فرط السعادة وهي في أحضانه، وتبكي من غيابه.

- «أريد أبي، همست متوسلة دون أن تفتح عينيها».

- تفيض الشكوى من داخلها، دموع، تجمع الألم في صدرها، انكسر الجليد الصلب، ثم ذاب في حلقها وداهمها، وجد طريقًا صعبًا من تحت الجفون المطبقة؛ انفجرت،

- بقي رومانوس صامتًا، شاهد عيان، انحنى ومسح دموعها.

**بعـض الأشـياء ترثهـا**، وأخـرى تخلقهـا الظـروف، هـذه الأشـياء التـي تكـون مرسـومة علـى خريطتـك الجينيـة لا تـدرك أن تتعامـل معهـا، تكبـر معهـا، تصبـح عناصر أساسـية في شـخصيتك، "كيـف أصبـح هـذا الولـد مشـاغبًا؟"، يقول الأقـارب والأصدقاء أحيانًـا، لكنه يولد وبـذرة الاعتراض بداخلـه، كان يحملهـا أحـد الأجـداد فـي طريـق الدم البعيـد، ويظهـر الآن مرة أخرى، هـل يمكنه اقتلاعـه؟ لا يمكـن! وهنـاك أمـور يتعلمهـا المـرء أثنـاء مسـيرته في الحيـاة، على حسـب الطريق الـذي لـه علاقـة بمرافقيـه فيـه. "لـدى رومانوس نظـام عجيـب!"، كانت الجـدة قسـطنطينا تقول بتفاخـر، الجـدة اليونانيـة سـليلة الرعـاة، التـي كادت تصيبهـا جلطـة بالمـخ عندما جاءهـا ولدها بعـروس مـن الجنـوب؛ "كافـرة!" صاحـت قائلـة، وراح بتـروس جاهـدًا يحـاول أن يقنعهـا بأنها لم تكـن تعيـش فـي حرملـك، ولا أبوها أحـد المتطرفين، إنهـا ابنة رجل دبلوماسـي، لكن كيف يمكن للجـدة أن تفهـم مـاذا يعنـي هـذا؟ فـي النهايـة بالطبـع رضخـت وفتحت صالـون البيـت المغلق كـي تقـدم الراكـي وفطائر مـن إيبيروس إلى الدبلوماسـي السـوري وزوجته اللذين جـاءا إلى أثينا مـرة أخـرى، لكن هـذه المـرة كأصهار.

لـم تنـدم أبـدًا الجـدة قسـطنطينا علـى موافقتهـا، كانـت تفخـر بحفيداتهـا ويخلـب لبها آخر العنقـود، رومانـوس، كانـت تجـد كل شـيء فيـه رائعًـا، مرت سـنوات طويلـة، ولم تعد تـرى نادية كعـروس أجنبيـة دخلـت إلـى بيتهـا، احترمتهـا كثيـرًا، مـاذا كان بوسـعها أن تفعـل؟ فمعهـا تطـور ابنهـا ماديًّـا واجتماعيًّـا، كيـف كان سـيصل لتلـك المكانـة براتـب معلـم؟ هـذا وقد أثبتـت نادية، بالإضافـة لكونهـا سـيدة أعمـال، أنهـا أم رائعـة، بجوارهـا تعلـم الأولاد النظـام والانضبـاط وصاروا حذريـن حاذقين.

الهـدوء كان جينًـا وراثيًّـا، وريـدًا ضائعًـا فـي عمـق عمـر مسـيرة الجينـات الطويلـة يقفـز ويُطَعّـم الأجيـال حتـى يحـدث التـوازن مـع الدمـوع وسـرعة التأثـر والضغـوط الكبيـرة التـي تجعـل الـدم يضـرب فـي الـرأس، يحـدث الانفجـار ويسـقط المـرء جثـة هامـدة، مثلمـا حـدث مـع زوج الجـدة، إليـاس كارافانديـس، سـكتة دماغيـة قالـوا آنـذاك، هـذا لأنـه لـم يكـن يحتـوي اسـم المرحـوم علـى حـرف الـراء، ربمـا السـوريون علـى حـق

في إيمانهم بتلك الأمور، بالطبع كان والد رومانوس -وعلى الرغم من مباركة اسمه ولقبه بحرف الراء- سهل البكاء، كان يعتبر هذا عيبًا فيه وصار يخفيه، "هل أنت رجل؟ الرجال لا يبكون"، كان يقول لابنه عندما كان صغيرًا وتغرورق عيناه، مع مرور الزمن تعلم كيف يكبح التأثر، كيف يخنقه بوسائل وآليات سرية تمحو الدموع من الأعين، فقط في جنازة الجدة ترك بتروس كارافانديس نفسه حرًّا وانفجر في البكاء. كان رومانوس في إنجلترا، وقفة عيد الفصح ولم يجد رحلة طيران إلى أثينا، اختارت الجدة أن ترحل بعد المسيح بقليل، فتركت أنفاسها الأخيرة في يوم الخميس العظيم، فجأة وبلا إنذار، بعد طقوس الكنيسة شيعوها على عجل وأخذوا يرثونها ويثنون على كرامتها بأنها تتبع المسيح خطوة بخطوة.

المنع غالبًا ما يأتي بنتائج عكسية، إلا أن رومانوس انصاع تمامًا للأوامر، لم يكن يعبر أو يظهر مشاعره العميقة، ليس لأنه كان رجلًا، كما كان يقول أبوه، ولكن لأن الدموع بالنسبة له كانت مرادفًا للضعف، في المدرسة لم يكن يحب الذين يتباكون أمام الصعاب وكان يعض على نواجِذِه في حالات الألم الشديد، أكبر الضحايا لهذا الطبع كانت الفتيات، كان يكره مشاهد البكاء وردود أفعاله كانت دائمًا على عكس ما كانت تنتظر قلوبهن البريئة، كان يسخر من تمخطهن في دور السينما ويعتبر أنه تصرف سيئ من جانبهن أن يحاولن الحصول على شيء عبر الدموع، سواء كان هذا الشيء راتبًا أفضل وتقدمًا في العمل، أو الأسوأ من هذا لمكان في حياته،

خسرت كاتيا لأنها في وقت الأزمة تركت تشنجاتها تغير التوازنات، أول هزة لها جعلته يندم على قراره بأن ينهي علاقتهما، حجم المفاجأة كان هائلًا حتى تساءل هو نفسه عن الحماقة التي هو بصدد ارتكابها، لكمة قوية لتهاونها الكريستالي الهش، ماذا لو جرحت جرحًا لا يندمل؟ من هذا الذي سيستطيع أن يطعنها في ظهرها؟ كانت دموعها المحفز الأخير، فاضت بعد ثوانٍ من التردد، وكأنها لم تعرف لو كان عليها أن تندب من أجل ما تخسره أم من أجل خسارة تمت بالفعل، أنانية منتهكة، عندما يحدث فجأة، يؤلم أكثر، تضخمت عيناها وبداخلهما رومانوس. فجأة، لم يتعرف على شيء من حياتهما معًا، ولا الحب الرقيق الذي مارساه في إيجينه والساعات الطويلة التي قضياها في الفراش، ولا ضحكهما ولا اختلافاتهما

ولا الخطط التي رسماها لحياتهما معًا، في تلك الفترة القصيرة التي كان يقابل فيها زويّ، في هذا الجزء من حياته الذي لم يشأ أن يتذكره، كانت كاتيا غائبة، بطلة في حياة مزدوجة كانت فيها هي. لا، لم ينتبْها أي شك، عاد رومانوس إلى البيت وقد شبع من شغف الحب مع زويّ، تطن ضحكاتها في أذنيه، ضحكاتها الكريستالية المجنونة، ما زال طعم لسانها في فمه، بقي تحت الماء لوقت طويل، وكأن الماء الساخن سوف يمحو رائحتها من على جسده، وتأوهاتها من عقله، كانت كاتيا تسمع صوت الماء في الحمام وهي تعد الطاولة بشكل روتيني وتنتظره كي يأكلا معًا، أو قبل قليل من خروجهما كانت تطبع شفتيها على المرآة، كانا يعيشا معًا، يتحدثان ويتلامسان طيلة الوقت الذي يقضيانه معًا في نفس الغرفة، كانت هناك، لكن عين قلبه لا تراها، هل مُحيت من ذاكرته؟ تبًّا، لا! هي محفورة على القرص الصلب لوجوده، يتذكرها بحزن حتى اليوم، حينها بكى معها، ليس لألمها، لكن بكى باحثًا عن السكينة، دموع نادرة شافية لحياته التي ربحها من جديد بجوار امرأة أخرى.

ما زالت أصابعه مبللة من دموع جيني، غريب! إنه لا يشعر بأي رفض لضعف هذه المرأة، يدرك أنه في لقائهما الأول في لوبي الفندق، حتى في الدقائق العشر الأولى، هكذا، وفور أن قالت له صباح الخير، كان لصوتها وقع الإحباط الغرامي لجاين ديجبي، يتذكرها تمسح دموعها بمنشفة كتانية في البار.

يلاحظها أفضل الآن، لونها شاحب، تجعيدة أفقية تقطع كل جبهتها، ينتبه إلى شكل أنفها، انحناء طفيف يبدو وهي تميل وتستند برأسها على الوسادة، فمها نصف مفتوح يرتعش ويخرج كل اضطراباتها، شعرها كان يميل للون الداكن عندما بلل لها رأسها قبل أن تسقط بقليل، كان قد جف ويسقط بخفة بتدريج متساوٍ، تبدو مختلفة! انتهت الصدمة والقلق، اليد بها التواء طفيف ولم يصبها شيء جراء السقوط، ردود أفعالها على أسئلة الطبيب المحلي كانت إيجابية تمامًا، الطبيب من حمص أكد على نتائج الفحص الأوليّ. ليس هناك ولا حتى كسر بسيط، الإغماء الفوري ليس بسبب السقوط، ربما كان بسبب الخوف، ربما لهذا تفضل جيني ألّا تفتح عينيها، لم يغادر رومانوس، لم يشأ أن يتركها وحيدة، يعرف أنها

تدرك وجوده، فظل ينتظر في صبر،

انحنـى ومسـح دمعـة أخـرى، بتـردد يرفـع أصبعـه على فمه ليتـذوق الألـم المالـح، إذن؛ هذا هـو طعـم الدمـوع.. بحـر! طعـم البحـر في قلـب الهضبة، ينظـر حوله وهو يشـعر بالذنـب، ربما كان ثمـة مـن يراقبـه حتـى لا يدخل البحر مـن النافـذة المفتوحة!

كانـت أنفاسـها متقطعـة، مـا زالـت العاصفـة بداخلهـا، صدرهـا يعلو ويهبط بسـرعة، شـفتها السـفلى ترتعـش، يشـعر بالذنـب لأنـه السـبب فـي وضعهـا هـذا! هـو المسـؤول الوحيـد، لمـاذا تركهـا وحدهـا فـوق الجمـل، لكن بعد مـا حدث بالأمس، تلـك القبلـة المفاجئة الحمقـاء، أراد أن يتحفـظ قليـلًا، أو يبقـي علـى مسـافة ما حتى تتحسـن الظروف، هـذه هي نتيجـة تصرفه الأخرق المتهـور، جينـي مصابـة وهـو المسـؤول عـن وضعهـا ولا يجد الأعذار لنفسـه.

يدخـل آخـر شـعاع نـور للمسـاء مـن النافـذة، مـا زال الليـل يأتـي مبكـرًا، الظلال تلعـب على الأثـاث الأبيـض للغرفـة وعلـى الجـدران العارية، ضجيـج أحد المولـدات يدخل من زجـاج النافذة نصـف المفتـوح، وصـوت رفرفـة متـرددة للطيـور التي بدأت تحشـر على أغصان الشـجر تسـتعد لصمتهـا الليلـي، أحـد الممرضين ترك علـى الكومودينو المعدنـي طبقًا به برتقـال وكوب وزجاجة مـن كولونيـا الليمـون، لونه الأسـمر صبغ بياض المستشـفى.

- ”هل يجب أن أخاف هنا في وسط الصحراء؟“.

قطـع صوتهـا حبـل أفـكاره، انتفـض عندمـا سـمعها، التقـت نظراتهمـا مـن جديـد مثـل المرة الأولـى قبـل يوميـن فـي بـار الفنـدق، تعـرف كل منهـم علـى الدهشـة فـي عينـي الآخـر، كيـف كانـت هـذه اللعبـة؟ لـو أن للدهشـة لونًـا فـأي لـون سـيكون؟ أبيض من تلك الشراشـف الخشـنة لهـذا السـرير، لـو كان لها فاكهـة؟ سـتكون البرتقـال! ولـو أن لهـا رائحة سـتكون رائحـة الليمون! بلد؟ سـوريا!

أجابها وهو يحاول أن يبدو غير مكترث:

- ”هل نسيت خبرة العرب في مجال الطب؟“.

بالطبع لم تنسَ زيارتهما للمتحف الصغير، متى كان هذا بالضبط؟ كم يومًا مر؟ تظن أنها سافرت قبل أكثر من أسبوع، لكن رومانوس هنا، بجوارها، يقف بجدية والاهتمام ينبض في عينيه، كم أن عينيه شديدتا السواد! والآن أكثر سوادًا في كل هذا البياض للغرفة، تشعر بامتنان كبير نحوه لجاهزيته وتدخل الطبيب السريع في حمص، للاهتمام والدماثة التي أبداها نحوها أثناء فحص الطبيب لها في المستشفى، للرقة التي تفيض من نظرته الآن.

بنفس القدر تلوم نفسها، الحمقاء، كيف أفسدت صباحًا رائعًا كهذا بيديها هاتين! ألا يصفونها دائمًا بأن لديها رغبة في تدمير الذات، كأنها لا تحتمل وجود شيء جميل في حياتها، وتزعم أنها لا تستحقه، خيالها المريض كان ينال منها، لكن كيف تعترف بهذا؟ حتى إنها لم تجرؤ أن تعترف بهذا للطبيب، اكتفت بأن تقول له إنها فقدت توازنها. الطبيب الذي جاء من حمص كان في عمر ستراتوس، فحصها بدقة لوقت طويل، راح يلمسها بيديه وعينيه وهو يلقي عليها الأسئلة باستمرار، كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة ولكنة ثقيلة، كان ينظر لها بعناية ويدون منحنيات جميلة في دفتره، حروف عربية، هكذا رسم كل الصفحة التي بدت في النهاية كأنها سجادة إيرانيية، سألها عن الحبوب التي في حقيبتها، أعطته إجابات مائعة عن الأزمة الاقتصادية في اليونان، فترة صعبة في العموم، لم يَبْدُ مقتنعًا.

قال لها رومانوس ووضع أصابعه على عجل فوق ذراعها المتألمة:

- "كل شيء سيصبح على ما يرام".

انسحب تأثير المخدر، كيف ستقضي الليلة في المستشفى؟ وغدًا؟

سألته بأسى:

- "ما الذي تبقي من برنامجنا؟".

استخدمت صيغة الجمع بعفوية شديدة، مكتسبهما في رحلتهما المشتركة القصيرة.

- "ماذا تريدين أن يبقي منه؟".

اكتسبت نظرتها قليلًا من الحيوية، هذه المرأة لديها كشاف داخلي يعمل بشكل متقطع ويغير وجهها دون سيطرة، الضوء القوي يذيب الاستسلام السائد في شخصيتها ويلوّن بشرتها الشاحبة، يبدلها بين لحظة وأخرى، قدر ما استغرق تدخله كانت جيني تشع بريقًا يغدر وجهها بنفس الطريقة غير المتوقعة التي أتى بها، يا لها من قوة داخلية!

أجابته ولم تصدق أن لديها القوة لتنطق بهذه الكلمات:

- "كله! أريد أن يعود كل شيء كما كان".

أن تتطلع! المتعة في تلك الرحلة التي بدأت تحت ظروف غريبة، رحلة لم تخطط لها ولم تتمنَّها، لم تكن رحلتها، لكن في غضون ثلاثة أيام نجحت في أن تلائم خطوتها مع خطوة هذا الرفيق المثال؛ مسحورة من ألوان قطع الفسيفساء التي يظهرها لها، وتمتص كلماته بشهوة، وتهرول معه في طرق لم تتخيل أبدًا أنها ستفتح أمامها، لا تريد أن تنتهي هذه الرحلة هكذا، "لقد تعلمتِ الاستمتاع! أخيرًا، ألا تريدين شيئًا من أجلك أنت؟" كلمات المحلل النفسي الجافة.

بلى، بالطبع أرادت دائمًا أن يكون لها شيء يخصها وحدها، أرادت أباها معها وليس على خشبة المسرح أو على شاشة السينما الجامدة، أرادت أن تكون أمها بجوارها وليست خلف زوجها الثاني. عائلة لها، عائلة دافئة مترابطة بلا شقوق تستطيع أن تدخل منها أي جيني غريبة، دودة جاهزة للتحول إلى فراشة ذهبية مقدر لها أن تحرق أجنحتها عند ملامسة مصباح، كانت تريد رجلًا يستيقظ معها في الصباح دون أن ينظر إلى هاتفه وهو يشعر بالذنب، "لقد حاولتِ الحصول على كل هذه الأشياء بالطريقة الخاطئة"، قال لها دكتور أشلي.

كانت العيادة النفسية للمحلل النفسي في الطابق الأول رقم 73 في شارع هارلي، بالضبط في نفس المبنى، كان مخبأ العشق لليدي والأمير، في هذا الشارع في لندن، حيث هناك طبيبان لكل مواطن، ليس هناك بناية أجمل، جوهرة حقيقية،

واجهة حجرية ومنحوتات حجرية بيضاء على النوافذ، ما زالت حتى اليوم تشع طاقة عشق قوي عاشه عاشقان داخلها من قبل، بينما كانت تقرأ السيرة الذاتية لليدي، كانت جيني تستدعي من ذاكرتها كل لحظة عاشتها في بناية شارع هارلي وتحاول أن تقارب بين القصتين، كانت تصعد الدرجات الثلاث وتدق الجرس، بينما تنفض مظلتها من المطر، كانت تقف لدقيقتين أمام الباب المدهش المصنوع من خشب البلوط تحت مظلة الباب، ربما قدر ما كانت تقف الليدي تنتظر حتى يفتح لها الأمير الباب، كانت جيني تعطي البيانات للسكرتيرة، في القاعة الكبيرة على اليسار فور الدخول إلى الطابق الأرضي، على الأرائك المريحة يجلس المرضى يتصفحون المجلات حول المدفأة المطفأة، في نفس المكان قبل قرن ونصف كانت النار تبقي مشتعلة وتدفئ صالة الاستقبال وفيليكس يعتصر جاين بين أحضانه، يرفع الوشاح الأبيض من على رأسها قبل أن يصعدا الدرج الداخلي ويدخلا إلى غرفة نومه،

كانت جاين الشابة تسعى إلى السعادة وتخرج لسانها لكل شيء، لكل ما هو ملكي في العصر  الفيكتوري.

كان مثلث الغرام سرًّا مشتركًا، والخيانات الصغيرة أسلوب حياة، لكن الحذر والحيطة ترسم الحدود في بيئة كان يفيض فيها النفاق، تلك الحدود تخطتها جاين، مثقفة وجميلة في مركز اهتمام المجتمع اللندني، خنقت يأسها من زواجها تحت وسادة فيليكس غير مكترثة بتعليقاتهم وغمزهم ولمزهم، كانت تقابله على بعد خطوتين من بيت والديها في شارع هارلي ولم تتردد في أن تبيت معه ليلة في برايتون، بعيدًا عن عش الزوجية، خطأ كارثي، كل شيء أو لا شيء، غذت علاقتها هذه بالاحتياج للعشق والحب أكثر من شعوره بشيء تجاهه، عندما انفجرت الفضيحة وتراجع فيليكس مقررًا أن يختار حياته المهنية بشكل غير لطيف .

حياته المهنية قبل أي شيء! في شجارات أبويها اللانهائية كانت حياة ميخاليس راليس المهنية تأتي في المرتبة الأولى، كل شيء كان يتم التضحية به من أجلها، "ألا تفكرين في عملي؟"، كان يصرخ. كلمة السر المقدسة من أجل المزاج

والسلوك النرجسي للزوج الذي كان يخفي خلف هذه الكلمة غروره المريض وعدم نضجه، "أنا فنان، ألا تفهمين؟"، كان يتهمها ويضرب الباب خلفه تاركًا الأم والابنة مصعوقتين من انفجاره، حياة مهنية وإبداع، من قال إن الممثل يعني النور؟ إنهم وجوه مظلمة تتطلع للضوء وتسعى إليه ليسقط فوقهم، يشعلهم كي يشعروا بوجودهم، نجوم غير مرئية للحياة اليومية.

"يا حبيبتي، الرجل كان خارج نفسه، ولا يزال حتى الآن"، كانت أماليّا تقول عن زوجها السابق وهي تهز رأسها بصلف: "كان يريد أن يلعب كل الأدوار لأنه كان في دور الكومبارس"، سنوات مريرة، تنزلق مثل الصمغ في شقوق أشجار الصنوبر، يكمن ويجف، تعافيها من راليس كلفها المال والوقت، لفترة طويلة كانت تحاول أن تستمتع به بشهوة وطمع حتى لو كانت هناك لحظات يأتي فيها الألم القديم ويحفر حفرة هناك عند موضع القلب ويغرس بقوة وتهديد، قصة عميقة مدفونة في روحها، مقبرة جوفية غير مكتشفة، غضب محنط مثل تلك الأجساد لبني وطنها في غرف جوفية للموتى، لا تصل لأعلى ولكنها تبقي في قاع بئر الوعي، وعندما تتألم تسحقه فيذهب إلى أعماق أبعد.

مسكينة يا أمي! كانت تنقصها القوة كي تسامح وتتحرر، تعلمت على الأقل أن تحزن من أجل الزمن الضائع، أن تقدره لا أن تسرف في إنفاقه، استغلت كل لحظة وحولت كل الملل والخمول لسنوات شبابها إلى حركة مستمرة كانت تصيب كل من حولها بالإرهاق، إلا هي، كانت جيني تُكِنُّ لها الإعجاب، بعد أن تابعت كل مراحل أمها كانت تجد أن هذا التطور نموذجي بالنسبة لها، لم تشأ أن تسير على خطواتها حتى لا تضيع لحظة من هذه المغامرة، كانت مدينة لنفسها بذلك أخيرًا!

سألته وهي تنهض:

- "متى نستطيع أن نغادر؟".

أرادت أن تثبت له أنها لن تبقي عند حدود الكلام، وأنها بالفعل تريد أن يستكملا رحلتهما متخطيين كل العوائق وسوء الحظ.

قال لها وهو يضحك من رد فعلها:

- "ليس قبل صباح الغد، هكذا أظن، على الأقل".

تعلَّم رومانوس أن ينتظر من جيني ردود أفعال غير متوقعة، قبل عشر دقائق كان يمسح دموعها من على وجنتيها، والآن تطلب منه أن يفتح أمامها خرائط الطرق والاكتشاف.

أصرت:

- "أين ستكون وجهتنا القادمة؟".

لم يستطع أن يقاوم أكثر من هذا، تعجبه جيني، حيوية ولا تتحلى بالصبر، تجلس على طرف الفراش وقد تركت قدميها مكشوفة من تحت مريول التمريض، راح رومانوس يخمن الرباط العشوائي خلف ظهرها المكشوف، سرت قشعريرة في عموده الفقري، لمعت عيناها في الضوء الخافت، لعبة التوقع والإغراء، لقد صار متأكدًا أن هذه المرأة لا تعيش أي شيء بسطحية، أقل الأشياء بالنسبة لها تتخذ أبعادًا أسطورية تصل إلى حد المبالغة؛ ولهذا تصبح مشاعرها مفرطة متطرفة، لاإراديًا تختبئ خلف اللامبالاة لكي تتجنب إسرافًا غير محسوب، والاستهلاك السهل، هذا النور الذي يشع منها أحيانًا هو محض استراحة من هذا الإكراه الشخصي، لحظات نادرة عندما تمزق مشاعرها الجسد والحمم المتدفقة من فم البركان وتحرق كل شيء، يشعر رومانوس بهذا الحريق بين قدميه، الرغبة، تلك المشاغبة الساخرة من الجميع، هدوء وتعقل؟ من تحدَّث عن الحذر؟ ليس حكيمًا من يكرر أخطاءه! لكن الحكمة تحتاج إلى سنوات من الخبرة العملية وجسد ناضج، وهو شاب، ركبتا جيني العارية تثيره، انحنى نحوها ومد يده فوقها.

تجاوبت جيني مع الاندفاع الجارف الذي ينبض في العينين شديدتي السواد لذلك الرجل، رغبة جامحة، أوه! مرة أخرى ستلمس النار القاتلة، ستشعر معلقة بأجنحة مقصوصة! خارج جسدها، كانت أخرى! فريدة ومحبوبة.

*أن أُعشَق بوحشية وصدق من بدوي!*

انحنـت نحـو رومانـوس فوضعـت يدهـا السـليمة علـى كتفـه فـي الوقـت الـذي كانـت فيـه أصابعـه تعبـث بركبتيهـا، قبـل أن تغلـق عينيهـا، بالضبـط قبـل ملليمتـرات مـن القبلـة الشـرهة، رأت خلفـه خيـالًا يتحـرك وارتجفـت، خيـال امـرأة، الأخرى! عذاب أبـدي، مطـاردة لا تنتهي، كيف اسـتطاعت أن تتخيـل أنهـا سـتتخلص أبـدًا منهـا، خيالهـا المريـض ينزع قلبهـا من جـذوره ويلقي بـه علـى الفـراش، بعـد إلغـاء القبلة الوحشـية التـي لا تزال علـى أفواههمـا، تراجعـت جيني نحو الوسـادة فـي اللحظـة التـي فتـح فيهـا البـاب واتخـذ الخيـال لحمًـا وعظامًـا وانقضـت أماليّـا إلى الغرفة.

# أماليّا

**في مثل هذا اليوم** غادرت أثينا من أجل رحلتي إلى سوريا، ويبدو أنها غيرت مسيرة حياتي كلها.

في عقلي ركام من الذكريات السعيدة والمرحة، الباهتة، ذكريات معذبة تمزق أوصال الروح، سكين يُسحب في النسيج اللين للذكرى ويحفره بعنف، وتتجمع المرارة وتبقي، طبقات من المرارة فوق بعضها تثقل النفس وتحني الظهر، صغيرة وهشة، أين تجد لها قليلًا من الاحتمال؟ قليلًا من الجرأة كي تدير وجهها عن النور؟ أن تنصاع للواجب أو تخاطر بكل شيء وترحل؟

فاجأتها نظرته الزرقاء، التحدي يبرق من داخله، حب غير متوقع يعدها بكل ما حرمت منه لسنوات، سنوات أسرفت في تبديدها. "سأهدي لكِ الجنة"، قال لها.

عدت اللحظات السعيدة واللحظات السيئة، فمالت كفة الثانية، كانت روحها تشتاق للحب والطيران، فتحت الباب.. رحلت.

**وصلـت الطائـرة مـن إسـتانبول** إلـى دمشـق قبـل سـاعتين مـن منتصـف الليـل، خرجـت من البنايـة، أحسـنت عقـد السـترة الصوفيـة التي كانـت ترتديها، اسـتقبلها نفـس الهواء البـارد، مثلما حـدث آنذاك.

طلبـت مـن الفنـدق سـيارة تنتظرهـا عنـد المخـرج، فضَّلـت أن تجـر حقيبتهـا غيـر راغبة في الحديـث مـع أحـد، سـاعدها السـائق المهـذب لتدخـل سـيارة المرسـيدس الداكنة، أثنـاء الطريق كانـت تختلـس النظـرات فـي المـرآة، ميـزت بصعوبـة وجه امـرأة تنحنـي عنـد الجامع.

ظـلام الليـل كان يحكـم الطـوق حـول المـكان، القليل من السـيارات تسـير في اتجاه دمشـق، الأشـجار علـى جانبـي الطريـق وأضـواء برتقاليـة باهتـة تشـق الظـلام، بينما رائحـة المدينـة التي تنـام عنـد نهايـة الطريـق وصلـت بالفعـل وتسـللت خلسـة إلـى داخـل الجلـد الداخلي للسـيارة، عـوادم السـيارات، آنـذاك كان نسـيم الليـل له رائحـة الزهـور... آنذاك.

أغلقـت أماليّـا عينيهـا واسـتكانت علـى المقعـد، وركـزت تفكيرهـا فـي مـا سـوف تفعلـه فور وصولهـا للفنـدق، منـذ اللحظـة التي قـررت فيها أن تسـافر على عجل، أن ترتـب وحدها آخر جزء مـن رحلتهـا، كانـت تفكـر فـي نفس الأشـياء، أفكار مكـررة ورتيبـة تزيح التوتـر الناجم عـن فكرة عودتهـا بعـد كل هذه السـنوات إلى سـوريا.

اسـتقبلها وجـه دمشـق المظلـم، نوافـذ مغلقـة وشـوارع خاويـة، ظلام تفتتـه أضـواء المنارات الخضـراء، كعيـون خضـراء تحـرس نوم البشـر، تظهـر في أحلامهـم وسـهرهم، البنايات العشـوائية العاليـة تخنـق البيـوت الحجريـة علـى الأطـراف، المنـازل المنخفضـة التـي تتذكرهـا أماليّـا مـن رحلتهـا الأولـى في المدينة، سـرعة السـيارة جعلتها تميـز بصعوبة جدران المدينة التي ارتسـمت لبرهـة بجوارهـا ثـم بعـد ذلك داخـل الشـوارع الرئيسـة بالأفيشـات الضخمة، وصلـت إلى مدخل الفنـدق الـذي لا يختلـف في شـيء عـن الفنـادق الأوربيـة الحديثة.

وقفت أمام نافذة غرفتها، عيون المدينة الزرقاء تبزغ من كل مكان، وبعد ثلاثين عامًا ترحب بها من جديد، ألقت أماليّا بسترتها على الفراش، من أعلى كان المنظر يكشف المدينة كلها التي كانت بالنسبة لها أكبر محطة في حياتها، سيطر عليها التعب، طوت نفسها واتكأت على جدار الشرفة منهكة، وكأنها كانت في حاجة إلى ثلاثين عامًا حتى تعود، الهواء البارد يلطف الجو ويربت على ظهرها، ياله من إحساس رائع! أخيرًا، بعد سنوات طويلة.

هربت منها ابتسامة، كم هو جميل أن ترى الأمور من زاوية جيدة! في عمرها هذا كانت تستطيع أن تختار من أي وجه تريد أن ترى كل شيء حولها، ربما ما زالت تحتاج إلى دفعة صغيرة، الإنجليزية ورفقة صديقاتها كانتا محض حجة كي تقرر أن تقوم بالرحلة، حادث إيفيلين بدا في البداية كنذير شؤم وزاد من ترددها، لكن عندما أرسلت ابنتها إلى دمشق، كانت تبحث بشدة عن عذر حتى لا تعود هي إلى لندن، فقد كانت تعرف أن بقاءها في أثينا لتعتني بصديقتها المصابة، كان يمنحها فقط مهلة من الوقت، الوقت الذي انتهى فجأة عندما أخبرتها جيني أنها في طريقها إلى بالميرا.

تلاشى كل التردد، كان يوم الأحد، رتبت رحلتها إلى سوريا دون أن تضايق المكتب السياحي، حجزت تذكرة عبر الإنترنت والجناح في الفندق هاتفيًّا، لم يتبقَّ سوى أن تجد طريقة لتتواصل مع ابنتها، منذ صباح الأحد وهاتف جيني الجوال خارج الخدمة.

عادت واستسلمت لهذا الشعور الغريب، في هذا العمر، بثقل حياة كاملة على ظهرها، شعرت أنها أكثر خفة، متكورة في شرفة غرفتها، في الأعلى، والمدينة الهادئة تتمدد أمامها، كم أحسنت بقرارها أن ترتب لهذه الرحلة أخيرًا، خسارة أنها استغرقت كل هذا الوقت لتتخذ القرار! انتابتها غِبطة جارفة وراح قلبها يدق بجنون، كأنها كانت تنتظر مفاجأة تعرفها بالفعل، نسيت قلقها على جيني، لقد توافقت تمامًا مع نفسها، نفسها الأخرى المحببة، تلك التي تعرف أن تتعاطى معها، أن تعارضها وتحترمها، وبالأخص أن تحبها، تواءمت مع فكرة أن مغادرتها

المتعجلة لم تكن بسبب ابنتها، ولا بسبب قلقها عليها، لن تسعى كي تجدها، لكنها تريد فقط أن تتصل بها، ربما تختبئ قليلًا خلف أصبعها بحادثة إيفيلين، تردد أكثر، لكن كان كل ما ترغب فيه هو أن تعود مرة أخرى إلى هنا. والأهم، أنها أرادت أن تعود وحدها، كان هذا نواة تصالحها الداخلي، عصارة الموضوع، ستبقي قليلًا في دمشق ثم ستذهب بعد ذلك إلى بالميرا.

تمطَّت بسعادة أمام النافذة المفتوحة، بهت لون السماء قليلًا خلف البنايات الداكنة التي تحيط بالشرفة، عيون المنارات الخضراء ترتعش في السكون التام الذي حط فجأة على الأجواء بسبب صوت المؤذن الأجش، الصوت الأول تلاه الثاني فالثالث، ثم صوت رابع، ملأت الأصوات الرخيمة الأجواء تدعو المؤمنين للصلاة الأولى في الجامع، مثل أجراس المسيحيين، كنائس للدعاء، وصلت الأصوات من المساجد المحيطة وراحت كلها ترفرف وترسم قوسًا جهوريًّا في الليلة الربيعية التي دبت فيها الحياة فجأة قبل أن تزهق روحها بقليل. نشيد الرب العظيم، أغنية الفجر التي تفيض من كل مكان، الهواء الذي يهتز من الأنغام حولها يخدش جلدها، ساعة مباركة تتأهب على شفا الشرق لتستقبل الشروق الذي يستعد بعظمة للبزوغ،

أغلقت أماليّا النافذة ودخلت تحت الشراشف الباردة مبتهجة بعد أن هدهدتها الأدعية الأخيرة التي رحبت بها في دمشق.

**جايـن ديجبـي** كانـت الذريعـة، الصديقتـان الحميمتـان لأماليّـا، صارتـا مجـرد حجـة، خطـة مغريـة بالنسـبة لثلاث سـيدات فـي متصـف العمـر يبحثن عن مخـرج من رتابـة لنـدن الرمادية، مـا زال الشـتاء ممتـدًّا، علـى الرغـم مـن دخـول شـهر إبريل، توقفـن قليلًا فـي باريس واسـتهلكن أنفسـهن فـي نزهـات فـي سـان أورنيـه وعبور ضـروري من متحـف اللوفـر، كان البرنامـج يحتوي علـى عـرض مسـرحي فـي مسـرح لطيف بالقرب مـن مادليـن. انتكاسـات الذاكرة تؤلـم للحظات، مسـامير تغـوص في أسـطح هشـة فيُفتـح الجرح مـن جديـد، ليالي افتتـاح مسـرحيات ميخاليس راليـس، بطلاتـه الجميـلات، النميمـة فـي قاعـة الانتظـار، فـي وقت مـا؛ كانـت هذه هـي حياتها! فـي وقـت مـا، كانـت أماليّـا تعلـم أنها فـي هذه الرحلة سـوف تُصدم أكثـر من ذي قبـل مع ذلك، مـن حسـن الحـظ الآن أن لديهـا سـبيلًا لمواجهته.

فـي اليـوم الثانـي غـادرن إلـى ألمانيـا، التي كانـت بالفعـل مفاجأة كبيرة للنسـوة للثلاث، لم يكُـنَّ يعرفـن شـيئًا عـن الريـف الألمانـي، وهكـذا اسـتمتعن بالطريق علـى طول سـهل رينو حتى موناكـو، المدينـة التـي كانـت جايـن تقابـل فيهـا الملـك لودوفيـك الفافـاري، قصـة حـب تصلـح لروايـة، الملـك عشـقها من أول لحظة، وحبهما المشـترك للعالـم القديم كانت رابطًـا قويًّا بينهما، بالنسـبة لفخامتـه صـارت جايـن زهـرة البنفسـج، كمـا كانـت تناديـه هـي برقـة: فاسـيل، محـوّرة كلمـة فاسـيلياس، التـي تعنـي (ملـك) باليونانيـة، بملاحظـات علـى وريقـات وخطابـات وباقـات مـن زهـور البنفسـج، كان يعبـر لهـا عـن حبـه، وسـاعدها بأحضانـه الملكيـة علـى نسـيان رفـض وهجـران الأميـر النمسـاوي، بحـرص وعتاب، أقنعها لودوفيـك أن تتزوج من البـارون الألماني فون فينينجيـن، دون أن يحرمهـا مـن عطفـه ودعمه.

أماليّـا وصديقاتها قمـن بزيـارة لبلديـة فاينخايـم على بعـد كيلومتـرات قليلة مـن هايدلبرغ، قصـر فينيجيـن حيـث قضـت جايـن بجـواره مسـاءات رتيبة وليالـي من السـأم، هبطـن بعد ذلك نحـو إيطاليـا وذهبـن إلى جنـوة وصقلية تتبعًا لأثـر البارونة حتـى جزيرة كيركيـرا اليونانية، ومنها إلـى أثينـا حيث جرفهـا الحب مـرة أخرى.

حياة جاين ديجبي المفعمة بالأحداث والفضائح والتفاصيل الجانبية الخفية، التي تكفي لإثارة فضول صديقات أماليّا، أخفت عنهن عن قصد أن ما يهمها في الأمر ليس الأسرة الملكية وقصص الحب غير الشرعية للإنجليزية، هي ستتبع أثر جاين ديجبي فقط كي تصل معها إلى سوريا، كي تعود.

لم تكن قلقة بشأن جيني على الإطلاق، أخيرًا، لقد كبرت، اختياراتها الفاشلة الواحدة تلو الأخرى، كانت تشي بأنها لن تتعقل أبدًا، لكن هكذا كانت حياتها، آه لو كانت تعرف من قبل! وماذا فعلت هي عندما كان ميخاليس راليس يخونها؟ صمت واعتذارات، كم كانت حمقاء آنذاك! راحت تتذكر زواجها وهو يغرق وتشعر بندم عميق، لكن الشفاء المرغوب لن يأتي بهذه الطريقة، "الصفح هو الطريق الوحيد للسكينة، فقط هكذا يهدأ الضمير وتكف الذكرى عن الوخز كشوكة"، هكذا كان يقول المحلل النفسي.

قبلت نقاط ضعفها كجزء لا يتجزأ من نفسها التي تدين لها بالحب بكل ما فيها، عملية تجميل لشد الوجه والجفون كانت أولى الدلائل على تلك المحبة، استمتعت بشكلها الجديد في المرآة، مثلما تمتعت بحنان ورعاية زوجها الثاني، كان دايف رفيقًا مثاليًا في كل شيء، قدم لها التغيير الذي كانت تبحث عنه بعد طلاقها الكارثي الذي بدأت في تخطيه، في البداية كان الجميع يتعامل مع تلك العلاقة بريبة، هل شم الإنجليزي بقايا الثروة الكبيرة؟ وحتى إن كانت هكذا، كانت أماليّا تستمتع بابتسامة الحظ لها ولم تولِ أحدًا أي اهتمام، بعد الأرباح التي حصل عليها ديف من تعاملات عقارية في لندن محا كل أثر لتلك الريبة ووضع العالم كله تحت أقدامها، كان هذا في الفترة التي تتخطى فيها أماليّا الخمسين من عمرها.

"لديَّ امرأتان شابتان في الخامسة والعشرين في عبوة واحدة". كان دايف يقول مازحًا ويرتشف بنهم الفاكهة الناضجة التي تنضح برائحة زكية وطعم نادرين.

متحررة من توتر الهجر وشبح الخيانة أخرجت أماليّا من داخله كل ما كانت تخبئه، شخص آخر، حجر كريم متلألئ! سقطت عنها كل الشكوك والتوتر مع الوزن الزائد والتجاعيد، فرحت بتجددها بكل خلايا جسدها الجديد الذي رد لها

الجميـل، بـلا حـب لسـنوات، واكتُشـفت مـن العشـق من جديـد واشـتعال الرغبة في عيـن رجل، سـن اليـأس كان باكـورة تلك النشـوة، كلمة منسـية في قاموسـها، البيئـة الجديدة التي اسـتقبلتها مرحبـة والأصدقـاء القدامـى فـي أثينـا كانـوا يفركـون أعينهـم مـن الدهشـة، حتـى أن ميخاليـس راليـس بهـت عندمـا رأى هـذه المـرأة المجهولـة، جـراح التجميـل أخفـى مـع التجاعيـد الجـروح القديمـة مـن حياتهمـا المليئـة بالمعانـاة، ومـن دونهـا تحولـت أماليّـا إلى امـرأة جذابـة وحضور شيق، تميـل بخمـول بيـن أحضـان دايـف الـذي كان لا يبخـل عليها بشـيء، عشـرات الهدايا والرحـلات الباهظـة الفخمـة، لـم تكـن أماليّـا بحاجة لـكل هذا، كانـت فقط تتوق للإخلاص الذي تعرفـت عليـه لأول مـرة بجـواره، كان يكفيهـا حضوره الدافئ تحـت أغطية الفراش، لمسـة حذائه علـى حذائهـا وشـخيره الـذي كان يوقظها من نومها. كيف يمكن أن توصف السـعادة بشـكل آخر بعـد سـنوات طويلـة مـن الوحدة؟

آه! السـعادة! كلمـة كبيـرة، وعندمـا تنطقهـا تتظلـل بهـا، لـم تسـتغرق طويـلًا، تألمـت أماليّا لوفـاة دايـف، لكنهـا تألمـت أكثـر مـن تركـه غيـر العـادل لهـا، عـدم نضـج وأنانيـة، كيـف تجتاز الهيبـة التـي يخلفهـا غيابـه؟ جينـي! صـارت سـلاحًا قديمًـا محشـورًا ومنعـزلًا فـي الخزانـة، الأم والابنـة دون وعـي لبسـا مـن جديـد أدوارهمـا القديمـة، كانت كل منهمـا في حاجة إلـى الأخرى، تجميـد عميـق كان يحفـظ الألـم كامـلًا، الرفـض مـن الأب - الـزوج، لدغـة سـامة، سـممت الجلـد واللحـم وزُرعـت فـي العظـم، علـى الأقـل أماليّا، بالمعرفـة التي تليـق بعمرها نجحـت، تلوت من الألـم بعيـدًا عـن أثينـا واسـتطاعت أن تتـم محاولتها وتقف من جديـد على قدميهـا، كانت مدينة بذلـك لذكـرى دايف.

فـي اجتمـاع تـم فـي أثينـا لخريجـي مدرسـة سـان جوزيـف، حظيـت أماليّـا بالكثيـر مـن المجامـلات والتعليقـات الإيجابيـة مـن زميلاتهـا القدامـى وإن كانـت بحمـاس مفتعـل، بعضهـن كان قـد استسـلم لـدور الجـدة، وأخريـات أصابهـن التعـب مـن العيـش مـع عجائـز أو أزواج مرضـى، كلهـن كـن يخفيـن تحـت طبقـات المكيـاج السـميكة عـن قصـد أحلامهـن الخفيـة كـي يبقيـن شـابات بيـن مـن هـن فـي عمرهـن وكـن ينهـرن بوضـوح أمـام أعينهـن، أماليّـا، بعـد عمليـات التجميـل بـأرداف مشـدودة، بعـد سـاعات مرهقـة فـي

صالـة الألعـاب فـي مـاي فـاي[1]، كانـت تثيـر مشـاعر الغيـرة لـدى كل زميلاتهـا القدامـى، كـنَّ يحسـدنها حتـى المـوت، نَفَثْـنَ سـمهن بعـد أن غـادرت أماليّـا الاجتمـاع.

كانـت علـى اتصـال جيـد بواحـدة فقـط، وهـي ناديـة، فقـد كانـت بينهمـا علاقـة طيبـة فـي المرحلـة الثانويـة، فـي اجتماع الطـلاب القدامى بهرتهـا أماليّا، خاصة لمظهرهـا الداخلي، لاحظت الطريـق الطويـل الـذي قطعتـه صديقتهـا حتـى تحصـل علـى توازنهـا الـذي غـاب عنهـا لسـنوات طويلـة، مسـافة طويلـة فـي صحـراء قاحلـة بـلا مـاء، مبـارزة مع نفسـك التـي تظهر فجـأة أمامك مثـل انعـكاس فجائـي، تبـادلا أرقـام الهواتف والبريـد الإلكتروني، الـذي كان أكثر ما بهـر الجميع، لـم تكـن أي ممـن هن فـي عمرها لديها أدنـى علاقة مع الإنترنـت، ظلا على تواصل، المنشـورات الدعائيـة التـي كانـت ترسـلها إليهـا ناديـة عـن رحلـة جايـن ديجبـي إلـى بالميـرا، أصابـت أماليّـا بالتأثـر والقشـعريرة، كانـت تعـرف القصة، لقد سـارت هي نفسـها علـى نفس الأثر، علـى الهضبة الوعـرة مـن دمشـق إلـى بالميـرا، يالها مـن رحلة!

فـي بدايـات الثمانينيـات قدمـت لهـا ناديـة رحلـة هـروب مـن أثينـا بعيـدًا عن طـوق نميمة الكواليـس المسـرحية الخانـق، أخبـرت العائلـة فـي دمشـق ليسـتقبلوا ويسـتضيفوا صديقتهـا القديمـة، عـرض نديـم أن يصحبهـا فـي جـولات فـي المدينـة القديمـة وإلـى بالميـرا، كان لديـه حـل لـكل شـيء، مـزاح وضحـك ونكات وشـقاوة، عندمـا قابلتـه فـي أثينا فـي بيت ناديـة كانا في العقـد الثالـث مـن العمـر، بـلا أطفال وزواج فاشـل يثقل كاهليهمـا، لكنه كان دائمًـا يتمتع بمزاج للحيـاة، خفـة ظلـه التلقائيـة المتمـردة كانـت تقلـب كل شـيء رأسًـا علـى عقب.

- «رأيـت زوجـك بالمسـرح ليلـة أمـس». قـال لهـا وهو يغمـز له بعينه ويبتسـم، بـدا عليه أنه يخطط لشـيء.

- «كيف وجدته؟».

- «على خشبة المسرح أم في الغرف الداخلية؟».

---

1- اسم منطقة في وسط لندن.

رد عليها السؤال بسؤال وهو يحتضنها من كتفيها؛ ضحكت معه، ألفة سنوات الطفولة تسمح بهذا.

- «أماليّا! لو أنه بهذا السوء في البيت كما هو على المسرح، ابحثي عن شيء أفضل! شيء آااخر».

أقنعاها؛ نادية بحجج منطقية لا تقبل النقاش، أن تأخذ استراحة، فاصلًا صغيرًا من الشجارات والهموم التي يسببها الزواج، في تلك الفترة كان راليس يصور فيلمًا سينمائيًّا، وعلى كل حال لم يكن لديه وقت لأماليّا؛ نديم لم يستخدم الحجج، كان يكفي خفته وتلقائيته ومزاجه الرائق، وعدها برحلة لا مثيل لها، أسواق شرقية، ألف ليلة وليلة، تمشية في الصحراء وسباحة في الفرات، لا يضارع في براعته في الكلام وتقديم الإغراءات، كان يغمض قليلًا عينيه الزرقاوين وهو يصف الملاهي الليلة في بيروت والـ «أورينت كلاب» في دمشق، كانت مغازلته دؤوبة ولكن على استحياء، على الجانب الآخر لم تفهمه أماليّا، فقد كان بينهما ألفة اكتسباها من تلك السنوات في مدرسة سان جوزيف بالإضافة إلى غياب زوجته، اللبنانية، كما كانت تسميها نادية.

احتاجت إلى أسبوعين حتى تقرر، كانت تتأرجح بين التردد والآمال، مخاوف داخلية، ستترك زوجها وحده لوقت طويل، ستعاني بعيدًا عنه، من الشك، بالتأكيد، لكن سلوكه قد أنهكها وأرادت أن تتنفس قليلًا بعيدًا عن أثينا، الضربة القاضية تلقتها من عدم اكتراثه، انتظرت حتى اللحظة الأخيرة أنه سوف يقرر أن يقوما بالرحلة معًا. «عندي تصوير»، قال لها، ربما كان سعيدًا بغيابها لعدة أيام، في الليلة السابقة كان حنونًا معها، ربما لشعوره الطفيف بالذنب من رد فعله.

طارت إلى سوريا، طير مهاجر يبحث في الجنوب عن الغذاء والدفء بعد أيام الشتاء الصعبة، تركت خلفها زواجًا فاشلًا وحملت الحزن والمرارة من هذا الفشل، صارت أنانيتها المجروحة شراعًا لها كي تسافر، لكن قلبها غير الناضج صار المرساة، تشبثت في القاع بقوة ولم تشأ أن تنفك من الصخور.

لكنها لـم تكـن تتخيـل التغييـر الـذي ينتظرهـا عندمـا وطـأت قدمهـا الشـرق، وفجـأة علـى شـواطئها حيـث تشـرق شمسـها الحمـراء مبشـرة بأجمـل يـوم أشـرقت فيـه، ومـن بعدهـا نسـيم خفيـف يجرفهـا إلـى الداخـل، فـوق جبـال لبنـان، ويضعهـا علـى شـواطئ نهر بـردَى، يـا للغرابة! هـذا النهـر الـذي يقفـز من بطن الجبل وبشـكل سـحري لا يصب في البحر، يحول مسـاره بشـكل جـذري، تحـول يشـبه ذلـك التحـول الكبيـر الـذي حدث فجـأة في حيـاة أماليّـا، ماء الحيـاة الذي يـروي حدائـق دمشـق، يسـعى جاهـدًا أن يجـد مخرجًا ويصـب في البحـر، يفقد وجهته وبشـكل مفاجـئ يختفـي فـي الصحراء.

**تفحصت كل منهما الأخرى لثوانٍ قليلة**، مصارعان في الحلبة قبل جرس الجولة الأخيرة، عيناهما تعرف الطرق والسُبُل كي تعرِّي كل منهما الأخرى، ثلاثين عامًا يستهلكان أنفسهما في هذه المعركة، منذ اللحظة التي أمسكت بها بين يديها.

وُلدت قبل ميعادها ببضعة أسابيع، تعجلت كلٌّ منهما ولم تتحليا بالصبر، تعجلت الأم أن تخرجها من أحشائها، والبنت لتقفز خارجها، أخيرًا لم يتحملا أكثر من هذا، ليكونا معًا ووحيدتين، حاجة ملحة لتواصل مختلف في قسم الطوارئ بمستشفى «ميتيرا»[1]، من أول نظرة، كانت المفاجأة والتهليل في الوقت نفسه، تبادلا الوعود بالحب الأبدي، شعرا بعدها بدفء التواصل على جلديهما، شعور خارج السيطرة، جاء البكاء بعدها مباشرة، معبأ بالارتياح من الجانبين.

لم يتغير هذا الترتيب حتى الآن، نظراتهما تتقابل في الهواء في اللحظة التي كانت جيني تعود فيها بظهرها نحو الوسادة، نظرة متفاجئة شاخصة، تتعرف على نظرة أماليّا، شعور بالذنب والرعب، رأته مرات لا تحصى يغير الوجه الجميل لإحدى بطلات ميخاليس، ومع اللون الأحمر الذي يصبغ خدود الجنيات، ومعها ابنتها، بنفس الطريقة في كل كارثة.

تحرك جسداهما من أماكنهما وانقضَّا للأمام للقاء الجميل، عناق شديد، تشابكتا، وجد جسد كل منهما مكانه المكمل في الجسد الآخر، هذا الذي فقدتاه للأبد بعد الولادة، الصدر والبطن يلتصقان بألفة في ما بينهما، هكذا كما لا يحدث مع عناق أي امرأة أخرى، الكفوف تربت وتفرك الظهور برقة.

- «حبيبتي الوديعة!».

- «ماما!».

ثم صمتت، صمت مشوق يمجد الأدوار، الأم والابنة، الابنة والأم، بطلتان على

---

1- واحدة من أشهر مستشفيات الولادة في أثينا، «ميتيرا» تعني الأم أيضًا.

نفس خشبة المسرح، تعرفان الأدوار والحوار، حبكة رائعة، الأسماء بجوار بعضها على لوحة الدعاية، الإيقاع في المشهد مؤثر، التصفيق حاد، يصعب فقط في ساعة النقد.

- «أنت لا تصلحين كأم». كان ميخاليس يتهمها بذلك.

- «أنت تقول هذا لأنه الدور الوحيد الذي لن تستطيع تجربته وإفساده». كانت ترد عليه أماليّا.

في مشاهد الطلاق كانت الابنة تنزل إلى منتصف الصالة، مُشاهد - ضحية، كما

في كل المسرحيات الفاشلة.

- «آه، يا صغيرتي جيني، كم قلقت عليك». مؤكدة على دور الأم الرئيس، المرقش بالقلق والحدة، «كيف أنتِ يا صغيرتي؟» أكملت وهي تبحث بعينيها وأصابعها لتتأكد من طمأنة الأطباء لها والتي سمعتها منهم قبل قليل، قبل أن تنقض على الحجرة كالإعصار.

ما زالت تعانق جيني وهي تفرك ظهرها العاري بحنان من تحت قميص المستشفى، لمحت رومانوس بطرف عينها، حضور يحوم خارج الحبكة، أي كومبارس تسلل إلى مشهدهما الأبرز؟

سألت بصوت خفيض:

- «من هو الشاب يا جيني؟».

إنه وسيم ليكون ممرضًا بدويًّا، ربما طبيب متدرب؟ لم يَغِبْ عن ملاحظتها قرب المكان الذي كان يجلس عليه في الفراش في اللحظة التي دخلت فيها الغرفة.

- «أمي». قالت جيني معترضة، في اللحظة التي كان ينحني فيها تقريبًا نحو أماليّا ويعرّف نفسه.

فاجأتها وقفته، هكذا مثلما انحنى نحوها، به شيء مهدد مثل ميخاليس راليس،

أطـول بـرأس تقريبًـا، يظهـر كأنـه الحامـي، الذكـر الـذي يرعـى الأنثـى المطيعـة، جـرس إنـذار، وبالطبـع تعـرف مـن هـو، منـذ اللحظـة التـي عرفـت فيهـا بحادثـة ابنتهـا، لـم تتـرك معلومـة إلا وتأكـدت منهـا، نظرتهـا البـاردة لـم تغير مـن دفء عينيه السـوداوين، اضطـر رومانـوس للتراجع.

- «أعتذر لو أنه بسبب إهمال مني وُضعتم في موقف كهذا أنتِ وجيني».

صدته أماليّا بنبرة أكثر برودة:

- «كان من الممكن أن يكون وضع جيني أسوأ من ذلك».

أصر هو وبدا على صوته لبرهة أنه قد فقد ثقتها:

- «فعلنا كل ما بوسعنا، لو وضعنا في الاعتبار البلد الذي أنتما فيه».

تدخلت جيني وقد فهمت التوتر في كلمات رومانوس الأخيرة:

- «يا أمي، ليس هناك سبب لتفكري الآن في ما كان يمكن أن يحدث».

تعلم هي كم يكلفه أن يعتذر عن أعطال في وطنه الثاني.

- «وكيـف يمكـن ألّا أفكـر فـي الأسـوأ؟ جئـت فـي إجـازة لثلاثـة أيـام وأنـا الآن مضطـرة لأن أبحـث عـن ابنتـي فـي المستشـفيات، هـل تظنـون أن هـذا أمـر هيـن؟».

أوه يـا لهـا مـن خاتمـة بديعـة لارتجال مفاجئ! ليس لديها شـيء مـن القلق الأمومـي والتوتر، فقـط عدائية موجهـة نحوه، تنزع عنه سـلاحه.

تربيتـه السـليمة ووعيـه المهنـي كانـت حصـون دفاعـه، لـم يكـن يـرد علـى كلام السـيدات، وبالأخـص عندمـا تكـون عميلـة، في هـذه الحالة يحدث الأمـران، الصمت المفاجـئ يخنق جيني.

- «ألـن تكُفّـي يـا أمـي عـن التفكيـر دائمًا في الأسـوأ، واشـكري رومانـوس وخاله اللذيـن قلبا السـماء والأرض حتـى جـاء طبيـب مـن حمـص، ثم إننـي ليس بي شـيء».

لانْت أماليّا تلقائيًّا، لم يكن السبب النبرة الازدرائية في صوت ابنتها، ولا التراجع الهادئ لرومانوس، الإشارة إلى نديم تعمل كمهدئ فوري، نديم! حضوره مثل شمس دافئة بعد المطر، جاهزيته المطمئنة في صباح اليوم كبحت من مخاوفها التي كادت تسيطر عليها عندما علمت بإصابة جيني.

- «لا يمكنكِ أن تفهمي أنتِ»، تنهدت أماليّا وقالت وهي تخفض من صوتها: «لقد وصلت فجر اليوم إلى دمشق، كنت منهكة من التعب، بلا نوم، بدأت يومي أبحث عن أثر لكِ ثم علمت فجأة أنكِ لا أدري على بعد كم من الكيلومترات، مصابة وفي غيبوبة، لماذا لا تضعين نفسك في موضعي؟».

- «لقد قلت لكِ بالفعل إنني تركت المدينة، ألم أخبركِ بهذا؟»، رفعت جيني صوتها قليلًا: «ما الذي حدث لكِ وتطاردينني دائمًا؟».

- «لقد اتفقنا على شيء آخر عندما بدأتِ رحلتكِ إلى سوريا، لا تقولي لي مع من أنتِ، أغلقتِ هاتفك المحمول، ثم جئت على عجل إلى دمشق، وليكن».

تراجعت بعد أن أدركت نبرة جيني الغاضبة وتحرك رومانوس الهادئ نحو الباب.

- «ابقَ يا بني»، أضافت: «إن خالك على وصول».

- «خالي؟».

قالت أماليّا وهي تحرك رأسها:

- «لو لم يكن نديم، فهو من خبرني على كل حال، كيف تعتقدون أنني قد علمت؟ لقد تحدثت مع أمك في الصباح، ربما لم تكن تعرف، لكن أنا ونادية كنا زميلتين في المدرسة الفرنسية، هي من طمأنتني، قالت لي إنكما معًا، ثم أخبرني خالك، لو لم يكن نديم».

- «خالي نديم هنا؟».

أجابت وارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة، لاحظتها جيني:

- «هو من جاء بي إلى هنا».

تعرف أمها جيدًا، تشعر متى تقف بثقة على كعب طوله خمسة عشر سنتيمترًا، ومتى بانعدام الثقة ينحل باطن حذائها، لا تستطيع الاختباء، لكن جيني غاضبة جدًّا من حضورها المفاجئ، وكأنها مراهقة تحتاج إلى حماية أبوية، وجدت قلقًا مبالغًا فيه وتشك في أن حضورها ربما يكون مجرد ذريعة، لا تدري بالضبط لماذا وليس لديها أي رغبة لتعرف، الأمر الوحيد الذي ترغب فيه هو أن تتخلص من عناقها الضيق.

- «ماما، أظن أنكِ تضخمين الأمور وقمت بجلبة أكثر ممّا ينبغي»، ثم أدبرت بنبرة ناعمة: «لقد جعلت الرجل يأتي من دمشق».

تساءلت أماليّا:

- «أضخِّم الأمور؟ نديم غادر إلى بالميرا والإسعافات الأولية من حمص، وأنا أضخم الأمور؟».

سأل رومانوس:

- «يعني؟».

- «خالك كان في طريقه إلى هنا عندما أخبرته نادية، ثم عاد ووجدني في الفندق، في الحقيقة هو أخبرني بكل شيء بطريقته وطمأنني، لكنني هجت عندما وصلنا».

ألقت جيني بنفسها للخلف على الوسادة، الوضع يتطور بشكل أكثر تعقيدًا مما كانت تحسبه، فكرة الرحلة مع رومانوس تحولت لحلم بعيد المنال، وحضور أماليّا تجعلها كابوسًا، لكن اطمأنت من حقيقة أن نديم كان في طريقه إلى بالميرا قبل أن يفاجئه وصول أمي إلى دمشق، رافق أماليّا من باب المجاملة، هل كان قلقًا على إصابتها؟ كم تود أن تصدق هذا! أم ربما على ابن أخته ليشاركه المسؤولية؟

استحضرت نديم إلى عقلها بابتسامته الرقيقة وأسلوبه المهذب ونظرته الرقيقة نحو رومانوس في الليلة التي تناولوا فيها العشاء معًا، تشعر بنار الغيرة تنشب من جديد في أحشائها، ثمة حشرجة ماكرة للحسد، هذا الذي يتحول إلى نباتات شيطانية ويتمدد إلى كل شيء ليس لها، تتبناه، تسلبه من الآخر، الطمع في الغريب، للشيء الذي لا تملكه، في الحقيقة هي تملك شيئًا؟ ألقت نظرة حولها، ما الذي لها في هذه الغرفة؟ رومانوس؟ من رابع المستحيلات، فقط في تلك اللحظة المقتضبة التي كان على وشك أن يتعلق من فمها، لو لم تدخل أمها لكان كل شيء مختلفًا الآن، أحقًّا؟ إن رومانوس يؤول إلى زوي، القبلة التي كان على وشك أن يعطيها إياها؟ رجال! تكرار التوقعات الممل، أطفأت المشهد في عقلها.

أمها! هي كلها لها، برقتها وهيستيريتها، بمخاوفها الدفينة وحضورها المتغطرس، تستطيع أن توفق بين عدم الإحساس بالأمان الذي يرعى بداخلها وبين الثقة بالنفس التي تعتريها في أي مكان عندما تدخله، هذه الأم هي أمها التي كانت تبكي في صمت قبل سنوات وتغلق التلفاز الذي كان يعرض أفلام راليس، ألقت عنها اسم زوجها السابق وراحت تقطر في قلبها سُمَّ هجرِه، إنها أمها بضحكة المراهقة التي اكتسبتها في الخمسين من عمرها، مع سراويل الدانتيل والكعب ذي الخمسة عشر سنتيمترًا.

دخل دايف إلى حياتها وقلبها رأسًا على عقب، وحطم بؤسها الروتيني، اعتقدت جيني حينها أنها قد فقدتها، فقدان لا يحتمل، يُتْمٌ مزدوج، لقد فقدت أباها دون أن تفهم متى ولماذا، على الأقل في هذه المرة هي تعرف السبب، راحت تغزل خطتها بمكر لوقت طويل، سنحت لها الفرصة لتقوم برحلة إلى لندن، لم يكن لديها أي شعور تجاه دايف، كانت ترغب فقط أن تخرجه من بينهما، قلدت بعض الأفلام التي شاهدتها في السينما، لعب أبوها تلك الأدوار ببراعة، إغراء زوج الأم الناضج، كانت مفاجأتها الأولى أن دايف كان رجلًا طيبًا، جحظت عيناه عندما رأى جسدها عاريًا، أول خطوة نحو هدم هذا البيت حدثت، هكذا ظنت في البداية.

«أنا أحب أمك، وأحبك أنتِ -أيضًا- لأنك ابنتها، ارتدي ملابسك وانسي ما قد

حـدث، وبالتأكيـد أنـا، قـد نسـيت بالفعـل ما حـدث»، قال لهـا دايف بـكل هدوء ممكـن، عندها وصفتـه بالمخنـث، لكنـه أعادهـا إلى أمها، هذا المشـهد السـيئ بقـي بينهما، جينتلمـان إنجليزي أصلـي، سـلوكه للسـنوات القادمة كان يشـي بمهانة شـعر بهـا عندما هربت كالمطـاردة من غرفة نومـه، لكنـه كان زوج أم محترمًـا وأمهـا ثانيـة فـي الخلفيـة تعكـس فوقهـا فشـلها الـذي بـدا الآن أفـدح، أمـا أماليّـا فكانـت متلألئـة كشـمس مرحـة فـي شـوارع لنـدن المبللـة، بينما كانـت جيني تسـتهلك نفسـها فـي مطـاردة الحب المثالي في شـوارع أثينـا المزدحمة. «أنـتِ تُحَمّلين أمك كل فشـلك وتغاريـن مـن نجاحهـا»، كان هـذا توصيـف دكتـور أشـلي، لقد رفعـت أماليّا من مسـتوى المنافسـة، صارت أيقونة للمنافسـة.

الآن تبتسـم بعجرفـة وهـي تجلـس علـى طـرف الفـراش، تحـاول جينـي جاهـدة أن تخمن ما هـذا الشـيء الـذي يسـبب لهـا كل هـذه البهجة بينمـا تتصنـع دور الأم القلقة، ثمة شـيء يحدث وهـي تحـاول أن تخفيـه بتصرفـات غبيـة، مكـر، ترى لمـاذا؟ آثرت جينـي التراجع قليـلًا، قالت لها وهـي تختفي تحـت الأغطية:

- «أمي، أحتاج إلى النوم».

انحنت أماليّا نحو ابنتها الوحيدة ومسدت على شعرها بخفة.

- «أنـتِ أفضـل شـيء قمـت بـه فـي حياتـي، تذكَّـري هـذا»، قالـت لهـا محاولـة أن تتحكـم برعشـة فـي شـفتها السـفلى.

أمها، شخصية فريدة، لم تكن لتترك المشهد إلا بعد أن تصل به للذروة.

- «نامي يا ملاكي».

همست أماليّا وبحركات بطيئة تراجعت نحو الباب.

أغلقـت جينـي عينيهـا فـي ضجـر، تأتـي إلـى ذهنهـا لحظـات كهـذه لا تحصـى، قبـلات حنونـة علـى وجنتيهـا، علـى جبهتهـا، صـوت الخطـوات التـي تغـوص فـي السـجادة وأمهـا تقـول لهـا تصبحيـن علـى خيـر وهـي تغلـق بـاب الغرفـة، الضـوء الأبيـض لليـل يبـدو

كفنار في ظلمة الليل، ثقب في قلبها من غياب أبيها من رأسها، كم سئمت انتظاره!

سمعت رومانوس يقترب، شعرت به يقف بجوار وسادتها، إنه هو! هل سيفعلها أخيرًا، دون أي تردد، لمرة أخرى، ليحدث كيفما يشاء، وشيء آخر، ستتخلص من أمها، لن تتحمل حمايتها الخانقة بعد، سئمت من مشاركتها لخشبة المسرح طيلة هذه السنوات، أخيرًا ستختار العمل بنفسها، ربما مونولوج، كي تكون لها الحرية في تطوير الدور مثلما تبتغي هي بالضبط، دون أي تغييرات اضطرارية أو ارتجال مفاجئ للأخرى، دون ضحكها أو بكائها، أو ربما يكون العمل من أجل شخصين؟ رجل وامرأة. نعم، هذا ما سيحدث! ستكف عن الصدام المقدس، التنافس الشرس، ليحدث شيء ما، ليكسر توأم الخوف هذا، ليختفِ الجمهور، لينزل اسمها من على لافتة الدعاية، سترحل!

قالت له متخلية عن صيغة الاحترام ودون مراوغة وقد ثبتت نظرتها عليه:

- «سأطلب منك معروفًا!».

ألفة معتادة، لم يندهش، أجابها غير قادر على الصبر:

- «اسمعي».

- «كم يبعد الفرات عن هنا؟».

- «ثلاث ساعات».

سألته بشك خفيف في النهاية:

- «هل سنغادر؟».

قال ليكسب وقتًا:

- «كيف حال يدك؟».

- «أنا في حاجة للهواء».

أجابها رومانوس مبتسمًا:

- «الزبون دائمًا على حق».

قالت له ببساطة:

- «من الغد أنا لست زبونة، لست عميلة».

شكل الحياة صار مثل الضوء الذي يضيء وينطفئ، مصباح في مراحله الأخيرة، مرة، مرتين، ثلاث مرات لا غيرها، ثم ينطفئ، ويسود الظلام الغرفة.

**كان نديـم في اسـتقبالها في مطـار دمشـق** يحمـل فـي يـده باقة زهـور صغيرة من الـورد البري الـذي لا تجـده سـوى فـي حدائـق خاصـة تحتفـظ فـي طينها بكتل لـم تمس مـن ذاكـرة المكان، كانـت أمـه توليهـا رعايـة فائقـة منحنية لساعات فوق الشـجيرات الأنيقـة تتحدث إليهـا وتهمهم لهـا بكلمـات مبهمـة، لكـن النباتـات كانـت تفـك شـفرة الكلمـات بسـرعة وتـرد جميـل الرعايـة برائحتهـا الزكيـة، زهـور ثمينـة وورود دمشـقية، فاكهـة الحديقة المحرمـة، لا تقطف أبـدًا، قاعدة لا تنتهك.

فعـلٌ آثـم، رأتـه عيـن رينا كالسـهم مـن نافذة غرفتهـا، ربما حدثتـه، لكن صوتها لـم يصل إلى أسـفل، ربمـا لـم تقل شـيئًا، بصبـر وهدوء كانت تشـعر بمعاناة ولدهـا الصغير بعد فشـل زواجه، هـي أنقذتـه عندمـا عرضـت عليه أن يبقي فـي بيت العائلة حتـى يقرر الزوجان مصيـر علاقتهما، كانـت رينـا تحتـرم ميرنـا وقبلـت مـن اللحظـة الأولـى الابنة الوحيـدة للتاجـر اللبنانـي، حتى وإن كانـت الشـائعات تطيـر وتنعـق فـوق رؤوسـهم، الشـائعات ليسـت أمـرًا جيدًا أبـدًا، لكـن رينا لم يؤثـر عليهـا شـيء مـن هذا، عاشـت سـنوات طويلة بجـوار زوجها الدبلوماسـي، سـافرت وتعرفت علـى شـعوب وتعلمـت أن الإنسـان الجيـد لديـه فقـط قلـب مفتـوح وعينـان نظيفتان، لكـنَّ أمرًا آخـر هـو مـا ضايقهـا وآلمهـا فـي حالـة نديـم، كانـت متأكـدة! كان ابنهـا يرغـب فـي الأولاد ولـم يكـن لديـه، سـت سـنوات زواج والحجـج والأعـذار تتزايـد، حتـى أن أصهارهـم بـدأ صبرهـم ينفد وأخـذوا يلمحـون ويلمـزون بالـكلام، بينمـا نشـأتها الصحيحة لم تسـمح لها أن تتدخل في شـؤون الزوجيـن الخاصـة، عندمـا وصلـت الأمـور إلـى مداهـا وشـاع سـر انفصالهمـا المؤقت، قبـل نديم شـاكرًا أن يبقـي قليـلًا فـي بيـت العائلـة ليتجنـب بهـذا الشـكل الاحتـكاكات أو رحيـل ميرنـا إلى بيـروت، ومعطيًـا فرصة أخـرى لهـذه لعلاقتهما.

هكـذا أرادت رينـا أن تـرى الـورد البـري المقطـوف لتـوه فـي يـدي ابنهـا، لا تعليـق علـى الغطرسـة! لـم تَنْبِـسْ بِبِنْـتِ شَـفَةٍ، لكنهـا اسـتنكرت فـي أعماقهـا فكـرة أن زهورهـا الحبيبـة ربمـا تكـون قـد قطفـت مـن أجـل زوجـة ابنهـا، هـل كانـت فـي الحقيقـة تسـتحق

لفتة كهذه؟ لم تكن متأكدة تمامًا أن ميرنا يمكن أن تقدر تصرفًا كهذا، حتى وإن كانت تعرف جيدًا قيمة تلك العيدان الرقيقة بالنسبة لعائلة زوجها، كانت رينا متأكدة من أن لفتة نديم الرمزية لن تلفت انتباه زوجته، ولهذا سعدت كثيرًا، اعترفت لزوجها بهذا في المساء، عندما رأت زهورها المحببة في أيدي أماليّا، وصلت لتوها من أثينا، ضيفة رسمية لنادية، وإن لم تكن في دمشق أعدت رحلة صديقتها بكل تفاصيلها الدقيقة، بقي فقط على الآخرين أن يحيطوها بكرم الضيافة السوري الدافئ، وهو ما قد حدث!

كانت أماليّا تتذكر والدي نادية؛ لأنها كانت تزوروهما في باليوبسيخيكو[1] في الفترة التي كان فيها السيد جاك بهلسي سفيرًا لبلاده في اليونان، كانت رينا تظهر بين الحين والآخر في الغرفة حيث يلعب الأولاد، تحضر صواني من الحلوى السورية والفستق، تبتسم إلى أماليّا التي كانت تتبادل معها بعض الكلمات الودودة بالفرنسية، ثم تترك الأولاد في رعاية المربية السورية، في مرات أخرى كان والدا صديقتها يستعدان لخروج مسائي أو إحدى الحفلات، وهذا كان له وقع السحر والحلم، تصادف ذات مرة أن تلمح بعينها الزوجين وهما في طريق خروجهما من المنزل للذهاب لواحدة من تلك الواجبات الاجتماعية، استطاعت أن ترى خيال جسد السفير الممشوق وهو يرافق زوجته الأنيقة وتذكر بإعجاب لفتته الأنيقة عندما كان يضع البالطو على كتفي زوجته.

منزل عائلة بهلسي كان به شيء مميز، حينها انبهرت كثيرًا بالسجاد الشرقي، المصابيح الملونة المعلقة، والأثاث المصنوع يدويًّا المطعَّم بقشور العاج في تصاميم رائعة، زخرفة تُذكِّرها بالمصابيح السحرية، سجاد طائر وكهوف بكنوز نادرة، كانت تتذكر الراحة الطرية التي كانت تذوب في فمها ولب الفستق الوردي الذي يخرج من قشرته الموارِبة. «لا توجد به واحدة مغلقة!» صرحت بهذا عندما عادت إلى شقة ليكافيتوس[2]، «ليس مثل فستقنا الذي يكسر الأسنان كلما أردت أن تفتح واحدة»، فستق الشام في ذكريات الطفولة كان يملأ أكوابًا فضية في كل ركن

1- أحد الأحياء الراقية في أثينا، ويشتهر بوجود السفارات الأجنبية.
2- ليكافيتوس حي سكني له اسم جبل ليكافيتوس الذي يقع فيه.

مـن بيـت صديقتهـا، كان يأتـي بالكيلـو مـن الوطـن البعيـد، محمصًـا ونيئًـا، وفـي مـرات كثيـرة كان طازجًـا، بقشـرته المخمليـة وطعمـه الـلاذع. «كأنـه يرتـدي قفـازات»، قالت أماليّـا معبرة عن دهشـتها أول مـرة رأتـه فيهـا، فـي مطبـخ عائلة بهلسـي الواسـع كانت تشـاهد بإعجـاب الطاهية السـورية وهـي تخلـط حبـات الفسـتق الشـامي فاتحـة اللون مـع السمسـم والعسـل وتلفها بعد ذلـك فـي كـرات صغيـرة بـورق الزهـور الوردي.مـا هـذا البيـت؟! رائحـة الليمـون والبرغمـوت تحاصـرك فـور عبـورك لعتبته.

نفـس الرائحـة رحبـت بهـا فـور أن دخلت من باب منزل بهلسـي في دمشـق، لمحت أشـجارًا مزهـرة فـي الحديقـة الداخلية، أشـجار ليمـون وبرتقال حامض، هكـذا بدت لهـا، وبعدها أحضان ربـة البيـت المفتوحـة عصرتهـا بداخلهـا، بينمـا عطـر رينـا الخفيـف يداعـب أنفهـا. «مرحبًـا بـك يـا أماليّـا»، الفنـاء الداخلـي كان مفروشًـا بالفسيفسـاء بألـوان مختلفـة، وفـي المنتصـف نافـورة مثمنـة الأضـلاع تغـرد بـلا انقطـاع، حـررت رينـا ضيفتهـا مـن حضنهـا الدافـئ وقادتهـا إلـى الإيوان الداخلـي حيـث كان والـد نديـم بحلتـه المكويـة، كأنه سـيقدم نفسـه في قصـر الرئاسـة، ثم مروا إلـى الغرفـة الجيـدة، إلـى صالـون البيت، سـقف خشـبي مزخـرف وأرائـك مِخملية مريحة، شـاي بالأعشـاب الزكيـة مقـدم فـي فناجين خزفيـة، والطعم الرقيـق الخالـد لراحة الفسـتق أعادها إلى سـنوات طفولتهـا وكسـر جليـد اللقـاء الأول مـع أنـاس كانـت ملامحهـم الخارجيـة علـى الأقل قد صـارت في شـمال الزمـن العنيد.

انبهـرت أماليّـا مـن أجـواء هـذا البيـت الأصيـل الـذي تعرفـت فيه رغـم الفتـرة القصيـرة التي استغرقتها الجولة التي قاموا بها من أجلها على كل تلك العناصر التي فتنتها في بيت الدبلوماسي السـوري فـي أثينـا، الصـور التـي انطبعت فـي ذاكـرة طفولتهـا بُعِثتْ جديـدةً فـي كل غرفة وفي كل ركـن، السـجاد الثقيـل، الأثاث الخشـبي المنحـوت، مصابيـح الأوبالين تعطي ضوءهـا الخافت علـى الجـدران التـي تحتفـل بالتأكيـد بمـرور ثلاثمائة عـام لها في الحيـاة. «إن دمشـق هي أقدم مدينـة تُسـكن باسـتمرار عبـر قـرون طويلـة»، أخبرهـا جـاك بهلسـي وقـت العشـاء، «عندمـا قام جـدي ببعـض الإصلاحـات فـي المنـزل فـي بدايـات 1900 وجد آثـارًا لحريـق في الأشـياء القديمة التـي بدلوهـا، يفتـرض أن هـذا البيـت كان قـد تعرض لمـآسٍ زمـن المذبحة الكبـرى»، تحت أعين

الإدارة العثمانية جحافل من المسلمين والأكراد والدروز اجتاحت المدينة وقاموا بأعمال عنيفة ضد العناصر المسيحية بالمدينة تاركين خلفهم منازل محروقة وثروات منهوبة والآلاف من القتلى والجرحى، وذكرى الجريمة تجرح العلاقات بين المسلمين والمسيحيين لسنوات طويلة.

«كان هذا في صيف عام 1860، منذ أيام تواترت إشاعات عن هجمات مرتقبة ضد المسيحيين، عندما وقع الشر، الحراسة التركية لم تستطع أن تمنع المذبحة التي تلت، اندلعت الثورات بسرعة البرق في كل مكان، كان الشعب غاضبًا ومسلحًا حتى أسنانه، وهجموا على القسم المسيحي في المدينة، الحرائق وجرائم القتل كانت تحدث كل يوم، أتمنى ألَّا تعيش البلاد لحظات كهذه مرة أخرى». عض والد نادية ونديم على شفته وهو ينهي قصته متماسكًا، ثم ترك ابنه يخفف من حدة الأجواء، النبيذ الأحمر في الكريستال الشفاف، بريق فضي فوق المرآة، هذا هو نديم،

فعل كل شيء بمقدوره حتى تكون إقامتها ممتعة في دمشق، بداية من المطار، بدءًا من الزهور البرية التي قدمها لها مغلفة بوشاح أبيض من الحرير الثقيل. «سوف تحتاجينه!»، قال لها وهو يطبع قبلة خفيفة على خدها، كان الغروب قد حل وبرد الجو قليلًا، قاد نديم المرسيدس ذات اللون الأرجواني بسرعة معتدلة حتى يعطي لأماليّا الفرصة لتعتاد على المكان، العاقر الجاف، طريق مستقيم، مثل مهبط مطار يتجه نحو صدام عنيف كان حتى هذه اللحظة واقعًا مجهولًا بالنسبة لشخص مثلها؛ اعتادت السير في طرقات كولوناكي[1] الشاقة وأشجار البرتقال الحامض المزهرة وعاشت في قاعات مسارح وسط أثينا.

ربطت الوشاح على رأسها وراحت تمتص الهواء الذي كان يلفح وجهها ويأتيها بروائح من حدائق بعيدة، غير مرئية، لكنها موجودة، أهي زهور أم براعم؟ ورائحة أخرى مجهولة حتى الآن، رائحة الهضبة، كانت تتوقع أنها بجوارها، تتمدد مهددة، لانهائية مثلما رأتها من الطائرة، بعد ذلك بدأت المدينة تبرز من داخل قشرة

1- أحد الأحياء الراقية في وسط أثينا.

خضراء، حشود تسرع إلى الراحة قبل انتهاء اليوم، الإرهاق والعجلة من أجل طعام العشاء، ملابس بسيطة، علامات عرق طازج ورؤوس منحنية، المنارات السامقة، أينما ولَّتْ نظرها كانت ترى منارات الجوامع الشاهقة كأنها تود أن تحتك بالسماء التي استحال لونها إلى اللون الوردي، توقفا قليلًا ليستمعا بقلب الليل الوردي هذا الذي ينفرد أمامهما وتلألؤ أضوائه الأولى. «مثل نيران الخيمة»، فكرت أماليّا ونزلت فكرة راليس كالحجر فوقها. «هل تشعرين بالبرد؟»، سألها نديم، وعندما أومأت بالإيجاب نزع سترته ولفَّها حولها برقَّة، أضاء فلاش في عقله وبرزت فجأة صورة أبيه وهو يفعل الشيء نفسه مع زوجته، قبل سنوات في منزلهم في باليوبسيخيكو، الإعجاب الذي شعرت به آنذاك بُعث من جديد، هذه المرة الموجه إليه كانت هي، شعرت بالامتنان نحو صديق طفولتها، من فوق كتفها أشار لها إلى أعماق دمشق، لؤلؤة الصحراء.

«أترين المدينة القديمة؟» في المركز، بذرة الفاكهة القديمة التي أثمرت قبل قرون على الهضبة البيضاء ولا تزال جذورها عذراء، الجدران حولها وفي المنتصف الضوء الساطع للجامع، جدران متشابكة والشوارع كذلك، تتحد الحجارة بالحياة، تستند بوقار على الحجارة العتيقة للمدينة، تهرب قليلًا خارج البوابات السبع. «هناك، في المدينة القديمة كان بيت عائلته»، قال نديم، أعطاه بصمة وجوده كله، في البدء كان، البداية، النقطة التي بدأ منها أبوه مشواره البعيد إلى أن وجد في أثينا، مدينتها، من أقدم مدن الشرق إلى مهد الحضارة الكلاسيكية، حتى تمتزج حياة الأولاد في فناء المدرسة اليونانية الفرنسية سان جوزيف، صدف!

أثناء العشاء ضحكَا كثيرًا وهما يتذكران لحظات من أيامهم في الدراسة، المعلمات الصارمات، الراهبات الطيبات والزميلات، المزاح والعقاب، اسم نادية كان يتردد دائمًا، وهو الشيء الذي يُشعر رينا بالحزن، التي لم تعتد أبدًا على ابتعاد ابنتها الوحيدة عنها، حتى وإن كانت أثينا قريبة ويسهل الوصول إليها، «يظل البحر بحرًا»، قالت بشيء من الشكوى، تذكر السفير -أيضًا- لحظات من موقعه في اليونان، خرجت الأوراق وألبومات الصور، الملك السابق لليونان والوفد الدبلوماسي، فساتين سهرة عارية وحُلل رسمية، صورة للزوجين بهلسي تحت

شمس الظهيرة في الأكروبول، بنات بضفائر وجوارب، وبينهن الوجهان البريئان للولدين يواجهان عدسة التصوير بطريقة مختلفة، تمامًا مثلما يواجهان الحياة الآن، سمير جاد وجاهز للهرب من اللحظة، الشيء الوحيد الذي يمسكه بيده هو يد الراهبة جوزيفين الثقيلة على كتفه، في الناحية الأخرى من الصورة كانت نادية بابتسامة عريضة وعينين مليئتين بالحياة تقف في خجل، في الصف الخلفي كانت أماليّا تبدو شاردة تنظر لأعلى، كأن ثمة شيئًا شتت انتباهها للحظة بشكل مفاجئ وغير متوقع.

أعطوها أفضل غرفة، على يمين الإيوان، كان به أريكة خشبية منحوتة، والنوافذ تتشابك مع أغصان شجرة الليمون، منعزلة قليلًا عن بقية غرف النوم، بعد الطعام قبلت أماليّا دعوة نديم أن يخرجا في نزهة إلى المدينة القديمة، كانا يسمعان صوت خطواتهما على رخام أرضية الشوارع، أشباه كلمات تخرج من خلف النوافذ نصف المفتوحة، أطباق تُجمع على عجل في المطابخ ذات الأسقف المنخفضة، منازل متكدسة، حيوات تقف بظهرها نحو الحائط، الأنفاس تصطدم بجدران الأزقة الضيقة، كان يقبض على يديها وهي تركته يجرها في متاهة المدينة القديمة دون أي قلق، ودون أن تهتم إلى أين يذهبان أو من أين سينحرف بهم الطريق، تبادلا الأدوار، كان هو أرياذني وهي ثيسيوس الذي يسعى لقتل مينوتور مصيرها، تهيأ لها كأن هذه النزهة لم تحدث بمحض الصدفة، بدت لها كأنها اختصار للحياة البائسة التي عاشتها حتى الآن، حياة بلا شمس بجوار نجم للسينما والمسرح، كان يجذب كل الأضواء فوقه ولا يتبقى شعاع واحد أبدًا من أجلها، دائمًا في الظل، تحفظ أدوار ميخاليس عن ظهر قلب، وتتكيف مع ساعات عمله وتقلبات مزاجه وأهوائه، تتنصت على صمته، وتتوقع أفكاره، في الظل، ظل يتماس مع الحائط، بالضبط مثلما يسير نديم الآن بجوارها، لكن يدها كانت تحترق بين أصابعه بينما تطير قدماه، بالكاد تلمسان الأرضية الرخامية للشوارع، ولا حتى كانت تشغلها القمامة في الأركان المظلمة، ولم تخشَ من قفزات القطط المفاجئة جراء خطوات المارة غير المتوقعة، من وقتها لم تشعر بشيء كهذا، ولا حتى كانت تتذكر، ربما من الأفضل أن تقول إنها لم تشعر بهذا قبل ذلك، غريبة في مكان غريب دون أدنى

قلـق أو توتـر، كـم هـي ممتنَّة لنديـم! تبعته طواعيـة حتى خرجا إلى الشـوارع الواسـعة المغطاة المضيئـة بلمبـات معلقـة مـن حديـد الزهـر، لـم ترَ حولهـا بيوتًـا لكن قليـلًا من المحـلات، أبواب محـال مغلقـة، بقايـا المهرجـان اليومـي مكوّمـة على الأجنـاب، بدا لهـا وكأن هذا المـكان الهادئ هنـا كان يعج بالحيـاة فـي الصبـاح، حتـى أن رائحـة الصباح مـا زالت محبوسـة فـي أرجائه حتى منتصـف الليـل، رائحـة لاذعـة لمزيـج مـن البهـارات والعـرق. «نحـن الآن فـي *السـوق*»، قـال لها نديـم وهـو يشـير لهـا نحـو الأبـواب الخشـبية الثقيلـة المطعمـة بالمسـامير الحديـدة والأقفـال الثقيلـة، كل بـاب ضخـم كهـذا يمثـل خانًـا يفتح أبوابه مـع أول ضوء للصباح ويكشـف عـن فنائه الداخلـي الـذي يحتـوي علـى محـال صغيـرة تكـوم البضائع خارجهـا، على يميـن الشـارع الرئيس ويسـاره أزقـة أصغـر تتثاءب فـي الظلام، الكواكـب الوحيدة فـي الليل، ألقت نظـرة خلف ظهرها، المشـهد خـاوٍ، السـوق المغلقـة تحت الضوء الشـاحب.

كيـف ذكَّرهـا هـذا بمدينـة فيتشـنزا ومسـرح بالاديـو! كانـت رحلـة مـع ميخاليـس قبـل ثلاث سـنوات، نزهـة فـي الفيـلات التـي بناها المعمـاري الشـهير، والفجوة التي نشـأت فـي روحها في تلـك الرحلـة، إحبـاط، قضيـا أربعـة أيـام فـي إيطاليـا ولـم يسـتطيعا أن يعطيـا متنفسًـا لعلاقتهما المضنيـة، وبعـد ذلـك التخلـي، بريئـة أماليّـا! ظنت حينـذاك أن سـفريات صغيرة كهـذه والهروب مـن الروتيـن اليومي سـوف ينقذ زواجها، سـتكفي سـاعتان بالطائرة وفندق فاخـر أن يقربا بينهما قليـلًا، مثلمـا كان يحـدث فـي الماضـي، عندما كانـت تنتابهما القشـعريرة مـن الرغبة.

شـعر نديـم بقشـعريرة لحظيـة في جسـدها، لكنه فهم ذلـك على أنه خـوف خفيف من خلاء السـوق، فقربهـا منـه وضمهـا، فرصـة أخـرى كـي يظهـر لهـا حبـه لهـا، حبـه المفاجئ؛ لأنـه أحبها فجـأة، دون سـابق إنـذار، فـي صالـون ناديـة فـي أثينـا، مـن هـذا الشـيء المختلف الـذي انبعث منهـا، وضـع جسـدها المتحفظ، جسـد في أوج مرحلتـه العمرية، الألم يفيض من وجهها، مسـحة مـن حـزن على شـباب انفجر مثل بثـرة ناضجة ولم يتذوقهـا أحد، أمومة معطلـة، أمتعة مفقودة، ثمينـة، شـعر علـى الفـور برغبـة جامحـة أن يغوص فـي داخلها، أن ينبـت في داخلهـا، غلف حبه فـي غـلاف البـراءة الطفوليـة البريئـة واتخذهـا ذريعـة لإيماءاتـه الرقيقـة وتلميحاتـه، كان يعرف

عـن زواجهـا الفاشـل؛ لأن أثينـا كلهـا كانـت تتحـدث عنه، لكـن هي، كأنها قد رُشـقت فـي صخرة فـي أنانيتهـا المتآكلـة، ولـم تكـن لتُلقـي بنفسـها أخيـرًا فـي البحـر وتسـبح. سـبب لهـا صدمـات عديـدة، لكنهـا كانـت مثـل وحـش مجـروح يعانـي ليجـد مخبئًـا ليلعـق جروحـه، نمـت الرغبـة فـي داخلـه، راح يسـقط بقـوة بجـوار فائـض شـحنات رقتـه المختزنـة بقلبـه، مثـل أكيـاس غيـر مرغوبـة، مهملـة وملقـاة فـي أفنية السـوق، كانت أماليّـا هي المسـتقبل الأمثل لرغبتـه المفاجئة فـي أن ينفـق مخـزون الحـب والرقـة الـذي بداخلـه ويتطلـع إلـى منفـذ، زوجـة مجروحـة جاءت ومعهـا آخـر خيـط مهلهـل لزواجها الـذي يترنح، وأيضًـا أجزاء من طفولتها، شـرائح مرشـوش عليها حبيبـات سـعادة كاملـة، رفيقـة سـنوات طفولتـه، الصديقة الصـدوق لأختـه التوأم، صـارت محفزًا رئيسًـا لبعـض الأشـياء التـي حدثـت فـي حياتـه دون أن تعرف.

كان زواجـه يلفـظ أنفاسـه الأخيـرة، كانـت مسـألة وقـت أن يـذوب جليـد السـكر هـذا الـذي كان يغطـي حياتـه المشـتركة مع ميرنا كاشـفًا عـن الكعكة الإسـفنجية التي تبين أنهـا غير صالحة لـلأكل، المحيـط الريفـي لدمشـق، والجـو الأرسـتقراطي لبيـروت، دفعهمـا لأن يـأكلا هـذا الطبـق الفاسـد، لكـن بالنسـبة لـه وقـد نشـأ علـى النمـوذج الغربـي، هـذه التسـوية لـم تكـن مقبولـة، خطـؤه فـي الاختيـار لـن يظـل يدفعـه طيلـة حياتـه، لحسـن الحـظ ليـس لديهمـا أولاد! ربمـا لـو كان لديهمـا أولاد لمـا وصلـت الأمـور إلـى طريـق مسـدود، لـكان صـب اهتمامـه نحـو وجهـة أخـرى، لـكان قـد امتـلأ هـذا الفـراغ الذي يطـوف في عينـي زوجته، اللتيـن تحول لونهمـا الأخضر إلـى مسـتنقع مميـت، ربمـا رفرفـة الأطفـال كانت سـتملأ الصمـت الممتد الـذي يحـوم بجناحيه كالطائـر المجنـون فـي البيت.

فـي زواج مأسـاوي لا تأْمَـلْ وتعتبـر رفيقـك مضمونًـا، عندمـا تكـف عـن اكتشـاف أن هـذا الآخـر بجـوارك وتعتقـد أنـه بمـرور الزمـن سـيتغير فيـه شـيء، حينهـا لـن تخسـر فقـط رفيـق حياتـك، بـل والطريـق كـي تحظـى بـه مجـددًا. «إن لـم أكـفَّ عـن السـعي نحـوه...»، قالـت لـه شـاكية، معترفـة تقريبًـا بالسـلوك الشـائن لراليـس، كانـا قـد وصـلا إلـى الباحـة أمـام الجامـع الأمـوي ووقفـا بيـن الجـدار الغربـي للمسـجد وبيـن الأطـلال الرومانيـة المهيبـة، «ربمـا تحاوليـن كثيـرًا مـن أجـل الشـخص الخطـأ»، أجابهـا نديـم، انتبهـت أماليّـا

إلـى اختفـاء أي رغبـة للمـزاح فـي عينيـه، اللـون الأزرق للسـماء أخذ كل سـواد الليل، لـون داكن خنـق طبيعتـه المرحـة، هـذا الرجـل الـذي كان يشـد علـى أصابعهـا ليس لديه أي شـيء مشـترك مـع زميلهـا اللطيـف فـي لعبة التومبولا والمشـاكس، صـار وجهه كتلة مـن التلميـح، وعلى طرفي شـفتيه رسـم بالفعـل الظمـأ من أجل قبلة، شـعرت بلمسـته قبـل أن ينحني قليـلًا نحوها، وصلت أماليّـا إلـى أنهـا فكـرت فـي أنهـا ليسـت فـي حاجـة لمقاومـة أصابـع قدميهـا حتـى ترفـع رأسـها لتقبلـه، حركـة لا داعـي منهـا؛ لأن نديـم ليـس فـي طـول زوجهـا، كان فمه مـرًّا من سـجائر النهار، لكـن ريقـه الـذي فاض فـي فمها كان له الملمس السـميك للعسـل، وترك في حلقهـا طعم الراحة الحلـو الـذي ذاقتـه صغيـرة في بيته في أثينا، إذن وبشـكل سـحري الذكر الـذي كان يثقل كاهليها تـرك مكانـه لصديـق طفولتهـا الـذي كانت تحرك لـه لسـانها باسـتمرار لإغاظته في سـاحة الآلهة، معصيـة، تسـخر من الآلهـة، حينهـا انصاعت أماليّـا لقبلته.

**إن ما تذكَّرَه** فور أن رآها في لوبي الفندق كان تلك القبلة التي سرقها منها أمام الجامع الكبير، في طريقه إلى دمشق راح يحسب بالضبط السنوات التي مرت على أول رحلة لأماليّا إلى سوريا، ثلاثون عامًا، فكر في أشياء أخرى كثيرة، كان يقود سيارته مرة أخرى نحو المدينة فراح يسترجع ماضيه، المسافة القصيرة التي ابتعدها عن دمشق كل هذه السنوات التي مضت منذ ذلك الحين، اتسعت لكل السنوات التي مرت منذ ذلك الحين، تكدست فيها زيجاته وطلقاته، لحظات جيدة وسيئة، رحلات وقصص حب، نجاحات ومرارات، ألوان شقية ملقاة على ورق أبيض، شخبطة.

افترض أن أماليّا هي المرأة التي تسير بعصبية في قاعة الاستقبال، لم يتعجل في الاقتراب، تأخر عمدًا لبضع ثوانٍ كي يشاهدها من بعيد، ليستوعب مفاجأته، كان تقريبًا متأكدًا من أنها أماليّا، لكن ما كان يراه لم يكن له أي علاقة بالمرأة التي أحبها ذات يوم، ترك عليها آثاره بالطبع، لكن في الوقت نفسه وهبها فتنة كانت مخبأة في الماضي، تيار تحتي للمغامرين الأكثر جرأة فقط، متعة مستحيلة للصوفيين، الطريقة التي كانت تتحرك بها في منتصف اللوبي كانت تُظهر ألفة تامة مع أماكن فاخرة هكذا، أمالَ رأسها قليلًا ناحية الباب، كان يكشف عدم صبرها فانتابته لهفة لحظية، كان يعطيها جاذبية الترقب، حتى عدم قدرتها على الرؤية، بالتأكيد نظارتها في تلك اللحظة كانت ملقاة في حقيبتها الأنيقة المعلقة على كتفها، كان يملؤه بإعجاب لا يوصف، لم يتجنب نديم إغراء التساؤل، لو أن توترها هذا يرجع إلى قلقها على ابنتها أم أنه بسبب لقائهما المرتقب، زَحف الغرور، اختلس نظرة نحو المرآة التي بجانبه، خيبة أمل متوافقة تمامًا في الخامسة والستين من عمره، ولا هي تعرفت عليه على الفور، بقيت ساكنة لثوانٍ، مات الزمن في الطريق المستقيم الذي يفصلهما، الطريق المستقيم، أقصر الطرق، لم يقطعاه طيلة هذه السنوات، لكن كانا في حاجة إلى بضع ثوانٍ كي يتواجها، مفاجأة.

كان عناقهما قصيرًا، كتمرين للتعارف لا أكثر، في لقاء نظراتهما العابر حاول

كلاهما دون جدوى البحث عن بقايا روائح قديمة ربما لا تزال تقاوم ممحاة الزمن، فشلت حاسة الشم، ضاقت عيناها في محاولتها أن تمتص دفعة واحدة الصورة التي فرضها عليها حضوره، صورة جديدة جدًّا، فقط من تحت الإطار الذهبي لنظارته ظهر فجأة بريق مشاغب مألوف، حينها فقط وجدت من جديد الرجل الذي ذات مرة غيَّر حياتها في غضون أربع وعشرين ساعة.

بدافع غريزي مدا أيديهما في نفس اللحظة، خمن نديم تحفظًا ما في نظرتها وأماليّا استجابت في الحال للابتسامة المتآمرة لهذا الكهل الذي يغمز لها عينه ببراءة صبي في العاشرة، سحبها إلى ركن هادئ في القاعة الشاسعة متجنبًا أي اندفاع للعواطف المتعلقة بالماضي، حدثها عن حادثة جيني في بالميرا وعن وضعها الصحي وعن الأطباء الذين تحركوا بسبب علاقاته ومعارفه لدى النظام، طمأنها بكل وسيلة، ابن أخته الحبيب بجوار جيني.

- «كنت بالفعل في طريقي إلى بالميرا، ستأتين معي، أليس كذلك؟».

كان رد فعلها متوقعًا، قلقها على صحة ابنتها جعل ملامحها تتمدد، وهكذا لاحظ نديم فجأة الخط المصطنع على وجهها، لكن حتى هكذا، وهي مرعوبة و«مشدودة» كما في التعبير الدارج، نجحت أماليّا أن تظهر أكثر جمالًا الآن، وكأن التجارب والخبرات خزنت تحت جلدها فائض الكولاجين، وكانت هي نفسها تفيض بصفاء داخلي تركه مبهوتًا.

قالت له:

- «هيا بنا!».

نهضت على حين غرة ففاجأته بحركتها السريعة، «سهم مغموس بالأمومة جاهز للانطلاق»، فكر نديم في نفسه.

- «أليست بالميرا على بعد أربع ساعات؟».

سألته وهي تلقي نظرة سريعة على ساعة يدها، وساعة الزمن عادت للوراء،

تلميح أرادت أن تقوله له: «أذكر أننا قطعنا هذه المسافة آنذاك في أربع ساعات، لكن مر وقت طويل وكل شيء قد تغير، أنا واقعية...»، لكنها لم تقل شيئًا، تركته يخمن.

- «لم تتغير أشياء كثيرة...»، أجابها فحظي بأول ابتسامة منها.

تركته في قاعة الاستقبال الآن وصعدت إلى غرفتها لتأخذ حقائبها، لم تتعرف على نفسها في مرآة المصعد، الإثارة غيرت وجهها وهُيِّئَ لها أنها شعرت بنبض قلبها تحت قميصها، أصابها القلق على إصابة ابنتها، هذا ما لم تكن تتوقعه فور وصولها إلى دمشق.

كانت غاضبة من جيني وطيشها الذي أفسد لها مخططاتها، على الرغم من أنها لم تكن تنتظر أن تقابل نديم بهذه السرعة وتحت هذه الظروف، كانت رحلة بالميرا ضمن مخططاتها، لكن من كان يتخيل أنهما سيقومان بهذه الرحلة معًا مرة أخرى؟

حاولت في الغرفة أن تسيطر على اضطرابها، جبهتان مفتوحتان، جيني من ناحية ومن الناحية الأخرى نديم، شعور أمومي بالذنب وزهو أنثوي جاف مثل بشرة مسنة، لكن لماذا جاءت إلى هنا؟ هل جاءت لتترك الأم وتبحث عن حبيب ضائع؟ ألقت في الحقيبة قميص نومها وفرشاة أسنانها، باقي الأشياء لم تكن قد أخرجتها، شعرت بتوتر لا يصدق، كانت قلقة -أيضًا- بشأن جيني، وبشأن التطور غير المتوقع لرحلتها، أم وامرأة، لم تكن جيدة لا في هذا الدور ولا ذاك، لم تستطع أن تحتفظ بأي رجل، أما جيني فكانت رعاية نديم للأمر تطمئنها، على عكس ابن أخته الطائش، من يدري ماذا كان يدور في عقل هذا الشاب عندما سقطت ابنتها أرضًا.. لكن ربما كان الوضع حرجًا ويخفون عليها؟ لأي سبب يا تُرى كان نديم متوجهًا بالفعل إلى بالميرا فور سماعه للنبأ؟ خوف دفين، حاولت أن تتجاهله، أغلقت الباب خلفها بقوة، لتصل أولًا إلى جيني وبعدها سترى ماذا ستفعل، يكفي أن تكون بخير.

في قاعة الاستقبال حان دورها كي تقف في أحد الجوانب وتراقب نديم، تتلصص عليه، مثل ألعاب الطفولة في فناء سان جوزيف، راحت تنظر من بعيد إلى ذلك الرجل المجهول على نحو غريب، فكرت أنها مدينة له بأفضل جزء في حياتها، ومر بذهنها أن سبب عودتها إلى سوريا كان بالضبط هذا الدين، نذر لم يقدم لقديس، تأخرت في الوفاء به؛ لأنها كانت تخشى هالة القديس العابسة كما ينظر لها من داخل الخلفية الذهبية، قاسي القلب، عينه المرعبة تنظر إليها باتهام وإن قال القس إن الله محبة، تعلمت هي أن الذنب دائمًا يتبعه عقاب، فكانت دائمًا تؤجل لمستها لأيقونة الرضيع الفضية، النذر.

ذهب القلق على إصابة جيني وحل محله نديم الذي كان ينتظر شاردًا أمام الواجهة الزجاجية، فضول غير مألوف، تلصص محظور، كان بلا حماية أمام عينيها القناصتين، راحت تعد شعره الرمادي الخفيف، انحناءة ظهره، وزنه الزائد، شعرت أماليّا بألم عميق على كل هذه السنوات التي كان يكبر فيها بعيدًا عنها دون أن تدري، التفت برأسه وشعر بحضورها، التقط نظرتها في الهواء معبأة بالرقة والأمل، كان يعرف نظرتها ويتذكرها جيدًا، أخيرًا عثر عليها بعد كل هذه السنين، ولو أنها مرت، ورغم كل عمليات التجميل التي قامت بها، ظلت عيناها كما هي، تعكس دائمًا الحاجة للرعاية والعناق، فتح ذراعيه، أم قلقة وامرأة مجروحة، هذه كانت أماليّا بالنسبة له، وقد كانتها من قبل، في اللحظة التي كان يضمها فيها إلى حضنه شعر بقرقعة قوية، كما لو أن صخورًا قد انقلعت من الجبل وسقطت محدثة دويًّا، انهار نظامه الروتيني المنضبط، وقال لها فقط: «مرحبًا بك يا ملكتي».

**سارا في الأزقة الضيقة للمدينة،** مثل آدم وحواء مطاردين، كان يضمها نحوه بامتنان، كعاشقين يسرعان الخطى للعودة إلى البيت، وعند منحنيات الشارع المظلمة تبادلا القبل، عدم صبر وتعجل يحمل ألمًا أسفل البطن، كانت تنتهي القبلة لتبدأ الأخرى، الفاصل كان لالتقاط الأنفاس فقط، صوت الخطوات كان يدق في رأس أماليّا، مثل طبول الحرب، قوة مجهولة تتذبذب في جسدها بدءًا من رأسها حتى أطراف أصابع قدميها، كانت ترتعش من الرغبة. «هذه خيانة»، راحت تفكر وتجد الأعذار لميخاليس راليس، كطلقة طائشة مرت من أمام أهدابها صورة زوجها ثم اختفت، بقي فم نديم مفتوحًا يبحث عن شفتيها، إثارة الممنوع، إسفنجة مبللة مرت على السبورة ومحت كل الوجوه والأسماء والكلمات والأصوات والحيوات السابقة.

الباب الخارجي أحدث صريرًا خفيفًا، رخام الفناء متآمرًا امتص خطواتهما، وخرير النافورة ابتلع صوت الهمسات، باب غرفتها غائص في ظلام الإيوان، فتح الباب وابتلعتهما الغرفة، قبلات صامتة ومداعبات وتأوهات مصمتة، الأيادي تبحث عن طريقها فوق الجسد، الشفاه تنطق بالقبلات، العيون تلمع ثم تغمض إثر نشوة عميقة، كلمات لم تُقَلْ وغيرها قيل آلاف المرات، كلمات خارجة عن السيطرة حفرت على جدار الذاكرة، هذه الذاكرة تتحمل الكثير! وتمحو الكثير،عندما تريد.

- «سأناديك بالملكة»، همس نديم في أذنها وسحب الشرشف فوقها، ما زالت أنفاسهما قريبة من العشق وعسل الاسترخاء.

- «ملكة؟»، سألته وهي تلهث، لم يعجبها قط تشبيهها بالملكة أماليّا، قاسية عقيم وبعد ذلك منفية، لم تستوعب المجاملة.

- «ملكتي».

في القلب وفي الحياة، مثل عاشق عكا، أعجبتها القصة التي بدأ في حكايتها، في ضوء الغرفة الشاحب تحول العاشق وعاد صديقها القديم، كان يلعب بشعرها

وأصابعها، يلهو بلسانه في أذنها ويحكي لها قصة أندريكوس كومنينو وثيوذورا، كان ابن عم الإمبراطور ومنافسًا شرسًا على العرش البيزنطي، حاول جاهدًا أن يغتصب العرش من مانويل كومنينو، فرَّ هاربًا ولجأ إلى الأراضي المقدسة. هي، كانت ابنة أخي مانويل، متزوجة منذ أربعة عشر عامًا من ملك أورشليم فالذوينوس الثالث، ترملت وهي صغيرة وعاشت منعزلة في عكا، أندرونيكوس وثيوذورا وإن كانا أقارب أحبا بعضهما حبًّا جمًّا، خطفها ووصلَا مطاردين إلى دمشق نور الدين الذي كان عدوًّا لدودًا للصليبيين ومحرر وطنه، منح العاشقين ملاذًا وملجأ إلى مغتصب العرش وابن أخي الإمبراطور، انتقام ناعم، كِشّ ملك دبلوماسي.

كان صوت نديم يهدئها، مضاد للمرارة التي تلقاها من ميخاليس راليس، كان عشقه ترياقًا للصد الذي كانت تتلقاه كالصفعة لسنوات طويلة من زوجها، شعرت بجسدها ينتفض على الشرشف، لقد خانت زوجها، شظية الانتقام أضاءت الشعلة التي كانت تغذيها وتهدد وجودها، كان يروق لها أنها الآن بين ذراعي هذا الرجل، جسده الدافئ يشعرها بالرغبة من جديد، وليس عليها سوى أن تمد يدها وتضعه بداخلها ثانية، أعجبها أنها دون جهد وبتلقائية شديدة تتعامل مع هذا، وكان يتلهف ليأتيها من جديد، إذن فالأمر بهذه البساطة! تساءلت بسذاجتها، كان هذا التساؤل يلحُّ عليها، كيف كان راليس يستطيع أن يمحوها تمامًا من تفكيره ويشاطر القبلات ويطارح العشق امرأة أخرى، إذن فالأمر كان سهلاً! ألم تفعل هي ما لا يقل عنه قبل قليل؟ أوليس هو نفس الشيء الذي فعله نديم أنه خان زوجته في بيت عائلته؟ ها هي ولمرة لم تكن الزوجة المخدوعة ولكن العشيقة، ارتعشت من القشعريرة.

نظرا إلى بعضهما مع أول نور للصباح، ونديم توقف عن الحكاية، ساعة مباركة، بروح صافية منحته نفسها من جديد، وهو قَطَّر كل الحب فوقها، وهو ينظر في عينيها، بحار تسافر فوقهما وتعكس صورتها، صورتها هي فقط! كل أحاسيسها من أجل عشقها، كلمات وروائح، لمس وطعم، لكن عينيه قبل أي شيء، مفتوحتان تراقبان انتفاضها، وتبتسمان وتلحان عليها، «المزيد.. المزيد»، على عكس جفون ميخاليس راليس المطبقة، منيعة بالنسبة لها، مغلقة، مليئة بالأشباح، عينا نديم كانتا بابين للجنة مفتوحين على مصراعيهما، ارتعشت أماليًا من النشوة، بكت،

رأتـه يقبـل دمـوع فرحتهـا علـى وجنتيهـا وتبكـي بداخلهـا المـرارة المتراكمـة، كيـف تركـت كل تلـك المـرارة تلـوث قلبهـا؟ لو أن لديهـا ابنة وتسـتطيع أن تحدثها بحرية، سـتقول لهـا أن تتجنب العيـون المغلقـة للرجـال التـي لا تحـب الدموع، وسـتقول لها أشـياء أخرى، لكن ليـس لديها ابنة.

- «لا تبكـي يـا ملكتـي..»، هدَّأهـا نديـم وبـدأ في قصـة أندريكوس مـن حيث تركهـا بالضبط، رحلـة العاشـقان غير الشـرعية نحو نهـر الفرات.

**كمُتآمِرَيْـنِ** غـادرا المستشـفى مـع أول بشـائر للفجر، مـا زال الجو يحمل بـرودة الليل، ارتدت جينـي البلوفـر الصـوف علـى الجلـد ولفـت وشـاحًا أبيـض حـول عنقهـا، كان رومانـوس ينتظرهـا فـي الممـر، تـركا خلفهمـا رائحـة المعقـم والكلور وحارسًـا نائمًـا يُشَـخِّرُ بفم مفتـوح خلف زجاج كابينـة الحراسـة الخارجيـة، كانـت السـيارة مصفوفـة فـي أحـد الأزقـة الصغيـرة التـي تتمـاسُّ مع جـدار المستشـفى، بـزوغ الفجـر صاحبهمـا فـي الوقـت الـذي كانـا يخرجـان فيـه مـن المدينـة، صـوت المـؤذن نصـف النائـم مـن أجـل صـلاة الفجـر يصـل حتـى أبعـد المنـازل، عـادت جينـي تسـتحضر بالميـرا فـي ذاكرتهـا، قطعـة من جنة في وسـط الصحراء، طـوق الطبيعـة الأخضر يحزّم حـدود المنـازل المنخفضـة، تركـض الصحـراء أمامهم.

تسـحرها فكـرة الهـروب، بعيـدًا، أبعـد مـا يمكن عـن كل ما يربطهـا بماضيها، عـن هذا الأمس الـذي لا ينمحـي، والـذي يسـمم عقلهـا دائمًـا ويتربـص ليخنـق لها كل فرصـة جديـدة، يذيب كل الأمـل والأمانـي، بعيـدًا عـن أمهـا، فهـل أماليّـا شـيء آخر؟ حبل سـريّ لـم يُقطـع، لا يـزال يربطها ويلتـف حـول عنقهـا مهـددًا إياهـا بالخنـق، تطاردهـا لتلغي لهـا كل محاولـة، حتى فـي الصحراء! نفـذت هجومًـا كفيلـق مـن جيش روماني علـى غرفتها في المستشـفى، هذه المرة سـتبتعد عنها لتتجنـب عطـن فلتر الأمومـة الخارج عن السـيطرة.

شـعرت بخفَّـة فـي الطريـق نحـو الفرات، شـمس تحـل محل شـمس تسـتعد للبـروز أمامهما، فـي العمـق تتلـون السـماء باللون الـوردي تدريجيًّـا، وكلما غاصـت بنظرها في خط الأفـق البعيد الـوردي، راح اللـون الأحمـر يطلـي الهضبـة اللانهائية، بـرد الصباح والنور، الشـروق بـكل عظمته.

صـف رومانـوس السـيارة، خرجـا منهـا واسـتندا عليهـا وراحـا ينتظـران فـي صمـت بـزوغ قـرص الشـمس عنـد نهايـة الطريـق، الصحـراء حولهـا هادئـة تمامًـا، فمـا زالـت أطـراف أقـدام الليـل تلامسـها تاركـة عليهـا آخـر آثارهـا، تتابـع أبـدي، النـور والظـلام، وعندمـا يطلـي اللـون الأرجوانـي كل شـيء أخيـرًا، تشـعر جينـي بالنـور يختـرق بلوزتهـا

الصوفية ويحرق جلدها.

- «لم أرَ شروق الشمس هكذا من قبل»، اعترفت وهي تأخذ نفسًا عميقًا كأنها تستنشق المكان حولها.

لم يتكلم، تذكر ذلك الصباح في إيجينا يغوص في وجه وشعر كاتيا، آخر رعشة داخلها من أول ضوء لليوم، قرص الشمس الأحمر معلق في النافذة المفتوحة. «مثل قلب بيضة برشت»، كانت كاتيا تقول له وهي تضحك من تحت الشراشف، مع زوي كانت النوافذ دائمًا مغلقة، موصدة، حتى لا يُسمع صوتها وتأوهاتها. «فقط في الصحراء يمكن أن نفتح النوافذ»، كانت تقول له، كان صياحها بالنشوة يخترق الجدران، وكان يضايقه وجه جاره المتهكم عندما كان يقابله على الدرج، «لا توجد نوافذ في الصحراء»، كان يجيبها ضاحكًا، «متى سنذهب إلى هناك؟» كانت تسأله، وكان رومانوس يؤجل الأمر دائمًا.

الآن جيني بجواره تعقد ذراعيها حول جسدها لتحتمي من برد الصباح، كم يود أن يعانقها، لكنه يتردد، وراح يتساءل لو أنها في الفراش في رقة كاتيا أم أنها ملتهبة مثل زوي، ربما لا هذا ولا ذاك.

- «من سيسمع لو أن أحدًا صاح في الصحراء؟»، صعقته جيني، كأنها كانت تعاقبه على أفكاره الحميمية.

لا تكف عن إدهاشه، كأنها منضبطة على إيقاعه الداخلي، البدو يلقون صرخات غريبة، تتسلق من داخل أحشائهم، صوت عزلته.

قابل عدة مرات بدوًا في مخيمات بدوية، عندما كان صغيرًا، متعبًا بعد يوم طويل، كان يأتيه النوم فوق الفُرُش الملونة برائحتها الزنخة تعلق في الأنف، كانت تهدهده أغاني القبائل التي تحكي عن البطولات الحربية والمغامرات العاطفية، صوت المطرب الشجي كان يشده إلى الحلم حيث يصير هو -أيضًا- واحدًا من الرجال السُّمر الذين يبجّلون شيخ القبيلة ويهبون إلى الحرب صارخين بالرغبة في الغنائم، «فيك جزء منهم يا ولدي»، كان خاله نديم يقول له.

كانت تراقب تعبيرات وجهه طيلة مساء الأمس بالمستشفى، كانت تغيب عنه مسحة المرح التي تميزه، وجود أماليّا أضاف إليه بعدًا آخر لا تراه كثيرًا، خاله اللطيف خفيف الظل منح مكانه لرجل متزن، له نظرة عميقة مليئة بالحذر، يحيطه شيء ما، هم غريب منحه تعبيرًا شاردًا ورصينًا، احتكرت أماليّا انتباهه كاملًا، هل أخذا تعليمات من نادية أن يظهر اهتمامًا خاصًّا بعد الحادثة؟ كان هذا أكثر التفاسير احتمالًا، لكن موقف الخال معها ولَّد لديها الانطباع أن أمه لم تكن فقط صديقة قديمة له، لكنها لم تسمع من قبل أبدًا أي شيء عن نديم من السيدة رالي.

- «لماذا لم تكن لرحلة جاين ديجبي أي علاقة مع البدو؟»، سألت جيني بينما عادت السيارة تشق طريقها نحو الشرق، ألم يكن منطقيًّا أن يرى أحد حياة الليدي السابقة بعد أن صارت زوجة الشيخ؟ وصفت هذا الأمر بروعة في مراسلاتها.

*إن الزواج من امرأة أوربية كان في الحقيقة أمرًا جديدًا عليهم، لكنني كنت محبوبة بينهم، وعندما أكون معهم أتبنَّى كل سلوكياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، أستطيع الآن أن أقطع الصحراء ركضًا فوق مهرتي بأفضل وسيلة، كنا نذهب لصيد الماعز البري والظباء وطائر الكركي مصطحبين معنا نسورًا جميلة وكلابًا فارسية، لكن قلبي يدق في اللحظة التي كنت مجبرة فيها - وفقًا للتقاليد - أن أعطي للشيخ رمحه وباقي أسلحته عندما يصعد على حصانه ليرحل مع باقي أفراد القبيلة لمواجهة الأعداء.*

- «العالم يحتاج إلى وسائل الراحة، صدقيني، الحياة على الهضبة ليست سهلة على الإطلاق».

تعتبر جاين ديجبي ذريعة ليتعرف المرء على سوريا، بالنسبة لآخرين تصبح مثل القديس سمعان العمودي، حج سياحي.

نظر إليها بطرف عينه وسألها بشكل عَرَضي:

- «لماذا اختارت أمك طريق ديجبي؟».

- «أتصور، بدافع الملل لا أكثر، لا بدَّ أن بطاقة دعائية سقطت في يدها، ألم تقل

إنكم تقومون بالدعاية في إنجلترا؟».

كان دايفيد قد أمَّن استقلالًا ماديًّا لأماليّا بعد أن ترك لها ثروة من الأموال والأملاك، كل ما حققه كان نتاج عمل شاق والحظ الوفير، اشترى في وقت كانت الأسعار فيه منخفضة وباع بعد ذلك بأعلى سعر بعد اجتياح الأجانب الأغنياء للندن، عندما تعرف على أماليّا، كان قد شبع هو -أيضًا- من الحرمان والراحة والعمل والفتيات الشابات اللاتي كن يذبن من أجل الكعوب العالية لأحذية برادا أو من أجل عشاء في «إيفي»[1]، كان يريد أن يستمتع بثروته مع امرأة لا تنظر إلى بطاقته الائتمانية.

تعرَّف عليها في كافيتريا مطار أثينا القديم، كان في طريقه من أثينا إلى جزيرة كريت وقد تأجلت رحلته، رحلتها إلى ميلانو ألغيت، أثار انتباهه الغضب الذي يحترق في عينيها، غضب سنين، جعل عينيها تبدو كبيرة جدًّا، مزقت تذكرتها وألقتها باحتقار واضح في سلة المهملات، كانت هذه أول دقة في قلب الإنجليزي. «والآن؟» سألها، «أفضل أن أذهب إلى الجحيم على أن أعود للبيت» قالت له، إحباطها وغضبها كان لهما تأثير المنشطات عليه، أخذا أول طائرة في قائمة الإقلاع، إلى إستانبول! انتهى بهم الأمر في فندق «سيراجان بالاس»[2] أمام البوسفور، وسار معها في كل المناطق اليونانية، وذهب معها إلى كل كنيسة ودير بيزنطي، عندما عادا إلى أثينا، كان دايف قد وقع في العشق وكانت أماليّا قد نجت من يأس مدمر كان يهددها.

- «كيف مات؟».

- «كان مريضًا بداء السكري، لكنه لم ينتبه».

كان تذمر أماليّا المستمر يدفعه إلى المزاح: «لو يجب أن أتوخى الحذر، ما كنت لأقبلك sweetie"، كان يقول لها ضاحكًا ويُذكّرها بالحلويات التركية التي كانا

1- مطعم فرنسي شهير في وسط لندن.

2- فندق سيراجان بالاس، فندق كمبينسكي الحالي.

يأكلانها في ليلتهما الثانية وهما ينظران إلى أضواء السفن في البوسفور وشكولاتة "Pierre Herme" التي كانا يلتهمانها وهما ينتظران سيارة تاكسي تحت المطر الغزير في إحدى المرات الأخرى في الضفة الغربية لباريس.

- "كان يعتقد أنْ لا شيء يمكن أن يوقفه، بعض الناس عندما يكسبون المال والسلطة يفقدون وعيهم، ربما يدفعهم شعورهم بالتفوق الفكري ليحطوا من قدر الجسد، لكنه كان رجلًا طيبًا..".

أنهت جيني كلامها.

الوقف الذي حدث بينهما تم محوه، لم يحدث أن نظر إليها بمغزى أو باستهجان، فكرت أكثر من مرة أن تذكّره به، هكذا، كي ترى رد فعله، لكن ماذا كانت ستربح من هذا؟ كان دايف يسير خلف أماليّا ككلب وفيٍّ، ضال.

- "هل كانت تحبه؟".

- "محتمل، بطريقة مختلفة عن أبي في كل الأحوال، كانت تضحك مع دايف، بعد وفاته، عادت كما كانت، لكن نوعًا ما تحت السيطرة في هذه المرة".

- "هل هي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى سوريا؟".

شعر بالخجل من السؤال الذي طرحه عليها، هناك دافع خفي يختبئ خلف تعبير وجهه المحايد، لكن لم يخف عنها ولا هذه المرة.

- "بهرتك أمي، أليس كذلك؟".

قطرة من الخجل، مرارة كالسم ملأت فمها، طيلة هذا الوقت صب رومانوس كل انتباهه على أماليّا، عمَّ يبحث بالأخير؟

- "أتساءل لماذا قررتِ الرحيل فور أن أتت، هذا فقط".

كانت الإجابة جاهزة تحت لسانها، لكنها تحتاج إلى الشجاعة كي تنطق بها، نصيحة المحلل النفسي تتعرقل على نظرة رومانوس المخملية الذي ينظر إليها

الآن بقوة وإصرار.

نصحته لتكسب بعض الوقت:

- "انظر أمامك".

تركض السيارة على الطريق الصحراوي المستقيم، الحركة ساكنة في هذه الساعة، الشمس هي الرفيق الوحيد على الطريق، شمس دافئة تتراقص أمامهم، يهدئها الفراغ حولها، أصابع رومانوس تداعب خدها.

أصرَّ:

- "قولي لي..".

تود أن تخبره بشدة، أن تتقيأ هذا الحمل الثقيل وتخرجه من داخلها، هنا، في هذه الصحراء، أن تفتح النافذة وتلقي كل ما بقي في الخلف، كالقمامة التي يلقيها السائقون من نوافذ السيارات وتسقط تحت العجلات الخلفي فتنسحق، أن تعترف بأنها كانت السبب الرئيس في فقدانها لأبيها، أنها تطارد هذه الصورة في كل عشيق لها، صورة طبق الأصل كما عاشتها أمها، كما عاشاها معًا، علمتها كيف تعاني، كيف تُهان، كيف لا تقاوم، استخدمتها كعكاز وعندما تستطيع أن تقف فوق كعوب عالية كانت تهملها، هربت مع دايف وتركتها مع عدم الاكتراث القاسي لميخاليس راليس،

لكنها لم تقل شيئًا، سُمع فقط صوت تنهيد عميق، كأنها أرادت أن تبتلع ما كانت على وشك أن تنطق به، عدم اكتراث والدها كان مثل حجر في بطنها، نظرته ذات المغزى لها كلما كانت تقابل صديقها، كان أبوها يبحث فيها عن شيء ولم يجده، الطفل الذي تأخر مجيئه كثيرًا لم يمنحه أي سعادة، ربما كان يريده ولدًا؟ ربما أراد أن تكون جميلة لتلائم وسامة أبيها، تجذب نحوها المجاملات ونظرات المعجبين، على العكس، كانت جيني طفلًا أخرق، منطويًا في قوقعته، جبانًا وحزينًا، حتى عيناها، زرقاوان مليئتان بالتساؤلات، تبرقان لامتلائهما بالدموع السهلة، المخرج الوحيد للألم والشكوى التي تشتعل في قلبها، طلاق أبويها جاءها وهي في

الخامسة من عمرها، وبعقلية الطفل شعرت أنها هي المسؤولة، بينما كانت تكبر كانت تتطلع إلى رضا أبيها، فعلى كل حال كانت قليلة تلك الفرص التي سنحت لها كي تسعى للحديث معه، أن تتواصل معه، العروض الافتتاحية في المسرح، أعياد الميلاد وبعض أيام الإجازة الصيفية.

علاقتها مع أحد زملائه، ذلك الممثل الفاشل الوضيع، كما كان راليس يسميه، كانت ذروة الصدام بينهما. "ألا تخجلين؟"، صرخ فيها، لكن الصراخ والتهكم كان يتجه نحو أمها التي تزوجت من دايف في الخمسين من عمرها وقامت بخروج باهر من على مسرح أثينا البائس، حينها ودت جيني لو تخرج له لسانها، تجرح كبرياءه المتغطرس، باتت تعرف ماذا يطارد أبوها بين سيقان الفتيات الصغيرات اللاتي تتعلقن بذراعه، كجوائز وأوسمة لرجولته، لماذا يجب أن تخجل؟ جائزة كانت تلك الزميلة عديمة الموهبة، بسنواتها الثماني عشرة الطازجة، لكنها لم تقل شيئًا، استسلام تام، ساحق!

- "سنغير الطريق"، قاطعها مخرجًا شرودها المتاهي.

حان دوره الآن، أدهشها حشره لنفسه في أفكارها، أشار لها نحو المخرج من الطريق المظلم حيث حوصرت وصار ظهرها للحائط، أراد أن يوقظها، يحييها، ليرى الوهج الذي يبدل ملامح وجهها، يفتقد للتعطش في عينيها.

- "في قلب الهضبة"، أكمل: "سنقطع أصعب جزء فيها، أتذكرين جستنيان الذي صد هجوم الفرس على أطراف الإمبراطورية؟".

الحرب والمعارك هي ألعاب الرجال، كانت حصة التاريخ بالنسبة لجيني درسًا للشرود وأحلام اليقظة، بينما كان خيالها يتوحش في الهندسة، كان تعبير وجهها المليء بالتساؤل مصدر تسلية بالنسبة لرومانوس ويتعجل كي يثير اهتمامها،

"سنذهب إلى الرصافة[1] في منتصف الـ لا مكان كي تري القلعة الرومانية،

---

1- الرصافة، وتسمى باليونانية سرغوبوليس، لؤلؤة بادية الشام في سوريا، وتقع الرصافة على بعد ثلاثين كيلومترًا من مدينة الرقة في شمال سورية على نهر الفرات، وقد كان لها تاريخ وحضارة عريقة عبر العصور.

حيث صد البيزنطيون الأعداء، ألا تتذكرين؟".

هـل تتذكـر؟ وهـل يفعل شـيئًا عقلهـا البليد غيـر التذكـر، تتذكر الأشـياء الخطأ، تبنـي الحاضر فـوق المسـتقبل بوسـائل ملتويـة، الأمـس يتحكـم، يشـتاق إلـى الأنفـاس اللاهثـة لتسـير خلفهـا، لترعبهـا وتطاردهـا، وهـي تلجـأ دائمًـا للهـرب، بعيدًا.

- "لكنـكِ تحاوليـن دون جـدوى"، قـال لهـا مبتسـمًا، غيـر الـدرس إذن، فأنـا أواجـه صعوبـات فـي التاريخ.

- "إيـهِ، إذن، لنذهـب ونجمـع الـورود مثل سـيدة الشـيخ، جهزي نفسـك لتعيشـي مثل جاين ديجبي في الصحراء، ألم تقولي من قبل إنك تفتقدينها؟ حسـنًا، سـأريكِ أولًا كل زهور الصحراء".

وأخيـرًا نجـح، تحولـت الدهشـة إلـى حمـاس بدَّلهـا تمامًا، دبَّـت فـي ملامحها الحيـاة، هدأت نظرتهـا وازدادت لطفًـا ثـم قفـزت مـن داخـل عينيها تلـك الإثـارة، الضائعـة الدفينة.

- "لكن لا تبدأ في سؤالي عن أنواع الزهور التي نراها".

- "بالطبـع لا، إنـك لـم تـري مثـل هـذه الزهـور فـي حياتـك، لا أنـت ولا غيـرك"، أكمـل وهـو ينظـر لهـا بنظـرة ذات مغـزى.

انحرف رومانوس بالسيارة واتجه نحو الشمال.

**الماضي ممدود أمامهما** على طاولة المطعم، خريطة القيادة، ينظران إليها بفيض من حنين، الطعام لم يُمس، لكن طعم الذكرى باقٍ في الفم، لقد مرت الصعاب والآن هما يستمتعان هادئين أخيرًا بلقائهما غير المتوقع، تدفعهما خبرة لقاءات سابقة، كراقصين يعرفان الخطوات ولا يبقي سوى أن يجدا الإيقاع، الطريق إلى هنا كان الاستعداد، الساعات القليلة في المستشفى كانت بمثابة الإحماء قبل أن يندفعا إلى حلبة الرقص، تحت الأضواء، في هذه اللحظة، غدا الماضي مثل خلفية موسيقية وهما يجذبان الزمن دون تعجل أو قلق.

العجلة هي سمة الشباب، التجاعيد حول العينين والبقع على الأيدي تطلب فسحة من الوقت حتى وإن كان المتبقي هو الزمن كله أو أقل منه، الشعر الرمادي والجلد المجعد هم أكثر احترامًا له، نسيم يرطب وينعش الهرمونات له فترة صلاحية،

أحيانًا كانت أماليّا ترفع رأسها نحو زجاج النافذة، انعكاس القاعة المضيئة على الزجاجة تناسب تمامًا المكان الذي يتربص بالخارج، صورتهما وهما يجلسان أمام بعضهما تقفز إلى الجوار نحو الأعمدة المضيئة للموقع الأثري، وبدا لها كأنهما يتأرجحان في الزمن، قالت له.

فأجابها:

- "تتأرجحين في الزمن عندما تتركين خلفك أولادًا".

بقي حزنه معلقًا قليلًا فوق الطاولة ثم سقط فجأة أمامهم فهشم الأكواب والأطباق وكل ذي هشاشة بقي كان بينهما، انحنى برأسه ونظر إلى طبقها يملؤه الشعور بالذنب، "يا إلهي، اغفر لي!" قال مفكرًا، ماذا فعل؟

- "ببساطة، لم يتصادف"، هدَّأ من روعها بعد أن رأى رد فعلها.

تجرأ وطلب يدها فوق الطاولة، كانت ترتدي سوارًا فضيًّا كان قد أهداه لها آنذاك، قبل أن تغادر دمشق، وعدٌ بالزواج كما في العادات الصحراوية، شعر نديم

بالتأثر،

ردت أماليّا على إيماءته بالإيجاب.

كانـت ميرنـا زوجتـه الأولـى تتجنـب مسـؤوليات الأولاد وترتعـد خوفًا مـن احتمـال تغير قوام جسـدها المرمـري، كانـت تؤجـل الأمـر دومًـا، تعيـش منهمكـة فـي تأمـل التمثـال الذي تـراه في المـرآة، وتعبُـدُ مـا تـراه، تتلهـف لتلقـي المديـح علـى مـا تظهـره وليـس لمـا كانـت هـي، خُنقت سـنوات شـبابها فـي هـذا الـزواج الـذي لـم تكـن تتخيله هكـذا علـى الإطلاق،

زوجتـه الثانيـة، لـور، كان لديهـا دأب وشـغف بعملهـا ومرضاها، لـم يكن هناك متسـع للأولاد بيـن مشـاكلها، ولأن التعاسـة التـي تراهـا كل يـوم فـي عيادتهـا كانـت تكفيهـا، بالنسـبة إلـى لور كانـت الحيـاة فـي حـد ذاتهـا هـي بالفعـل مشـكلة منـذ لحظـة الـولادة، وإلا لمـا كان هنـاك داعٍ لوجـود طبيـب ومحلـل نفسـي، كانـت تتعامـل مـع زواجهما علـى أنه حالـة طبية، نديـم، متفائل بطبعـه، عـاش معهـا محاصـرًا بيـن انجذابه لهـا وبيـن المتلازمات المختلفـة التي كان تجـر خلفها وهـي تدخـل بعصبيـة إلـى شـقتهما فـي نيويورك، لـم يحتمل كثيـرًا، كان عـرض عمل مغرٍ لنديم ليعـود إلـى وطنـه بمثابـة حل وسـط لإنقـاذ زواجهما.

عـادا إلـى سـوريا وسـكنا فـي شـقة فـي وسـط دمشـق، بالنسـبة إلـى لـور كان الأمـر محـض تحـدٍّ، امـرأة أمريكيـة فـي سـوريا فـي أوائل عـام 90 قبـل أن تحتل أمريـكا العراق، كانـت للأجواء رائحـة البـارود، مهمـا كانـت فـي مـزاج رائق، لم تسـتطع أبـدًا أن تبني حيـاة يومية في الشـوارع القـذرة التـي تفيـض بالفخـر والوطنيـة، كانـت تقابـل في الشـوارع بشـرًا يلوحـون بريـاء القومية العربيـة، حاولـت التطلـع إلـى المدينـة الجميلـة التـي كانـت تنـام فيها ذكريـات الطفولـة لزوجها العربـي الأشـقر، لـم تعتـد عيناهـا علـى القذارة والعشـوائية التـي تفيـض حولها، كمـا كانت تكره الكبـت الـذي تتعـرض لـه النسـاء فـي العائلـة وفـي المجتمـع، حـدد القـرآن كل العلاقـات بيـن الأغلبيـة المسـلمة والأقليـة التـي تنتمـي لديانـات أخـرى، التـي كانـت تشـكر الرب على التسـامح الدينـي الـذي تعيشـه، مـع مـرور الوقـت كفَّـت لـورا عـن الخـروج مـن البيـت، ملَّـت مـن ضجيج

الأسـواق والزحام في الشـوارع والإشـارات الحادة، عاشـت تلاشـي الأمـل بأن يعبر حبهمـا العوائق والظـروف والمـكان، احتقـرت وطـن نديـم وبوعـي حرفي قبلت فشـل العـلاج الـذي اقترحته في حياتهمـا الزوجيـة، عندمـا دخـل الأمريكيـون الكويـت، نفـذت تعليمـات الحكومـة الأمريكية إلى كل رعاياهـا فـي الشـرق الأوسـط، لم تعد مرة أخـرى، ووجد نديم نفسـه للمرة الثانيـة أمام بوابة العزوبية.

- "لديك أبناء إخوتك"، عارضته أماليّا.

- "يعنـي، لـدي، لكـن ليـس بالضبـط، أعتقـد أنـه عندمـا يكـون لـدى المـرء أولاد، يكـف عـن كونـه أنانيًـا، يتعلـم أن يتشـارك في كل شـيء، بـدءًا من الوقـت والأحلام والأموال والمشـاعر حتى بـذات مرحـاض البيـت أحيانًـا"، أنهـى كلامه بمـزاح ليخفـف من وطـأة الحوار.

غصـة فـي قلبـه، فيمَ تشـارك هـي ابنتها؟ لا شـيء، غير السـنوات الحزينة والشـقاء، أفسـدت هي الأخـرى حتـى مولدها.

أم حمقـاء لهـا وعـي فتـاة في الخامسـة عشـرة، اسـتخدمت حملها كـي تُبقي علـى ميخاليس راليـس بجوارهـا، تحـاول أن تربطـه بالحبل السـري للجنين، لم تكـن تعلم أنه صـار بالفعل بعيدًا، قابـل الخبـر البهيـج بدهشـة وارتبـاك، وعندما صار بطنهـا يرتفع كان ينظـر لها يائسًـا، كأنه ينتظر أن ينطـق بكلمـات حـوار قـد نسـيها، بالدور الذي يجـب أن يلعبه، كشـاف ضوء ولسـان مقطوع، كابـوس كل ممثـل. لـم تؤثـر فيـه رائحـة المولـود البديعـة، ولا بشـرة ابنتـه الناعمـة، ولا نظرتهـا البريئـة، ولا منظـر أم الطفـل أثنـاء الرضاعـة، ضـاع الخيـال الفنـي فـي قـاع بئـر الأنانيـة والغرور، عندمـا نطقـت جينـي الصغيـرة لأول مـرة بكلمة "بابـا" لم يلتفـت راليس على الفـور، كأن الطفل ينـادي علـى شـخص آخـر. "تتعامـل كأب بالأخيـر!"، كانت تتهمـه أماليّـا، "هب أنه أحـد أدوارك، اللعينـة"، كانـت تصـرخ بجنـون، عاجـزة عـن تحمل فـراق آخر، فتـح زوجها البـاب وغـادر.

- "كنـت متأكـدًا، أنـت ونـاديـة أن رحلتـي إلـى سـوريا سـوف تضـع نهايـة لزواجـي،

أليس كذلك؟".

- "أنـا كنـت أعتقـد دائمًا أن رحلتك إلى سـوريا سـتكون رحلـة تغيير ووعي بالـذات، ألم تكن كذلـك؟"، سـألها وهو يحـدق فيها بقوة.

- "لا، وتعلم هذا جيدًا".

قصة أندرونيكوس وثيوذورا التي حكاها لها، كانت تخبئها بداخلها لكنه لم تنسَها.

العاشـقان المطـاردان بعـد أن فـرّا إلـى دمشـق اختبئـا فـي حـران، حيـث بقيـا حتـى تضـع ثيـوذورا طفلهمـا الأول، بعـد ذلـك لجـآ إلـى بغـداد، غضـبُ الإمبراطـور وصـل حتـى أطـراف الإمبراطوريـة، وهكـذا لـم يكـن أحـد يسـتضيف العشـاق لوقـت طويـل، هامـا من أرضـروم حتى جيورجيـا، مطروديـن مـن الكنيسـة بسـبب علاقة محارم وولديهما غير الشـرعيين، مـن أجل رباط الحـب المتمـرد الـذي يربطهمـا، فـي النهايـة نفاهمـا الملـك إلـى سـواحل البنطـس.

الحـب - الانجـذاب، مفاجـئ، مسـتفز. فـي سـاعات قليلـة رأت أماليّـا حياتهـا تتبدل، أحسـت مشـاعر جديـدة، نمطيـة، وبآمـال جديـدة، كلهـا هجمـت فوقهـا لتنهشـها، متاهـة مخيفة، شـعور بالذنـب والشـوق معًـا، زوجـة وعشـيقة فـي الوقـت نفسـه، فـي لحظة تطير مـن السـعادة، وفي اللحظـة الأخـرى تنهـار مـن تأنيـب الضمير.

غـادرا إلـى بالميـرا فـي بكـور اليـوم التالي لليلة العشـق، لـم يكن بيـت العائلة يحتمل سـرية عشـقهم، الـذي فقـس قبـل أربـع وعشـرين سـاعة، كان يخشـيان نظـرة رينـا الملحـة تتفحـص وجهيهمـا، علّهـا تلمـح آثـار السـعادة التـي تغلـي تحـت جلودهما.

الرحلـة فـي الصحـراء بالنسـبة لأماليّـا كانـت اكتشـافًا حقيقيًّـا، الطريـق المسـتقيم للطريـق أمامهمـا كان يعنـي طريـق النهايـة المسـتقيم الـذي تدخـل فيـه حياتهـا، اتخـذت قـرارات حاسـمة بعـد أن أدركـت أن شـيئًا لـم يَبْـقَ علـى حالـه، داخـل مـدى الهضبـة، محاصـرة بالأفـق الشاسـع الـذي يتمـدد طيلـة الوقـت، ندمـت علـى السـنوات التـي أهدرتهـا فـي مطـاردة ظـل رالـيس، اسـتحضرت إلـى ذهنهـا الليلـة التـي قضتهـا فـي أحضـان نديـم

واندهشـت مـن غضبهـا مـن نفسـها لأنهـا لـم تشـعر بـأي خجـل لخيانتهـا، التفتـت دون وعـي ونظـرت إليـه، الانحنـاء الخفيـف فـي أنفـه، شـفتاه الغليظتـان، جبهتـه العريضـة، رجـل مجهـول، يتحـول بسـرعة إلـى ذلـك الطفـل الـذي كان عليـه ويملؤهـا بالثقة والأمـان، هذا الرجـل - الطفل الـذي أيقـظ داخلهـا مشـاعرها النائمـة، هـل هـذه الكلمـة تخفـي داخـل أعماقهـا الأمومـة التـي تفتقدهـا كثيـرًا؟ كان ميخاليـس يظـن أن الطفـل الذي سـتنجبه سـيكون له أثر سـيئ علـى عمله، حيـث سـيصب بالإحبـاط معجباتـه مـن النسـاء، كان يحتمـل وجـوده فـي حياتهـا بصعوبة.

كان نديـم يحكـي قصصًـا طيلـة الوقـت كـي يكسـر رتابة الصحـراء، كانـت تسـمع صوته ومن خـارج نافـذة السـيارة تطـوف مواكـب البـدو واللصـوص وقوافـل التجـار، الواحـات والنخيـل، مقدونيـو الإسـكندر الأكبـر، فيالـق رومانيـة ومعسـكرات بيزنطيـة، عائـلات عربية، خلفـاء بغداد، سـلوقيون وعثمانيـون، حـكاؤون رومانسـيون وعلمـاء آثـار طموحـون، إمبرياليـون مخربـون ولاجئـون مضطهـدون، فـي هـذا الخـط المسـتقيم اللانهائي الـذي يربط مـا بين النهرين بسـاحل البحـر المتوسـط، كان العقـل لا يسـتطيع عـدَّ آثـار الوجود الإنسـاني في هذه الصحراء الشاسـعة، وكلمـا تقدمـا فـي الهضبـة، أظهـرت الطبيعـة المزيـد من عظمتهـا وقوتها، الإنسـان وحيـد، صغير فـي رحمهـا، متواضـع حتـى يسـترضيها، قـوي كـي يروضهـا، اللـه معه.

العاصفـة الرمليـة بـدأت قبـل أن يصلا إلى وجهتهمـا بقليل، أدركت مندهشـة أنها لم ترتجف، علـى العكـس كان مسـتمتعة بالانتظـار كمـا كانـت صغيـرة قبل سـقوط الثلج، الأفق بهـت حولها وبعدهـا بـرزت خيـوط الغبـار الرفيعـة تتكسـر بقـوة علـى زجـاج وسـطح السـيارة، وصـوت زئير مهـدد، ريح وحشـية، محاصرة.

عنـد انحـراف الطريـق أظهـرت بالميـرا خطوطهـا الباهتـة، ظـلال خلـف حجـاب الرمـال، كأوشـحة زينوبيـا الشـفافة، أشـجار النخيـل الرفيعـة الطويلـة تميـل يمينًـا ويسـارًا وتسـحب معهـا فـي الرقصـة المجنونـة أعمـدة المدينـة القديمـة التـي كانـت تبـدو وكأنهـا قـد اسـتيقظت لتوهـا مـن خـدر عميـق وراحـت تهتـز ثملـة مـع بـدء العاصفـة، المنظـر نـادر! الصحـراء تفعـل كل مـا تسـتطيع وبمسـاعدة الريـح أيقظـت المدينـة

النائمة، الخطوط الأنيقة للأعمدة والأحجام الضخمة للمعابد كانت جاهزة تصعد للسماء.

بصعوبة رأيا حاجز الطريق في العاصفة الرملية ووجدا مدخل الفندق المنخفض الذي كان يفتخر باسم الملكة الثائرة المكتوب على لافتته: "**Zinovia Palace**". مكان السكن كان طابقًا أرضيًّا طويلًا وضيقًا أمام المكان المقدس المضياف لكل رحالة شجاع، قبل أن يخرجا من السيارة انحنى وقبّلها من شفتيها، دخل الرمل بين أسنانهما، كانت قد تسللت بهدوء من قبل إلى جذور الشعر وتحت الرموش وبين طيات الملابس، الرمال الدنسة اغتسلت من الماء الساخن، تعجلا جسديهما في طلب شيء آخر. "لو استطعت سأحضر لكِ الجنة تحت قدميك، أقسم لك، سأفعلها"، همس لها ولونت عيناه الزرقاوان العاصفة التي تَمُور خارج النافذة، استغرقت عاصفتهما ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.

- "كنت عاشقًا مجنونًا"، قال لها بنبرة اعترافية، كما لو كان يعتذر لها عن انفجارات عشقه القوية التي كانت تدهشها كثيرًا وتثير تساؤلاتها، لكن كانت تستقبل فيض قبلاته، وجموح عواطفه مدهوشة مفتونة، المشاعر تحلق والمنطق في بيات شتوي.

- "عشتُ حلمًا آنذاك، لكن كنت غبية وكنت أظن أنني لا أستحقه"، أجابته بارتياح بعض الشيء، كي تحد من وطأة اللحظة.

- "لم أستطع أن أقنعك بحقيقة حبي لك، فقد كنتِ تفضلين الجانب الخفيف من نديم".

تعلَّم منذ صغره كيف يستخدم ذلك الجانب في شخصيته، أن يخبئ في أعماقه الحزن الذي يواجهه يوميًّا في عيون أخته التوأم، حزنه الذي كان يختنق داخل عينيه الواسعتين، لهذا، ومع مرور الوقت، راح لونها الأزرق يبهت، بقي فقط المزاج المرح، النظرة المشاغبة، الضحكات والنكات، ضحوك وبشوش، يعوض التأمل المرسوم على وجه نادية والجدية في سمير، كان نديم الورقة الرابحة، الجوكر في

اللعبـة الخاسـرة، الفتيـات كـنَّ يفضلنـه لأنه لا يسـبب لهـن الرعب من الذكـور، والنسـاء تفتَن به مـن أجـل الـذوق والرقـة في حبـه، كان رفيقًا هادئًا، صديقًا دافئًا، عاشـقًا حساسًـا، لـم يكن لمنيه أثـر علـى الشراشـف، كانـت رائحة خفيفـة للزنجبيل هـي كل ما يبقي.

حنت أماليّا رأسها لتخفي إثارتها، مثل كلب الصحراء الضخم يركض نحوها، يلحقها.

- "لا..."، جرؤت فقط أن تقول له.

لـم تُبْـدِ أي اعتـراض آخـر، انتهـى الحصـار، دون إراقـة دمـاء، فقـط صـوت صرير البـاب الذي يُفتـح، مـن الداخل.

**لم يَسرْ في هذا الطريق كثيرًا**، هـذا الطريـق المحفور فـي قلب الصحـراء، يحـاول أن يقطعه وبجـواره جينـي التـي تبـدو علـى اسـتعداد تـام للهـرب، هـو يدفـع بنفسـه كليـةً فـي التحـدي، طريـق داخلـي وعـر بـلا مخـارج، أمامهمـا مباشـرة جـدران سـيرغوبوليس/مدينة الرصافـة، طريق ترابـي جـاف، بعيـدًا عن شـبكة الطـرق الوطنيـة المعبدة التي تـؤدي إلى النهر ومدينـة دير الزور المبنيـة حديثًا.

نـادرًا مـا ينحـرف طريـق السـياح إلـى هنـاك، لديهمـا الكثيـر ليشـاهداه، والأيـام لا تكفـي، فمعظمهـا يتـم إنفاقـه علـى المحـور الرئيـس مـن دمشـق إلـى حلـب، حمـاة وحمـص محطـات علـى الطريـق، أربـع مـدن عتيقـة أدارت وجهها للبحـر وتنظر إلى الشـرق، تحولـت تمامًا، صارت مدنًـا عربيـة. الدليـل السـياحي يتهجى المـدن الميتة بكنائسـها المسـيحية الأولى، يتجـاوز تقنية جيسـتنيان للتحصيـن فيوسـط الهضبـة تاركًا في سُـباتها قلعة الخلافـة الأموية البديعـة التي تعود إلـى القـرن الثامـن، قبل عشـر سـنوات قدمـت الحكومة برنامجًـا لإعلان أربعة عشـر موقعًـا أثريًّا مـن التـراث الثقافـي العالمـي، لكنهـا لم تسـتطع دعمه، ثـراء تاريخي غزيـر من العصـر البرونزي وحتـى أوائـل الفـن الإسـلامي تحتـاج إلـى خبـرة فنيـة ورؤوس أمـوال ضخمـة، وهـي أمـور كانت قـوى النظام تتحاشـاها.

كان رومانـوس يتفـق تمامًـا فـي هـذه الحالة مع خاله نديـم، ربما كان مـن الأفضل للأوربيين أن يتركـوا كل هـذه الروائـع كمـا كانـت. "إن جشـعهم ليـس لـه حـدود"، كان نديم يقـول غاضبًا، "حفـروا وأخرجـوا كل نتـوء مـن الأرض وأرسـلوه إلـى السـفن، تركـوا البـلاد محفـورة تحـت رحمة لصـوص الآثـار، كيـف يمكـن تجميـع كل هـذا الآن؟"، السـياح يتدفقون إلـى المدن الكبـرى وإلى أسـواق دمشـق وحلـب ثـم يُنقلـون إلـى بالميـرا وإلـى قلعـة الحصـن[1]، مناطق جذب للسـياحة مصحوبـة بجرعـات صغيـرة مـن الرقص الشـرقي والكثيـر من الطعـام وزيارات جماعيـة إلى خيام البدو.

---

1- قلعة الحصن هي قلعة صليبية تقع ضمن سلاسل جبال الساحل السوري ضمن محافظة حمص في سوريا، وتبعد عن مدينة حمص 60 كم، ونظرًا للأهمية التاريخية والعمرانية للحصن فقد اعتبرتها منظمة اليونسكو قلعة تاريخية هامة لاحتوائها على تراث إنساني عظيم، وفي عام 2006 سُجلت القلعة على لائحة التراث العالمي إلى جانب قلعة صلاح الدين الأيوبي.

- "يقـوم النـاس بعـرض حياتهـم بشـكل مسـرحي، مـن أجـل تأميـن قـوت يومهـم"، علـق رومانـوس.

لكـن الخيـام التـي يرونهـا هـي خيـام حقيقيـة، قبيلـة فـي الشـتات، في سـفوح تـل منخفض، الخيـام الصوفيـة الداكنة الخشـنة للقبائـل تأتي على تضاد مـع ألوان الملابس المغسـولة المعلقة علـى أحبـال غسـيل عشـوائية، أثـر المـرأة، سـيارة نقـل على مبعـدة محملـة بصهريج مـاء وكلب قابـع بجـوار الأغنـام والماعـز، خصـلات النجيـل منتشـرة هنا وهنـاك، ليس هنـاك أحد.

- "هل ما زال الوقت مبكرًا بالنسبة لهم؟"، سألت جيني.

- "الرجال غادروا، إننا بصدد قبائل لديها قطيع من الجمال، لا بدَّ أنهم ذهبوا للرعي".

تعلَّـم أن يميـز ويحسـب عـدد الوحـدات والقبائل وفقًـا لعدد السـيارات حول المـكان وكمية الميـاه الموجـودة فـي الأوعيـة البلاسـتيكية، بعدد قطعـان الحيوانـات، توقفا على طـرف الطريق الترابـي وتوجهـا نحو أحـد المخيمات.

- "هذه أول مرة أسير على الهضبة".

- "لحسن الحظ لا تسيرين حافية مثل جاين ديجبي"، قال رومانوس مازحًا.

- "يمكنني أن أخلع حذائي".

- "أنا واثق من ذلك!".

تبعتـه مستسـلمة وشـاعرة بأمـان تـام، مطمئنة، هناك، في وسـط اللامـكان، كأنهما فـي زيارة لأحـد الجيـران، يـا لها مـن مغامرة!

فـي البدايـة انتبـه الكلـب الكسـول ونبـح، بدافـع الواجـب لا أكثـر، خـرج رجـل مـن إحـدى الخيـام وعـدد كبيـر مـن الأطفـال مـن خيمـة أخـرى، خيـالات نسـاء ظهـرت لبضـع ثـوانٍ، اقتـرب منهمـا شـاب فـي سـن المراهقـة تقريبًـا، تبـادلا الحديـث وهمـا يقطعـان

الهواء بحركات كبيرة.

- "ينتابني إحساس غريب، هل هو ضروري أن نقترب أكثر؟"، تجرأت جيني وسألت.

ضحك رومانوس ضحكة خفيفة:

- "إنهم يأكلون نساء مثلك على الفطور، هيا بنا!".

جذبها برفق من يدها، بطرف عينها راحت تراقب تحوله، حرباء، اكتسب لون الأرض القاحلة وسلوك القبائل البدوية، تبع صوته نبرة اللهجة المحلية، جسده صار يتحرك تمامًا بإيقاع خطوة البدوي، رومانوس يتغير، اتحد مع المكان، صار شخصًا آخر.

بالتأكيد يعود الأمر لتلك اللغة الأجنبية التي يتحدثها، لغته الأم، يقولون إن ازدواج اللغة لدى الشخص يعزز من قدراته المعرفية، لكن في الوقت نفسه يؤثر على طريقة التفكير وعلى السلوك، تتغير شخصية الفرد حسب اللغة التي يتحدثها في اللحظة الحالية، تعرفت جيني على فتاة تركية في الجامعة كانت طالبة في الدراسات العليا تنحدر من أزمير وتتحدث اللغة اليونانية؛ لأن مربيتها كان يونانية من خيو، حسنًا! عندما كانت تتحدث معها كانت التركية تتحدث مثل سيدة مسنة من سكان الجزر، حركاتها وتعبيرات وجهها كانت تتغير تمامًا، كانت تضم ذراعيها على صدرها وكأنها تضم تحت قميصها الأثداء الثقيلة للمرضعة اليونانية ويزحف إلى عينيها الحنين، وكأن خارج النافذة يتربص البحر الذي يفصل جزيرة خيو عن شاطئ آسيا الصغرى،

يحدث نفس الشيء مع رومانوس، يبدو كأنه قد وُلد تحت هذه الخيمة، وأنه قد كبر بين هؤلاء الناس وجاء الآن لزيارتهم، ليوادّهم ويتقاسم معهم أجزاء من حياة أخرى، حياة غريبة، حياة المدينة.

لم تتأخر رائحة القطيع حتى تصلهم، صوف مبلل لم يجف بعد، الكلب يتجاهلهم، بينما الأولاد بدوا مندهشين، رفعت بطانية ودخلوا تحت الخيمة، عجوزان متكئان

على أريكة منخفضة وعيونهما نصف مغلقة، لون بشرتهما أسمر وما زالا في حالة نعاس،

ألقى رومانوس التحية وأشار لها أين تجلس، بعد ذلك زحف نحوها. العجوزان بقيا ساكنين، راحت جيني تراقب كل شيء حولها بنهم، الألوان والروائح والهمسات القادمة من بعيد، حائط خشن خلفها، عينا رومانوس تحدقان بها وتراقبان كل ردود أفعالها، يعجبها هذا.

القهوة التي أحضرها الشاب كانت داكنة، قوية وبها طعم الهال، ترياق، جلس علي أمامهما وأخذ بطيب خاطر السجائر التي قدمها له رومانوس، الوشاح يغطي نصف رأسه، لكن عينيه الحادتين تتنقلان بين الضيفين، انحنى قليلًا وامتص الدخان بنَهَمٍ، ينظر الرجلان إلى بعضهما برفق.

يرى رومانوس في الشاب العربي "الروح" المتمردة التي جيَّشها قبل قرن لورانس كي ينظم حرب الاستقلال، حرب فردية، الأداء الشخصي لكل منهم كان بمثابة حصيلة تتساوى مع النصر، كل ثائر كان يخوض حربًا شخصية أكثر صعوبة من الحرب الجماعية لجيش استراتيجي، ربما لهذا السبب أيدوا رؤية لورانس، هذا الأجنبي المغرور الذي قد وَفَّق ما بين الخلافات الدينية والسياسية وأطعم بني قومه بكل ما يشبع الجماعة العرقية. "لو لم تكن هناك لغة مشتركة بينهم لما حقق لورانس أي شيء!" كان الخال نديم المعارض يقول.

في واقع الأمر اللغة العربية كانت حلقة هامة لإكمال هذه السلسلة، عندما تصبح اللغة وطنًا، اللغة المشتركة والملمح الأساسي للعربي الذي يحترم آباءه وقادته، وإلا كيف كان بإمكان إنجليزي أن يجمع الرجال واحدًا واحدًا من كل القبائل، وكذلك الشيوخ شيخًا شيخًا حتى يغزل هذا الحبل حول عنق التركي المحتل؟

لم يبخس رومانوس حق الإنجليز في التخطيط الذكي، نجاح الثورة كان نتاج الوسائل التي اختاروها كي يوقعوا بالعدو، قوات قليلة في أماكن بعيدة، هجمات في وقت قياسي، حيث لم يكن لديهم رفاهية الهجوم الطويل ولا عتاد وإمدادات الأتراك،

صار هدفهم التنقلات الأرضية، مهامهم الأساسية، وضع الألغام والانفجارات، أحد عناصر النجاح الأخرى كانت الوسائل التي يستخدمونها، التسليح الخفيف، بنادق ومدافع آلية خفيفة، الحرب أثناء التحرك، هجمات مفاجئة ثم تقهقر تام. الجمل، رفيق البدو الحبيب، في أيدٍ خبيرة كان دائمًا محاربًا لا يقل عن غيره، الهجمات أو الغزوات كما يسمونها صار هدفها التركي وليس القبيلة في القرية المجاورة، الاستقلال القومي بدا للبدو كبناء ظاهري، أي سوريا؟ لم يكن هذا المسمى معروفًا بالعربية، لكن التحرك كان يعتمد على الإرادة الحرة للثوار، يا للسخرية! القادة البريطانيون كانوا يحركون ثورة بجيش غير منضبط، الحرب العربية كانت حرب كل رجل على حدة؛ لأنه كان يفترض الحماس الشخصي والشجاعة، لم يكن له علاقة بدعوة اليوناني للحرب من أجل المدن والمعابد، ولا بحرب فتوحات النبي، كل جندي هو قائد، في نضال مشترك غنيمته النهائية كانت الوعي القومي.

"لقد خدعهم"، كان نديم يقول بإصرار، بالنسبة له استغل لورانس العرب؛ إذ إنه كان يعرف أن استقلالهم كان محض طُعم كي يفتحوا جبهة أوسع مع الأتراك، الاستيلاء على العقبة والدخول المظفر إلى دمشق كان بمثابة مقدمات للمأساة التي تنتظر الروح العربية، الإحباط وخيبة الأمل. بالنسبة لرومانوس كان لورانس هو من قاد صحوة قومية، لكنه بالفعل كان متوافقًا مع تفتيت الحلم العربي، ارتدى عباءة العرب وتكلم لغتهم وحارب مخدوعًا بأنه في نهاية الحرب سيعطي هذه الأمة القوة كي تقف على أقدام حرة ومستقلة، شرخ بين الواجب والخدعة التي ينسجها، أغرته سذاجتهم وإيمانهم به، نصاب مخادع، عاش بينهم، أحب كرمهم، لكنه خدعهم بلا رحمة، أجنبي حاول أن يقلد شخصيتهم لكنه أخفى ذاته، كل محاولاته كانت تنتهي برفض نفسه الإنجليزية، عربي في روحه لكن ببشرة بيضاء، أهمل واحدة دون أن يأخذ الثانية.

"لقد خدعنا". كان يكرر نديم ولون عينيه الزرقاوين يزداد قتامة، كان يعرف، عندما كان طالبًا وكانوا يتقربون منه لأنه كان حالة نموذجية بالنسبة لهؤلاء الذين يجندون شخصيات هامة من أجل مصالحهم خارج البلاد، كان نديم ينحدر من عائلة سورية عريقة ولديه علاقات مع النظام، كان يتحدث بطلاقة غير العربية

الإنجليزيـَة والفرنسـيةَ، وكان لديـه الهبـة بـأن يحبـه الرجـال والنسـاء، مقومـات هامـة بـلا جدال، كان يمكـن أن يتحـرك فـي أي مـكان دون أن يثيـر الشـكوك، روح عربـي فـي جسـد بريطانـي، لورانـس آخـر، استنسـاخ تـام، لكنـه خيَّـب آمالهم، غابـت عنهم تفصيلـة صغيرة، طبقة لـم تُبحث فـي شـخصيته، علامـة غيـر مرئية إثـر مروره علـى اليونان. شـخصية إيفيالتيس الخائـن في معركة الثيرموبيليـس كان يطـارده فـي سـنوات طفولته، فضـل نديم أن يكون في جانـب المهزومين، في حربـه الشـخصية للاسـتقلال بقي بدويًّـا، وطنيًّا.

صـبَّ الشـاب علـيّ القهـوة فـي الأكـواب الصغيـرة، يتسـرب الهـواء عبـر البطانيـة المفتوحـة، زهـور فـي تصميمـات هندسـية، فنـون النسـيج ترتعـش على الجـدران العشـوائية، اتـكأت جيني برفـق بجانـب رومانـوس، للحظـة رأت المنظـر مـن بعيد، خـارج جسـدها، منظر منقوش بريشـة الليـدي السـابقة الرفيعة.

*جلسـنا علـى الأرض كبدوييـن حقيقييـن، شـممنا الهواء الجبلـي الطازج، مشـاهد كهذه تحفر في ذاكرتـي للأبد.*

افترضـت السـبب الـذي بقيـت مـن أجلـه الإنجليزيـة فـي الشـرق للأبـد، لـم يكـن العشـق فحسـب، مـن يحظـى بسـهولةٍ بصفـاء كهذا؟ بدا لهـا كل الألم الـذي أنفقته حتى الأمـس من أجل سـتراتوس، فـي محاولتهـا لتتخيلـه هـذه السـاعة فـي مكتبـه خـلال اجتمـاع، أو أن تتذكـر توترها عندمـا كان يوجـه لهـا الحديث بشـكل رسـمي أمام الجميع، ثم شـوقها ولهفتها عندمـا كان يبقيان معًـا فـي شـقتهما، لا شـيء، لا أثـر للألـم! أيـن ذهـب كل الغضـب والمهانـة اللذيـن كان يغليـان فـي صدرهـا طيلـة هـذا الوقـت؟ ذروات الانتقـام الحـادة التـي كانـت التـي كان تشـق مخيلتهـا؟ أن تمـزق وتدمـر هـذا الوضيـع الـذي كان يتظاهـر بأنـه فـوق كل الموائمـات والتحيـزات، ممثـل رخيـص، تمامًـا كأبيها.

مباشـرة مـرَّ راليـس برأسـها، فـي آخـر لقـاء لهمـا لـم يتحدثـا إلا قليـلاً، كان أبوهـا يشـيخ بشـكل سـيئ، جسـده الممشـوق انحنـى وشـعره الناعـم خَـفَّ، تطلعـت جينـي لتفهـم منـه ولـو فـي آخـر لحظـة دون جـدوى، هـزة طفيفـة علـى وجهـه البـارد، هكـذا، حتـى تسـقط فـي أحضانـه، رفـض كغـذاء أبـدي، انتهـى، هـو كان يسـتند علـى أحضـان شـابة تافهـة

تستمتع بدورها بغرور المحدثين، أطلال آيلة للسقوط، فتنة تحت الطلب. "صار التمثال رمادًا يُكنس ويلقى به إلى القمامة"[1]، كيف كانت تأتي أماليّا بهذا الكلام؟ الانتقام هو طبق يؤكل باردًا وكانت أمها تستمتع به.

ودَّعا عليًّا والعجائز واضعين أيديهما ناحية القلب، عندما وصلا إلى طرف الطريق الترابي بالقرب من السيارة، انحنى رومانوس على بعض عناقيد النباتات وأشار لها إلى زهور الهضبة، جمال هادئ غير متوقع وعظيم في الوقت نفسه، يزحف اللون الأخضر والزنابق البنفسجية الحيوية، بشائر الربيع، خيرات الحياة التي لا تنضب وتنبت على قشرة الأرض القاحلة، لم يمدا أيديهما كي يقطعا النبات، كان رومانوس يقيس الإعجاب في نظرتها.

- "كان غيوم دي بولنتيسيل[2]، رحالة من القرون الوسطى، وقد وصل إلى هنا، كان يقول: "أينما توجد الحياة، تتوفر المعجزات"".

- "ربما معه حق"، أجابته ببريق في عينيها.

أين ذهب امتعاضه من الدموع السهلة؟ يتلهف ليراها تبكي ويضمها إلى صدره، يحتاج إلى ذريعة كي يُريها السعادة التي تغمره، كان يحلم بهذا المشهد من سنين طويلة، كان في خياله دائمًا امرأة غريبة، لم يدع أيًّا من عشيقاته إلى سوريا، خوف دفين، لم تفهم أي واحدة منهن ماذا يحدث بداخله، حساسية غيرمناسبة، لم يتسع لها قلب رجل.

كانت جيني أول من اخترق حصونه، كانت تتبع الهجمات ببسالة، غزوات، هجمات قصيرة ومفاجئة، تقهقر مباشر، كانت تلعب بكل القواعد، كانت تعرف أو تبتدع الوسيلة، وفي كل الأحوال كانت جيدة، كانت تصل للهدف، أرَتْهُ على الفور احترامها وتقديرها لمشاركته لها في هذه التجربة، لكنها تحكمت في دموعها، تأجيل حتى إشعار آخر.

---

1- من قصيدة على مشارف أنطاكية لـ«قطسنطين، ب، كفافيس».

2- راهب ألماني، أحد قساوسة الأراضي المقدسة، سافر في 1332 بصحبة فريق كبير وكانت مخطوطاته تجهز لحملات صليبية لم تحدث أبدًا.

قابلا قافلة من الجمال بعد عدة كيلومترات، ما يزيد على عشرين ناقة بيضاء متناثرة ومستغرقة في الطعام، نياق مبهجات.

- "يشبهن ودادا"، قالت جيني وهي تُخرج الكاميرا الفوتوغرافية من حقيبتها، صوت كليك الكاميرا كان خرقًا لاتفاقهما، ابتسم رومانوس متنازلًا، لأي شخص هذا مشهد مميز، حيوانات بهذا العدد تتحرك ببطء، على بعد أمتار من الطريق بحثًا عن الحشائش.

- "أرى أنكِ ما زلتِ تقرئين سيرة ديجبي"، قال لها وهو يدوس على المكابح.

كانت ودادا ناقة بيضاء أهداها الشيخ إلى الإنجليزية، كانت رفيقتها المخلصة في الصحراء، كانت جاين تقسم وقتها بين دمشق والهضبة، بَنَتْ بيتًا فخمًا في المدينة يلائم الشيخ، لكن عندما كان يبرد الجو كانت تصاحب القبيلة في أماكن الرعي، عشقها لميتزول كان يتخطى كل الظروف السيئة للحياة البدوية، تعلمت عادات البدو ولغتهم وأسرار العيش، وتوازنت بروعة بين عالم الرجال والنساء في القبيلة "في قبيلتها"، في كثير من الأحيان كانت المساعدات الاقتصادية تخرج الشيخ من أزمات، وأيضًا توسطاتها الكثيرة لدى الحاكم العثماني غيرت من موقفه أمام قبيلة ميتزول.

- "أحاول أن أخمّن أي نوع من النساء كانت هي، هل كانت امرأة فخورة بنفسها وتسرق قلوب الرجال، أم حالمة ساذجة؟"، أجابته وهي تعيد الكاميرا إلى

إطارها.

رومانوس يتبنى الرأي الأول، تعجبه جاين كمتمردة، حركت المياه الراكدة في البلاط الملاكي الأوربي ثم وجدت ملجأً بين ذراعي الشاب العربي.

- "كانت روحًا متحررة بالنسبة لعصرها".

- "هل تبالغ في تقديرك لها أم أن هذا يبدو لي؟"، سألته مبتسمة.

- "كيف وصلت إلى نتيجة كهذه؟".

- "ألمح ميلًا نحو إضفاء المثالية عليها وعلى الشيخ، يظهر الصراع الذي بداخلك، وطنان، وأنت تقف في المنتصف عاجزًا أن تذهب إلى أي من الجانبين"،

صمتت قليلًا، فهمت أنها ربما قد تمادت قليلًا، فسَّرت صمته بالموافقة.

- "إن قصة جاين ديجبي أصبحت ذريعة، الأوربية والعربي، الإنجليزية الجميلة الثرية التي تركت كل شيء من أجله، أنت تحبها، ومعجب بها لأنها هي من اختارت أن تبقي في سوريا، بينما أنت لا تزال مترددًا".

أصابت! أصابت جيني الهدف من أول رمية، رمية بلا انفجار، كلماتها رشقت في القلب، كلمات امرأة غريبة، كيف تكون غريبة وبأي قدر امرأة تستطيع أن تغوص هكذا بداخله؟

تحرك مجددًا، في صمت، ترك لها المساحة والوقت.

- "إنك تسرف بلا مبرر"، أكملت جيني: "ديجبي لم تستطع العودة لأنها كانت منفية تقريبًا، لكن أنت تستطيع، أنت أكثر حظًّا، هذا بالإضافة إلى أن كلا وطنيك قريب، أي أجد خلاصة لوصفة سحرية، وصفة سحرة يونانيين قدامى من أهل سوريا[1]".

يتذكر رومانوس والده، معلم اللغة اليونانية سابقًا وهو يرتل عليه أبيات كفافيس، كان بتروس كارافانديس يشعر بالصراع في نفس ابنه الوحيد، حاولت نادية جاهدة، شعر، قصائد، أغاني، كل شيء كان باللغة اليونانية.

- "كان كل منهما يحاول ويبذل نفس الجهد"، قال وهو يناجي نفسه.

- "أنت لست الوحيد، كان لديَّ زميلة في الدراسة من زواج مختلط، أمها كانت ألمانية، كنا في المرحلة الثانوية وكانت لا تتحدث أي كلمة بالألمانية، وعندما سألتها، أتدري بمَ أجابتني؟ أن هذا كان شرط جدتها كي تقبل بزواج أبويها، عانت العائلة الأمرّين أثناء الاحتلال، على الأقل أنت نشأت بلا مشاكل كهذه، أليس كذلك؟".

---

1- من قصيدة «من وصفات سحرة يونانيين قدامى من أهل سوريا «لقسطنطين، ب، كفافيس».

- "في المدرسة كانوا ينادونني بـ "السوري"، كان للكلمة وقع حاد على مسامعي، لم تكن سُبَّة بالضبط، كان لها وقع سمعي أشبه بباب يُغلق في وجهك! كنت أستقبلها كاتهام لا أستحقه؛ لأنني كنت أشعر بالفخر، كان من الصعب عليَّ أن أتعامل معه، وعندما كنت أجئ إلى دمشق كنت أصبح "اليوناني"".

بفرحة الخلود في عينيه، وشعره الأسود يفيض عطرًا، يلتفت إليه المارة، ويسأل كل منهم الآخر عمَّن يكون هذا الشاب، وعمَّا إذا كان يونانيًّا أم سوريًّا أم أجنبيًّا[1].

ضغط رومانوس على بدال البنزين تاركًا خلفه سحابة من الغبار، كأن الغيوم حلت على المكان الشاسع.

- "هل تعلمين كم أفكر في أبناء المهاجرين اليوم؟ لم أكن أتخيل أبدًا حجم العنصرية في المدارس اليونانية، أن يشيروا عليك وينادوك: "أجنبي"، "عربي"، تخيلي؛ كان لديَّ هوية يونانية، كنت أتحدث اليونانية، كنت أذهب إلى مدرسة خاصة، فكري في ما يحدث الآن".

العنصرية هي بمثابة العُدار[2] في اليونان الحديثة، وحش بسبعة رؤوس يهدد الشعب اليوناني المسالم، هل نحن عنصريون؟ لم نكن، أصبحنا، وهذا ذنب آخرين، الرعب من كلمة أجنبي، من الغريب، متلازمات الخوف تفيض في أروقة المدارس، المجتمع تحت مقصلة الأزمة الاقتصادية، لا يشعر أحد بالأمان، والبطالة، كل هذا يمحو وجود الكثير من البشر ويحرمهم من أمل حياة أفضل، صناعة الخوف، التي تُدعم عمدًا من قبل وسائل التواصل والدوائر المريبة، التهديد الذي يسببه الآخر، المختلف، العربي أو المسلم، المهاجر واللاجئ السياسي، اضطهاد الأمان، براءة الطفولة تُرجَم.

- "أحيانًا يصبح الأطفال أشرارًا"، أجابته وذهب تفكيرها بعيدًا.

---

1- من قصيدة «أحد آلهتهم» لقسطنطين، ب، كفافيس.

2- العُدار في أساطير اليونان حية عظيمة قتلها هرقل(هيراكليس) زعموا أنها كان لها تسعة رؤوس كلما قطع رأس منها نبت آخر، وفي أساطير العرب دابة في اليمن لها شيء أعظم من رؤوس عدار اليونان.

جرحتها صديقاتها في كثير من المرات، همس ولمز وضحكات مكتومة، صور ميخاليس راليس تتنقل بين الأيادي تحت مقاعد التلاميذ، أبوها في أحضان امرأة أخرى، كابوس أبدي.

- "وفي الجامعة؟"، سألته كي تغير مزاجها قليلًا، "الأحكام المسبقة بعيدة عن مقاعد الطلاب".

- "آه! هناك اتزن الوضع تمامًا"، قال بنبرة حزن.

غريب بين غرباء، المدينة الجامعية في SOAS[1] كانت بمثابة وطن جديد، بالقرب من المتحف البريطاني، مكان رمزي، يجاور آلاف الكنوز التي نُزعت من أوطانها عنوة كي تملأ المعارض والمخازن، سخرية أم غطرسة؟ الاثنتان معًا، في البداية فُتِن رومانوس بالحياة في لندن، مبنى الجامعة المهيب، حجارة المنازل في شارع جاور حول الكلية! كان يعيش في حي فرجينيا وولف وكينز[2] ويسير في نفس الشوارع مع المشاهير أوائل القرن العشرين، ترك خلفه وطنيه ليجد نفسه في مركز العالم، أَسَرَتْهُ حياته الجديدة، تقاليد الكلية، القراءة في المكتبة، الحفلات والشلل، يونانيون وسوريون، كان سهلًا أن يدخل بينهم، فمن كان يهتم؟ كانت الحياة الطلابية بمثابة حضن مفتوح، وصار رومانوس متصالحًا مع جذوره المزدوجة.

ذات صباح زار المتحف، صوت ميلينا[3] المبحوح أيقظ الضمائر من أجل إعادة رخام البارثينون، لكن على الرغم من كل المحاولات على المستوى الدولي لم يتقدم الأمر سوى خطوات قليلة، كان المتحف يرفض بقوة المزاعم اليونانية، لأول مرة في تاريخه يتعرض لضغط كهذا.

أُنشئ المتحف البريطاني في القرن الثامن عشر عندما أهدى الفيزيائي وهاوي

1- School of Oriental and African Studies: مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، كلية تابعة لجامعة لندن، متخصصة في مجال اللغات والعلوم الإنسانية والاقتصاد والقانون والعلوم السياسية المرتبطة بمناطق آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط.

2- جون مينارد كينز، اقتصادي إنجليزي (5 يونيو 1883 - 21 أبريل 1949)، اشتغل في بداية حياته في الهند وألف كتابًا عن الإصلاح فيها، واشترك في مؤتمر السلام بعد الحرب العالمية الأولى، وكتب كتابًا بعنوان (الآثار الاقتصادية للسلام).

3- ميلينا ميركوري: إحدى أشهر الفنانات في اليونان، وكانت آنذاك وزيرة للثقافة.

جمع التحف السير سلوان مجموعته إلى العائلة الملكية، الملك يورغوس الثاني بعد عدة سنوات افتتح معرضًا للمجموعة بشكل رسمي، ومع مرور السنين تجمعت كنوز من العالم المعروف آنذاك، كان رخام البارثينون بمثابة تتويج يزين المتحف في عام 1816، لم يهتم أحد بالطريقة التي تم الحصول بها على كل تلك الروائع التي تزين معارضه، صندوق للتراث الإنساني والثقافي، كان يسبح لسنوات في صفاء اللامبالاة. "في غطرسته تريد أن تقول"، كما كان يقول الخال نديم، الذي لم يكن يترك فرصة ليعبر عن معارضته للسياسات البريطانية.

تحت الضوء الساطع للمتحف كانت الكنوز المنزوعة من أوطانها تتطهر، طرق التنظيف كانت تنزع عنها دنس تراب أوطانها البعيدة وأكسدة أرض الوطن، الضوء الاصطناعي كان يضيء الخطوط البدائية للوجوه ومنحنيات الأجساد المنحوتة، رطوبة المملكة البريطانية كانت تقف على عتبة المدخل المهيب، حيث يتوافد عشاق الماضي ويقفون في صفوف كي يستمتعوا بروائع قرون مديدة، كي يقابلوا العيون الفارغة للتماثيل، التي ماتت من الغربة. بحث رومانوس في البداية عن قاعات الكنوز الأشورية، ودون وعي سادت لغته الأم، وإن كان العرب ليس لهم علاقة بالحضارات التي نشأت بين النهرين، دجلة والفرات، وقف بمهابة أمام الحارسين الحجرين اللذين يزينان مدخل قصر أشورناصربال[1] في النمرود[2] في ميسوبوتاميا[3]، اثنان من التماثيل الضخمة، أسدان على هيئة شخوص مجنحة، بلحًى مهذبة وأقراط، تشبه مطربي الروك في هذه الأيام، في ذلك العصر كانوا يربطون بين قوة الأسد ورقة الطير وذكاء الإنسان، بعد ذلك انبهر بتمثال اللبؤة التي تفترس الولد، رائعة السواحل الفينيقية، التي وجدت في قلب المملكة الأشورية، غنيمة ثمينة من ساحل البحر المتوسط تزين قصور البلد النائي، بعدها وقف مبهوتًا

1- أشور ـ ناسير ـ أبلي، بالأكادي - الأشوري، وفي التناخ كتب اسمه أشورناصربال، كان ملك أشور في الفترة من 883 ق.م، ويطلق عليه -أيضًا- أشورناسيبال الثاني أو أشورنازربال الثاني أو أشور ناصر بعل.

2- كالح، وتعرف كذلك بأسماء أخرى: ككالخو وكالخو والنمرود، كانت مدينة آشورية، آثارها الباقية تقع على مسافة 30 كم للجنوب من الموصل في العراق اليوم، أسست كالخو في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأصبحت في القرن التاسع قبل الميلاد عاصمة الإمبراطورية الآشورية الحديثة زمن الملك آشور ناصربال الثاني، ودمرت في عام 612 ق.م على يد الكلدانيين والميديين، وتم في ما بعد تخريب ما تبقي من الآثار على يد تنظيم الدولة الإسلامية في الموصل سنة 2015.

3- ميسوبوتاميا هي حضارة ما بين النهرين، وهو نفس المسمى والمعنى الحرفي باللغة اليونانية.

أمام المشاهد العنيفة للصيد الملكي التي تصور على الحجر منحوتات من نينوى العتيقة، في قصر أشورناصربال في بابل، داخل الطبيعة البديعة جوقة الملك تمثل صيد الأسود وقتلها، الذي يظهر من خلال ضربات السهام والرماح والسيوف، حلبة دموية. فنانو هذه الجدارية الحجرية يصورون بمهارة الرعب والألم على وجه الحيوانات في ساعة الموت، مما جعل رومانوس يغادر القاعة بسرعة، كأنه أراد أن يهرب من أصوات الزئير ونزيف الحيوانات البريئة، فر تقريبًا مهرولاً إلى غرفة رخام البارثينون وهناك واجه المشهد المروع الذي انطبع في ذاكرته.

- "ربما كنت متأثرًا من المشاهد الوحشية الملكية التي رأيتها مسبقًا، لكن فور أن دخلت إلى قاعة التماثيل اليونانية ظننت أنني قد دخلت مشرحة، على اليمين وعلى اليسار كنت أرى فقط أجسادًا بلا رؤوس أو بلا أطراف، وكأنني كنت شاهد عيان في حادث إرهابي، طبيب أمام ضحايا سفاح متمرس، أجساد بيضاء تنزف، دون أثر للدماء حولها، انتقلت الوحشية الإنسانية إلى هنا، إلا أن الجلاد في هذه المرة لم يكن هنا، وبقيت الضحايا فقط تعرض جروحها الحجرية أمام الزوار المهووسين الذين يتجاوزون في نشوة المعروضات المروعة، الإلهة هيرا تقف بلا رأس، ذيونيسوس مشوه، بينما كان الدرع هو كل ما بقي من بوسيذون، على الجمالون الغربي للمعبد كان النهر كيفيسوس[1] يبدو وكأنه ينازع بلا رأس على الأرض بأياد وأرجل مقطوعة، بينما إيريس[2] وهيرميس مقطوعا الرأس، آلهة- ياللحسرة- معاقبة بأيدي البشر".

- "كانت صدمتي كبيرة، حتى إنني غادرت القاعة على الفور".

- "نادرًا ما يُعثر على التماثيل كاملة، أفروديتي الميلوسية[3] ليس لديها أذرع، ولا حتى هيرميس الذي نراه في الأوليمب"، تجرأت جيني وقالت هذا بعد أن وجدت

---

1- وفقًا للأسطورة اليونانية هو أحد الآلهة الثانوية تجسد استعاريًا في نهر كيفسوس الشهير في إقليم أتيكي الذي تقع فيه أثينا.

2- أحد الأرباب الثانوية في الأوليمبوس، شبح مخيف نصفه طائر ونصفه امرأة.

3- من أشهر التماثيل الكلاسيكية القديمة المنحوتة من الرخام، سمي نسبة إلى ميلوس، وهي إحدى جزر اليونان، المكان الذي نُحت فيه وضاع فيه قبل أن يَكتشف مجددًا في ميلوس، ويعرف بـ (فينوس دي ميلو (بالفرنسية(Venus De Milos) ، وأحيانًا يعرف بأفروديت الميلوسية (باليونانية(**Ἀφροδίτη τῆς Μήλου**).

رد فعله مبالغًا فيه بعض الشيء.

تذكَّر نسخة تمثال نيكي من ساموثراكي فوق مكتب الخال نديم، ثابت منتصب لكن بلا رأس، شعر رومانوس بالظلم.

- "عندما تخرج تمثالًا من الأرض بلا رجل، أجده أمرًا طبيعيًا، أما أن تنزع جزءًا من عمل كامل وتفتته إلى أجزاء ووحدات صغيرة دون أيّ سبب أو خطة، فإني أجدهذا عملًا إجراميًا، لو أنكِ تنقلين عملًا سليمًا كي تنقذيه من الكوارث الطبيعية أو الحروب، وقتها أنت تُقدمين خدمة إلى التراث الإنساني، لو أنكِ اجتزأتِ عن عمد وحدة كاملة فتلقائيًا تلغين وجودها، مهما كانت قيمة الأعضاء الباقية، فالأمر أشبه بأن تقطعي بعض الصفحات من كتاب لأنها تروق لكِ أكثر، لكن الكتاب لا يُقرأ بعد ذلك، هذا ما يحدث عندما تدخلين إلى قاعة رخام البارثينون، "عن أي مولد لأثينا نتحدث"، وأي "معركة أثينا وبوسيدون"، أجساد ممزقة، كأنها خرجت من حادث".

رأت جيني الغضب يعتلي وجهه، فلم تستطع أن تتجنب ابتسامة خفية، أعجبها غضبه، يبدو أن ثمة فورانًا يمور في داخله ويترك فتحة بسيطة لها لتنحني لتتنصت، دون أن يحتاج الأمر للتخمين، مثلما كان يحدث حتى الآن، حاولت أن تستفزه أكثر، كي تختبر حدوده.

- "كان إيلجين[1] متعجلًا".

- "نعم"، اتفق رومانوس، "لص متعجل، في تلك القاعة في المتحف البريطاني فهمت أنه سواء كنت عربيًا أم يونانيًا، بالنسبة للبعض ليس هناك أدنى فارق، فأنا بالنسبة لهم ضحية تحت الطلب، رخام منزوع، تحت رحمة اللصوص الطامعين، ودائمًا في خطر".

ذهب تفكيره إلى الفلسطينيين في غزة، إلى الأطفال العراقيين الذين يجوبون

1- توماس بروس «لورد إيلجين» هو المسؤول عن سرقة رخام الأكروبول الموجود في المتحف البريطاني، الذي يطلق عليه -أيضًا- رخام إيلجين.

الشوارع في دمشق يحملون صناديقهم البسيطة ويطلبون بكرامة كلمة طيبة، شيئًا أكثر من الشفقة، رحالة بدافع الحاجة، مسيحيون، طردتهم الرياح الحارقة للتطرف الإسلامي من مهادهم العتيقة، مخرج جديد، من العراق ومن إيران ومن مصر، الأغلبية القديمة المزدهرة يطلبون الآن اللجوء إلى بلدان مجاورة يعيش فيها المسيحيون بحرية، في الأردن أو في سوريا، واحات للتسامح الديني، فرص للعمل والعيش. "علمني كلمات يونانية كي أستطيع أن أقترب من السياح اليونانيين"، طلب منه ماسح الأحذية الصغير في الشارع، عيون سوداء مفعمة بالحياة والأمل والصبر، بعد قليل من الوقت بحث عنه في كل مكان، لم يجده، ولا حتى تينا، من خلال المنظمة التي تعمل فيها، كانت تستطيع أن تقدم العون، غصة مريرة، مثل غصة الجدة رينا لدمار بيروت، وقلق الأب على انهيار اليونان.

تسرعت جيني وقالت:

- "يجب علينا أن نجد التوازن على المستوى الشخصي أولًا".

- "هذا يعتمد على عوامل كثيرة، نحن ننتمي إلى المجموع، أليس كذلك؟ لا بدَّ أن نجد مواقعنا، لسنا وحدنا، لكن مع الأسف فإن البعض يستغل هذا الموقع، هناك من يبدعون وهناك آخرون يدمرون".

سألت جيني:

- "مثل إيلجين؟".

نظر لها برقَّة، لقد تبخر غضبه، لمرة أخرى هذه البنت تستجيب مباشرة لأفكاره.

- "شيء كهذا.. لا بدَّ أن يقسو المرء ويزداد صلابة حتى يحتمل".

لهذا لا يحب الدموع، البكاء هو الطريق السهل.

- "أنا لا أزداد صلابة أبدًا"، قالت له وكأنها قد خمنت تفكيره.

- "تعجبينني هكذا"، اعترف رومانوس.

**ضـوء شـاحب** تسـلَّلَ عبـر السـتائر الثقيلـة، راح نديـم يبحـث عـن نظارتـه علـى الكومودينـو المجـاور، كانـت قطـع الأثاث تبـدو كخيالات في ظل الضوء الشـاحب الذي يسـود الغرفـة، ضوضاء مكنسـة كهربائيـة فـي الممـر، توقَّـعَ أن السـاعة قـد تكـون العاشـرة، أماليّا تنـام على جانبهـا مولية لـه ظهرهـا، أغلـق نديـم عينيـه في الظـلام، تتقلـب الصـور أمامه، الليلـة الماضيـة، ليالٍ أخـرى قبل سـنوات، يقفـان أمـام بعضهمـا تحرقهمـا الرغبة، ليـس لديهما صبر، في ليلـة الأمس كان يـرى توتره فـي عينيهـا، بشـرته كانت تبرق في عينيها، مـرر أصابعه بنعومة على جبهتها. "أطفـئ النور"، قالت لـه فقـط، جنـون تـام، ضمهـا إلـى أعناقه، تـردد لحظـي اخترقها مثـل تيار كهربـي ثم طرحهـا أرضًا، مفتـاح عطـل الشـبكة، جسـد واهـن، ثـم فجـأة، مثـل عاصفـة صيفيـة انفجرت فجأة وبقـوة، مثل آنـذاك، عاصفـة متعجلـة، بـرق يضـيء ظـلام الغرفـة، انحنى وقبَّل شـعرها. نـوم عميق، نهـض نديم وذهـب إلـى الحمـام، ضـوء عدوانـي هجم على جسـده العـاري، اصطدم جسـده الشـائخ المترهل بعنـف علـى كريسـتال المـرآة، رثـاء الـذات، فتـح الصنبـور، جـرت الميـاه بقـوة فأفـرغ مثانتـه في المرحـاض، قمـة اللياقـة والأناقة، دائمًا يحتفظ بمسـاحة مـن اللياقة كعوازل أو مصـدات بينه وبين المـرأة التـي بجـواره، أجسـاد تأتي وتـروح، أسـماء وروائح.

التفـت نحـو المـرآة بالقـدر الـذي سـمح لـه بـأن يـرى نظرتـه السـاخرة، راح ينظـر إلـى صورته المطبوعـة علـى المـرآة بتهكـم وألـم، أعضـاؤه المرتخيـة كانـت شـهودًا صادقـة علـى أن الزمن هو العنصـر الأولـي لتجميـد الجسـد، آنـذاك كان جسـده يبـرق كل صبـاح فـي المـرآة، جسـد أماليّـا النهـم كان يئـز تحـت ثقلـه، مطـاردة متلهفـة، كان يحكـي لهـا قصـة أندرونيكـوس وثيـوذورا، قصة مقطعـة إلـى شـرائح، فـي مـا كان يضمهـا إلى ذراعيـه ويمنحهـا رغبته كاملة، خـارج النافـذة تعوي العاصفـة الرمليـة بغضـب، كانـت بالميـرا تسـبح فـي غيـم الرمـال، لكـن علـى فراشـهما كان النـور يولـد. ثلاثـة أيـام، عندمـا أشـرق يـوم الأربعـاء، كانـت المدينـة تلمـع تحـت شـمس إبريـل، فتحـا النافـذة فنفـخ الهـواء الطـازج فـي السـتائر فكشـف عـن الخطـوط الأنيقـة للآثـار، قـدر مـا كانـت السـماء صافيـة، كان قلباهمـا مظلميـن، أجبرهمـا الواقـع أن يهبطـا مـن سـحابة الوهـم، قبـل نديم مهزومًـا قـرار أماليّـا، وكأنهـا قـد اسـتيقظت مـن حلـم عميـق، لـم تتعرف هـي على أي ممـا حدث، حـاول جاهـدًا أن يجـد مؤشـراتها مجـددًا - الزوجـة، المحيـط الاجتماعـي، أثينـا، نوبـة الغـرام

فككت نظامها الكهربي المتحفظ، التيار العالي أحرق نظم الأمان، الأميرة المسحورة استيقظت من سُباتها، نظرت إليه مندهشة وراحت تلهث باحثة عن مخرج، دلّها على الطريق مسحوقًا، عادا إلى دمشق، مسار الأسر المؤلم، سجناء الذاكرة، لم يحاول نديم أن يضغط عليها؛ لأن الشعور بالذنب الذي سيطر عليها كان يهدد قواها الهشة وتوازنها، كانت تنتفض كطير يرفرف في قفص حديدي، فتح نديم الباب له وطارت أماليّا.

ذهب إلى حمَّام مالك، بجوار الجامع الكبير فور عودته من المطار، كان يرغب أن يبقي وحده، أن يختبئ في الضوء الشاحب، أن يختفي في دفء الحمام، رحم رطب، ملجأ، لم يكن يحتمل نظرة التساؤل في عيني أمه، ولا أسئلة نادية المجهدة على الهاتف، بين الرجال الغرباء الذين كانوا يملؤون قاعة الحمام، شعر بتحسن طفيف، حوارات رتيبة، حركات معروفة، أصوات معروفة، ابتسامات، عثر شيئًا فشيئًا من جديد على وجهته، كأن الأيام الثلاثة التي قضاها في صحراء بالميرا أصابته بالتيه، داخل الأبخرة، ممددًا على الحجرة الدافئة، شعر بمسامّ جلده كلها تُفتح وتخرج منها كل المرارة التي تجمعت، الرطوبة تخللته، نظفت دواخله، أطفأت اللمسات والقُبَل وكلمات الغرام، غبشت مرآة الذاكرة وفقدت صورة أماليّا خطوطها المعروفة، فَرغ عقله، جسده صار بلا وزن واتحد مع الحجر، أحاسيس مخدَّرة، شلل تام، غاب التفكير.. فراغ، لبضع ثوانٍ غاب تمامًا، ثم راحت كفوف المدلِّك في الحمام تمنحه الحياة من جديد وهو يفركه في ما كانت ليفاته تحُكُّ الجلد، المسام المفتوحة لفظت رمال بالميرا مع ريق وعطر أماليّا، وعرق غرامهما، سقطت إربًا فوقه، تنظف فاستراح، عندما نهض وهو بكامل بريق نظافته، كان جسده ناعمًا كالحرير وألم الروح قد ثُبِّط، في الغرفة الأخيرة للحمام -الباردة، كما يسمونها- رائحة القرفة الحلوة لفحت أعماقه، شرب نديم الشاي بهدوء ثم عاد إلى بيته، حيث كان ما زال يتشاركه مع ميرنا بشكل روتيني، عندما فتح الباب بالمفتاح، واجه نظرتها المندهشة، دون أي مقدمات طلب منها نديم أن ينفصلا، بلا رجعة.

”ليس هناك حل أو طريقة أخرى؛ أنا أحب امرأة أخرى“، قال لها وأغلق الباب خلفه.

**الشرشف بجوارها** ما زال فاترًا، هكذا بدا لها، لقد نامت في غرفة نديم! الماء الذي يجري في الحمام كان علامة على ذلك، من حسن الحظ، هذا يمنحها بعض الوقت، راحت تبحث عن ملابسها في المكان. كارثة! مبعثرة في أرجاء الأفق، كلها، لا بدَّ أن ترتدي ملابسها قبل أن يخرج هو من الحمام، الشعور بالذنب يثقلها وهي قابعة تحت الأغطية، زانية لمرة أخرى، كانت تشعر أنها قد خانت زوجها المتوفى، تسللت خلسة إلى عقلها فكرة أنها دائمًا مع نديم تخون شخصًا ما، راليس، دايف،

رجال حياتها، واحد في رأسها والآخر بجوارها في الحمام، الثالث؟ المسيطر، العذاب، كان ميخاليس راليس حملًا ثقيلًا لم تستطع أن تتخلص منه، تُرى ماذا تفعل جيني؟ مع التفكير في ابنتها جلست على الفراش. "يا يسوع، ماذا يحدث الآن؟"، فكرت وانتفضت على الفور وبدأت في ارتداء ملابسها، المرآة المقابلة لها تومئ لها، إيماءات مضحكة، في عمرها هذا تلقي بملابسها الداخلية بعشوائية في حقيبتها وترتدي بنطالها بلا سروال داخلي، وقفت أمام المرآة في مواجهة أماليّا، في وضع تأمل، بينما الزجاج البارد يتمدد، يصبح دائمًا وسيلة لقراءة ذاتها، رفيق صدوق، كاهن الاعتراف، ملاحظ وناقد عنيد، في الضوء الخافت ظلال صورتها تسخر منها، شعرها غير مرتب ومتوترة، للأسف لم يتغير شيء، نفس الرعب، نفس الشعور بالذنب، نفس الذعر أمام السعادة.

هكذا بالضبط مثلما كانت قبل سنوات طويلة، في بالميرا مجددًا، لا شيء يختلف غير الغرفة، تغيب النافذة المفتوحة كي تتطاير الستائر، لمرة أخرى استيقظت مرتعبة، كانت سعيدة وتخجل لهذا، هي من أدمنت الهجر من راليس، ولَّت ظهرها وهربت لأنها لا تستطيع العيش من دونه، زواج مؤبد مع الأشغال الشاقة، جرت قيودها وسعت لرائحة زنزانتها.

في ما بعد حدث نفس الشيء في إستانبول، استيقظت في أحضان دايف، في الفراش الشاسع في "**Cirgan Palace**"، مرتجفة؛ ليس من الخجل الذي كانت تشعر به لما حدث في الليلة الفائتة، لكن من رغبتها في إعادة الكَرَّة، لكن دايف

لـم يُبْـدِ توافـق وتنـازل نديـم، تعلـم الإنجليـزيُّ فـي الحيـاة أن يكافـح كـي يحصـل علـى نصيبه، هـذه المـرأة التـي كانـت تنتفـض طيلـة الليـل تحت قضيبـه لديهـا عيون غزالـة وقوة نمـرة، فهم ذلـك علـى الفـور، لـم يقابـل أنثـى حتـى تلـك اللحظـة تمنـح لـه نفسـها بهـذه الطريقـة، حركت مشـاعره، فـي ضـوء الصبـاح الوفيـر حاولـت أماليّـا أن تخفي عريها، عـري آيل للسـقوط، لا تبتغي أي امـرأة أن تتقاسـم عريهـا مـع غربـاء، ألصـق دايف وجهه في وجههـا وقال لها: "سـتكونين آخر امـرأة فـي حياتـي!"، أول وعـد أعطـاه لهـا، فـي سلسـلة مـن آلاف الوعود التـي أوفى بهـا كلها.

- "إلى أين أنتِ ذاهبة وقد ارتديت ملابسك في الصباح؟"، سألها نديم.

رائحـة الصابـون والأبخـرة التـي كانـت مكتومـة طيلـة هـذا الوقـت فـي الحمـام دخلـت إلـى الغرفـة، راقبتـه فـي المـرآة وهـو يقتـرب منهـا، الصـورة صـارت مزدوجـة.

- "لا ترحلي مرة أخرى".

لـم تجبـه، وقفـت بجـواره تقريبًـا أمـام المـرآة، كان جسـده يبـرق ورائحـة عطـرة تفـوح منـه وهـو يرتـدي روب الحمـام الأبيـض، كانـت هي منفوشـة الشـعر حافيـة القدمين مرتدية ملابسـها ورائحـة الليلـة الماضيـة عالقة بجسـدها.

- "أماليّا، لسنا أولادًا صغارًا".

مـن تكلَّـم عـن الأولاد؟ الأولاد يسـتطيعون أن ينظـروا مباشـرة إلـى الأعيـن، هـي لـم تجرؤ أن تنظـر لـه، الأولاد كائنـات بريئة، لا يعرفون الشـعور بالذنـب والتظاهر، ولا حتـى الكذب، الأمهات تقـوم بـكل الشـر، يرعينهـم بحـب حـد العبـادة، يلففنهـم بكافـولات ضـد البلـل لينكـرن البلـل ويهدهدنهـم بالحكايـات، يغمرنهـم بالأكاذيـب، الأولاد يلقون الفتات خلفهم كـي يجدوا طريقهم، بـدلًا مـن أن يفتحـوا الخريطـة، هكذا ربـت جيني.

كـم كانـت هـذه الرحلـة خطـأ! مـاذا سـتقول ابنتهـا عنهـا الآن؟ لمـرة أخـرى سـتكون غائبـة، جينـي فـي المستشـفى وهـي فـي غرفـة الفنـدق تهدل مثـل حمامـة وقلقها مـن أن يـرى الرجل جلدهـا المجعـد أو عينيهـا المنتفختيـن، عـارٌ يـا أماليّـا!

- "لسنا أولادًا، حسنًا قلت".

هربت من مصيدة عناقه في اللحظة الأخيرة، وقف نديم بذراعيه مفتوحين، حركة لانهائية، في هذه اللحظة دق الهاتف، تكلم بصوت خفيض مع موظف الاستقبال، بينما أماليّا تشد الستائر وتفتح النافذة، ضوء النهار هجم على الغرفة، أخيرًا استعاد كلُّ شيء شكلَه المفقود، في البداية نظرة نديم المشاغبة ملأت وجهه وفي ما كان واقفًا يتحدث في الهاتف بجوار الفراش، انتزع قناع العاشق فوجدت أماليّا صديقها. الغرام الذي أنفق في الليل راح يذوب في ضوء الشمس القوي، وراحت أجسادهما تستعيد أحجامها الطبيعية، أجساد الكهولة، في مرحلة ما قبل التكهين، ابتسم لها نديم وهو يضع سماعة الهاتف، أجابته بابتسامة دون أن تعبأ لمظهرها المزري:

- "ماذا حدث؟".

قال لها:

- "الأولاد خرجوا من المستشفى".

هبت نسمة هواء ورفعت الستارة:

- "كيف غادرا؟ إلى أين ذهبا؟ ربما إلى الفندق".

- "سوَّى رومانوس حسابه ليلة أمس".

بقيت أماليّا مشدوهة.

- "ربما يقومان بالرحلة التي لم ننهها نحن"، قال لها.

دخلت الستارة بينهما، طارت، ألقى نديم بنفسه على الفراش ضاحكًا.

- "مستحيل!"، همهمت وحدها.

- "لماذا تجدين الأمر مستحيلًا؟ مفاجئ؛ ربما، لكن ليس مستحيلًا، إنهم شباب، ألم نفعل نفس الشيء قبل سنوات طويلة؟ استيقظت أمي في الصباح ولم تجدنا

في البيت، أتتذكرين؟".

بحثت في حقيبة يدها وسحبت هاتفها الجوال من بين شرائط حمالة صدرها، لم تجب على اتصالاتها، قلق، طوت جسدها وانحنت نحو النافذة، قفز نديم من الفراش، ترتعد أوصال ملكته، هذه المرة لن يقبل أي ذريعة ولا عذر.

همست أماليّا:

- "يجب أن نعثر عليهما يا نديم".

- "لماذا يجب؟ إنهما أولاد كبار. أخيرًا، تصرفي أنتِ -أيضًا- بنضج، أماليّا! ليس لدينا وقت، لا تدعي الفرصة تهرب منك مرة أخرى".

لم تفهم عن أي شيء يحدثها، ماذا يقول بالضبط؟ جيني تركت المستشفى وغادرت مع ابن نادية الشاب، هذا فقط ما تعرفه، هل يجب أن تسعد؟

"لا بدَّ أن تسعدي يا سيدة رالي، بعد كل هذه السنوات من المحاولة". كان الطبيب ينظر إليها برقة ويتساءل عن سر شحوب وجهها، رد فعل مفاجئ للخبر المبهج، ربما كان تأثرًا، استقبل راليس النبأ بلا مبالاة، كان ينتظر هو -أيضًا- ويخطط من أجل فيلمه الجديد، لم يكن لديه أي وقت من أجل الطفل الذي سيأتي مع حلول أعياد الميلاد، بعد مفاجأتها الأولى كانت أماليّا تسبح في بحر من السعادة، الجنين في بطنها كان بمثابة قُبلة الحياة لزواجها، هدنة جديدة، كان بطنها ينتفخ، عيناها تزدادان عمقًا، جلدها يتشقق من الثقل الثمين، كانت سعيدة، كانت فقط تشعر في بعض الأحيان تحت أسنانها بصرير الرمال، لبضع لحظات فقط، وبعد ذلك كان اللعاب ينظفها وتبرق ابتسامتها. "علَّها لا ترث شخصية أبيها السيئة"، علقت أمها بقلق ذات يوم، لكن أماليّا كانت تطمئنها "مستحيل"، "لا تفكري في هذا الأمر".

شعرت بثقل يد نديم على ظهرها، وجاء صوته هادئًا:

- "حسنًا، سنذهب لنعثر عليهما".

- "أين؟ أين سنذهب؟".

- "لا تقلقي يا ملكتي، لن نذهب أبعد من البحر الكبير".

البحر الكبير. كانت أماليّا تتذكره وإن لم تذهب إلى هناك أبدًا، بعض السحب الصغيرة ألقت بظلالها على مياهه الراكدة، على سطحه كان ينعكس مجد البيزنطيين والقلاع، سمعت صوته يلفح صخور الشاطئ، بينما صوت نديم يهدهدها، وراح جسدها يهدأ من حدة القبل.

أين سيوجد الجسر كي يهرب أندريكوس وثيوذورا؟ هل هناك نهاية سعيدة للعشاق غير الشرعيين؟ أقارب بالدم، عبرا نهر الفرات للنجاة ممن يطاردانهم.

- "وإذا لم يعبرا البحر يا نديم؟".

- "لا يمكن أن تعبر بعوضة من هناك يا حبيبتي!"، قال لها نديم وهو يضحك بمرارة.

الفرات. قوة المياه التي تجري بفخر، نبع الحياة، في الوادي المديد تطور الإنسان من صياد إلى مبدع، بذر الحبوب وبنى أول بيوت حجرية مربعة، سدود تحمي المدن من غضب النهر، حد، هيمنة قصوى، بعد ذلك العدو، بعيدًا عن المياه والريبة والخطر، العاقل الحكيم كان يضع دائمًا حدود عدله في جانب واحد، النهر منطقة ميتة، نصبت الحصون للسيطرة على المرور، السلوقيون بنوا على ضفة الفرات مدينة للقوافل، فوق الصخرة حصن منيع محاط بالجدران، جستنيان اختار أبعد النقاط شمالًا حتى يبني حصونه التي تصدت لإصرار الفرس.

اليوم النهر العميق يسير بهدوء بجوار الأطلال الصامتة، أسس الجنرالات الجدد مدنًا جديدة حيث سكنت قبائل البدو، بينما أغرقوا قرى بأكملها ليجمعوا ماءه الثمين في بحيرة جديدة، مياه مطيعة، حضارات ضائعة، قربان لري الوادي، على بعد عدة كيلومترات، مدرعات الدوريات الأمريكية تراقب بآلاف الوسائل الحدود السورية العراقية، منطقة حرب، خندق عميق، هيليكوبترات، جنود بكامل عتادهم الثقيل وذروة التكنولوجيا التي تحول الليل إلى نهار، كل محاولة للعبور تنتهي إلى حادث دموي، معسكرات اللاجئين تنبت في الصحراء القاحلة والأولاد تكبر

فـي بيـوت مؤقتـة مـع كابـوس إحـراق بغـداد والإجـراءات المدينـة، كانـت تينـا تنقـل إلـى نديم مشـهد العنـف الـذي تـراه فـي كل مـرة تـزور المناطـق الحدوديـة، التعب والحـزن كانـا يخيمان علـى وجههـا، وكان نديـم يُسَـخِّر كل حِيَلِـه كـي يغيـر مزاجهـا، فـي أغلـب الأحيـان كان ينجـح، "سـتبحث عـن تينـا"، راح يفكـر الآن شـاردًا، فكـرة أن يعود إلى دمشـق تحولت إلى أعيـن أماليّا.

- "ربما سيعودان أدراجهما"، قال لها دون أن يصدق ما قاله.

- "لكن لماذا رحلا؟".

- "لماذا رحلنا نحن بعيدًا عن دمشق؟".

قفزت أماليّا بين أحضانه.

- "كفَّ يا نديم عن وضع هذه الأفكار في عقلي".

- "**لمن كانت فكرة** إنشاء هذه المدينة؟".

توقفا أمام مدخل له ثلاث بوابات عند الجانب الشمالي للأسوار، بوابة مهيبة، أقواس ذات خطوط منحنية تستند على تيجان كورنثية، البوابة الوسطى هي الأكبر كما هو واضح، نموذج لاستعراض القوة والنفوذ، قطيع صغير من الأغنام يرعى في هدوء على بعد أمتار من المشهد المرمري المنحوت.

- "أتساءل، فيمَ كانت فائدة مدينة في بقعة كهذه؟"، أصرت جيني وهي تلف الوشاح الأبيض حول رأسها بينما تخرج من السيارة.

مع اقتراب الظهيرة تسقط الشمس عمودية، عنيفة كفارسي.

أجابها قائلًا: "عندما أُنشئت المدينة، كان مجرى الفرات بالتأكيد أقرب".

الرصافة، ثبَّت دقليديانوس[1] جنوده على حدود الإمبراطورية بالقرب من مجرى الفرات حتى يصد هجمات الساسانيين[2]، أنشأ واحدًا من أروع المعسكرات، رائعة من روائع الفنون الحربية على شكل مستطيل، لها طريقان مستقيمان يتقاطعان ويقسمان المكان إلى أربعة أجزاء، نظام بناء هيبودامي[3]، خلية عسكرية، نواة مدينة من العصور الوسطى، يوجد تخطيطها في أعماق كل مدينة غربية، حتى في آخر أطراف الإمبراطورية الرومانية الشاسعة كانت السلطة في روما تفرض الالتزام التام بالقوانين، وكانت العقوبات تصل إلى حد الإعدام، بأمر من الإمبراطور كانت ملاحقة المسيحيين التي لم تستثنِ حتى الجنود والقادة الرومانيين الذين

---

1- ديوكلتيانوس/أو كما هو معروف بالعربية باسم دقليديانوس، كان إمبراطورًا رومانيًا حكم في الفترة من 20 نوفمبر 284 حتى 1 مايو 305.

2- الإمبراطورية الساسانية: الاسمُ استعملَ للإمبراطورية الفارسية الثانية (226-651) وترجع تسمية الساسانيين إلى الكاهن الزرادشتي ساسان الذي كان جد أول ملوك الساسانيين، أردشير الأول، أسّست السلالة الساسانية مِن قِبل الملك أردشير الأول بعد هَزيمة ملك البارثيين/الفرثيين الإشكانيين الأخير أرتبانوس الرابع، وانتهتْ عندما حاول ملك الدولة الساسانية الأخير يزدجرد الثالث (651 - 632) مكافحة الخلافة الإسلامية المبكرة أولى الإمبراطوريات الإسلامية لمدة 14 سنة.

3- نظام بناء للمدن يعتمد على الخطوط والشوارع الطويلة والطرق المستقيمة التي تتقاطع بزوايا قائمة؛ وسميت بهذا الاسم نسبة إلى المهندس المعماري اليوناني القديم ميليسيوس هيبوذاموس/ إيبوذاموس، ويعتبر أبا التخطيط المدني والحضري في التاريخ، عاش في القرن الخامس في أزهى فترات العصر الكلاسيكي.

آمنوا بملكوت السماوات، إهانة ثقيلة للإمبراطورية الرومانية رباعية الأركان والحكم التي كانت فيالق جيوشها تدوس على الأراضي الأوربية والآسيوية.

سيرغيوس كان من هؤلاء الذين رفضوا تقديم القرابين لآلهة الأجداد واستشهد من أجل إيمانه بالدين الجديد، قديس، سمَّى جيستنيان المدينة على اسمه سيرغوبوليس، وأقام مملكة صارت مركزًا للعبادة لآلاف المسيحيين، دعم أسوار المدينة بتعليتها مستخدمًا الطوب والجبس من المنطقة التي كانت تتوفر فيها الرمال الكريستالية، الأبراج الخمسة والعشرون التي كانت ترتفع في المدينة جعلتها حصنًا منيعًا يبرق تحت ضوء الشمس، فكان بريقها يرمز لعظمة وسيطرة البيزنطيين أمام الأصدقاء والأعداء، دون استثناء، أضاف الإمبراطور أقواسًا داخلية على امتداد الأسوار من أجل تواصل أفضل بين الدوريات، كما ميَّزَ سيرغوبوليس بأكبر صهاريج المياه الجوفية بعد تلك التي في القسطنطينية، صهاريج طولها ستون مترًا وبعمق ثلاثة عشر مترًا، مدينة، قلعة في قلب الهضبة تقاوم العطش والفرس، تهديد أبدي من الشرق، مدينة الورع الديني التي تفتح أسوارها للعطشى من أجل الرب الجديد، قلعة مضيعة للعابرين والمصلين والفاتحين الطامحين، في النهاية احتلها الفرس وسكنها العرب قليلًا، حتى جاء سيف الغزاة المغول لينهل من دماء الأبرياء ويطمس الرصافة من على الخريطة.

كل ما بقي متروك للدمار بلا حول ولا قوة، من بعيد تكشف الأسوار عن مستقبل سيرغوبوليس، الدمار والفناء، الزوار القلائل يحومون داخلها ولا يعرفون بل يخمنون ويتخيلون شيئًا من عظمة واحدة من أولى المدن المسيحية.

- "هذه المدينة الشبح تؤثر بي أكثر من أي شيء آخر في سوريا"، قال رومانوس.

راح يُبَيِّنُ لها المكان حولهما، أينما يذهب نظرهما، الأقواس الداخلية على الجدران، الكُوَى الفارغة، وجدت جيني أن أناقة بالميرا تغيب عن سيرغوبوليس، هنا الكتل الصحراوية ضخمة ومحيط الأسوار له رائحة الأسلحة والدماء، خطوات الدوريات وعرق الرجال، معسكر، تراب سُقي بدماء الشهداء الأوائل مثل سيرغيوس

أو جنود مأجورين يحرسون قلاعًا بعيدة.

سألته:

- "وفي اليونان، ما الذي يحرك مشاعرك أكثر من أي شيء؟".

- "الميتيورا [1]".

إجابة فورية، الزاهدون اليونانيون الناسكون الرهبان الذين يسعون إلى تجاوز الحدود الإنسانية، الساعون للكمال بكل عزم، مثل القديس سيميون الزاهد، محاولة أخرى من رومانوس كي يوفق بين الوطنين، في عقله دائمًا كان يضاهي الميتيورا والقديس الزاهد الكبير من شمال حلب، هناك حيث كان عاش القديس سيميون سبعين عامًا فوق عمود يرتفع عن الأرض خمسة وسبعين مترًا، غير عابئ بالجوع والبرد والقيظ، في لقائه الأبدي مع الرب صار رمزًا، والوسيط بين الرب وجموع المؤمنين الذين كانوا يتوافدون من أرجاء الأرض ليعبّروا عن إيمانهم.

- "اليونان والأرثوذكسية؟"، قالت وهي تحاول استفزازه بشكل أكبر، وشظية من التهكم كانت تبرق في عينيها، كم يمكن لجيني أن تصبح فاتنة! "لو كانت تعرف..."، فما هو الجمال؟ فكر رومانوس، هو حقيقة كل شخص، هكذا مثلما تهرب من عينيه وتبرق ابتسامتها، بالتأكيد لا تعرف جيني كم هي جميلة! هل قال لها أحد هذا من قبل؟ راح ينظر إليها ويكتشف كم هي رائعة، بعيدًا عن قوالب المجلات والموضة، هرب شعرها من الوشاح الأبيض الذي تعقده على رأسها وسقط بدلال البلوفر الذي ترتديه على جسدها النحيل، غياب تام للتضاريس والمنحنيات، ماهذا الشيء الذي يجذبه إليها الآن؟ وهي لا تزال ترتدي نفس البلوفر غير الأنيق الذي كانت ترتديه عندما قابلها للمرة الأولى في لوبي الفندق، ما الذي تغير اليوم ويجعله يأكلها بعينيه؟ راح يتخيل جسدها تحت الصوف الخشن، يعرق.

- "ليس هناك أي علاقة بالأرثوذكسية، أتكلم عن التأثر".

---

1- تعني الصخور المعلقة باللغة اليونانية، هي أحد أكبر وأهم تجمعات الأديرة في اليونان، وتأتي في الأهمية بعد جبل آثوس، بنيت الأديرة على صخور عمودية في الحافة الشمالية من سهل ثيسالي قرب نهر وجبال بيندوس التي تقع في وسط اليونان.

- "بمعنى؟".

- "عندما تشعرين بشيء مختلف، بعيدًاعن جمال المكان، ليس له علاقة بالجماليات، ولا بالمشاعر، هناك فرق بين أن أقف مفتونًا أمام جمال وانسجام أحد المعابد العتيقة أو أستمتع بشعاع الشمس بكل مسام جسدي متمددًا على رمال شاطئ سكياثو[1]، لكن التأثر شيء آخر، هو شيء يمس الروح".

شعرت بخدر يسري في عمودها الفقري من الشهوة، وعلى لسانها بطعم مالح من جسده المبلل، لكنها قد نسيت كل الأساليب كي تأتي بشهوة كهذه، هل عرفتها أبدًا؟ كيف كانت تفعلها؟ كيف كانت الذكور القلقة تخرج الذكور القلقة من أعشاشها الدافئة التي لا تزال تحوم حولها حتى الآن؟ أي الحيل كانت تستخدم وأي كلمات؟ هل كانت نظرات؟ فقدان تام للذاكرة، وهنا أمامها رومانوس يخرج من عشه ويلقي بنفسه تحت أقدامها، تشق الذاكرة بشكل عابر نظرة ستراتوس وهو ينظر إليها وهي تقف أمام مكتب المدير. "لا يمكن أن يستمر هذا الوضع يا إيفغينيتي"، كلمة تدل على التوافق التام، وصيغة الملكية فيها.. ياللنفاق! مال قليلًا للأمام في اللحظة التي كان يترك فيها المفتاح فوق الكريستال البارد.

راحت جيني تزن بعينيها أكتاف رومانوس تحت قميصه.

- "ما الذي يحرك روحك في الميتيورا؟"، سألته وهي تخفض بصرها عنه.

- "التجاوز الإنساني،صدام الإنسان مع الطبيعة، نفس الشيء أشعر به هنا أيضًا، يزداد الأمر عندما آتي إلى سوريا".

- "لِمَ لا تجرب العيش هنا؟".

- "هنا أين؟"، سأل مندهشًا,

- "هنا يعني هنا، تحمل أغراضك وترحل من اليونان، تستقر في دمشق، هل فكرت في هذا؟".

1- جزيرة يونانية.

برقت في عينيها شظية التهكم مرة أخرى، ثمة شيء تحاول أن تقوله له هذه المرأة مجددًا، كل ما لم يجرؤ أن ينطق به ولا حتى لنفسه، أن يغادر اليونان، حيث لم يعد بمقدور أحد أن يحلم، أصدقاؤه يبحثون عن جدار يستندون عليه، في ظل البطالة التي تكشر عن أنيابها، في المكتب، الموظفون من كبار السن وجدوا أنفسهم محاصرين بنظام المعاش الجديد ويعجزون عن متابعة أوربا التي تلتهم معاشهم، أوربا القاسية المنتقمة، هربت على ظهر ثور عاشق، جميلة ومثيرة، عادت مرة أخرى إلى أرض ميلادها أكثر غضبًا وعنفًا من خاطفها.

يعرف رومانوس أنه يبحث عن المذنبين في مراكز اتخاذ القرار الأجنبية، نفس الأفكار النمطية، من الناحية الأخرى يعلنون المجتمع اليوناني ككبش فداء للاتحاد الأوربي، أسس الغرب هويته ونهضته الفكرية على إرث اليونان القديمة والأساطير اليونانية التي روت التاريخ الأوربي، العصر القديم هو فصل مشترك تعوزه الإدارة، لكن الريبة من كلا الطرفين تعود بشكل كامل إلى التعامل المختلف مع ذاك الإرث، اليوناني لم يُرْوَ من فكر أجداده القدامى؛ لأنهم في مياه إناء التعميد وضعوا زيت الأرثوذكسية، كلام الفلاسفة القوي غطته أنغام الأناشيد الشرقية.

"النظام السياسي لكل دولة يتحمل دائمًا جزء كبير من المسؤولية"، كان خاله يقول، "مهما كان قدر المهانة التي يتعرض لها الشعب اليوناني، لن يأتي التعويض من خلال خمس لجان وعشر عقوبات"، التاريخ يعطيه الحق، بعد 1922 المحاكمات والإعدامات امتصت قليلًا من ضغط المهانة الهيلينية، الانقسام الذي مزق اليونانيين تبدد كالبخار على جبال ألبانيا في النهاية، وتم إعلاء قيمة قبضة الوحدة.

"غاب بعد ذلك الشرف والكرامة عن السياسيين"، كان يقول بتروس كارافانديس، الذي صار مضغوطًا واتفق على العمل لساعات أقل في مكتبه، تسطيح الأمان الوظيفي كان ينذر بالقلاقل والتغيير، الإفلات من العقاب جاء بالفقر، كان الأمر يحتاج إلى الهدوء بشكل رئيس.

-"كما تعلم، الحل دائمًا يكون بين أيدينا، لكن ما لا نعلمه هو أين تكون أيدينا

بالضبط".

كانت تكرر كلمات دكتور أشلي.

- "ماذا تقصدين؟".

حان دوره في طرح الأسئلة.

- "نحن لا نعرف أنفسنا، هذا ما أريد قوله، نحن اجتماعيون، لكننا نتهرب من أن نرافق جزءًا منا، الجزء الخفي، الغريب، نقول إنه ليس لدينا وقت، لكننا نجد الوقت لألف شيء وشيء".

كيف يجيبها الآن؟ كل شيء قالته جيني بجملتين فقط، بالرغم من أنه في كل المرات التي فكر فيها في هذا السيناريو، كان دائمًا يحشره في آخر ركن في عقله، كان يغير رأيه في خجل؛ لأنه في أعماقه كان يعرف أن هذا الاختيار كان يحتاج إلى شجاعة وجرأة.

- "سيكون من الصعب أن أعيش هنا"، تحدَّث وحده.

اعتراف سهل، وضع يديه في جيبيه وراح يركل الحصى، ارتباك، تصحبه قوة، لا يريد أن يتكلم عن الطوق الذي يخنق بلده، عن سنوات العزلة، عن بؤس الشعب الذي يعذبه الفقر، عن الأقلية التي تشرب المياه المعدنية المعبأة، وعنالأغلبيةالمتعطشة لمستقبل أفضل.

كان يمكنه أن يحدثها عن الوضع الحرج الذي يسحق الحريات السياسية، عن الزعيم الجديد والأمل الذي يختبئ في نظرته الرصينة، الأمل في أن ثمة شيئًا سوف يتغير، شيء جديد يبشر به هذا الرجل الذي يوحي به بابتسامته الواعدة، يشعر رومانوس بالفخر لوطنه عندما ينظرمن نافذة الأتوبيس السياحي وعندما يعد نظرات الإعجاب على وجوه الزائرين، يمسك به بين يديه ويقشره بكل فخر ويبين ماضيه ويتوق لتصفيق اليوم، لكن إلى ماذا تسعى سوريا اليوم؟ دور جديد في المنطقة، حامل راية الهوية العربية، بأي قدر يكون رومانوس سوريًّا، وبأي قدر

تكون سوريا هي وطنه؟ بالتأكيد لن تفهم جيني أبدًا لماذا لا يجرؤ أن يفعل ما تقترحه عليه .

سألته دون أن تعلق على اعترافه المفاجئ:

- "وهل من السهل أن تعيش في اليونان؟".

وطنهما المشترك! يمكنه أن يتكلم عنه قدر ما شاء، وعن أبناء هذا الوطن، ذات مرة كتب قائمة طويلة بكل السمات اليونانية التي تضايقه، هدَّأته نادية، هي التي عانت كي تمنح أبناءها أفضل ما يمكن من كلا الشعبين، كافحت كثيرًا لكي تتسع الحكايات والأساطير للمبادئ التي تقطر من كل ثقافة وتميزها. "أنت -أيضًا- ذيوجينيس!"، كانت تقول له، بطل ولد من امتزاج بين جنسين، مقدر له أن يحارب من أجل السلام والتسامح، فضيلة التسامح نحو كل ما هو مختلف، يدور في تلك الملحمة في القرن العاشر، صارت عصيرًا كثيفًا وسميكًا تغذى به شيخها الصغير الذي كان يجاهد من أجل أن يجد وطنه الشخصي، الوطن هو حيث تعيش حرًّا. "الحرية رفاهية، الشعوب غير الحرة تسير مطأطئة الرأس، لا يرون من بجوارهم، فكيف يحترمونه؟" الحديث المشاكس للخال نديم شرح براءة رومانوس الشاب، الذي قضى فترة مراهقته يطارد العناصر المتشابهة بين وطنيه، كان يسعى إلى هوية متجاوزًا التناقض في أنه بينما كان مشبعًا بإرث وطن من الوطنين كان يجب أن ينظر نحو الغرب، كانت عقلانيتها تصطدم مع مشاعر جذوره المتوسطية، بقي رومانوس معلقًا.

- "في اليونان عائلتي"، أجابها بينما سمعت صوت اقتراب وحش الغيرة.

هجم فوقها أسود مفترس، كان له وجه رومانوس ولسانه الحاد يلعق أذنها، تذكرت جيني نظرة نديم الرقيقة نحو ابن أخته وراح حسدها يتضخم، على استعداد أن تدفع كل مالها ويزيد كي تحظى بنظرة كتلك النظرة من الخال نديم! رومانوس لديه أبواه، إخوة، أخوال وأبناء أخوال في قارتين، في الشرق وفي الغرب، كان لديه رفاهية ارتباك اتخاذ القرار، أين سيكون أكثر سعادة، ياله من ولد!

هـي لـم تكـن لهـا عائلـة، فقـط أمهـا التي تسـير علـى حبل مشـدود كلاعـب أكروبـات، كيف تهتـم لأمرهـا والفـراغ يتربـص بهـا فـي كل خطـوة؟ تسـعى بلهفـة إلـى الأمان فـي شـبكة النجاة، كتلـك التـي سـحبها مـن تحتهـا بعنـف ميخاليـس راليـس، مـن سـيفرد لجيني شـبكة كهذه؟

- "وهنا لديك عائلة، أخوالك، وأبناؤهم".

- "ليست عائلتي فقط"، قال رومانوس.

- "مـاذا غيرهـا؟"، سـألته وقـد اكتسـبت الغيـرة والحسـد طعمًـا لاذعًـا في فمهـا، عطـرًا ثقيلًا، نسائيًّا.

- "أنت أيضًا، تعيشين في أثينا".

نظرت له باستفهام، انحنى قليلًا نحوها:

- "هل تستطيعين العيش هنا؟".

صوت ضربات قلبها المكتوم أصابها بالشلل، لكنها تحملت.

- "السـؤال مجـازي"، قالـت لـه: "مـع مـن تعيـش، هـو الأمـر الـذي لـه أهميـة قصـوى ولـه الأولويـة، أيـن تعيـش يأتـي في المرتبـة الثانية، إن ما أراه فـي الأيام الأربعة هـذه أنك تحب هذا البلـد كثيـرًا، وتنقل هـذا الأمـر لغيرك".

إجابة تحمل تلميحات، إيجاب خفي.

لـم يجـرؤ أن يقـول لهـا إنـه يُظهر لها الجميل فقط، الأشـياء القشـرية سـريعة الهضم، الأشـياء التـي تبـرز فـي الملصقـات الدعائية السـياحية، مجـد الزمن الماضي، سـيود لـو رأى رد فعلها أمام مخيمـات اللاجئيـن والغـرف الضيقـة الفقيـرة فـي جرمانـة، فـي الزنازيـن حيـث يتعفـن معارضو النظـام وفـي القـرى الغارقـة في وادي جـرف القمـر، ذاكرة غارقـة، مختنقة.

سـيغير اتجاهـه مباشـرة، سـيذهبان شـرقًا، فـي البدايـة نحـو بحيـرة الأسـد الأب ومـن

ثم شمالًا، على حدود العراق وتركيا، على أثر جاين ديجبي نحو نينوى، ليقابلا النهر الكبير، فهمت لماذا كان يتجنب أن يأتي إلى سوريا كل هذه السنوات مع كاتيا أو مع زوي، كان يجب أن يكون أمينًا معهما، كان يتوجب عليه أن يبين لهم كل ما يؤلمه، كل ما يوجع ذيوجينيس الفخور.

دخلا إلى بازيليكا القديس سيرغيوس، ثلاثة ممرات تعتليها الأقواس بالطبع، أعمدة وردية وحجارة من المنطقة عليها آثار أختام يونانية على رؤوسها، آثارها غارقة في الزمن، في عمود المنتصف، درجة دائرية مرتفعة، سرة البازيليكا، جلسا إلى جوار بعضهما، الجدران المتهالكة تلقي عليهما ظلالها، عطشت جيني.

- "لماذا جئتِ إلى سوريا؟".

- "لم يعد شيء يبقيني في أثينا"، أجابته وهو يرفع كتفيه.

- "ممّ أردتِ الفرار؟".

- "من كل شيء...".

- "أمِنْ رجل؟".

- "بل من رجال كثيرين".

لم يكن في ذهنها غير ميخاليس راليس فقط.

- "وعملك؟".

- "بالأخص من عملي، استقلت".

جاءت إلى ذهنها كلمات جاين ديجبي اليائسة.

*بعيدًا عن الرجل، العائلة، الأصدقاء، الوطن، وحيدة، غريبة في بلاد مظلمة.*

- "وماذا بعد؟"، سألها مجددًا.

- "بعد؟ بداية جديدة مرة أخرى، ألا تدري؟".

- "لا أدري عمَّ تبحثين".

نظرت إليه باستفهام، هي على ثقة من أن رومانوس يتظاهر بأنه لا يعرف، وإلا فكيف يكون له رأي ساذج كهذا؟ تراجعت يائسة، عمَّ يمكن أن تبحث امرأة تمت خيانتها مرارًا وتعيش في بلد على وشك الانهيار؟ ولو حدثته عن عذاب الأمهات، لن يفهمها، فرومانوس يعيش حياته المرتبة ويسافر ليقدم خدماته بحرفية فائقة إلى سيدات مثل أمها، رحلات تمنح الحياة لحيوات رفعت راية الحداد، قبل قليل من إنزالها، مثل حياة جاين ديجبي، إلا أنها مددت الهوامش، صارعت غبار الصحراء والهضبة، لم يكن لديها خيار العودة، رومانوس لديه حياة تنتظره، أي تردد هو محض وهم، تهاون للأمان، يحبونه وهو يعرف، وهذا يصبح بمثابة صمام أمان له، ثم إن لديه رفاهية الانقسام.

حل صمت القبور حولهما وقبع فوق المدينة وإن غاب الأموات، كانت تشعر بأنها ميتة، جثة يطوف بها رومانوس في المقابر حتى يجد المكان المناسب ليحشرها فيه على حين غرة، ماذا تفعل جيني تائهة في أعماق سوريا النائية؟ أي أمل يطاردها؟ جرفها التفاؤل من بداية الرحلة إلى بالميرا ثم اختفى، أرض متآكلة مثل سيرغوبوليس، بالتأكيد حدث شيء ففرغت الحياة من المدينة، هل نضب الماء في الصهاريج الضخمة، أم أن جنود المدينة الكبرى انشقوا وانضموا إلى العدو؟ هل نضبت رحمة الرب وإيمان المصلين؟

- "عمَّ أبحث؟ التأثر. ألم أكن أتحدث عن هذا قبل قليل؟ لكنني لا أبحث عنها في أماكن".

سحبت جيني الوشاح على رأسها، أضافت:

- "أنا عطشانة".

كانت تود أن تقول: "أنا وحيدة، هجرني صديقي المتزوج، وأبي لا يعبأ بحالي على الإطلاق، أقترف أخطاء تصيب أمي بالرعب، يهرعون بالفرار فور أن ينزعوا عني سروالي، أشعر بالوحدة، وحدة كبيرة".

سـمع رومانـوس هـذه الجملـة الأخيرة، همسـة أم صرخـة، نفس الشـيء، مد ذراعـه ليعانقها، كانـت قبلتـه مفاجئـة، مليئـة بالإثـارة، أصابتهـا بالدوار، انحسـرت مفاجأتهـا طواعية، استسـلمت، وهـو راح يبحـث فـي فمهـا عن عشـق مُدخر، لمسـات دنسـة، في مـكان مقدس، كنيسـة بلا قبة، بيت للحـب، كامل.

**التوجه شرقًا**، الطريق مستقيم، حاد كسكين يقطع الصحراء نصفين، الضوء الساطع ينعكس منحرفًا على الرمال الحمراء، في العمق تبدو دوامات رياح ضعيفة ترتفع على استحياء، يقود نديم السيارة مفعمًا بالبهجة، يشعر دائمًا بالسعادة حينما يسافر، ويشعر بسعادة أكبر عندما تكون الرحلة مفاجئة مثلما يحدث اليوم. أدمن التنقل منذ كان صغيرًا، تغيير المنازل والمدارس والمدن، كل اعتماد دبلوماسي لأبيه كان يصحبه انقلاب في حياتهم، ترتيب للخزانات والأدراج، الملابس مكومة في أكياس، كتب للإهداء، أشياء غير مفيدة للقمامة، كانوا يعيشون لقليل من الوقت بعلامات على الجدران من أثر اللوحات التي كانت تعلقها وتصنعها وحدها أمه، بالنسبة لرينا كانت طقسًا شاقًّا يعني إعادة بناء حياتهم بالكامل، بعد ذلك كان المنزل يمتلئ بالعمال الذين يجمعون كل ما يجدون في طريقهم ويلقونه في صناديق، يتحول منزلهم إلى صناديق مرقمة، إلى أن يوجد منزل جديد، كانت الزيارات إلى دمشق بجوار الجدة، كلمة الانتقال كانت تعني الاضطراب والارتباك في حياة كل أفراد عائلة بهلسي.

بعد ذلك كانت تبدأ رحلات التنظيم ورحلات العودة، خيوط الذاكرة مشغولة مع الشوارع والمطارات، العودة إلى بيت العائلة أو إلى صالونات السفارات الرسمية، إعادة التزود بالحب والحنان المفتقدين من الإقامة في المدارس الأجنبية المغلقة، رحال بالإكراه يتطلع دائمًا للعودة إلى جذوره، ثم بعد ذلك، فاتح للعالم، منفي يحنُّ إلى روائح الميلاد، يعود إلى هذا البلد الذي بقي في الخلف، بين البحر الكبير والنهر الكبير، يجده في انتظاره دائمًا كي يضمه بين طيات الصحراء ويسقيه من حليب نوقه ويغسله بنور نجومه.

ليس أكثر من حصاة على شاطئ البحر الكبير نحتتها المياه وتتشبث حتى لا يجرفها التيار، حجرة صغيرة للنظام، تعايش وتسامح للسلطة التي تفرض العدل للأقليات، كان قدره وطنًا صعبًا، تحمل بعيدًا عنه وغسل يده مثل بيلاطس

البنطي[1]، لكنـه عندمـا كان يتطلـع لنجـاة روحـه كانـت تكفيه رحلة نحو الشـرق، لحظـة ينحني فيهـا فـوق سـطح البحـر الكبيـر، آنية للتطهيـر، رائحـة النقود منبـوذة، عقل العـذري القذر.

يحـوم حـول الهـدف، ألقـى نظرة نحـو أماليّا بجواره، مـدَّ ذراعه ليلمسـها، فاض بداخله شـيء سـاخن، مهـدئ، يفـرد خلايـا الخيوطلبكـرة الخيـط المعقـدة التـي تـدور بداخلـه فيصبـح عملاقًـا تملـؤه البهجـة وتفيـض، وهـو يقـود سـيارة صغيرة لا تناسـب حجم مـا يحملـه بداخله.

نامـت أماليّـا، ابتدعـت مخرجهـا الخـاص مـن الإصابـات العاطفيـة، غيـاب إرادي مـع سـبق الإصـرار والترصـد، مالـت قليـلًا برأسـها وبقـي فمهـا نصـف مفتـوح، غـرور مهجـور مؤقـت.

المـدة الزمنيـة لهـذا المؤقـت التـي دثـرت عشـر سـنوات مـن الحياة بشـكل لحظـي، أفضلها، كـي تتجنـب نظـرة ابنتهـا. "ماما، هـل أنـتِ نائمـة؟" بالتأكيـد نائمـة وتحلـم برحلـة أندريكـوس وثيـوذورا، فـي صحوهـا كانـت تتجـرع مـرارة الطلاق، تمرمـرت هي نفسـها من الداخـل والخارج، رائحـة سيئة فـي الفـم، فـي البيـت، وفـي الهـواء حولهـا، الحنـق والغضـب اللـذان لا يهـدآن إلا بالنـوم فقـط، هـروب مـن الواقـع. "هـل أنـت نائمة يـا ماما؟"، فتحت عينيهـا فقابلت فـي نظرة عينـي ابنتهـا الزرقاويـن وحـزن نديـم وهـو يودعهـا في دمشـق، عينـا الصغيـرة البريئتـان تغلقان علـى الكذبـة التـي غزلـت بهـا نسـيج حياتهمـا، امـرأة عنكبـوت علـى أحـد أركان السـقف، علـى الهامش.

الآن تحـت أسـنانها صريـر الرمـال، سـاخنة وطريـة، مطمئنـة كحضـن نديـم! ليلة أمـس كانت تبتلـع مـع ريقـه حبـات الرمـال، مثـل تلـك التـي تغلي فـي عنقها، آثـار ذنب لـم تبصقـه، قراصنة الذاكـرة العنيـدة بقـت هنـاك تحـت لسـانها، حبـة رمـل هـي، يدور بهـا الهـواء وهي فـي دورانها تتـرك نفسـها لعنـاق نديم فـي الفراش.

---

1- بيلاطس البنطي (باللاتينية:Pontius Pilatus)، ولد في 10 قبل الميلاد، كان الحاكم الروماني لمقاطعة أيوديا أو «اليهودية» بين عامي 26 إلى 36، وحسبما هو مكتوب في الأناجيل الأربعة المعتمدة من قبل الكنيسة، فإنه قد تولى محاكمة المسيح، وأصدر الحكم بصلبه.

تقريبًا هكذا كانت ستشعر جاين ديجبي وهي تطلب شيخها في الصحراء، قرأت أماليّا عن حياة الليدي في المنشور الدعائي الذي أرسلته لها نادية، شعرت بالتوافق والعطف نحو هذه المرأة التي كانت تسعى إلى العشق بإصرار، حتى في ذلك العمر، آخر دفقات الرغبة، الانعكاس الأخير للغرور الأنثوي في عيني الشيخ.

لم تكفَّ الإنجليزية عن طلبه حتى النهاية، ما هو الشيء الذي أبقاه بجوارها حتى الموت؟ رغم فارق العمر بينهما. عامَلَ ميتزول جاين برقة جينتلمان وكان يراعي إخفاء خرقه لاتفاقه معها حتى لا يجرحها، زوجاته الأخريات كن مراهقات تقريبًا، كن يعشن في الظل، في مكان بعيد في الهضبة، وتركنَ لها وحدها حق لقب السيدة الأولى، لكن ماذا يفعل اللقب عندما كانت تلمس على جلده لمسات نساء أخريات؟ خنادق تحت أصابعها غير محسوسة إلا لها، آلام مخاض كل تلك الولادات، فقد أنجبت ستة أولاد، لم تكن شيئًا أمام ألم الخيانة، ابتلعته بفخر، كانت تعرف أن بشرتها البيضاء الرقيقة وشخصيتها العنيدة الفخورة يفتنان الشيخ، أوربية نقية، "جملته المفضلة"، غنيمة ثمينة تزين شهرته، قوة ثروتها، التي كانت تترجم إلى أسلحة، وحيوانات وتأثير على السلطات العثمانية. كانت تمنح ميتزول القدرة أن يتعامل بأمان مع أمور قبيلته، الحكام المحليون كانوا يتعاملون بشكل مختلف عندما كانوا يستقبلون الإنجليزية الفارعة الطول، مدعوة على طاولة كل قنصل بريطاني في المنطقة، كانت تحمل على كتفيها غرور بلدها بتناسق لا تشوبه شائبة مع الزي الأصلي للسيدة الميزراب، كان الأتراك والعرب يغمزون بعيونهم بمكر ويعدون الجنيهات التي تنفقها جاين إثر مرورها، مؤمِّنة بذلك ولاءهم ومحاباتهم.

المال دائمًا يفتح الطريق، يُنفق ليخدم مصالح الأقوياء اللصوصية في كل أركان الأرض. كان الإنجليز دائمًا يطمعون في أملاك العثمانيين الشرقية، تجارًا كانوا أو قناصل وأثريين ورسامي الخرائط والرسامين والأدباء، كل أنواع الوكلاء المختبئين تحت قناع العلماء والرحالة المحتشدين في مفارق طريق القوافل يبحثون في آخر مناطق الإمبراطورية الواهنة عن وسائل كي يؤسسوا لمصالحهم، كانت جاين تستقبل في منزلها في دمشق أحيانًا بترحاب حقيقي وأحيانًا أخرى بصبر وثبات

ودأب رحالة من أوربا كانت تبقي نواياهم وخططهم المظلمة مخبأة بين طيات دفاتر رسوماتهم ويومياتهم، كانت تتطلع إلى تواصل مع الوطن الذي تركته خلفها، حنين لا ينضب، في تلك المقابلات العشوائية كان ضيوفها يستغلون الفرصة كي يشبعوا فضولهم عن الجميلة المنفية، الأسباب الحقيقية للنفي كانت قد نُسيَت بالفعل، فلم يعد أحد يتذكر اللورد إلينبرو وفضيحة طلاقهما، لكن كان الجميع لديه ما يقوله عن رجولة البدوي الذي يرافق جيني الآن في حدائق دمشق، أسطورة، في وعي الناس كانت الصيغة السعيدة المزيلة للقلق، الشرق الغريب يتبدل في مشهد فاتن يدفع للتجوال وتجاوز الحدود والرحلة إلى المجهول تصبح غاية للانتعاش والتحرر، كان هذا هدف أماليّا الخفي، المحاولة الأخيرة لتلحق بالملاءة العنكبوتية التي تزحف فوقها.

خارج نافذة السيارة كانت الصحراء تنحسر شيئًا فشيئًا مثل الجَزْر، حقول مليئة بنباتات ربيعية قصيرة وأشجار بأوراق طازجة تشيع اللون الأخضر في المكان، الطين والغبار أعطيا مكانهما لتربة سميكة تُسقَى من شرايين جوفية، دائرة الأفق تُغلق أغطيتها الخفيفة، بينما البيوت الفقيرة والحدائق العشوائية تشهد على الوجود البشري، إقامة دائمة، حيوات مزروعة ومروية من الخامة الثقيلة للنهر الذي يجري بهدوء على بعد كيلومترات قليلة.

نديم يغني مدندنًا، تتركه يلمسها بين الحين والآخر برفق، لقد مرت سنوات عديدة على موت دايف وقد افتقدت للمسات الحنونة، على الأقل ولو متأخرًا استقبلت تأثير الصداقة الأنثوية، فعندما كانت شابة لم يكن لها أصدقاء، الشك كان يخرق عقلها ويأكل أحشائها كدودة؛ لأن كلهن كُنَّ إغراءات تحت الطلب بالنسبة إلى راليس، غيرة. بئر عقيم عميق ليس له قرار، كانت تسمع صدى صوت الوحدة يتخبط على الجدران، كانت تشُم رائحة الظمأ.

عندما مات دايف، بحثت أماليّا عن صديقات، انضمت إلى جمعيات ومجالس إدارات، كانت تشارك إيفيلين وسوزان النزهات الصباحية في المحلات وتقضي معهما مساءات الشاي في أيام الآحاد، الغرف وتجارب السفر، كانت كل منهن ترى

في الأخرى بشائر نهاية الحياة، وفي كلهن معًا الخروج، نادية كانت الاستثناء، فذكريات الطفولة وفترة المراهقة كانت تقوي من ترابطهن بحبل الحنين السُّري الذي لم يقطع وكن يحافظن عليه في وضع التجمد، كانت ترى كل منهما الأخرى الفتاة الصغيرة في سان جوزيف، الحيوية والتطلع للغد، كانت تصل بهم الأحوال أحيانًا إلى درجة حرارة الغرفة، والعائلة كانت تتولى أمر تكسير الجليد على السطح، نفس الشيء يحدث مع نديم، يروح ويجيء في حياتها كالهواء.

- "كم من الأولاد أنجبت جاين ديجبي؟"، سألته، فوجئ نديم.

- "هل تعلمين أنتِ -أيضًا- عن الإنجليزية المجنونة؟".

- "أمور من هنا وهناك، كنت أقرأ كل ما ترسله لي نادية".

- "فهمت! هناك بعض المبالغات في القصة، تلفت النظر بسبب عشقها للشيخ ولأنها بقيت في دمشق حتى وفاتها، هناك أوربيات أخريات وصلن إلى هذا الحد، لكنهن تراجعن".

- "أخريات؟".

خلال القرن الـ 19 كان أفضل طريق منظم يصل بالرحلة حتى شواطئ آسيا الصغرى والشرق الأوسط فصارت موضة[1]، كان الأرستقراطيون والنبلاء من أوربا يتوقفون أولًا في إيطاليا واليونان، كما يتفق مع نشأتهم الحضارية، حج إلى أوطان دانتي وسوفوكليس، التي طلت الفترة الرومانسية باللون الوردي، كانوا يلتقطون أنفاسهم ثم يغوصون في البحر المتوسط منأجل المغامرة الكبرى، وبعد سفر أيام، فِتنة الرحالة بالشرق الساحر كانت تنتصر على نوبات دوار البحر والإسهال التي كانوا يصابون بها وكانوا ينزلون بحماس في إستانبول وعلى السواحل الأيونية الفينيقية العتيقة.

كانت الرحلة إلى داخل البلاد تستغرق ساعات، من داخل أماكن مجهولة، في

1- شركة «توماس كوك» السياحية قامت بأول رحلة في عام 1869، سعر الرحلة آنذاك كان يتضمن مرافقًا-مترجمًا، وأطعمة وفقًا لعادات الطعام للزبائن.

شوارع وعرة كانوا يجربون قواهم على الاحتمال وقوة أقدارهم، أماكن وأطلال لمدن عتيقة كانت تنتظر المحتلين الجدد، السكان المحليون مندهشون كانوا يحيطون قوافل الرحالة ويلمسون ثيابهم وشعورهم الشقراء، قدموا لهم الماء والخبز ثم تركوا فراشيهم مثل زر التصوير في الكاميرا الفوتوغرافية، راحوا يُخلدون تعبيرات الوجوه والملابس والابتسامات، مالَ آخرون على الزهور والنباتات البرية، أو ركزوا تركيزهم على التفاصيل التي راحوا يعدونها على الأعمدة أو الأعمدة المنحوتة بالزهور والأختام المنقوشة، بالنسبة لهم كانت الرحلة هي الأهم، الطريق المسدود في حيواتهم كان الدافع لتغير الدفة، كل من كان لديه رفاهية الهروب، كان يؤجر سفينة أو جملًا ويترك نفسه للأوديسية.

الألمانية إيدا فون هان-هان، الفينيسية إيدا فايفر، الليدي الإنجليزية إيستر لوسي ستانهوب، سافرن من اليونان إلى فلسطين، وصلن حتى بغداد، وحدهن، أخريات، مثل الليدي مونتاجرو والألمانية روزا فون جيرولد، سافرن مع أزواجهن، ودوَّنَّ انطباعاتهن في مراسلات ويوميات عن الأماكن والناس، لكن جاين ديجبي فقط هي من صارت أسطورة؛ لأن قصتها كانت تحتوي على العشق والجنس، فضائح، يخلط الكثيرون بينها وبين الليدي ستانهوب، التي عاشت هي الأخرى في بالميرا وأحبها البدو كثيرًا، البعض يؤلفون عنها حكايات بوليسية، واحدة منهن قتلت زوجها الإنجليزي بمساعدة عشيقها البدوي، لكن إيستر ستانهوب كانت بلا عشيق، على الأقل في الفترة الذي عاشتها في بالميرا، ثم إن ديجبي لن تدخل في عناء ارتكاب جريمة.

- "كانت تهجر أزواجًا، عشاقًا وأولادًا بنفس السهولة، ولأصغر الأسباب".

- "نعم، قرأت عن هذا، تركت أولادها لدى عائلات حاضنة بلا تردد، كم كان لديها من الأولاد؟".

- "أعتقد ستة أولاد".

- "كانت جاين تلد ثم بعد ذلك أحد الأزواج كان يعترف بالولد".

صوت نديم كان يخفي نبرة سخرية وتهكم، يصعب على أماليّا الابتلاع، كلماته قطع من الزجاج تقف في حلقها، أين ذهبت حبات الرمل التي كانت تختبئ تحت لسانها؟ بيت الرمال الدافئ، الزجاج يجرح ويؤلم، كم كانت أجمل قصة أندريكوس وثيوذورا! كان العشق يلقم بطنها، لكن الأولاد كانوا بجوار أبيهم الحقيقي، وإن عاشوا منفيين ومطاردين، كانوا كلهم معًا! نواة صغيرة، أسرة مكتملة العناصر.

- "أليس الأمر مضحكًا؟".

- "كانت المرأة تنام مع رجل وتصحو مع آخر".

ضحك نديم الساخر لا ينجح في إمتاع أماليّا.

- "لم أكن أعرف أنك رجعي، يبدو أن أفكارها تضايقك".

- "مهلك يا أماليّا، أنا لا أتحدث عن العلاقات الحرة، أنا وأنت نعلم.. لكن ماذا حدث لغريزة الأمومة؟ أين ذهب في حالة الليدي؟".

- "هي ليست الوحيدة، هذه الأمور تحدث في أيامنا".

- "أنا لم أحبها أبدًا، تخلت عن أبنائها.."، الغضب غير من نبرة صوته، ضم جفونه، خداه يرتعشان، على شفتيه تتعلق شكوى الطفل الذي كبر بعيدًا عن عائلته، في إناء زجاجي فاخر، محكوم عليه بالنفي في المدارس الداخلية، ما زال يعاني هذا الرجل الكهل، تجاعيد الضحك والسخرية استحالت إلى دروع يخبئ خلفها حساسيته، يجمع في داخله الرهافة آملًا أن ثمة أحدًا هناك، لا يمكن، ثمة شخص سيشم رائحة الربيع الأبدي الذي يحمله في داخله، عطر ثقيل مخلوط بالياسمين واللَّيْلَك ومسك الليل، عطر فواح للغاردينيا والزهر السوري، عطر يصيب بالدوار لا يحتمل ويعبق في المكان الضيق للسيارة، تصير ثقيلة بشكل مُهدد، أماليّا تختنق، الهواء يقل، لا تجرؤ على فتح النافذة، فربما تجرح رفيقها الطفل، ومثل الضيف الذي يقاوم السعال والكلام والنظرات بينما عينه متسمرة على باب الحمام، مستعدة للقيئ على الأريكة.

- "لا يمكن أن تحرم ابنًا من أبيه وأمه وعلى الدوام طبعًا"، ينهي نديم كلامه وقد بدا على صوته التأثر.

تهمة ثقيلة، جريمة مع سبق الإصرار، هذا ما فعلته هي نفسها، نامت مع رجل آخر، وأبًا آخر أعطت لابنتها، تخفي أماليّا وجهها بين كفيها، تشعر بالحشو الصناعي لعملية التجميل ينهار من على وجهها، يفرغ من الهواء مثل مظلة القفز ويتهادى على التراب، رعب! لا تريد أن يرى نديم أو يشك بشيء مزيف في شخصيتها، احتيالها، مزيفة، تحمل ذنب تخليها عن حياتها، كيف تعترف بكل ما كان ضائعًا في مخابئ خفية في عقلها؟

- "هل يمكن أن نتوقف قليلًا؟".

تستعيد سيطرتها على نفسها، تفتح باب السيارة وتخرج وهي تتنفس الهواء الطازج بارتياح، شهيق عميق، بطيئة، أنفاس عميقة، ستعد حتى رقم عشرة، وهي تحتفظ بالهواء في جسدها، تعرف.. كل ما تأمله هو ألا تواجه نظرته الاستفهامية، تلك النظرة الزرقاء، الممتلئة الغزيرة بعشرات الأسئلة تحوم في سمائها، مثل المقلتين الزرقاوين، ولكن، يبقي الأزرق هناك، يفيض في عينيها، لون عميق، يبرق تحت ضوء الظهيرة.

ثابتًا ثقيلًا ومهيبًا يقف تحت قدميها نهر الفرات، يجري بلا صوت، تيار داخلي ينجرف، ذبذبات غير مرئية تحرك الجسد المائي تاركة سطحه ثابتًا بلا حركة، يمكنها أن تسير عليه، هل هذا هو الفرات؟ عملاق هادئ، يسيطر تمامًا على قاعه، يجر ببطء طياته الرقيقة، استراحات الأرض الخضراء، التي تمتص بنهم حضوره الحيوي، حقول وبساتين، وهدوء ثقيل يُقطع من الحركة الطفيفة للطريق الريفي.

- "لقد وصلنا بالفعل!".

قالت أماليّا بدهشة، المحطة النهائية، ربما تكون بداية رحلة أخرى، مثل ثيوذورا في الحكاية، تقف أمام النهر الكبير، عند المخرج، الضفة المقابلة تَعِدُها بأرض جديدة، ربيعية وأكثر رقة، خلفها وحوش لا ترحم، تتبعها الذكريات والذنوب

الشاحبة خطوة بخطوة، منهكة من المطاردة الأبدية، ثقيلة من الأجساد التي التهمت لسنوات طويلة، تسمع تأوهاتهم، تقوم أماليّا بآخر خطوات مهزوزة قبل أن يلفح الماء أقدامها، "وصلنا"، كررت في نفسها، الخطة التي صمماها هي ونديم تُنفَّذ أخيرًا، في المرة السابقة في بالميرا لم يلحقا، تراجعت واستسلمت إلى العدو، الآن؟

- "افعليها!".

سمعت صوته يأتي من خلفها لعوبًا مليئًا بالتلميحات وتضامن الرفاق.

عيناها تطوفان بالفعل في النهر الأزرق وقد امتلأتا بلونه، لا تتعجل أماليّا، الأصابع تلعب بأزرارها، الوجه يلتفت إليه، شمس الظهيرة تغمر الوجه والصدر والبطن، بطنها يسقط شيئًا فشيئًا على الحجارة دون أن يحدث صوتًا، بلا حياء، ثم في النهاية خلعت حذاءها.

**طيلـة الطريـق** لـم تتوقـف جيني عـن الكلام، وكأن كل لمساته لـم تفتح كل بوابات جسـدها فقـط، ولكـن كل بوابـة خفيـة فـي عقلهـا، صوتهـا خفيـض، بـه مسـحة تكلـف، معـانٍ واضحـة، أحـداث دقيقـة، حكـي عـن حياتهـا مثـل تأريـخ طبـي، المشـاعر خفيـة، لكنهـا موجهـة، جاهـزة لتخنـق بقوتهـا كل الحكايـة، تفاصيـل سـيرة ذاتيـة، تتحـدث ونظرتهـا مرشـوق في الشـارع، وكأن الماضـي الـذي تسـرده مكتـوب على الأسـفلت ويفرد أمامهـا، تتوقف بين الحين والآخر لا لسـبب أكبـر مـن أن تعطيـه الفرصة كي يسـتوعب تماسـك الحبكـة، عجينة نصف مطهـوة، مبللة وثقيلة، عسـيرة الهضم.

سـلكا الطريـق نحـو الرقـة، آخـر مركـز تجـاري فـي طريـق الحريـر، قبـل أن يفتـح علـى مدى اتسـاع ميسـوبوتاميا، بناهـا السـلوقيون وعاشـت نهضتهـا العربيـة فـي القـرن التاسـع عندمـا بنى الخليفـة الرشـيد جـدارًا مزدوجًـا وأبراجًـا مسـتديرة ترتفـع إلى ثلاثة وخمسـين مترًا، ميـاه الفرات تغلـي فـي الخنـدق الكبيـر، تِنيـن يحمـي نبـض المدينـة، يغلـق عليهـا ويحميهـا مـن تهديـدات التجـارة والقوافـل التـي عاشـت مـا يربـو على ألـف ليلة وليلـة تحت نجـوم سـمائها، حتى وصول المغـول، ومـن حينهـا لـم تعُـدْ المدينـة لسـابق عهدهـا، مدينـة الاضمحلال.

انحرفـا بالطريـق وسـلكا طريقًـا نحـو بحيـرة الأسـد، توقـف رومانـوس أمـام بوابـة الحراسـة حيـث كان يجـب عليهمـا أن يشـهرا جـوازات السـفر حتـى يدخـلا إلـى محيـط السـد، وشـعرت جينـي عاريـة تقريبًـا عندمـا سـقطت عليهـا نظـرات الجنـود الشـهوانية، وكأن العسـكر قـد رأوا قبـلات رومانـوس علـى جلدهـا، انحنـت كـي تخفـي خجلهـا الذي اشـتعل علـى وجنتيهـا. لمحت بطـرف عينيهـا حـذاء الحـارس الـذي يتصفـح جـوازات السـفر، داخـل كابينـة الحراسـة هنـاك أريكـة مهترئـة، مـن داخـل زجـاج السـيارة المغلـق، شـمت جينـي رائحـة العـرق مـن على سـترة الجنـدي وسـمعت صوتـه، حـروف حـادة ومجهولـة خرقـت آذانهـا، يتبـادل مـع رومانـوس بعـض الكلمـات الأجنبيـة غيـر المفهومـة، وحينهـا جـاء السـؤال الخطير الذي يـدور داخلهـا، هل يمكن أن يكـون رومانـوس واحـدًا منهـم؟ لـو أن أمـه لـم تَبْقَ فـي اليونان، لو عـادت لتتزوج في سـوريا،

عندها لربما كان هو ذلك الشخص الذي يفحص وثيقة سفرها، بأيدي الجندي الخشنة، بغرور السلطة المفضوح، بالفضول المريب والنظرات المختلسة. "إلى أين أنتِ ذاهبة؟"، فكرت جيني وأحكمت ربط الوشاح حول كتفيها، اختلج ثدياها تحت القماش الخفيف عندما تذكرت تأوهاتها عندما ولجها رومانوس، هناك بين أطلال البازيليكا، فوق رخام منصة الاعتراف، "لا. لا. لا..." قَطّر رومانوس في أذنيها ذنوب واتفاقيات حياته المرتبة كأوراق مهملة تكومت حولهم "لا. لا..." ذريعة قوية، ألعاب نارية غير مرئية، نهارًا وليلًا.

وجه رومانوس التحية إلى الجنود وهم بدورهم ردوا على تحيته بطريقة عسكرية، سألته:

- "إلى أين نذهب؟".

- "سأريكِ البحر".

- "أي بحر؟ لماذا؟".

- "كي تلقي به كل ما كنتِ تقولينه حتى الآن".

- "جوازات السفر؟".

- "سنأخذها في طريق عودتنا".

"بلا هوية..." فكرت جيني، "إلى أين أذهب بلا أوراق في هذا المكان المجهول؟"، عدم الشعور بالأمان الأبدي يسيطر عليها مجددًا، خمن رومانوس نظرتها:

- "اهدئي يا جيني، أنتِ في أمان أكثر من أن تكوني في ميدان كولوناكي".

راح يقود السيارة بهدوء؛ لأنهما كانا في منطقة خاضعة للسيطرة، لم يتأخرا حتى رأيا منشآت محطة توليد الكهرباء، ثمرة مصافحة قوية للأسد الأب مع السوفييت، بدأ الإنشاء في عام 1968 وانتهى في عام 1973 واستقلت سوريا في إنتاج الكهرباء بينما السد الذي عرضه أربعة كيلومترات خزن مياه الفرات في

بحيرة كبيرة من أجل ريّ المنطقة، هذه الأعمال طورت الزراعات البدائية للقمح والقطن وساعدت في ظهور زراعات أخرى مثل الأرز والخضراوات والبنجر، أمَّنت الزراعة أخيرًا الاستهلاك الداخلي، لكن عشرات القرى غرقت تحت أطنان المياه، وآثار الحضارات التي نشأت في أعماق القرون اختفت من على وجه الأرض تحت اسم التقدم، صار الفلاحون يعملون بالصيد، صاروا يلقون الشباك على سماء خيامهم، ويبحثون في ماء البحر الجديد عن شوارع قريتهم، دون جدوى.

بعد لحظات قليلة تبدلت الزراعات، أشجار نخيل وبطم، وفي العمق تحت الشمس الربيعية يتلألأ سطح البحر، صوت الظهيرة بطيء، خَمُول، أغنية أزيز الحصاد مع رائحة الصيف اليوناني تسربت إلى السيارة، كيف وجد البحر المتوسط على بعد مئات الكيلومترات من شواطئها؟ نسخة زرقاء، عميقة، بلا ملوحة، الطريق ينحدر بين أشجار النخيل، كاشفًا عن قوارب تهتز على الأمواج الصغيرة التي تتعجل لتلعق الرمال، مكان معروف ومحبب، يتذوق رومانوس دهشتها بسعادة، بحيرة الأسد طلت نظرة جيني التي شحبت مجددًا، وأضاءت وهجها من ذلك الوهج الذي حولها إلى امرأة فاتنة، خبز مقدس لتناول الحب.

قال لها:

- "استعدي".

الجزيرة الصغيرة تبرز فجأة مع أطلال منسية على ظهرها، القلعة التي تنحدر للعصور الوسطى تبدو غير متوافقة داخل اللون الأزرق العميق حولها، قارب خارج الميناء.

- "كيف وُجدت هنا؟".

- "كل ما تبقي من الوادي الضائع، تخيلي أن القلعة كانت تسيطر على المنطقة بأكملها، القرى غرقت تحت مياه السد، لكن الإنجاز الدفاعي لنور الدين أنقذ،

المنارات الحجرية ترتفع بفخر فتزيدها ارتفاعًا، طريق برمائي يربط الآن الجزيرة باليابس، كحبل سري يربط الجزيرة حتى المدخل، مقهى عشوائي يفرش

طـاولات تحـت ظـلال الأشـجار. حافلات المـدارس أفرغت التلاميـذ الصغار في المـكان أمام الباب المهيـب، كـي يتعلمـوا إنجـازات الجَـدّ الملهـم، فصـل لا ينتهـي مـن الفخـر القومـي، درج عريض متـآكل مـن حوافـر الخيـل وركـض الجنـود، حولهمـا ضجيـج الأولاد، عقول مشـاغبة علـى موازين مرتبـة، خرجـوا للسـاحة ليبحثـوا جميعًـا عـن الـوادي المـروي. العيـن تضيـع بسـعادة فـي اللون الأزرق للبحيـرة ثـم تصطـدم بالضفـاف المقابلـة، بقمـم الجبال التـي تغلق الأفـق حولهما، تدخل بشـري يسـير علـى التـوازي مـع أقـدار السـماء، الإنسـان والطبيعـة فـي وفاق رائـع، لكـن الوادي مختـفٍ، غارق".

استند رومانوس على الإفريز الحجري.

- "البعثـات الأثريـة الأجنبيـة، قبـل أن تأتـي الميـاه، كانـوا يجمعـون علـى عجـل كل ما يمكن إنقـاذه، سـاعد أهـل المنطقـة، كانـوا يقـودون الأجانـب وينحنـون جميعًـا لجمـع القطـع الأثريـة والذكريـات، منقـذو التـراث العالمـي، لأن فـي هـذا الـوادي زرع القمـح لأول مـرة فـي تاريـخ البشـرية، وبُنـي أول منـزل علـى قاعـدة متوازيـة، حفـرت علـى الحجـارة رمـوز للتواصـل".

- "ماذا كانت تقول رموز التواصل هذه؟".

- "لم يتم فك شفرتها حتى يومنا هذا، ما زالت مجهولة".

- "كل شيء يوجد هنا؟ في القاع؟".

انحنـت جينـي نحـو قاعـدة البـرج، عشـرة أمتـار تقريبًـا، المـاء يلعـق برفـق سـفح القلعـة، الماضـي غـارق فـي مسـتنقع البحيـرة.

- "كيف فعلوها؟".

- "لـم تكـن المـرة الأولـى، إن العالـم ملـيء باللاجئيـن، ألا تريـن؟ النـاس هنا فقـط طردوهم باسـم الأمـان والنمـو، وليـس الحرب".

راحـت تنظـر إلـى المـاء، لقـد قامـوا بنفـس الشـيء فـي بحيـرة بلاسـتيرا، لكنهـم هنـاك أغرقـوا الحقـول، واختفـت الثـروات بسـبب السـد، تذكـرت علـى اسـتحياء رحلـة خريفيـة

إلـى هنـاك، ليلـة حـب فاشـلة فـي قـرى جبـال الألب، مـكان حزيـن، آلمتهـا الذكرى، وارتسـمت علـى وجههـا، رأى ذلـك رومانوس فاسـتبقها:

- "لهـذا جئنـا إلـى هنـا، كـي أبَيِّـنَ لـكِ كـم نحـن صغـار، كل هـذه الطبيعـة تحولـت، انظـري بنفسـك، تحـت هـذه الميـاه كان النـاس يعيشـون لآلاف السـنين، مـرت أجيـال وأجيـال وتركـوا آثارهـم وإبداعاتهـم، انظـري الآن، أيـن وادي قصـر القمـر؟ غـادره السـكان، الماضـي خـرج فـي أعمـاق البحيـرة".

أصرت جيني:

- "لكنها هناك في الأسفل، توجد".

- "بالنسـبة للمؤرخيـن فقـط، ليـس بالنسـبة للسـكان، هؤلاء فقـط كان أمامهـم طريق وحيد، الهرب، وإلا كان السـد سـيغرقهم".

- "والذكرى يا رومانوس؟".

- "من غير العدل أن تدفعي أكثر من مرة ثمن خطأ اقترفتِه".

- "ماذا تعني؟".

- "إن الإنسـان هـو المخلـوق الوحيـد فـي العالم الذي يدفع ثمـن خطئه مـرات كثيرة، نحكم علـى أنفسـنا مـرارًا وتكـرارًا، ندينهـا ونحكم عليها باسـتمرار، لمـاذا؟ لأن لدينا ذاكرة، ومع الأسـف نتشـبث بهـا، نصلـب روحنا ونحـن نتذكر الأخطاء التـي ارتكبناهـا أو التي ارتكبها الآخـرون ضدنا، ندينهـم ونسـقي كل علاقاتنا بالسـم، ونسـقي أنفسـنا، انتحـار لا يغتفر، لهذا أقول لـك: هيا.. ألقي كل مـا بداخلـك هنـا، كل شـيء، كل مـا يثقل روحك، السـعداء هم الذين ينسـون".

- "أنـت مـن تقـول هـذا؟" قالـت جينـي: "أنـت الـذي لا تفعـل شـيئًا آخـر غيـر أن تقلب في صفحـات الماضـي؟ حتـى أنـك جعلتـه مهنـة لك".

- "أنــا أتحــدث عــن العلاقــات الشــخصية يــا جينــي، التاريــخ أمــر مختلــف، الذاكــرة

الجمعيـة تـداوي الجـروح، تدعـم الوعـي والضمير، وهـذا يختلف تمامًـا عن أن تروضي الأشـباح، لكـي تعيشـي معها وتعاقبي نفسـك".

- "أنت؟"، تجرأت جيني على السؤال.

ابتسـم لهـا مطمئنًـا، بالتأكيـد هـو -أيضًـا- يعـذب نفسـه والآخريـن، كيـف يهـرب مـن هـذه الدائـرة المفرغـة؟ الذكـرى تتبختـر فوقـه وتهـدده بالالتهـام، محدثـةً ضجيجًا أو بصمـت جهنمي، روائـح مفاجئـة ولمسـات بلا أمـل، على الأقل يحـاول أن يطردها، الأمر ليس دائمًا بهذه السـهولة، صـورة زوي لا تغيـب عـن عقلـه منـذ سـاعات، كرسـمة أكواريـل طازجـة، لـون يفيـض ويتسـاقط علـى الإطار.

احتضن جيني وأسند وجهه على شعرها.

- "وأنا، أنا -أيضًا- أفعل هذا، لكن ليس بكل هذه المازوشية مثلك".

هـو شـخص يؤثـر الفعـل بشـكل أكبـر، كان يحسـب مشـاعره وهـو يعد نفسـه ليترجمهـا إلى أفعـال، لـم يكـن تـردده يسـتغرق طويـلًا، كل مـا كان يشـعر بـه كان يتعامـل معـه فـي التـو، لـم يكـن يتركـه يرعـى فـي الوقـت ويصبـح ماضيًـا، الذاكـرة كانـت دفتـرًا للأحـداث وليس للمشـاعر، التأمـل والذكريـات بالنسـبة لـه كانت مجهولـة، كان يصـب كل تركيزه فقط على اليـوم، وإلا لكان الانقسـام الداخلـي سـيهجم ويمـزق الأفـكار والمشـاعر، الماضـي هو سـجن للـروح والعقـل، كان يبتغـي روحًـا حـرة، فالعالـم ملـيء بكثير من السـجون.

فـي لنـدن، عندمـا كان طالبًـا فـي السـنة الأولـى، أثـار انبهـاره الــ **underground**[1]، سـكك جوفيـة محملـة بحيـاة تحـت الأرض لـم تعتق ومطـاردة في أعمـاق الأرض، محبوسـة فـي زنازينها، عبيـد عابسـون منهكـون، مطفئو الأعيـن ومقطوعـو الأنفاس يقطعـون الممرات الضيقـة، يصعدون ويهبطـون الـدرج، يحتشـدون فـي عربـات قـذرة حتى يلتقوا مجـددًا بالسـطح، الغوغـاء المطيعون يملـؤون الزنازيـن الجوفيـة وهـم يلهثـون خلف الزمـن، لكن هيهـات! فالزمن كان يجري أسـرع من سـرعتهم، حرب خاسـرة،

---

1- مترو الأنفاق.

ثـم كانت الزنازين الطائرة، الطائرات، مليئة بالسـراب، مسـاجين، محشـورون فـي أمتار قليلة، ينتقلـون بعيـدًا حتـى يقابلوا الشـمس الدافئة والبحر الواسـع، ليأخـذوا الضوء ليسـتطيعوا الحياة. مقاعـد غيـر مريحـة، وجبـات جافـة وعـدم صبـر مـن أجل بضعـة أيام مـن السـعادة، السـفر هو وسـيلة لعـلاج الروح، كمـا وصفـه هيبوقراطيس، أرواح محكـوم عليها بالإجازات السـنوية.

لكـن بالنسـبة لرومانـوس السـجن الأكبـر فـي العالـم كانـت غـزة، أكبـر معسـكر للمعتقليـن، البـؤس الـذي يعيشـه النـاس بعيـدًا عـن أراضيهـم، هنـاك حيث يعيـش الظلم مـع العـدل، أبرياء، مقهـورون فـي حلبـة الذاكـرة، يتغذون على الكراهية، أرواح حبيسـة في حلقات الماضي، أجسـاد متسـخة مـن دماء الإخـوة، هل يُنسـى الأخ؟

غاصـت جينـي بنظرهـا فـي المـاء، بمـاذا تبـدأ وتخلـع عنهـا كل هـذا الكـم مـن الأشـياء؟ لـو بـدأت بأولويـة زمنيـة بـدءًا مـن اللاحـق، كـم سـتبتغي أن تنـزع عنهـا الإهانـة التي حلـت بها من حـب سـتراتوس، الألـم الـذي كان يمزقهـا كل مـرة كان يغـادر متعجـلًا مطأطـئ الرأس، الابتسـامة المتهكمـة لزوجتـه عندمـا أوقعـت بهـا هزيمـة نكـراء، ولـو أنهـا سـتبدأ مـن القديـم، مـن نظـرة ميخاليـس راليـس البـاردة التـي كانـت تسـقط محدثـة ضجيجًـا علـى سـطح البحيرة، كاشـفة عن الصخـور، نزعـت بعنـف مـن أحشـائها، كيـف تغلـق ثقبًـا كهـذا بعـد ذلـك؟ والأصـوات؟ كـم تود لـو اختفـت تلـك الأصـوات، هـل تختفـي الأصـوات فـي المـاء؟ أمهـا كانـت تفتـح لهـا الصنابيـر فـي حـوض الحمـام، لكـن انفجـارات الأبويـن الشـعواء كانـت تختـرق الجـدران وأغشـية جينـي السـحائية، إن المـاء يعجـز عـن غسـل مثـل ذلـك اليـأس.

تـود لـو تترك الكثير من الأشـياء وتنزعها عنها، طبقات من الجلد الجـاف، متكومة على روحها، أجسـاد عشـاق زائلين متكومين على فراشها، عارية ولها رائحة مَنِيٍّ كريهة، وجه أماليّا السعيد في زواجهـا، كانـت جيني شـاهد عيان على طقـوس الزواج في مبنى المقاطعة مـع امرأة مجهولة في مكان أمها، في النهاية وقَّع الجميع على عقد الزواج، ملأت أماليّا بشجاعة كبيرة الفراغ الذي خلفه راليس في حياتها وركضت على الحصان مع دايفيد، واحتفظت بكل فتات السـعادة لنفسـها، مثل

عشيقة أبيها الشابة، التي كانت تسير منتصرة وهي تجر خلفها الممثل كأنه أحد غنائمها، الوحيدة التي تتعامل مع مرضه، الوريثة الوحيدة لأحضانه، ابنته كانت المنبوذة المحرومة،

خنقت جيني غثيانها، الغضب ينبت مهددًا من أعماق روحها، غضب نحو أمها التي لم تحك لها ولو حكاية واحدة لها نهاية سعيدة، ونحو ميخاليس راليس، لامبالاته مثل صخرة مدببة تنحت حياتها وتتلفها، يهدر الغضب وينقلب نحوها، حزن على نفسها، شعور بالمهانة، العيون الخفيضة لعشاقها، ابتسامات الزوجات المنتصرة، تقلص في المعدة يطويها لنصفين، ألمٌ لاذع يصعد حتى لسان الماضي الذي يهمهم لسنوات، أدمنت الفراق ودور الضحية، مريضة، الألم يسري ويصل حتى ظهرها، انحنت جيني فوق الإفريز، رأت الماء تحتها فارتجفت، صوت الارتطام بالماء يأتي على التوالي، يأتي متشابهًا مع انتفاضات الجسد، كل انتفاضة لجسدها تأتي مصاحبة لانتفاضة معدتها، وجوه، مشاعر، روائح، كلمات، آلاف الكلمات تصعد من أحشائها وتحرق المريء وتغمر فمها، تخرج بعنف، قيء الماضي، نيران سائلة تنطلق، تسيل مُحْدِثةً ضجيجًا يسقط على السطح المجعد، مرارة، كل حياتها تسيل وتُمَرْمِرُ البحر العذب.

**كل شيء تغير سريعًا**، كانا يأكلان في أحد المطاعم المكشوفة على الطريق إلى الرقة ويشربان الشاي الساخن عندما اتصل بهما رومانوس، كانا في طريقهما إلى دمشق؛ لأن جيني لم تشأ أن تكمل الرحلة حتى شمال شرق سوريا، الأم والابنة تحدثتا عبر الهاتف ولقليل من الوقت، طمأنت كل منهما الأخرى، هدأت أماليّا.

- "دعنا نَعُدْ نحن أيضًا"، رَجَتْه.

لم يجرؤ أن يبدل لها رأيها، كان يكفيه أن يتبعها في هروبها.

رطوبة النهر كانت لا تزال تتبخر من كل مسام جسدها، لفت رأسها بمنديل حريري والطريقة التي عقدت بها المنديل كانت تتميز عن النساء القليلات اللاتي يقابلنها وينظرن لها في خجل، كن يمررن على المقهى وهنَّ يحملن حقائب ثقيلة أو أطفالًا صغارًا في أيديهن، ويجررن على الأرضية الأسمنتية المتربة ذيل ثيابهن الطويل، حياتهن المجهولة.

- "على الأقل في هذه المرة ذهبنا أبعد".

- "فقط أبعد؟ لقد كنتِ على وشك أن تعبري إلى الضفة الأخرى"، قال لها نديم ضاحكًا.

غاصت برأسها في الماء وسبحت لبضعة أمتار فقط.

- "لقد قلت إن الجنة غير موجودة، قد دهسوها؛ لهذا عدت"، أجابت أماليّا مؤيدة للأجواء الخفيفة.

- "إن الجنة بداخلنا".

- "بداخلنا هناك أكوام من العقد، يا نديم، لو أن داخل كل هذه الأكوام توجد الجنة...".

لم تكمل جملتها، كانت تبدو في منتهى الهشاشة في سترتها الثقيلة، لكنها

كانـت تتـلألأ فـي ضـوء الظهيـرة، شـعاع الشـمس مثـل الكريسـتال، هنـاك علـى رصيف الشـارع الريفي.

- "أنت تقلقين بشدة على ابنتك".

- "لأننـي أنـا السـبب فـي حياتهـا التعيسـة، كنـت أسـوأ مثـال أبـوي، تحـاول أن تخرجنـي من حياتهـا بآلاف الوسـائل".

- "ساعديها".

- "ماذا تعني؟".

- "اخرجـي أنـتِ، وحـدك، بيِّنـي لها أنكِ لسـتِ عبئًا علـى حياتها، هناك دائمًـا وقت كي نفعل مـا نبتغيه كثيرًا، وهو شـيء ربما نخشـاه، الأولاد يُقَـدّرون أمورًا كهذه".

- "ربما"، قالت هي لنفسها.

لم يصر نديم.

كانـت أماليّـا الراكبـة الوحيـدة بـلا غطـاء للرأس فـي الطائـرة الصغيرة التـي كانـت تُقلُّهما من ديـر الـزور إلـى دمشـق، كان شـعرها يجـف بحريـة فـوق سـترتها القطنيـة فجذبت أعين النسـاء المحجبـات اللاتـي كـن يحملـن رُضَّعَهـن فـي أحضانهـن، بعضهـن كان ينفطـر فـي البـكاء طيلـة الرحلـة. "لحسـن الحـظ، أولادنـا لن يعـودا على هذه الطائرة"، همسـت في لحظـة الهبوط ففهم نديـم قلقها.

رافقهـا فـي دمشـق حتـى الفندق وودعها بقبلـة رقيقة، عاد إلى شـقته غارقًا فـي التفكير، هو الـذي كان يحسـب كل التحـركات ويتصـرف بهدوء وحكمة، وكان لديه السـيطرة علـى كل أفعاله، فـي غضـون سـاعات قليلـة تحول إلى ريشـة تتطاير في الهواء، سـافر بخفَّة إلـى المرتفعات، قطع الهضبـة ووصـل حتـى ضفاف النهر الكبير ليذهب أبعد من هـذا، أي رياح هبَّت؟ من أين جاءت؟ بـكل قـوة احتشـد الماضـي والحاضر حتى صارا شـيئًا واحدًا، كتلة متماسـكة، لم يكـن لديه إجابة واضحة عمّا قد يحدث في الغد، لكنه انتظر، حدسـه ينبهه بأن شـيئًا جديدًا سـيحدث، شـيء غير

معتاد ومُلِحّ، لم يكن هو من يخطط له، تركه لها، هكذا كان يحدث دائمًا، أمامها أراد فقط أن يكون مطيعًا، لصمتها وهروبها، مثلما كان في هذا المساء بينما كانت أماليّا تخرج من الماء، لم يسبق له أن رأى كل هذه القوة في عيني امرأة، أبدًا! كانت ملكته تتلألأ، برز أمامه فجأة ماضيه وحاضره، وعندما عانقها شعر أنه يحمل المستقبل بين يديه.

منتصف الليل ولم يأته النوم، ألقى نظرة على الساعة بنفاد صبر، قلقه على ابن أخته ازداد بسبب سوء الأحوال الجوية الذي سبَّب مشاكل كبيرة على الطريق البري، وضع ما يساوي أصبعين من الويسكي في كوبه واقترب من النافذة، المطر غسل الشارع المغبر وروى أشجار المدينة العطشى، دمشق، التي بنيت أوتادها على الهضبة، كانت في حاجة إلى عواصف، المطر رحمة من الرب، السيارات القليلة كانت تمر بلا عجلة ناثرة الطين وماء المطر وراحت تدفع القمامة التي كانت على الطريق إلى الأجناب.

وصل رومانوس إلى الشقة في الثانية بعد منتصف الليل، الإرهاق من قيادة السيارة طرحه على الأريكة مقطوع الأنفاس، لقد قطع مسافة البلاد على عرضها بزاوية مائلة، من سد الأسد إلى مناطق الرعاة والأسلاف في حمص، ومن هناك إلى الهضبة التي تحزم دمشق، تقهقر استراتيجي.

- "كان الطقس على الناحية الأخرى"، راح يشرح لخاله، "كأننا كنا نبحر في الصحراء".

لاحظ نديم نبرة استعداد محارب في صوته، تأهب لا يناسب حالة الإرهاق التي ألقت به على الوسادة.

- "أعلم، هبت الرياح الغربية، الجو كان مشمسًا حيث كنا هناك عند النهر".

- "الآن المطر شديد، عاصفة، أشعر أنني جثة هامدة"، قال رومانوس وتمدد أكثر وراح يفرد جسده.

شعر بالألفة على الأريكة وجسده يجد موقعه على منحنياتها، أحضر له نديم

زهـورات وجلـس أمامـه، خرجـت الأسـئلة منـه مـع نظـرة تفحـص علـى نحـو متـردد، بقيـت بـلا إجابـة، تعلقـت بينهمـا قليلًا.

- "تركت جيني في الفندق، سأنام هنا، في بيت...".

اعتياد على حميمية المكان، بيَّن له نديم دهشته.

-"أفكر أن أقيم في دمشق، للتجربة، لفترة وجيزة".

ابتسما كل منهما، مهلة من الوقت لكلا الجانبين.

- "هناك سبب؟ أتعلمه؟".

الخـال نديـم ذهـب إلـى لُـبِّ الموضـوع مباشـرة، أرض الواقـع، لـم يكـن رومانـوس مسـتعدًّا لهجـوم كهذا.

- "أتخيله".

ضحـك نديـم، تلقائيـة الصغيـر أسـعدته، لـم يشـأ أن يتظاهر وأراد أن يوضح كل شـيء، شـيء مفاجـئ يحـدث لـه، لـم يكـن لديـه الوقـت ليتعامـل معـه، كان يريـد أولًا أن يتعـرف عليـه، بـأي قـدر كان مفاجئًـا؟ منـذ متـى؟ هـل هـو منـذ الأمـس؟ كان هو نفسـه مرتبـكًا، لكنه لم يكـن بتلك التلقائيـة، يالنعمـة الشـباب، فالشـباب يسـتطيع أن يترك نفسـه بسـهولة إلـى تلقيـن القلب، كان هـو متـرددًا فـي قبـول حقيقة أن حضـور أماليّـا المفاجئ كان بمثابـة المنَّة التـي كان ينتظرهامن السـماء، ميـزان العقـل والمنطـق كان يميـل بخطـورة نحـو كفـة التعـود والروتيـن وليـس ناحيـة اللامبـالاة التـي كانـت تميـزه فـي مـا قبـل، كان مـن قبـل بسـهوله يتـرك نفسـه للتيـار ليجرفـه نحـو التغييـر، كان مسـتعدًّا ليبـدل كل الأحـوال، ليعبـر البحـر ويعيـش فـي أثينا، حمـل أماليّا كان السـبب الوحيـد الـذي ردعـه عـن إكمـال مخططه، بعد ذلـك تخلى بسـهولة عن نيويـورك ليعيش فـي دمشـق، بالطبـع آنـذاك كانـت هـذه الخطة تـؤول إلى لـورا، لكنـه انصـاع على الفـور، كانت سلسـلة الفشـل لـكل مشـروعاته التـي جعلتـه ثقيـلًا صعـب الحركـة الآن، أم يـا تُـرى كان العمر؟

"أنـت ثعلـب عجـوز لا يشـيخ". كانـت تينـا تهمـس له فـي أذنـه، الثقـة بالنفس والغـرور في عنـان السـماء، تينـا التـي نفاهـا بعيدًا عـن ذاكرته كل هـذه الأيام، أيـن يقذف رومانـوس بحياته؟

- "لا يبدو أن السبب مهني، أليس كذلك؟".

جَسُّ نبض حصيف، أخذ رومانوس نفسًا عميقًا:

- "سأجرب أن أكون سوريًّا، هذا ما كنت أقوله".

صعـق مـن الدهشـة، هـذه المـرة لم يُخْـفِ نديم دهشـته، لـم يدعـه رومانوس يسـترد وعيه مـن الدهشـة، ربمـا فهـم ثقـل كل مـا قالـه، تعجـل فـي تغيير الأجـواء، أن يوجـه تركيـز خاله إلى اتجـاه آخر.

- "طيلـة الطريـق حتـى هنـا كنـا نقابـل فيالـق مـن السـيارات العسـكرية، كثيـرة، لـم أرَ هذا العـدد مجتمعًـا مـن قبل".

- "بدءًا من أي منطقة بدأت في رؤيتها؟"، سأل نديم وهو غارق في التفكير.

- "منذ أن دخلنا المحور الرئيسي من حلب إلى دمشق".

- "وكان الوقت كان متأخرًا".

أومـأ رومانـوس برأسـه بالإيجـاب، الثورات التـي اندلعت لتوها في تونـس ومصر ربما وضعت المنظومـة العسـكرية فـي البـلاد في حالة تأهب، كانت سـوريا فـي كل الأحوال فـي حالة طوارئ منـذ سـنوات طويلـة، حضـور الجيـش فـي المشـهد لـم يعـد يولـد الدهشـة، إذ إن معسـكرات الجيـش كانـت تنبَّـتْ فـي كل مكان بـلا أي ذريعة أو سـبب.

- "ربما كانوا يعدون لبعض التدريبات"، همهم نديم وهو يخفي قلقه.

- "لكن هناك شيء أكثر إلحاحًا من كل هذا، شيء مهدد يحوم في الغرفة".

- "بعـد قليـل مـن وصولـي، وصلتنـي رسـالة مـن أمـي، تحدثـت معهـا قبـل أن آتـي

إلى هنا“.

- ”ماذا يحدث؟“.

هدوء! فرد نديم جسمه، محارب تكتيكي ولص متمرد.

- ”ليس لها علاقة بنا“، تعجل رومانوس ليستبق أفكاره.

هبت رياح الارتياح فزفر الهواء من شفتيه.

- ”إذن، ماذا؟“.

- ”راليس، والد جيني، في وضع حرج؛ إنه في العناية المشددة في مستشفى إيفانجيليزموس“.

**كانـت تنتظـر وصـول جينـي**، ففتحـت حقيبتهـا وراحـت ترتـب ملابسـها فـي خزانـة الغرفـة، حركاتهـا كانـت هادئـة وتحـت السـيطرة، تريـاق للقلـق الـذي يتنامـى بداخلهـا، علقـت جاكتتهـا وسـترتها، وضعـت البلـوزات والملابـس الداخليـة فـي الأدراج، الأحذية في الأرفف السـفلية مرتبة فـي أغطيتهـا القطنيـة، ترتيـب متنـاهٍ، لا وجود لأي انحـراف، حركات آليـة، بينما فـي عقلها كانت الصـور والكلمـات تتصادم مـع العبـارات والأماكن.

آه! ذلـك الإحسـاس بالمـاء البـارد! ألـم لا يطـاق وشـافي، إعـادة تعميـد فـي مسـبح تعميـد حقيقـي يمتـد أمامهـا، وعـد بالنسـيان وبالشـباب، كان النهـر يجري ثقيـلًا وصامتًا، وكان جسـدها يسـيل فـي أحضانـه السـائلة، فأصابـه الخـدر، خـالٍ مـن الذكريـات، كحقيبتهـا المفتوحـة الفارغة علـى موكيـت الغرفة.

تمـددت بملابسـها علـى الفراش تنتظـر، كان جلدها يَشُـد عليها، ما زال يحتفـظ بذكرى النهر، عندمـا سـمعت الدقات هرعـت متعجلة نحو البـاب، كانت جينـي على الباب.

- "هل كنتِ نائمة يا ماما؟".

قالت والتردد معقود على لسانها:

-"لا! لم أكن نائمة، تعالي".

فتحـت ذراعيهـا، راحـت جينـي تنكمـش إلـى حـد الاعتصـار حتـى تتسـع بأكملها بيـن ذراعي أماليّـا، وأخـذ جسـد أماليّـا الضئيـل يتمـدد وينمـو حتـى تبقـي عليهـا بيـن أحضانهـا، آه! دفء، حميميـة مألوفـة، رائحـة مـن الماضـي، لـم تتبخـر.

- "هل كانت الرحلة مرهقة؟ كيف حال ذراعك؟ هل أكلتِ؟".

انفجـر سـيل مـن الأسـئلة كـي تبقـي بـلا إجابـات، توقفـت نادمـة، تحـررت ابنتهـا مـن أحضانهـا، تسـاءلت أماليّـا، طفلتهـا شـاحبة اللـون التـي تركتهـا فـي مستشـفى بالميـرا قـد تبدلـت تمامًـا، لا تريـد أن تشـك فـي أن ثمـة شـيئًا قـد حـدث فـي تلـك الأثنـاء فتبدلـت

أحوال ابنتها، هل عاد باناس إلى حياتها؟ ربما كان هذا هو السبب الذي جعلها تعود إلى دمشق، أم أنه رومانوس؟ هذه الفكرة تهددها كسكين، دفعتها للخلف، فتقهقرت إلى داخل الغرفة.

تركت جيني حقيبتها على الأرض، بجوار الحقيبة الفارغة لأمها التي تشي بالغد القريب، قرارات متخذة.

- "هل كانت رحلتكما جيدة؟ إلى أين وصلتما؟"، سألت أماليّا مجددًا كي تكسب بعض الوقت.

البريق في نظرة جيني حاصرها، كانت تخطط لأمر آخر في عقلها، كانت تنوي أن تقول أشياء أخرى.

- "حتى سد الأسد، وأنتما؟".

- "نحن؟".

كانت جيني تراقب أمها، منذ اللحظة التي دخلت غرفتها في المستشفى، كان واضحًا أن ثمة شيئًا يجرفها، كانت أمها تتأرجح من جديد، لكن هذه المرة في دروب مجهولة لا تعرفها هي، ثمة دور كان يلعبه خال رومانوس، لماذا ذهبت أماليّا معه إلى ضفة الفرات؟ كانت الرقة تغمرها منذ قليل وجعلتها تلقي بنفسها تلقائيًا بين أحضانها، صارت حبلًا صلبًا وخشنًا.

- "نعم، أنتما، قولي لي، هل كنتِ تعرفين نديم من قبل؟".

تصويب مباشر، اختلال توازن فجائي، أماليّا تترنح، بعد أن كانت جاهزة لتحكي قصة جميلة، كم مرة حكت لها قصصًا كهذه؟ ولا مرة! كانت تستعد لساعات وترتب الأغراض في الأدراج، كانت تغزل قصة في ذهنها، عن ملكة أورشليم ومغتصب العرش البيزنطي. "كان ياما كان؛ أميرة حزينة، مربوطة بسحر يجعلها تعيش بلا حب..." كيف صارت في موقف اعتراف الآن؟ كيف صارت نظرة طفلتها المضيئة قاسية هكذا!

- "من المدرسة".

- "ليس هذا ما أعنيه يا أمي!".

فجأة امتلأت عيناها بالتهكم، متمرسة، زرقاء لحد لا يطاق. "يا إلهي! لم أكن لأحتمل" فكرت أماليّا، قامت بمحاولة أخيرة للهروب، الهجوم.

- "أنتما؛ لماذا رجعتما؟ هربتما كاللصوص من المستشفى، ماذا حدث؟".

- "ماذا كنتِ تودين أن يحدث؟".

- "هل لديك أي أخبار من أثينا؟".

سؤال بعد آخر، تصويبات مضطربة، ضائعة، دون رد، تمددت جيني على الأريكة في الجناح بكسل.

- "هل ستبقين؟"، سألتها وهي تشير لها إلى الحقيبة الفارغة على الأرض.

- "وأنتِ؟".

تقاطعت تساؤلاتهما وريبتهما في الهواء.

- "لقد بقيت جاين ديجبي في دمشق حتى أرذل العمر"، قالت جيني وهي تنزع حذاءها، وضعت كفيها تحت رأسها وابتسمت بمكر، وكأن شيطانًا أزرق يرتعش في نظرتها.

- "وما علاقة ديجبي بالأمر؟".

- "كنت أظن أنكِ قمتِ بهذه الرحلة بدافع الفضول عن حياتها".

ابنتها تستفزها بطريقة معذبة.

- "ألم تقومي برحلة للسير على آثار جاين ديجبي؟".

- "أنا عجوز بما يكفي كي يعشقني ثمة شيخ".

- "ما زالت لديكِ بقايا فتنة وجاذبية، تعرفين هذا".

قالت بنيَّةٍ طيبةٍ:

- "أنا على ما يرام الآن".

- "لم يكن للندن أثر سيئ عليكِ".

بقايا طعم مر في الفم، لعقت جيني شفتيها على عجل، كي تتخلص منها، كانت أماليّا تجلس أمامها.

- "لقد تحدثنا في هذا الأمر كثيرًا يا ابنتي، مرت".

- "وهذا ما أقوله أنا أيضًا، مرت، لهذا أفكر في أن أقوم ببداية جديدة".

اعتدلت في جلستها وراحت تنظر لأمها في عينيها مباشرة، استطاعت أن تلمح السحب التي تجمعت فجأة في نظرة أماليّا، خوف، ثوانٍ قبل الانفجار.

- "هذا ما تفعلينه دائمًا يا أمي، فور أن أبدأ في قول شيء، تخافين، تعارضين، ترتابين، قبل أن تسمعي أي شيء، دائمًا كلمة "لكن" على طرف لسانك، صيغتك أنتِ، لكن من طلب منكِ هذا؟".

- "أنا لم أقل شيئًا يا جيني!".

- "تعبير وجهك".

- "تعبير وجهي ربما يعني الدهشة أو التساؤل".

- "أنا لا أرى سوى الخوف".

- "حتى وإن كان هكذا.. كيف لك أن تعرفي سبب خوفي؟".

- "ليس لديك سبب للخوف يا أمي! لكنك تخافين لأنني بالنسبة لك عاجزة؛ لأنك لا تستطيعين أن تسيطري على حياتي، تخافين لأنك أفسدتِ حياتك، تخافين دائمًا، من كل شيء، ومن كل أحد، كُفّي عن الخوف يا أمي!".

نهضت جيني وراحت تخطو راسمة دوائر حول المقعد الذي تجلس عليه أماليّا، حركات دائرية، في البداية كانت الدوائر كبيرة، فسيحة ثم صارت تضيق، مهددة، حتى جاءت ووقفت أمامها، انحنت واستندت بيديها على أذرع المقعد، ألصقت أنفها تقريبًا بأنف أمها، بينما اتسعت عيناها من الغضب والحدة.

- "لكن أكثر ما تخشينه هو نفسك؛ لأنكِ لا تستطيعين السيطرة عليها"،

كان صوتها كالمعدن الساخن.

أغلقت أماليّا عينيها، لا تحتمل كل هذه الوحشية، كل هذا الضغط، ياله من هجوم! هي لا تستحق هذا، ليس لديها القوة لتعارض، وبالطبع تخاف، الرفض، ترتعد من فكرة فقدان جيني كما فقدت راليس، كانت تخاف من كل بداية جديدة، لهذا أدارت ظهرها لنديم، وعندما تجرأت، ماذا حدث؟ انتهى كل شيء قبل أن تدركه جيدًا، تخاف، لقد تحدثت ابنتها عن بداية جديدة، مع من؟ أين؟

قرأت جيني تساؤلات أماليّا.

- "لا تتكلمي يا أمي! ولو ستفعلين، فكري أولًا، قولي لي كلمة طيبة، لا تزعجيني مجددًا بما أصابك أنتِ وحكمة التجربة، اللعنة! لا يحدث كل شيء من أجل أمر سيئ، فحتى من الألم يمكن أن تخرجي بشيء إيجابي، الحياة أخطاء لكنها -أيضًا- لحظات سعيدة، لماذا تتذكرين الأسوأ دائمًا؟ لا يمكن، لا بدَّ أنكِ عشت لحظات جميلة، على الأقل مع دايف أو مع أبي، ألا يوجد لديك أي ذكرى طيبة مع أبي؟".

الرقة والرحمة يفيضان من نظرتها، أمواج زرقاء تربت على وجهها بحنان، وجه أمها، بلسم على حروق خلفها لسانها الحارق منذ قليل.

- "مع أبيكِ؟".

أومأت جيني بالإيجاب.

أسندت أماليًا رأسها للخلف وقد ارتسم تعبير حالم على وجهها.

- "أذكر رحلة بالسيارة، سيارة حمراء مكشوفة، وعاصفة رملية استمرت لثلاث ليالٍ، استطعنا بالكاد أن نصل إلى وجهتنا، بقينا معزولين، في الخارج كانت الرياح تصفر مهددة من الصباح إلى المساء، من النوافذ كنا نرى الأشجار تتخبط بشهوانية، لو تجرأت على الخروج قليلًا، كنت تعود أدراجك بعيون محمرة وحلق مؤلم، المكان شاحب، الرمال تخترق فتحات الباب والنوافذ، كانت تتسلل إلى كل مكان، كان تَصِرُّ تحت خطوات أقدامنا، تختبئ بين طيات ملابسنا، تتخلل الملاءات وقبلاتنا".

وقفت جيني مدهوشة، لا تعرف ما الذي يدهشها أكثر، القصة أم الطريقة التي تحكي بها أمها؟ الحكي بصوت خفيض، نبرة الصوت أم التعبير الذي ارتسم على وجهها؟! نظرة شاردة، ضائعة في الماضي تنغرس داخلها، ثم بكلمات منتقاة تحيك قصتها، كل كلمة كانت مميزة، كان لها معناها الخاص، وكلها معًا يشكل القصة، فلم تكن شيئًا غير قصة، مثل تلك القصص التي تحكيها الأمهات لأولادهن حتى يراوغنهم كي يأكلوا ملعقة إضافية من طعامهن أو ليناموا بسرعة، ارتجالات الخيال عندما تنتهي الحكايات الأخرى، كلا، التي قيلت آلاف المرات، تلك القصص التي يحفظها الأولاد عن ظهر قلب، لكنهم في حالة استسلام تام للإعادة.

لكن حكاية أماليّا كانت من تلك الحكايات، السحرية، المفاجئة، مغامرة كانت من وحي اللحظة، نتاج الحظ المحض، النهاية كانت تبدو مجهولة، تدعو إلى مشاعر قوية، ردود فعل متخبطة، شطط.

- "كانت الساعات تمر ببطء، ضوء النهار يتبدل مع الليل، ونحن كنا نميز الليل عن النار من الظلال التي كانت ترتسم على الجدران، النوم الذي كان بالكاد يتسع للغرفة، روائح القهوة أو الكريمة الثقيلة في أطباقنا، بعد ذلك كانت تترك طعمًا حلوًا على ألسنتنا، مختلطة بطعم الجبن، السكر والرمل الأحمر، طعم الصحراء، حتى اليوم أشعر بالرمال أحيانًا في فمي، هل تصدقين؟".

حانت اللحظة كي تخرجا خارج الحبكة، مثلما يفعل الحكاؤون في مسرح الأطفال فيثيرون جنون الأطفال، كم تصدقها يا تُرى! لتكن صغيرة وبريئة كي

تصدق مبالغات أمها، أن تتخيل أنها قد ولدت بعد ليالٍ كهذه، بعد عناق عشق أسطوري، لكن ماذا بعد؟ كيف كانت تحمل كل هذه الكراهية في قلبها؟ من أطفأ كل هذه المشاعر بداخلها؟ العاصفة الرملية؟ ضرب من الخيال، كانت أماليّا بالتأكيد تحاول أن تعرض ماضيها مع راليس مع مقاطع من حياتها مع رجلها الثاني وانطباعات من الرحلة الأخيرة في الصحراء، خلط متعمد لحلقات سابقة مع مشاهد من أعمال قادمة، من الواضح جربت مع نديم من قبل حلوى البدو، طعم الصحراء! العاصفة الرملية كانت اكتشافًا، ربما قد قرأت شيئًا عن جاين ديجبي، فقد كان تعبير وجهها الحالم يشبه تعبير الإنجليزية على غلاف سيرة حياتها، تنظر للمدى أمامها بتطلع في انتظار أن يتم تصديق قصتها، وجدت جيني محاولتها مؤثرة، أمها تحاول من أجلها، شجاعة، لكن هذا قد كلفها؛ لأنها كانت تحبس دموعها بصعوبة، أمها الحبيبة! عانقتها وراحت تمسد خدَّها على خدِّها.

- "أصدقك يا ماما، أصدقك"، تسرعت في طمأنتها، "لكن احكي لي المزيد، عنك وعن أبي، قولي لي، ماذا حدث بعد ذلك؟".

جثت على ركبتيها أمام رِجْلَي أماليّا وراحت تنتظر، كالمتسول، عيناها متسعتان من اللهفة وتنتظر بقية الحكاية والوهم، ولو أن أماليّا قد اختلقت حكاية كهذه كي تطرد الحزن، فقد فعلته بطريقة جميلة حتى إن الأمر كله بدا حقيقيًّا، أوه! أخيرًا حكاية جميلة، مليئة بالعشق والشوق، حتى لو كانت مقتبسة من على شاشة السينما، فقد كانت تحتاج إلى مساندة الطبيعة حتى تحتفظ براليس بجوارها، هل سمعنا من قبل عن عاصفة رملية في اليونان؟ واستمرت لثلاثة أيام! لكن الخلاصة هو أن أماليّا قد اختلقت حكاية جميلة، حتى ولو في آخر لحظة، خيال محض، كانت جيني في حاجة ماسة لشيء كهذا، كانت تعرف أن العبور من خلال سعادة أمها، هو السبيل الوحيد كي تحظى هي الأخرى بنصيبها، كبرت يتيمة من المشاعر، كيف ستعيش قصة حب حقيقية بينما لم تَرَ في حياتها قط قبلة حقيقية؟

- "وماذا حدث بعد ذلك؟".

تتعطش للمزيد من الرومانسية، ترددت أماليّا، مرت سنوات طويلة كي ترى

عيني طفلتها بهذا الصفاء الأزرق، ارتعبت، الخوف، هذه الحشرة المقرفة، تقوقعت في معدتها، طاخ! ثم أخذ يتمدد بكل ثقله، يلتف حولها، ويقطع أنفاسها، "افعليها!" دايف ونديم في تناغم لا تشوبه شائبة، "افعليها!" أمر، دون أي أثر طفيف للمزاح، الرجلان في رأسها يشيران لها على المخرج، الثالث، يزحف ويأكل أحشاءها.

- "عندما شعرت بك داخل بطني، عرفت أنني لم أعد في حاجة إلى أحد، أخذت ألحق أن أبحث عمّا كنت أحتاجه بالفعل، بدلًا من أن أنتظر شخصًا آخر يعطيني الإذن بالحصول عليه".

- "لا أفهم".

- "كنت أحتاج للحب كي أتأكد كل يوم، لكن من يحب شخصًا مدمنًا؟ لم أكن أحب زوجي، كنت أحتاجه، كنت أعتمد عليه، لكنني لم أكن أحبه".

راح الثعبان في أحشائها يتحرك مهددًا، وأخذت عينا جيني في الارتعاش.

- "كان يجب أن أعبر النهر، لكنني خفت، كانت أنانيتي حِملًا ثقيلًا كالمرساة، إلى أين أذهب بهذا الطوق الحديدي في رقبتي؟".

- "ماما".

- "قرأت قبل عدة أيام عن الإنجليزية التي فضلت أن تموت -وهي السيدة الميزراب- بدلًا من أن تأخذ قبعتها وترحل، هكذا أنا، لم أشأ أن أستمر بلقب السيدة راليس، كنت أقتات على غيرة الآخرين، كيف كان يمكن أن أتخلى عن لقب كهذا؟ ماذا كان لدي؟ الرحيل كان يوازي التخلي عن حياتي نفسها، ياللحماقة! كنت أحب الوثن الذي يراه الآخرون، لم أكن أقبل ما كنت عليه، وعندما وصلت العقدة بين أسنان المشط، قمت باختيار ودعمته إلى النهاية، تقريبًا حتى النهاية... لو لم يكن لدي أنتِ، لا أعتقد أنني كنت سأرحل أبدًا".

مدَّت ذراعها وربتت على خد ابنتها، شعرت جيني بلفتتها، اللمسة كانت عميقة حتى العظام، تغمرها الشفقة من أجل أمها التي تذوب فوقها، الحبل الذي يخنقها

ارتخى، وثمة دفء برز من داخلها، فائض يصل إليها، تود لو تواسي أمها.

- "الاستقلال له ثمنه يا ماما".

- "إننا لا نصبح مستقلين أبدًا يا جيني، أسطورة كبرى، الطريق كله يصبح كي نستطيع أن نعتمد على أنفسنا فقط، الجانب الناضج منا يعتني بالطفل الصغير الذي لايزال يعيش بداخلنا، لا يفارق أحد الجزء الطفولي من العمر، نخبئه جيدًا لأننا نعلم أنه بعد بضع سنوات لا يجب أن نظل أطفالًا، لكن نحن، الأطفال والكبار، عندما نجد التوازن نكون قد وصلنا إلى النهاية، نعبر النهر".

- "وأنتِ؟".

- "سأتخطى الأمر، أين سيذهب؟ أحتاج إلى قليل من المساعدة، لكنني سأتخطاه".

- "لكنكِ قلتِ إنه لا بدَّ أن نعتمد على أنفسنا، أليس كذلك؟".

- "عندما تحصلين على المساعدة، لا يعني أنك تفقدين استقلالك، تعيشين داخل المجموعة، لا تعيشين بعيدًا عن العالم، تضعين الأولويات أمامك، تختارين الرفقاء".

أضافت أماليّا مبتسمة:

- "تختارين أولئك الذين لا يخشون دموعك، أولئك الذين لا يعيشون في ماضيهم".

قلة النوم والإرهاق من الرحلة سيطروا عليها، تمددت ملامحها وأحاطت عينيها الهالات الزرقاء، أدركت جيني أن اللحظة قد حانت ليسيطر على أماليّا دور الناضجة، نحَّت الفتاة الصغيرة التي تحملها بداخلها جانبًا، الفتاة الصغيرة التي تحمل الآلاف من الريبة والشكوك وانعدام الثقة.

- "جميلة قصتك، الكابرويوليه الحمراء وعاصفة الصحراء، والطريق نحو النهر،

لكن قولي لي، مباشرة، هل يلعب نديم أي دور في هذه القصة؟".

انتفضت أماليّا، حضر للتو ما كانت تنتظره، اسم نديم، الكلمة المفتاح، السن الذي ثقب بالونة ترددها، الكلمة التي تفتح كل الأبواب الموصدة بأقفال مزدوجة، المخفية، صوت ابنتها كان يحمل براءة السنوات الماضية المليئة بالأمل للحكاية، الإحباط، الذي لا يوصف، "افعليها!" أصوات متناغمة للحي والميت يزقزق في أذنها، الحشرة الزاحفة في بطنها تظهر، نحو المخرج.

- "نعم!".

اعتراف، أنفاس عميقة، ولادة ثانية، مؤلمة، لنفس الطفل، كيف يمكن هذا؟

هزت جيني رأسها بمغزى، حسنًا؛ لقد توقعت، لا تخفى عليها أمها، راحت عيناها تبرقان من الانتصار.

- "أين بالضبط يلعب نديم إذن؟".

تركض البراءة على شفتيها، قبل قليل من سقوطها في الهاوية.

- "من البداية للنهاية".

الدفعة الأخيرة وصار العرق يجري حتى الشفاه، صوت أماليّا راح يصعد واضحًا، عاريًا من كل تردد، صرخة الولادة، بعد صمت تام، وحتى يهدأ الألم والدهشة من ضوء الحقيقة الساطع، ضوء غرفة عمليات قاسٍ، كل مولود جديد يعيش في هذه اللحظة، لا يذكرها أي من المواليد، خرج من الطين الدافئ، عاريًا، أول نظرة على العالم، بعدها، البكاء الشديد المؤلم، يتوقف فقط عندما يوضع بين أحضان أمه.

- "اهدئي، يا صغيرتي، اهدئي يا جيني يا حبيبتي، من فضلك، كفي عن البكاء،

نحيب طيلة الليل"، ضمتها إلى أحضانها كما تضم العذراء يسوع الصغير، وعندما حل الفجر، استقبلت أماليّا اليوم وهي تغني أول هدهدة لابنتها، حديثة الولادة.

**حلمت أنها تقطع الطريق المستقيم في بالميرا**، لـم تكـن متأكـدة أنهـا بالميـرا؛ لأنهـا قـد شـاهدت الكثيـر مـن الآثـار والأطلال في الأيـام الأخيـرة، الضوء الوردي الـذي طلَى الحجـارة، كان هـو الشـيء الـذي جعلهـا تعتقـد أنهـا بالميـرا، أقدامهـا الحافيـة كانت تغوص فـي الرمـال الفاترة للطريق، سـائرة حولها حشـد من الألوان الفرحة -نسـاء جميلات ورجال وسـام يرتدون ملابسـهم العسـكرية، مطلية عيونهـم وابتسـامتهم- تشـكل الحشـد عنـد طـرف الطريـق المسـتقيم كأنهم ينتظرونهـا، كانـوا يحملـون فـي أيديهـم عمـلات ذهبيـة وبينمـا كانـت تعبـر مـن أمامهـم، فتحوا أكُفَّهـم فكانـت العمـلات تسـقط علـى الرمـال في صمـت، عندمـا وصلت إلـى المسـرح، توقفت لتبحـث عـن الحـروف المضيئـة لاسـم والدهـا، كانـت الحـروف لا تـزال تومض في ضعـف، باهتة تحـت لـون الغـروب المهيب.

"نديـم".. فتحـت جينـي عينيهـا وأغلقتهـا مـن فـرط المفاجـأة، بجـوار المدخـل رجـل طويـل مبهـر يختبـئ خلـف حجابـه، يحـرك يديـه بشـكل متقطـع محـاولًا أن يلفـت انتبـاه كل المشـاهدين، فقـد كان هنـاك صـف مـن النـاس غيـر العابئيـن يصطفـون علـى التوالـي بالفعـل حتـى طـرف الطريـق، انتبهـوا إليهـا وهـي قادمـة وراحـوا يصفقـون فـي تلقائيـة، بـلا ضجيـج، كانـت تـرى أنهـم يحركـون أياديهـم، لكـن صوتًـا لـم يصـل إلـى أذنيهـا، انحنـى الرجـل الواقـف عنـد المدخـل انحنـاءة عميقـة، سـقط حجابـه فانزلـق شـعره الأسـود الفاحـم علـى كتفيـه، مـد يديـه ليسـتقبلها، لأول مـرة كانـت عينـا ميخاليـس راليـس بهـا وميـض وردي ويبتسـمان لهـا، وكأنـه كان يسـتقبل أخـرى. "مـن يلعـب اليـوم؟" سـألته عندمـا وصلـت بالقـرب منـه، كانـت شـفتاه مطليتيـن وعلـق علـى صـدره كلحلـي أماليّـا، "أنـتِ يـا ملكتـي!" أجابهـا وبحركـة خفيفـة رفعهـا إلـى أحضانـه، لـم تلحـق أن تجلـب أي اعتـراض، أغلقـت عينيها من فـرط السـعادة، كانت تطيـر بيـن ذراعيـه القوييـن، يالـه مـن شـعور رائـع! سـمعت تصفيـق الجمهـور، للمـرة الأولـى فـي الحقيقـة، شـعرة بنشـوة وهـي تدخـل إلـى المسـرح، أحاطهـا تهليـل الجماهيـر، راح قلبهـا يضـق فـي صدرهـا، أنزلهـا والدهـا ووضعهـا برفـق فـي منتصف خشـبة المسـرح، وهو؟ سـيلعبان معًـا؟ "بابـا"، نظـرة نديـم الزرقـاء مسَّـدَتْ علـى وجههـا برقـة فاختلطـت بنظرتهـا، كل هـذا

اللـون الأزرق فجـأة، قريـب هكـذا، قبَّلهـا على خدها، لم يكن شـعر لحيته خشـنًا مثـل ميخاليس راليـس، بشـرة ناعمـة، غضـة، ذقـن حليقـة لتوهـا. "أنـا أحبـك، اطمئني، أنـا إلى جـوارك"، همس لهـا فأضـاءت بالميـرا فجـأة بـآلاف الألعـاب النارية التـي راحت تحرق السـماء، "أحبـك"، صاحت لـه بينمـا كان يتـرك خشـبة المسـرح، عـادت جينـي لتنظر إليـه وقلبها مفعـم بالسـعادة، من هو أبوهـا؟ هـذا الرجـل الطويل أسـود الشـعر ذو الحجاب الذي غادر وهو يسـتند على ممثلة شـابة، غـادر راليس المسـرح بأكتـاف منحنية يجـر خطواته،

كان نديم في أول صفوف المدعوين الرسميين وغمز لها بعينه متآمرًا.

**الأخبار السيئة** انزلقت من تحت باب الغرفة مع الجريدة الأجنبية، إخطار روتيني من الاستقبال في الفندق، "رجاء الاتصال بـ..." جاء صوت الممثلة الشابة من أثينا ضعيفًا بعيدًا، كانت الكلمات تتضح بصعوبة بالغة، وكأنها هي التي كانت في غرفة الإنعاش، طلبت جيني أن تتحدث مع الطبيب، مع الأسف كان في غرفة العمليات.

سألت الممثلة - الرفيقة بصوت خفيض:

- "مَنْ آخَرُ عليَّ أن أخبره؟".

أجابت جيني بسادية:

- "ألا تكفين أنتِ؟".

راحت الأخرى تلوك كلماتها:

- "لكن أنا، أعني أحد الأقارب".

- "ليس لديه أقارب".

قالت لها جيني وأغلقت هاتفها الجوال.

تعجبت من استخفافها، والدها في خطر، من الذي في خطر؟ ميخاليس راليس في المستشفى، اقتربت من الفراش الكبير في الجناح، أمها في حالة نصف دوار، مأخوذة من الحكاية ولا تزال نائمة، انحنت فوقها: "هل أنتِ نائمة يا ماما؟"، لم تميز ملامحها في الضوء الخافت، بين الملاءات ظنت أنها ترى تلك المرأة الشابة التي كانت تحاول جاهدة أن تخنقها في منامها لسنوات طويلة، لهذا لم تعد تخشى العيون المغلقة والصمت اللانهائي، ترى ما تحلم به أمها في منفاها بلا انقطاع، رأت وجهها على سطح البحر الكبير وراحت تحلم بأنها تعبر النهر.

كانت وحيدة في زواجها، ووحيدة تمامًا في طلاقها، الوحدة، سرج ثقيل، يتحد مع الجلد، لا يراه الآخرون، في عناقهما كانت جيني تتحسسه، تشعر به، بالتأكيد

رآه دايـف، بيَّـنَ لهـا كيـف تقـاوم، كيـف تمتصهـا للداخـل، كـي تخفيهـا، عندمـا رحـل هـو انحنـت أماليّـا قليـلاً مـرة أخـرى. "بدايـة لهشاشـة العظـام"، كانـت تقـول وتنفـق الوقـت والأمـوال فـي صـالات الرياضـة، اسـتهلاك الوحـدة، كانـت تـرى انعكاسـه علـى النوافـذ بينمـا تمـر فـي فخـر أمـام المحـلات الباهظـة، كان الحـدب يشـوهها، لـم تحتملـه.

سـحبت جينـي السـتائر الثقيلـة فانقـضَّ الضـوء الربيعـي علـى الغرفـة، فـي الأسـفل، كانـت الشـوارع تعـج بالسـيارات والجمـوع تتجمـع علـى الأرصفـة وفـي الميادين، يـوم جديـد، عذابات جديـدة، المدينـة تتمـدد أمامهـا، شـاحبة مـن دخـان المـرور، البنايـات الحكوميـة شـاهقة وبـلا شـخصية، زجـاج شـاحب، منـارات وعمـارات أرسـتقراطية، كل هـذا معًا فـي خليط من الأسـمنت والحديـد، تتمـدد دمشـق خلـف الجامـع حيويـة وقـذرة، لكنهـا مألوفـة! تخصهـا، وطنهـا الثانـي، ابتسـمت عندمـا تذكـرت رومانـوس، ستنقسـم مثلـه الآن بيـن وطنيـن؟ يـوم الأربعـاء الماضـي لـم تكـن تعـرف أيـن تقـع هـذه المدينـة بالضبـط، لكن مـن اللحظـة الأولـى التي وطئـت قدمها هنـا، شـعرت بإحسـاس غريـب، لم يفاجئهـا شـيء، وكأن كل شـيء كان مكتوبًا بداخلها، الشـوارع المتاهيـة للمدينـة لـم تُخفِهْـا، ولـو تجرأت كانت سـتلمس النـاس الذين يمـرون أمامهـا أو الذين يدفعونهـا مـع الجمـوع الغفيـرة في البـازارات.

اقتربـت مـن النافـذة، ومـن أعلى -هـم في الطابق العاشـر- تحـاول أن تحدد موقعهـا، خلفها بالضبـط فـوق التـل يقبـع القصـر الرئاسـي، علـى اليمين يرتفـع الجبل الـذي يظلل علـى المدينة، يثقلـه هـذا الخضـم مـن العشـوائية، المنازل المبنيـة بطريقة رديئة مرشـوقة علـى المنحدر الحاد تتعلـق علـى فوضـى وسـط المدينـة الصاخـب، فـي الأسـفل بالضبط أمامها الطريـق، الشـريان الرئيـس الـذي يقسـم المدينـة إلـى نصفيـن، علـى التـوازي مـع الطريـق الـذي يذهـب إلـى نهـر بَـرَدَى، خـاوٍ، صامـت، لكنـه موجـود. لا بـدَّ أن بيـت الخـال نديم قريبٌ مـن هنا، اقشـعرت جيني مـن فكـرة الرجـل المسـن ذي الابتسـامة البريئـة والعيون الزرقـاء الشـاحبة، عيناها، تتذكـر جيدًا كـم غـارت مـن نظرتـه الرقيقـة نحو ابـن أخته.

- "انســي الماضــي!"، قــال لهــا رومانــوس وشــفتاه الدافئتــان يملآنهــا بالقبــلات،

والآن؟ حيث صار الآن ماضيًا والماضي صار حاضرًا؟ الآن أراك يا شيخي الجميل! انقسام بين وطنين ولا تدري أيهما تختار: الجميل أم الأجمل، الآن تبدأ الصعاب، لم تعد وحدك، ماذا يكون وطنان أمام أبوين؟ جلست على الأغطية تُمسد برقة على ظهر أمها.

أمها. محكوم عليها بصمت فرضته على نفسها، كانت تعيش في زنزانة الوحدة التامة، لا تعرف جيني شيئًا عن حياتها الحقيقية، عن أفكارها ومشاعرها، كانت تظن أنها أقرب الأشخاص إليها، ولكن في الحقيقة كانت أماليّا غير معروفة، كانت تحتفظ بالجوهر مخفيًّا في أعماقها بعيدًا عن الجميع، المرأة التي تحت الأغطية ليس لها أية علاقة بالأم التي كانت تظهر على شاشة كونها الطفولي، المعطاءة المحبوبة والتي لا غنى عنها، عاشا معًا واقعًا افتراضيًّا، ربَّتْها بحقيقة مزيفة، أساءت استخدام سلطتها. "ممَّن أخذتُ العيون الزرقاء يا ماما؟" لم تسألها أبدًا، وفي ليلة الأمس كانت الأسئلة أقل، كان التأثر هو ما بزغ، "لماذا لم تقابلي نديم من حينها؟" تجرأت للحظة فقط، "عندما حصلت على الطلاق كان هو قد تزوج مرة أخرى ورحل إلى أمريكا".

كيف استطاعت أن تكتم داخلها سرًّا كهذا؟ وماذا لو كان لديها أسرار أخرى؟ هناك أمر آخر، أقوى، أكثر تدميرًا من هذا؟

فاضت منها الرقة نحو أمها، كم تشبهها! يمكن أن تتنفس فوقها ريبة وشعورًا بالذنب، مشاعر مختلطة من الشوق والخجل قبل عناق خفي، أن تشعر بالاكتمال من اللمسة الممنوعة، أن تشم على جلدها عاصفة بالميرا الرملية، آه! رائحة أمها! مهما فعلت، هذه لا تتغير أبدًا، وماذا لو أن أحدًا قال لها الآن إن أماليّا ليست أمها؟ غاص السؤال في بطنها ورشق بنعومة في الأحشاء، يؤلم، ينزف، تشعر جيني بدفء نومها، بأنفاسها المتقطعة، بقلقها الخفي الذي يتبعها في أحلامها، الرائحة، وأجهضت التساؤل.

- "لا تنامي يا ماما"، همست في أذنها.

قبلتها عند جذور شعرها وعند حافة شفتيها وفي آخر عنقها، فتحت أماليّا عينيها، على استحياء في البداية، ياله من إيقاظ رائع!

- "صباح الخير يا صغيرتي".

مدت ذراعيها لتعانقها، تقوقع رأس جيني عند رقبتها، بقيتا قليلًا بلا حركة، أعراض معاهدة قاسية، وقَّعتاها بالأمل، من تتذكر ألم الولادة الرهيب وهي تحمل الطفل على صدرها؟ انتصرت جيني على ترددها.

- "انهضي شيئًا فشيئًا، أبي مريض".

نهضت أماليّا جالسة، هزة عنيفة، إعادة ضبط كلي، واقع جديد.

- "من؟".

- "أبي، في أثينا"، كررت جيني.

أبو حياة أخرى، الغائب الكبير، أبو الهجر والرفض، هو من قتلته أماليّا ليلة أمس بكلماتها، جاء بعد العاصفة الرملية وانتهى تحت أطنان من الرمال، الآن فهمت جيني سبب نظرته الفارغة، لمساته الفاترة، كان في أعماقه يشك، كان راليس يتعرف في وجهها على الخيانة، لكن الأنانية دفعته للقبول، مراوغة ونفاق، كان بارعًا في تمثيل أدوار كثيرة، كان يهرب من ذاته لبعض من الوقت، ذاته التي يكرهها، والتي كان يود أن يعيد إنتاجها، مثل ستراتوس، يالها من صدفة! زوجان مخدوعان، أصابهما الخرس أمام ما يحدث فأخذا يدوسان على كل شيء في طريقهما.

أماليّا خرجت من تحت الملاءات وهي تحك خصرها، نوم قليل وسيئ. الارتياح غمرها عند الفجر عندما أغلقت جفنيها اختفى فجأة، لم يَبْقَ منه ولو قطرة واحدة، كان راليس هكذا على الدوام، كان يحتفظ لنفسه بأفضل اللحظات كي يظهر على خشبة المسرح، صاخب، مستفز، يفعل كل شيء من أجل أن يلفت الانتباه إليه، كله، كل الأعين فوقه.

- "ماذا به؟" سألت وهي تغلق الحمام على نفسها.

لا تنتظر ردًّا، إذ تعرف أنها ستقابله في المشهد الأخير، هو ونفسها الضعيفة، خصم مزدوج، لكنها مستعدة للنهاية، حياة كاملة من البروفات.

عندما خرجت بعد قليل وجدت جيني تدخن مستلقية على الأريكة.

- "لستِ مضطرة أن تذهبي إلى أثينا"، قالت لها.

نظرت إليها من خلال دخان السيجارة، انتبهت أماليّا إلى ضعف ابنتها، تحاول أن تتذكر متى رأتها تأكل آخر مرة، نحفت كثيرًا حتى صارت جلدًا على عظم.

- "لا تدخني، لم تستيقظي بعد"، تجرأت وقالت لها.

- "يا أمي، لا تبدئي الآن!".

كانت كل منهما تقيس مدى تحمل الأخرى، الخسارة للجانبين، عقدت أماليّا البُرنس المبلل على خصرها وجلست بجوار جيني التي أطفأت السيجارة بدورها، هدنة مؤقتة، يد الأم لمست ظهرها، لمسة مألوفة، طمأنينة.

- "على كل الأحوال كنت سأرحل يا صغيرتي جيني".

الحقيبة الفارغة ما زالت مفتوحة في جانب الغرفة، الملابس مرتبة في الخزانة، كذبة لا طائل منها.

- "أنتِ ستغادرين، لقد تحدثتِ عن بداية جديدة، ألم تقولي شيئًا كهذا؟".

بإصرار تحكمت جيني في رعشة يدها، بالتأكيد تحتاج إلى بعض من الوقت كي تهضم قصة كهذه، من خلال عينيها الدامعتين واهتزاز الستارة الرقيقة، ظهرت دمشق أمامها باهتة رمادية، قباب الجوامع تبرق والأكواخ تتسلق منحدر الجبل بازدحام، تُرى أين تقع السوق المزدحمة ذات الألوان والعطور؟ لقد رأتها، سارت في أزقتها أم كان محض خيالات، حكاية؟ وما هذا الذي تعيشه الآن؟ حلم، نفس الحلم الذي رأته في منامها، مسرح بالميرا وراليس يختفي في الكواليس، أبوها

يشاهدها من الصف الأول، وهي تجهل تمامًا كلمات الدور الذي عليها أن تلعبه، المسرح شاسع، لكن فوق خشبته تقف أماليّا، هي في المنتصف، الإضاءة مسلطة عليها، أمها، ممثلة في كل زمان ومكان، معتادة على الصعاب، شخص آخر هو من حظي بالاسم والشهرة، لكنها لسنوات كانت تلعب دورها ببراعة، دون تصفيق، والآن تقدم أفضل عرض، سيناريو، إخراج، قامت بكل شيء.

- "ماما".

مالت إلى حضنها.

- "كان لديَّ مخططات أخرى"، قالت لها وعصرتها أكثر في حضنها.

- "أعلم، ياطفلتي"، اعترفت أماليّا.

راحت جيني تدرس خططها، هدوء! متى فعلت شيئًا كهذا مثلما تفعل الآن؟ لكنها اليوم تشعر بقدر هائل من الهدوء، متحررة من كل ثقل الماضي، الاختيارات الخاطئة، والمشاعر المهدرة، علاقات ملغاة من بداية الطريق، اليوم هي جيني أخرى مختلفة عن الماضي، القديم، المهدر، تقيأته على أسوار نور الدين، أرسلته إلى قاع بحيرة الأسد، بقيت تتأمل الأفق خاوية من الذكريات المسمومة، بريئة، وواصلت قصة تبدل كيان كل الأشياء، الصفحة الفارغة امتلأت، فاضت من العشق، والمشاعر والشخوص الجديدة، تحتاج إلى الوقت كي تتعرف على هؤلاء الذين حددوا ماضيها وشكلوا شخصيتها وملأوا ألبوم حياتها، تحمل بداخلها جيناتهم، ألوانهم التي ورثتها، حركات تظل مثل نسخ طبق الأصل، مشاعر تموج بداخلها، الأبوان يظهران في الابتسامة وفي نبرات الصوت الدقيقة، في انتصاب الظهر وفي شكل الأظافر، في نقاط ضعف الجسد الموروثة وفي المواهب الخفية غير المستغلة، في قلق غيابهما، من هي التي ستقرر إذ لا تعرف شيئًا عن الظروف أو الأسباب التي دفعتهما ليفعلا أو لا يفعلا شيئًا؟ عفو مرتبك.

في البداية، وقفت أمام المفاجأة مشدوهة ومخدوعة، بكت وانتظرت كي تسمع صوت الانكسار يقفز من داخلها ويطويها إلى نصفين، أما عن البكاء فقد هدأ

والكسر لم يأتِ، أما قلبها فقد لانَ، كأن الحقيقة الجديدة التصقت فوقها مثل الصمغ، مادة سحرية لها خصائص شافية، ربطت القديم بالجديد، دون أن تترك أي أثر صغير، اعتراف أماليّا التهم كل مرارة ورفض راليس، وأخيرًا فسر السبب الذي كان مفقودًا منذ سنوات، وكأن أباها كان في حاجة إلى سبب كي لا يحبها، مرارة لانهائية كانت تجرها خلفها كعربة، الآن وقد ارتاحت من هذا الحمل تجرؤ أن تنظر أمامها بتفاؤل، بأكتاف منتصبة، بصدر مفرود، في وضع الاستحقاق، تذكرها بنيكي ثاموسراكي[1]، النسخة البرونزية على مكتب نديم، بلا رأس، بلا ذاكرة، بأجنحة مفتوحة، جسد مستعد لكل شيء، جيني مستعدة لكل الاحتمالات أمامها، من الأفضل وحتى الأسوأ، جاهزة لمواجهة كل شيء، أكبرها هو رد فعل نديم، في عمره هذا ليس من السهل أن يجد له ابنة، سيكلفها رفضه الكثير، لكن عندما تتذكر نظرته الرقيقة إلى رومانوس، تتحمل مسؤولية المخاطرة على الفور، هي جاهزة لتعطي كل ما تملك من أجل نظرة كهذه، هذه النظرة التي غارت منها كثيرًا، الآن تستطيع أن تحظى بها، ستسعى إلى أبيها، كما لم تفعل مع ميخاليس راليس، ماذا حدث ولم تجرؤ أبدًا أن تفعله معه؟ لكن أي طفل يسعى لطلب أبيه، الأب أمر مسلَّم به، يوجد دائمًا بالقرب وينظر إلينا بحب جارف، لكنه كان غائبًا على الدوام، غروره المسحوق في غرفة الإنعاش، في غيبوبة.

ورومانوس؟ بينهما صلة دم، محكوم عليها من البداية، وجد جيني، حورية ضائعة تنتفض على الشاطئ فقادها إلى البحر، البحر المبارك! تنفست في الأعماق، غسلت الملوحة عنها الماضي القذر، أسماك عفنة سقطت وذيل قطع تاركًا في محله ساقين لتقف عليهما، لتسير.

قالت:

- "سأذهب إلى أثينا".

- "لستِ مضطرة"، كررت أماليّا.

---

1- تمثال آلهة النصر المجنح اليوناني، موجود بمتحف اللوفر.

يمكـن لتلـك المـرأة أن تتعامـل مـع راليس، فقد كانت تـدرس وتخطط لهذا، لم تشـأ أن تكون وحدهـا أمام نديم.

- "ولو ذهبنا معًا؟"، تجرأت وسألت.

- "جاين ديجبي لم تعد، بقيت مع رجلها البدوي".

- "لا تمزحي يا جيني، أي علاقة لي أنا مع الإنجليزية؟ هي كانت منفية، يائسة".

- "وأنت كنتِ يائسة عندما جئتِ إلى هنا، لماذا جئتِ إلى سوريا؟".

السؤال شق الرحمة المخملية، انفصل جسداهما بشكل غريزي.

- "كان بحثًـا بداخلـي أكثـر من أي شـيء، لكن الظروف تغيرت، لو لم تُصَـبْ إيفيلين، لا أدري أيـن كنـا سـنكون الآن، ربمـا فـي حلـب، ولـو لـم تصابي أنـت، ربمـا كنا في مـكان آخـر، جبروت الصدف".

- "لكن ليس مع نديم، أليس هذا ما تعنينه؟".

- "لم أكن أخطط كي أقابله، على الأقل ليس بهذه السرعة"، اعترفت أمها.

- "هل كنت تخططين أبدًا أن تحكي لي عنه؟".

اهتزت من نبرة جيني القاسية، أخيرًا داس الأصبع على الجرح.

- "لا أحتمل الاعتراف طيلة الوقت يا جيني".

- "هل كنتِ تنتوين إخباري؟".

صمتت أماليّا، مذنبة.

- "إذن ما دام أبي في المستشفى، فأنا مجبرة أن أذهب".

- "جيني!".

- "علـى الأقـل فقـد عشـنا أنـا وهـو فـي نفـس الأكذوبـة، ليـس مـن العـدل الآن وأنـا

أعرف أن أتركه في ساعة صعبة، أليس كذلك؟ الحب كمنهج دراسي، واجب بلا فوائد".

تسمع أماليّا الضجيج المكتوم في رأس ابنتها، هل يحدث نفس الشيء في رأسها؟ يصعب عليها التعامل مع غضب جيني، تعيش الكابوس الذي كانت تخشاه، أمامها ابنتها كأحد المحلفين تلقي عليها الاتهامات، بلا هوادة، تندم على لحظة الضعف التي جرفتها ليلة أمس، عن التفاؤل والتلقائية اللذين دفعاها للحظة الاعتراف، ماذا فعلت؟

نهضت بصعوبة، البُرنس المبلل التصق على جسدها فشعرت بالبرد، تود لو تنفجر في البكاء وتختبئ في أحضان ابنتها، لكنها لملمت أشلاء شجاعتها وفعلت العكس تمامًا، ارتسم على وجهها تعبير قاسٍ، لكنه هادئ.

- "أنا مجبرة أن أترك لك المبادرة، افعلي ما تفهمين وما ترغبين، بالأمس اتهمتني بالخوف، وأنني لا أثق بكِ، لكنني أخشى شيئًا واحد فقط، هو أن أخسرك، البقية تأتي في المرتبة الثانية، حتى نديم ورواليس".

مفاجأة سعيدة، كانت أماليّا حافية القدمين، ليست في حاجة لحذاء بكعب عال حتى تصدر إشعاعات سيطرة الأمومة، بما يليق بالظرف ويملأ جيني بالارتياح، نهضت وعانقت أمها.

- "دعيني ولو لمرة أفعل شيئًا دون أن تعلقي عليه"، قالت لها بصوت خفيض.

شفاههما على خدَّيْهما ختمت على معاهدتهما الجديدة.

# نديم

**الموسيقى** التي يسمعها رومانوس من اللاب توب المفتوح تختلط شيئًا فشيئًا مع ضوضاء الشارع، يقرأ بريده الإلكتروني وينهي فطوره، منذ قليل زار موقع "**Syrian revolution**"، واحد آخر من مئات الزوار الذين تكدسوا بالموقع في هذه الساعة التي سمع فيها في سوريا بالـــfacebook، الأحداث في شمال إفريقيا أثرت على الجماهير والمعارضة هنا، على استحياء في البداية، ثم شيئًا فشيئًا وبشكل أوضح تضاعفت الأصوات، اشتعلت المطالبات، أغلق رومانوس الصفحة مضطربًا، يود لو تحاور مع خاله في هذا الأمر، لكن ليلة الأمس كان كل الاهتمام موجهًا لناحية أخرى، أماليّا وجيني استولتا على وقتهما، ولو أن الفرص سنحت لهما، تجنبا أن يتحدثا عن التطورات في المنطقة، بدا نديم مشغولاً غارقًا في التفكير، غادر في الصباح إلى مكتبه.

من المطبخ سُمع صوت المياه والأطباق في أيدي سانتيا، على شاشة الكمبيوتر زوي تلقي تحية الصباح بصور لنافذتها المشمسة، وسكرتيرته بإلغاء رحلة أخرى إلى مصر، لم يدرك أن يرد على رسالة المكتب لأن الأصوات من الخارج صارت تقوى وتتصاعد شيئًا فشيئًا، غطت الأصوات على صوت الموسيقى واخترقت طقوس البيت الصباحية، بدافع الفضول سحب الستارة ودخل إلى الشرفة، حوالي مائة شخص تجمعوا على ناصية الشارع المؤدي إلى الميدان الرئيسي، كانت أصواتهم تحمل حدة المظاهرة، لاحظ بعض الملابس البنية للشرطة بين الرجال الذين يصيحون وهم يرفعون أياديهم، متعجلًا ألقى رومانوس بهاتفه الجوال في جيبه وهرع إلى الشارع.

الشارع يعج بالمارة، المتعجلين والمدهوشين يتوجهون نحو الميدان، توقفت السيارات، أبواب المحال مفتوحة وخاوية من أصحابها وكبائن الحراسة في البنايات خاوية، خروج لحظي عن القواعد والقيود، فقط إشارة عبور المارة مستمرة في تغيير الألوان بجرأة دون أي نتيجة، حيث صار المارة مع السيارات كتلة واحدة، قبل قليل من التقاطع عند الناصية.

اقترب من المحتشدين، "عار! عار!" يصيح الرجال من كل الأعمار، صعد أحدهم على إحدى السيارات، رفعت الأذرع، الهواتف في الهواء، والهتافات تطير من فوق الرؤوس. سأل مجموعة تأتي من الاتجاه المقابل ولم يتلقَّ ردًا سوى الغضب وأنصاف جُمَل، منح السبب فجأة، أحد رجال الشرطة ضرب أحد الشباب، انحازت الجموع للشاب وعارضوا رجال الشرطة والحراس المدنيين الذين تركوا مواقعهم وهم يحملون بنادقهم وأسلحتهم بشكل مستفز، تضامن عام، سخط، الأيادي تصفق بإيقاع والحِدَّة تزداد شيئًا فشيئًا، رائحة رد فعل مستوردة، صور ميدان التحرير انتشرت حول العالم من خلال قناة "الجزيرة" وشاهد الجميع مآل الأمور، بين يوم وليلة، ثورة في مصر، أي يوم أشرق اليوم في دمشق؟

الوجوه في كل مكان غاضبة وقلقة، أصوات الدوريات تتعالى متكررة وعنيدة، وصلت الإمدادات، زادت قوة الهتافات، لكنها موالية للنظام. "بالروح بالدم نفديك يا بشار!" قسم إخلاص للرئيس، آه! الوطن هام بالنسبة للفقراء والمساجين، لا تمسوه، إنه مقدس، قديس، ندوس على أرضه، ننزف الدماء، لكننا نتبع قائدنا وحامينا، وطن ورئيس، من دونه نحن ضائعون، نظرته الوطنية ترافقنا في يوم العمل، السعي الذي لا يرحم وراء قوت اليوم، "عار! عار!" من أجل من؟ في هذا المكان لا يريد أحد أن يفقد قائده، هنا عاش الأجداد المقدونيون، هنا كبر السلوقيون، من هنا مرت قبائل البدو العريقة، الدماء تحمل الاحترام من جيل إلى جيل تجاه القائد، وطاعة الجندي. "بالروح بالدم نفديك يا بشار!" سلطة الأب أمام الأولاد، رجال، أطفال يرددون غضبهم، يجعلونه أغنية، في النهاية مثل صلاة تصعد من طيات الصدر وترج أجسادهم السمينة ثم تتدفق في الهواء.

تراجع رومانوس، أين عنف المتظاهرين في وسط أثينا؟ نزع المقاعد والرخام المكسور، الحرائق أمام الجندي المجهول؟ ليس هناك حتى قنابل مسيلة للدموع ولا رصاص، فقط بنادق القناصة الصامتة، احتجاج رضع، أي هيرودوس[1] سيعارض؟ لا مكان ليهودي على التراب المقدس لسوريا. "الشعب السوري لا يهان، الشعب السوري لا

1- هيرودوس الأول، حاكم الجليل الذي أصبح ملك اليهودية وبسط نفوذه من هضبة الجولان شمالًا إلى البحر الميت، كان مقره أورشليم، واشتهر بمشاريع البناء الفاخرة، منها هيكل سليمان.

يهـان!" فقـط يتحملـون، يلوحـون بهواتفهـم باحثين عـن حقهم مـن الأب، المخول الوحيد لنشـر العـدل والهواتـف الجوالة، فـكل منهما احتـكار للدولة.

اسـتدار رومانـوس وابتعـد عن منطقة الأحداث، علـى هامش التظاهرة سـمع أصوات معارضة واضحـة، الإنترنـت يوضـح الكيفيـة، حيـث إن السـبب واضـح، لكـن هـل تكفـي ذريعـة بسـيطة للغايـة؟ إلا أنـه فـي هذه المرة اشـتعل السـخط، والخمول أعطـى مكانه للمشـاركة، أول مرة يرى شـيئًا كهـذا، مثـل كتائـب السـيارات العسـكرية التـي رآهـا بالأمـس، ربمـا الأمـر أكثـر جديـة مـن تدريـب روتينـي، شـعر بوخـز بداخلـه، فرحـة خفيـة وقلـق فـي الوقت نفسـه، مـاذا لـو فتح فمه هـو؟ لـو تجـرأ علـى الصراخ، لـم يفعلها قط من قبـل، وُلد تحميه قشـور عائلة كانت فيهـا اليونان تجـري علـى أسـفلت الرفاهيـة، كان يكفـي أن يعبر عـن إرادته السياسـية بمنح صوتـه الانتخابي. الرصيـف يحتـاج إلـى السـخط، وفـي أثينـا لم يصل السـخط بعـد لدائرتـه الاجتماعيـة المدعومة، لكـن هنـا؟ عـرق جـارك يُعدي، قلق الآخـر يلتصق كالعلق، يسـمع خلفـه صفارات الإنـذار وأبواق السـيارات بينمـا عربـات الأمـن الحكومـي تقطـع الممرات، هنـاك توتر، يحـاول الكثيـرون الهرب، بينمـا تتعالـى الهتافـات، يبدو أن النـاس غاضبة.

لاحـظ شـخصًا أنيقًـا يرتـدي رابطـة عنـق ونظـارات يتميـز بيـن الرجـال الغاضبيـن، غريـب كيـف وجـد فـي وضـع غيـر ملائـم مـع هـؤلاء الرجـال الذيـن يشـتغلون باليوميـة، ملابسـه أنيقة مكويـة وحليـق الذقـن، سـمين بعـض الشـيء، يمنـح ثقـة ورائحـة بعـد الإنقـاذ، تظنـه سـيصل إلـى المـكان الـذي يقـف بـه رومانـوس، يرفـع أصبعـه كمعلـم ويتوجـه نحـو المشـاغبين الذيـن صعـدوا فـوق السـيارات، المنكمشـين فـي سـتراتهم الواسـعة، الصارخيـن ذوي الأفـواه الجافـة، "مـن هـذا؟"، يسـأل شـخصًا بجـواره، ثـم تصل إلـى رومانوس أصـداء أصـوات الإعجـاب. "الوزير، الوزيـر.. لقـد جـاء الوزيـر!" السـلطة علـى الرصيـف، حصافـة ومهانـة، تريـاق للاسـتبداد، متـى حـدث أو سـمع مـن قبـل أن يخاطـر وزيـر بسـلامته الجسـدية ووقـار منصبـه؟ يمكـن لأحـد مـن الجمـوع أن يهجـم عليـه أو شـخص آخـر يلقـي عليـه بالزبـادي أو كيـس مـن الفاكهـة الفاسـدة الهالكـة التـي تفـوح رائحـة عفنهـا فـي محـلات بقالـة الدولـة، تتلاحـق أنفـاس الجميـع فـي

انتظار المبارك، الذي حدث كان على العكس تمامًا، هجم الوزير على أحد الضباط وبحركات عنيفة راح ينزع عنه كتافاته، النظام يعاقب النظام Bingo!تعزير وتطهير للذات، تصفيق، صفير وتهليل، صيحات حماسية وتشجيع، أصاب الناسَ الخدرُ من التطور المفاجئ، روت ظمأها لحظيًّا دون أن تسيل نقطة ماء، دون أن يفتح أنف واحد، الوجوه الغاضبة هدأت والأجساد المتكتلة راحت تفتح الطريق أمام سيارة الوزير التي يدق بوقها باستمرار باحثة عن طريق للهروب والنجاة، تراخي النظام المؤقت، وانفجار للشعور الشعبي، حَنَى رومانوس رأسه شاعرًا بمهانة الضعيف، راح يبحث عن الضابط المعاقب، بلا جدوى.

في هذه اللحظة رآها على الرصيف المقابل، هذا ماكان يفتقده، حضور نسائي وسط حشود الرجال، كانت تضع على رأسها وشاحًا أبيض معقودًا تقريبًا وتسير في مقابل المتظاهرين الذي يتركون المظاهرة شيئًا فشيئًا، فتح خطوته بثقة، بدت له أكثر طولًا، الوشاح والنظارة الداكنة يخفيان وجهها، تريد أن تمر دون أن يلحظها أحد، فهي المرأة الوحيدة بين كل هؤلاء الرجال، هاربة على أرض غريبة، مثل الليدي إيلينبرو وهي تذهب لتقابل عشيقها، كجاين ديجبي تتجول بين البدو الأحباء، لقد بات متأكدًا، أنه يحبها.

- "جيني!"، صاح يناديها.

صوته كان قويًّا كقبضة، قطع الهواء، بدلًا من الهتاف، سمعت اسمها وراحت تبحث عنه بين أبناء وطنه المحبطين، والآن أبناء وطنها، الذين يبصقون غضبهم على الرصيف، آه! شيخها الجميل! وقفت أمامه، إنه مختلف ومميز عن الجميع.

*لم يقد شيخي أبدًا ولم يحرك ولا حتى يسعى إلى أي فصيل جشع؛ لأنه يعتقد أنه ليس من الصحيح أن يأخذ ممتلكات لا تخصه.*

نحيل، بريء من دمائه العربية التي تجري في عروقه، يشعر بالذنب للمسافة التي تفصله عن كل هؤلاء الذين يحومون حوله، حزين جدًّا إلى حد الضياع، ليس له أي اتصال بالرجال الذين يمرون صائحين ملوحين، نظرته تشبه نظرة الرئيس

على الأفيشات، التي تنعطف هاربة فوق رؤوسهم، يحدوه قلق طفيف، ليس من أجل ما يحدث بجواره، ولكن من أجل ماسوف يتبع.

- "جيني!" صاح مرة أخرى.

كان يمكن أن يكون أحد الهتافات، كان صوته معبئًا بالجرأة والحدة، كان يمكن أن يثير الأوضاع ويبدلها، أن يعيد الجموع والشرطة إلى مكان المعركة، أن يعيد للضابط كرامته المهانة، لكن أحدًا لم يلتفت، لم يقف أحد ليسمع، بقي وحيدًا مفردًا، انقسام الروح جعله يبدو غير مرئي للجميع، لا أحد يراه سواها، ركض يقطع الشارع، انزلق بين السيارات المتكدسة، وصلت إليه ببضع خطوات.

- "كيف وُجدتِ داخل المظاهرة؟"، سألها وهو يفتح ذراعيه.

الآن تبتسم، ممتنَّة لأن شخصًا ما يتعرف عليها، لم يلاحظ أن جيني تتجنبه.

- "خرجت من الفندق وسمعت الأصوات".

- "هذا أمر لا يحدث كل يوم في دمشق، لكن الأمر سريعًا ما هدأ",

صوته به شيء من الاستسلام,

- "هكذا أفضل، سيكون من الصعب أن تحدد موقفك".

استبقت أفكاره، لكنه لم يعد يندهش، على العكس صار يشعر بالارتياح، مدَّ ذراعه كي يحتضنها، أمسكت بيده مبعدة إياه فجأة.

- "يا رومانوس، إن أبي في المستشفى، سأغادر على الفور إلى أثينا".

قبل عذرها وأخفى إحباطه؛ ليس هذا وقت العناق، لكنه لن يتركها وحيدة.

- "عرفت بالأمر، كنت أفكر أنا -أيضًا- في العودة، لقد غبت كثيرًا عن المكتب وعن عملي".

رشقت إجابته في صدرها، اقتنص الفرصة كي يتبعها إلى اليونان، هل هو

مجنـون مـن أجـل العنـاق والقبـلات لـم يلحـق أن يشـبع بعـد؟ أم أن الشـيخ الوسـيم يبحـث لاهثًـا عـن الثقـة فـي بحـاره؟ غريـق فـي الصحـراء يسـعى إلـى الميـاه الهادئـة فـي أثينـا، إلـى الحيـاة التـي تنتظـره وعملـه المرتـب، الصحـراء التـي عشـقها لـم تعـد تبـرق تحـت ضـوء القمـر، تشـقها ريـاح الكراهيـة وقرقعـة الأسـلحة، يتمـرد عليهـا ذيوجينيـس، كمـا كان فـي درس التاريـخ.

غـرور الأنثـى يتمـزق كخرقـة رقيقـة، الشـرخ الـذي كانـت تنتظـره طيلـة الليـل يصـدأ فـي صدرهـا، ألـم فظيـع، لـن تحتملـه مجددًا، لـن تبقي لتواجهه، تغضب، السـخرية هـي أن رومانوس دفعهـا بالأمـس القريـب كـي تمحـو ماضيهـا، أن تتمرد على عقبـان روحها، أن تبـادر بالهجوم، كان يمكـن أن يسـعى إليهـا بـآلاف الطـرق، لكـن مـا حـدث فـي ليلـة الإنعاش، تعـرف جيني عـن ندم الرجـال، خنجـر العشـاق يمـر علـى تفكيرهـا، الأخير كان سـتراتوس بـرأس منحنٍ يعيد لهـا مفتاح بيتهـا، مشـاعرها معروضـة علـى زجاج مكتبـه، أعادها إليهـا هي أيضًـا، كنوز بائرة،ضمت شـفتيها وهجمت:

- "هل خفت من مظاهرة صغيرة في الشارع؟".

ألـم يَـرَ أبـدًا مظاهـرة فـي أثينـا؟ الشـباب ينزفـون الدمـاء علـى الأسـفلت والأبريـاء فـي أكفان مغلقة ؟

- "الأمور تتبدل بجنون"، اعترف وهو يشير لها حوله عن المظاهرة المنتهية.

الأنانية لا تسمح له أن يعترف بأنه يركض خلفها.

- "أليس من حق هؤلاء أن يطالبوا يومًا ما بما هو أكثر؟".

التمـرد علـى النظـام الاسـتبدادي، علـى الأب القاسـي، الصحـوة، العـرب دائمًـا لديهـم علاقـة ضعيفـة بالديمقراطيـة، هـل السـبب فـي هـذا هـو الإسـلام؟

نظـرت إليـه بتسـاؤل، أيـن ذهـب الحـكاء الحيـوي للتاريـخ القديـم؟ أيـن اختبـأت ريشـة الرسـام الموهـوب للجداريـة المعاصـرة لهـذا البلـد؟ طيلـة هـذه الأيـام ورومانـوس يكشـف الغطـاء عـن وطنـه الثانـي، يـدور بهـا فـي مـدن ميتـة وفـي طـرق صحراويـة، فـي

أسـواق ملونـة وأماكـن الجـذب السـياحي، غيـر مشـتبه راح يشـرح لهـا عـن وطنهـا، كان يبيـن لهـا أرضهـا، كل مـا يحـب، مـن خـلال عدسـات مقعـرة، خادعـة، متجنبًـا النـاس، لكـن الآن، فـي اللحظـة الحاسـمة، هنـا أمـام الانفجـار، بيـن أبنـاء وطنـه يجـرب لأول مـرة خطـوات المطالبـة بالحقـوق والتمـرد، تراجـع رومانـوس، طـوى الخرائـط والكتـب وركـض ليختبـئ فـي أمـان أرضـه، لـن يحقـق التجـاوز، سـتبقي سـوريا للأبـد علـى الهامـش، عـدم الرضـا، البلـد السـري لعقلـه وحلمـه، هنـاك حيـث يمكنـه أن يهـرب دون أن يتهـم بالهـروب، البـلاد التـي يحـن إليهـا بيتـر بـان بيـن الحيـن والآخـر، تشـعر بالأسـى نحـوه.

رفعـت الوشـاح الأبيـض مـن علـى رأسـها، راحـت تراقبـه مـن الحُلَّـة التـي حاكتهـا، ليسـت مضطـرة أن تتظاهـر بأنهـا الأوربيـة اليائسـة التـي تبحـث عـن آثـار جايـن ديجبـي فـي الشـوارع القـذرة للشـرق الأوسـط، ألغـت التعاقـد الـذي أبرمتـه.

- "هل هناك شيئًا لم تبينه لي؟"، سألته بقسوة تزحف في صوتها.

تلميـح لـم يمـر دون ملاحظـة، شـعر رومانـوس أنه أجـوف وعارٍ، بينمـا تجد هي الوسـيلة كي تقفـز دائمًـا أمامـه، أن تقطع عليـه الطريق، مثل لصوص القوافل، هكذا مثلما كانت ترفع الوشـاح عـن رأسـها مظهـرة ضجرهـا وغضبهـا، عـاش رومانـوس لحظـات قويـة في مملكـة سـيرغوبوليس، سـرت بجسـده رعشـة بـاردة، لا يمكـن أن يتجنـب الفـخ الـذي نصبتـه لـه، نفـس الرغبـة، نفـس الانجـذاب القهـار، ليمسـك بهـا، ليمتصها في وسـط الطريق، لكن الآن ليسـا وحدهمـا، حولهما لا توجـد أطـلال، لكن حشـد غاضب يتعلـم الصيـاح والمطالبة.

جذبها نحوه.

- "سأذهب حيث تذهبين"، قال لها غير مبالٍ بالحراس الذين يشهرون أسلحتهم باستفزاز.

فوجئت جيني.

- "يا رومانوس"، تجرأت على المعارضة، لكن دون جدوى.

- "سآتي معكِ، ألم نقل إننا سنفعل كل شيء من البداية؟".

سفاح قربى، دون علمه، كم تليق به البراءة! عيناه تقطران حنانًا معسولًا، لو راحت بشفتيها نحو جفونه، ستجمع على لسانها طعم الصحراء، أخفت جيني وجهها في صدرها، داهمتها رغبة في البكاء من أجل سوء الحظ الذي يلازمها.

- "آه، يا رومانوس! ألا تُسْدِي معروفًا من أجلي؟!".

سيفعل ما تطلبه أيًّا كان.

- "طعم الصحراء، هل تذكره؟ أريد أن أجربه مرة أخرى".

كأنه وعد أو فهمه هو هكذا، بدت جيني كأنها مستعدة للسفر بلا حقائب أو خرائط، بلا كاميرا فوتوغرافية، لاشيء سوى الأحاسيس فقط.

**لم تعتد** تينا على مفاجأته، على الأغلب بسبب غياب وقت الفراغ، كانت تلتزم بالبروتوكول الذي فرضه عليها نديم، نادرًا ما كانا يتقابلان في مكان العمل، في محل عملها أو محل عمله، اندهش كثيرًا عندما أخبرته سكرتيرته عن وجود عشيقته في مدخل البنك، بلا تنبيه! ألقى نديم نظرة متعجلة على سجل المكالمات في هاتفه، لم يجد شيئًا، هذا أغرب، في الأيام الماضية لم يتحدثا إلا قليلًا، لكن لم يكن هذا سببًا حتى مجيء تينا إلى مكتبه، مشاعر الذنب تتربص خلف القلق اللحظي، لم يكن ملتزمًا بأي شيء تجاه تينا، وغيابه المفاجئ لن يغير شيئًا في علاقتهما، لكن وجود أماليّا؟ كان متأكدًا من هذا، فكر في الأمر ليلة أمس، لكن بعد ذلك، ولمَّا كان مرهقًا، تخلى عن كل الأفكار وغاص في نوم عميق متواصل.

في الصباح عندما غادر شقته ترك رسالة على هاتف تينا الجوال، كان متوترًا بينما كان يتحدث إلى البريد الصوتي، بشكل غير مبرر بالنسبة لعمره، بعد ذلك اتصل بأماليّا، تردد وارتباك، طلبت منه مهلة زمنية لأنها لم تنم جيدًا، لم يُصر نديم.

دخلت تينا إلى مكتبه وعلى وجهها ابتسامة مضطربة؛ إذ كانت تعرف أنها تخرق الاتفاق غير المعلن الذي عقداه، كانت ترتدي ملابس بسيطة، مستعدة لنزهة تمشية، بعيدًا عن المكاتب والحواسيب الآلية، ألوانها كانت زاهية معلنة عن الربيع وتشع حيوية، أثنَى نديم على ذوقها وانتبه إلى أن وزنها قد زاد وأنها قد أطالت شعرها، هي بدورها، انتبهت إلى لون وجهه، انتظرت حتى يُغلق الباب خلفها ثم سألته بنبرة مرحة:

- "هل تعرضت للشمس مؤخرًا يا قلبي؟".

قال لها وهو يبتسم:

- "يا صغيرتي، دعي الشمس تدفئني وأنا بعيد عنك".

ضحكت متضامنة واقتربت منه، انحنت وقدَّمت له شفتيها، خطفه عطرها الطازج، ترك قبلة ناعمة على شفتيها وأشار لها إلى الأريكة أمام مكتبه.

- "بالشمس أو من دونها، لقد اشتقت لك كثيرًا؛ ولذا أنا متأكدة أنك ستسامح هبوطي المفاجئ".

مصطلحات عسكرية ممزوجة بعبارات الحب، لم يكن هذا من سمات تينا، ضم نديم عينيه قليلًا وراح يتفحصها.

سألها وهو يقلد نبرة صوتها:

- "هل ثمة شيء يحدث أم يبدو لي؟".

أظلمت نظرتها.

- "حدثت قلاقل على الحدود مع الأردن، في درعا، هناك قتلى كثيرون".

نظر إليها مبهوتًا.

- "قتلى؟ كم؟".

- "يتحدثون عن ستة قتلى، لكن ربما هم أكثر".

- "هل لديكِ تفاصيل أخرى؟".

- "المتظاهرون كانوا يصيحون بهتافات ضد الفساد والقانون العسكري، كانوا يطالبون بالحرية، صارت أحداثًا عنيفة، كسروا سيارات وأشعلوا النيران في مبانٍ حكومية ثم تحصنوا بعد ذلك في الجامع القديم، الشرطة ألقت القنابل المسيلة للدموع وقبضت على الكثيرين، قُطعت الاتصالات التليفونية، لا يوجد أي خبر من المنطقة، الإشاعات تتحدث عن مذبحة".

كان يعرف مصادر تينا، حنَى رأسه في حزن، الطائر الأسود الذي كان يطير فوق شمال إفريقيا يقترب من سوريا، سقط ظله الثقيل على مصر وتونس، جر خلفه أسراب الانتحاريين وأشعل النيران والموت في ليبيا، كان العالم العربي يغلي، إلى متى سيبقون غير ممسوسين هنا؟

- "جئت فور أن علمت، لم أشأ أن أقول لك هذا عبر الهاتف".

نهض نديم ووقف أمام النافذة، الطريق كان مزدحمًا بالسيارات، عاصفة الأمس تركت الطين في الشوارع وملئت حفره بالمياه، الجو في الخارج كان مشمسًا على عكس الكآبة المسيطرة في المكتب.

- "سينتشر بسرعة"، قال لنفسه.

- "الأمر ليس انتشار الخبر، لكن تبعات مقتل كل هؤلاء، ثم هل سيبقي الوضع كما هو؟ تونس ومصر ليسا بعيدين، أما ليبيا فترى ماذا يحدث".

- "سيرسل الرئيس الوزير ليصلح الأمر"، أجابها.

- "بكل هؤلاء القتلى؟".

في الثمانينيات كان القتلى بالآلاف، ثورة الإخوان المسلمين غرقت في الدماء، بينما الأب الأسد لم يظهر أي رحمة تجاهها، اختفت أحياء كاملة في حماة من على الخريطة، حماقة قومية لا تغتفر، الزمن يداوي الجروح، هكذا يقولون، الخوف يدرك الجروح، على الأقل هذا ما كان يجري حتى الآن.

- "هل عرفت شيئًا عن ردود أفعال السفارات؟".

- "تحدث مندوب مفوضية اللاجئين بالأمم المتحدة، ينتظرون معلومات أكثر وبيانًا رسميًّا من الحكومة".

جلس نديم وحنَى رأسه مجددًا، يبدو أن الأمور قد تغيرت، الرئيس قد وعد بالتغيير، لكن الوعود، كما يبدو، لم توفَّ، فالبلاد في حالة طوارئ منذ 1963، يعلم الجميع أن الفساد لا يحارَب بالأماني، عدم المساواة في عصر العولمة والفضاء المفتوح هما بمثابة كعب إخيليوس بالنسبة للأنظمة الاستبدادية، الشباب يطالبون بمنافذ، شبكة الإنترنت صارت سلاحًا وقوة لا يستهان بها، يمكن للتلفاز أن ينيم المواطنين، أن يطرحهم عُزلًا بلا حماية على أرائكهم، لكن سيكون هناك الكثيرون الذين سيهربون من هذا الخمول، سيقف الظمأى من أجل التغيير، سيتجولون في شوارع الإنترنت العالمية، سيَعرفون ويُعرفون ثم سينطلقون إلى الشوارع

والميادين، حيث يعيشون الاضطهاد والعوز، لم يكن لديهم ما يخسرونه، سيتبعون الصوت، الهتاف، والأمل.

قاطعته تينا:

- "فيمَ تفكر؟".

ركز على الفكرة الأخيرة.

- "أفكر في هؤلاء الذين يحرضون ويحركون الأمور".

- "يقولون إنهم شباب، مُدَوِّنون".

- "هذا التفسير يبدو لي بريئًا للغاية، فالرئيس محبوب، لديه قاعدة داعمة".

- "نديم، لقد تعب الناس".

- "ربما قد تضايق البعض من قراراته، أحاول أن أتخيل، هل سمعتِ عندما كنت صغيرة عن حكاية رجل يرتدي ملابس بالية، قبعة غريبة، وكان يجر الفئران بصوت مزماره نحو النهر؟".

اكتسبت نظرته فجأة شيئًا من المرح، لامبالاة البراءة، كأن ذكرى الحكاية أثرت عليه إيجابيًّا، وسَيّلت من قتامة الموت.

سألته تينا باسمة:

- "قصة الزمار والفئران؟".

كانت تحب في نديم السهولة التي ينزلق بها بمرح من الصعاب إلى الفرح ومن النور إلى السواد.

- "بالضبط! هذا الذي سحر الفئران بموسيقاه وقادها خارج المدينة، إلى النهر،

نهض بخطوات مرحة وراح يقلد الزمار"، ضحكت تينا من المشهد، وفجأة توقف نديم وصار جادًّا.

- "قاتل الفئران، لكن هل تذكرين ما حدث في ما بعد؟".

عيناه الزرقاوان برقتا خلف نظارته.

- "ثـم بعـد قليـل مـن الوقت عاد إلى شـوارع المدينـة وراح يعزف على مزمـاره، لكن لم تعد هنـاك فئـران لتتبعـه، حينها خرج الأولاد من البيوت مسـحورين وراحوا يتبعونـه، حتى النهر".

- "نسـيت شـيئًا"، أدركتـه تينـا، "السـكان لـم يدفعـوا لـه مقابـلًا بعـد أن أنقـذ المدينـة مـن الفئـران، لـم يفـوا بوعدهـم فعوقبـوا، هـذا كان المـراد مـن القصـة".

عبـس نديـم واسـتاء مجـددًا، سـاحرو البشـر، الموسوسـون، للخيـر مثلمـا للشـر، هبـة ولعنـة، وبينهمـا المصالـح، الأمـوال، مـن يـا تُرى هم مـن يحرضون على الثـورة في وطنه؟ عقـول مفتوحة تبشـر بالتقـدم والتطـور، أم أوانٍ صدئـة مـن الماضـي؟ أم ربمـا جيـران السـوء؟ القـوى الدوليـة الداعمـة للحـرب المقدسـة تنتظـر فرصًـا كهـذه كـي يضربـوا مجموعات الثـوار، لأي هـدف وبأي مقابـل؟ آه! المقابـل بالأسـاس! لأنـه لـو لم يكـن كافيًا، بدلًا من الفئران سيسـتطيعون أن يسـحروا الأولاد، بـدلًا مـن أن ينقـذوا البـلاد مـن الوباء، سـيجرجرون مسـتقبلها نحـو الخراب.

- "كان أبـي يحكـي قصـة مشـابهة، عـن ابن سـينا الـذي أنقذ حلب مـن الطاعـون"، قالت تينا بصـوت خفيض.

ذكريـات البيـت فـي إنجلتـرا أضـاءت وجههـا، ووالدها المهاجـر، مثل الزمَّـار، بسـترته الزاهية وقبعتـه العاليـة، تتقافز مـن بينها.

حكايـة سـورية سـمعتها مـن مربيتهـا الأرمنيـة، عندمـا جـاء الطاعـون إلـى حلـب، طلـب الملـك مـن ابـن سـينا أن يجـد الحـل لهـذه المشـكلة، طلـب منـه هـو أن يقـف أمـام البوابـة، قتـل ابـن سـينا فـأرًا وأغلـق عليـه فـي قفـص، بعـد ذلـك أمـر أربعـة فئـران ليحملـوا القفـص، كثيـر مـن الفئـران عندمـا رأوا الجنـازة خرجـوا مـن مخابئهـم ليسـيروا فـي موكـب الميـت، ليصحبـوا النعـش الغريـب إلـى خـارج المدينـة، هنـاك حيـث ينتظـر الملـك، لكـن ياللحسـرة، عندمـا رأى فخامتـه الموكـب لـم يسـيطر علـى ضحكـه، كل الفئـران التـي

عبـرت البوابـة اختفـت علـى الفـور، لكن باقي ضحـكات الملك عـادت وغمرت المدينـة، لم يَفِ الملـك بوعـده، ومهمـا نـدم علـى ذلـك، كان قـد تأخـر كثيـرًا، هـذا ما أخشـاه فـي حالـة الرئيس، لـم يَـفِ بوعوده.

كلماتها الأخيرة كانت مفعمة بالحزن والإحباط.

نظـر إليهـا نديـم بإعجـاب، رأى أمامـه المفارقـة، امـرأة ترعرعـت بعيدًا عـن بلادها، مـن أبناء الجيـل الثانـي، رضعـت مـن تـراث بـات مجهولًا أو منسـيًّا فـي بلادها، المسـافة التي تعطـي بعدًا ومعنـى، الحنيـن الـذي يغـذي كل مـا بقـي بعيـدًا حتـى يحتمـل الاغتـراب، هـو لا يعـرف هـذه القصـة، حكمـة العربـي ابن سـينا مطعمة بأسـطورة غربيـة، من أين لـه أن يعرفها؟ فـي المدارس الدوليـة؟ ممَّن؟

- "الأمر يحتاج إلى وقت يا تينا".

- "عشر سنوات يا نديم، كم كنا متفائلين قبل عشر سنوات، أتتذكر؟".

كانـت الآمـال تحلق في عنان السـماء في عام 2000، عندما تولى الأسـد الشـاب زمام الرئاسـة بعـد وفـاة أبيـه، قـرن جديـد، رئيـس جديـد، البشـائر كانـت رائعة، تربـى علـى المبـادئ الغربية، درس فـي بريطانيـا، كان يحلـم بإصلاحـات سـوف تجلـب بعـض التغييـرات فـي الداخل وتؤسـس لـدور جديـد للبـلاد علـى الخارطـة العالميـة، نمـوذج لـرب الأسـرة، زوجته طلـت القصر الرئاسـي بألـوان أوربيـة، حظـي الأسـد بقبـول فـوري مـن العالـم، قائـد أمثـل سـوف يسـير بالشـعب نحـو الخـلاص، ياللحسـرة! الربيـع فـي دمشـق لفـظ أنفاسـه الأخيرة فـي الشـارع سـريعًا، الآن، القلاقل فـي الجنـوب سـتكون لهـا تبعـات شـديدة علـى صورته،مـع القتلـى، قليليـن كانـوا أو كثيريـن، صورتـه تلـك لـن تبقـي أبدًا.

أمسك نديم بيد تينا بين يديه وقبلها.

- "هل لديك قصص أخرى كهذه لتحكيها لي؟".

- "ماذا تقصد؟".

- "قصص منسية، قصصنا".

نظرت لـه برقـة وذابـت مـن التأثر، فـي الحقيقـة كان لديهـا الكثير مـن القصـص لتحكيها له، لكـن الأمـر الأساسـي الـذي سـتقوله لـه، كانـت تحملـه فـي نفسـها لأيـام وتخبئـه بداخلهـا دونما اعتـراف، ظلـت سـاهرة لليالـي حتى تقـرر، في كل حياتها تعلمت أن تكون مسـتقلة فـي قراراتها، أمـا هـذه المـرة فـإن قرارهـا سـيكون حاسـمًا لشـخص آخر؛لـذا كانـت تؤجله كثيـرًا، رحيـل نديم المفاجـئ إلـى بالميـرا سـاعدها أن تسـتقر أخيـرًا على قرارهـا النهائي.

- "سأحكي لك ذات مرة قصة جدتي فوتيني".

- "جدتك كان اسمها فوتيني؟".

أومأت بالإيجاب ونهضت.

- "كانت يونانية، من أزمير".

- "جدتك كانت يونانية؟ شيء لا يصدق!".

وقفت تينا أمامه.

- "لـديَّ قصـص أخرى، لكن أمسـك على شـهيتك لما بعـد، اليوم أظن أن التطورات سـتلاحقنا، حقيقـة، ماذا حدث لقريبـك الذي أصيب؟".

- "قريبي؟".

حاول نديم أن يبدي شيئًا من الفتور.

- "يا قلبي، أليس لهذا السبب غادرت فجأة إلى بالميرا قبل الأمس؟".

- "لـم يكـن الأمـر جـادًّا، قلقنـا بـلا داعٍ، لكـن حسـنًا ذكرتني، اليـوم في المسـاء سـنتناول معًا عشـاءً عائليًّا".

اندهـش كثيـرًا مـن المصطلـح التـي اسـتخدمه، "عائلـي"، وبالكذبـة التـي خرجـت

منـه، لـم يدركـه الوقـت كـي يحللـه؛ لأن البـاب دق ودخلت السـكرتيرة بتـردد، وبخـوف وصوت خفيـض قالـت له:

- "في وسط المدينة هناك مظاهرة، قريبة من بيتك، حوالي خمسمائة شخص".

نظرا إلى بعضهما مبهوتين.

- "لا بـدَّ أن أغـادر"، قالـت تينـا وهـي تعطيـه قبلـة ثم أضافـت: "العاصفـة تقتـرب، أَبْقِ على أقاربـك فـي المنزل هـذه الأيام".

نظـر إليهـا نديـم فـي صمـت بينمـا كانـت تخـرج مـن المكتـب، حينهـا انتبـه إلـى قبعتهـا البرتقاليـة ووشـاحها الملـون الـذي كانـت تمسـحه فـي يدهـا وأدرك أنـه يراهـا لأول مـرة ترتـدي قبعة .

**ذهب نديم** ليأخذها من الفندق مبكرًا في المساء.

- "ملكتي"، همس في أذنها وهو يقبلها برفق.

كان لوبي الفندق مزدحمًا، وصول الزبائن، مواعيد مسائية للشاي، ضجيج متصل، خليةنحل من المسافرين المتأنقين يعلو وجوههم الأمل أو الإرهاق.

- "دعنا لا نبقي هنا"، رجته أماليا.

كانت متأنقة للغاية، لمح نديم تسريحة شعرها الأنيقة، وأيضًا الظلال التي طلت بها عينيها، آثار السهر تفيض على بشرتها، سارا قليلًا دون هدف حول الفندق.

اقترحت عليه:

- "من نافذة غرفتي أرى حديقة متحف الآثار، هل نذهب إلى هناك؟".

صار الجو دافئًا بعد مطر الأمس، الشوارع كانت تعج بالزحام، عبرا إلى الجانب الآخر من الطريق الرئيس عبر جسر معلق، رائحة البول والقمامة، على الدرج المهترئ استندت على ذراعه، تحت أقدامهما الطريق يجري بسرعة، وقفا في منتصف الجسر وأشار لها على بعد مئات الأمتار زهرة دمشق الشهيرة، بناية عصرية، فكرة وهبة من السيدة الأولى إلى أطفال البلد، ما زالت تحت الإنشاء.

قالت له:

- "الأعمال الخيرية تمنحالأعذار".

عرفت عن المظاهرة في وسط المدينة، لحسن الحظ أخبرتها جيني على الفور أنها مع رومانوس.

- "اليوم يوم صعب، لكن كل شيء سيعود إلى إيقاعه الطبيعي"، أجابها غير راغب في التعليق.

كان مزاجه متعكرًا بالفعل من الأخبار التي نقلته له تينا ومن الأنباء عن قلاقل عامة زادت من حدة مزاجه، لن يستطيع أن يعارض تعليق أماليّا الهادئ بأي حال من الأحوال، عطر زهرة دمشق الثقيل يشبه شاشة فخمة لقذارة المدينة، لم يشأ أن يعترف أنه يسير على هذا الجسر لأول مرة، فكان إحباطه يشي بهذا.

حديقة المتحف كانت خاوية في تلك الساعة، سارا بين ردهات الحديقة غير المشذبة والتوابيت التي كانت تجف من أمطار الأمس الغزيرة، رائحة الأرض المبللة أراحتهم من فوضى التلوث في الشارع، السياح القلائل في ذلك الموسم يدخلون ويخرجون من الباب الرئيس للمتحف، واجهته كانت نسخة طبق الأصل من قلعة قصر الحي الغربي الشهيرة، نزوة الخلفاء في قلب الهضبة، واحدة من القلاع الكثيرة التي بنوها على خليج العقبة وضفاف الفرات، قنوات جوفية وهوائية لري الحدائق، وتغذي بماء الشرب البنايات الفارهة في منتصف الصحراء، تمجيد للعمارة والهندسة في القرن الثامن، النهضة العربية قبل القفزة الأوربية.

جلسا في مقهى مكشوف، كانا الزبونين الوحيدين، السكون حولهما جاء على عكس اهتياج أماليّا الرهيب، والمدينة.

- "قال لي رومانوس إن وضع راليس قد تحسن قليلًا".

- "جلطة قوية، لحسن الحظ لم يكن وحده لحظة إصابته بها"، أجابته وهي تتخيله يهوي على الأرض أمام أقدام الممثلة الشابة التي ترافقه في الفترة الأخيرة.

- "سيسافر الأولاد غدًا، ربما هذا من الأفضل".

أخفت تساؤلها لأنها لم تكن تعرف عن عودة رومانوس إلى أثينا.

- "أريد أن أخبرك ببعض الأمور الهامة"، أخبرها وهو ينظر لها بإصرار من فوق نظارته فابتسمت هي بداخلها.

ماذا يمكن أن يكون أهمَّ وأكثر جدية من الذي كشفته لجيني ليلة الأمس؟ أوه! الناس يعقدون الأمور دومًا، يعتبرون الأمور البسيطة هامة ويُنَحُّون الأمور الهامة

جانبًا، ها هو صديقها المحبب يقلق بشأن مظاهرة على بعد ثلاثة مربعات سكنية ولا يتخيل ما الذي سيطرأ في حياته لو قررت جيني أن تقوم بما ينبغي عليها.

- "ألم تتوقعوه؟".

فوجئ نديم، كان السؤال جاهزًا بالفعل بداخلها، وكأن كل الآخرين كان يتوقعون هذه القلاقل التي تهدد البلاد.

- "ماذا تعنين؟".

- "عندما تضغط على شيء بشدة، تدفعه دفعًا نحو الانفجار، وهو أمر طبيعي".

كان في ذهنها كل الأمراض النفسية والجسدية التي كانت تعذبها لسنوات، حساسية، ضغط، تقلصات معدية ومعوية.

نظر لها نديم بارتباك، منذ الصباح وهو يلهث بحثًا عن المعلومات، الوضع بالغ الصعوبة، الإشاعات تتوحش، الحديث عن عشرات القتلى في جامع درعا، وعن قناصة يطلقون الرصاص الحي، وقلاقل جديدة تندلع في مدن مختلفة في البلاد، بدت حمص كأنها المركز الثاني للمعارضين، في حماة عادت للحياة أشباح الماضي، تمرد عامّ! في انتظار التطورات في يوم الجمعة، يوم الصلاة بالنسبة للمسلمين، يوم تشييع الموتى.

النتيجة التي خرج بها من كل حواراته هو أن هناك خطر فقدان للسيطرة على الأمور، والعواقب ستكون وخيمة على الجانبين، هذا ما لم يستطع نديم أن يستوعبه، أن يكون هناك طرفان، التفاؤل الذي كان يشاطره فيه مواطنون آخرون صار مستهدفًا مع أول اندلاع للهتافات، أين ذهب الأمل الذي كان ينبثق من كل خطابات الرئيس، كل خطوة جديدة نحو الغرب، كل لفتة نحو الإخوة العرب؟ باتت حجج المؤسسة واهية، رفعت المدافع والأسلحة وأطلقت الرصاص على نفسها، أضحى وطنه الضحية التالية للإعصار الذي يعصف بقوة بأنظمة الشرق الأوسط، الرئيس بالتأكيد سيدين مايحدث ويصفه بأنه مؤامرة المراكز الأجنبية، ربما سيترجم بعضًا من وعوده، سيتشبث بالفرصة الثانية ويتحمل مسؤوليات دوره، المحافظون من

الحـزب سـيلعبون بأوراقهـم مـرة أخـرى، الطـوق الـذي يضيق حـول عنقه إمـا أن يكسـره وإما أن يختنـق، كان يجـب أن يسـتدرك الوضـع حتـى لا تصبـح سـوريا في وضـع لبنان ذات المعسـكرين المتنافسـين، ريبـة الحـرب الأهليـة، هـذا السـيناريو كان يبدو له شـنيعًا.

- "لقد حان الوقت كي تتغير بعض الأمور هنا أيضًا"، أجابته بإذعان.

- "التغيير يحتاج إلى شجاعة يا نديم".

كم من الوقت تحتاج كي تعترف بالذي لا يوصف؟

- "والرحمة"، أضاف هو.

هـل سـتكون الغلبـة للطبيعـة المعتدلـة للنـاس؟ أم أن الضغـط سـيولد الانفجـار، العنـف يلد العنف.

- "أقترح أن نتناول العشاء كلنا معًا، الأولاد سيسافرون في صباح الغد، في الفجر".

- "وأنا معهم".

ابتلعـت ريقهـا بصعوبـة، ظل هو ينظـر إليها مندهشًـا، آه! أماليّا الهاربة! المطـاردة من ظلها، مجددًا!

- "لماذا يا أماليّا؟".

تركت الصمت يتثاقل بينهما.

- "لا بدَّ أن أعود".

- "لا تفعلي هذا، أرجوكِ!".

لم تجبه، لم تكن لديها القدرة لتنظر إلى عينيه، التفتت نحو الحديقة.

- "يا أماليّا، إن راليس ليس بحاجة إليك، أتفهم قلقك، لكن الآن لديه ابنته".

حبست أنفاسها، كم هو مضحك هذا الأمر، يا إلهي! من لديه؟ ابنته؟!

- "أعتقد أن مكاني أصبح هناك في هذه المرحلة".

- "مكانك؟".

برقَ تهكمٌ في نظرته، وهو ما ضايقها.

- "ربما في هذا الوقت بالذات مكاني ليس هنا".

كان لصوتها دوي سلاح يطلق رصاصه في غرفة خاوية، وإن كانت تجلس في حديقة وتحت أشجارها.

ودَّ لو يبدي استياءه، أن ينهض ويغادر، أن يتركها كما هي تلوك الشك كالأوراق، هكذا فعلت أماليّا في المرة السابقة، في الليل كانت تحترق بين ذراعيه، وفي الصباح تتذكر أن هناك زوجًا في أثينا ينتظرها! الآن؟ ليس هناك زوج، اللعنة، وليس هناك وقت لفرص أخرى، لمرة أخرى تركته وحيدًا خالي الوفاض..لكن الغضب استغرق قليلًا، كيف يمكن لها أن تتجاهل هذا الوجه الذي يبدو كالظلال على الورق؟ يذوب، وكلما حاولت أن تبدي شيئًا من القسوة وأنها قد اتخذت قرارها لا تستطيع أن تتجنب الانهيار، مشاعر مختبئة، كالقناصة، تنغرس فيها وتتركها أمامه منقطعة الأنفاس، ثمة شيء يحدث، شيء حدث ليلة أمس، ربما أرعبتها المظاهرة القريبة من الفندق؟الإشاعات تتناقل عن أحداث شغب في كل مكان.

- "هل تخشين حدوث شغب في دمشق؟".

- "أنا لا أخشى الشغب".

- "إذن؛ ممَّ تخافين؟".

- "ليس لدي المقدرة أن أبدأ شيئًا من جديد".

- "لكنه ليس جديدًا يا أماليّا".

- "أنت يا نديم، الآن أنت، هل تذكر قصة أندريكوس وثيوذورا؟ تركت كل شيء

خلفها وعبرت الحدود وتجاوزت نفسها، بعيدًا عن الفرات، هو كان ابن عمها، جزءًا من حياتها، لكن ثيوذورا كانت تسعى للتحدي وكل ماهو جديد، التغيير، أنا عشت لسنوات مع هذه القصة، لكن الواقع يختلف، لا تطلب مني شيئًا تعلم أنه أكبر مني".

كان يراها تضيع من بين يديه للمرة الثانية، مرآة، سراب الصحراء، طلبت أن تعود معه إلى جنة طفولتهما، إلى بالميرا، قبل ثلاثين سنة، انطلقا كمراهقين وطارا على عجل من فوقهما ومعهما ملابسهما وفشل زيجاتهما، قبل الأمس مارسا الحب بالحنين.

قبل كلماتها برواقية، كان من طبعه أن يجد الأعذار لمن يحب، نفس الشيء فعل لوقت طويل مع النظام، كان يمنحه الوقت، مزيدًا من الوقت، وهو يعلم الصدامات الداخلية التي تعصف بالحكومة ويخمن الخلافات في أروقة العائلة نفسها، ماذا ينتظر؟ ربما ثمة تردد، قلق، ربما، في هذه الفترة التي يعطي فيها للآخر الفرصة يلملم نفسه، وينحني ليقبض على الفرصة الثانية، لم يكن ينتظر الرفض التام من أماليّا، انهيار لكل الآمال، من أجل الرب، ألا يوجد طريق وسط؟

راح يرجوها:

- "فكري مرة أخرى يا أماليّا، لا تتخذي قرارات متعجلة".

صمتها الطويل لم يترك له أي مساحة، نهض نديم بصعوبة من على مقعده، هزيمة مدوية، مكتملة الأركان، وقف أمامها، أخذ يدها بين يديه وانحنى بشفتيه فوقها، آخر لفتة مجاملة، الوداع الأخير، خرج بطل حياتها الكبير من على خشبة المسرح، نزل الستار.

**إسقاط النظام** بين ليلة وضحاها أمر مستحيل، لا توجد معارضة حقيقية لتتولى زمام الأمور وتستمر، وأقول لتستمر؛ لأن الدولة في هذه اللحظة في حالة ارتباطات وتواؤمات لو تغيرت فستكون الأمور بالغة الصعوبة وستتغير كل الأوضاع في الشرق الأوسط. لا، لا أرى أن أحدًا يريد أن يسقط الرئيس.

كانت جيني تسمع رومانوس يتحدث عن علاقات الأسد بالبلاد المجاورة، لكنها لم تتدخل، كانت تعرف تغيرات في حياتها حدثت بمصادفة شيطانية كانت لها نفس الأسباب والنتائج، القاسم المشترك كان دائمًا أمها، مشاعر متضاربة تصيبها بالشلل في لحظة وفي اللحظة التالية تتذبذب في داخلها مشاعر اكتمال وغبطة، كان إحساسها أشبه بالمصعد، الأزرار التي يضغط عليها كل الآخرين عداها، تبدل الروابط في كل علاقاتها، يجب أن تواجه الواقع الجديد لكل شخص في محيطها الضيق، هل مع أمها أو مع أبيها، أو ربما مع نديم؟ في النهاية بقي رومانوس، شيخها.

تتبعه في الطريق المزدحم الصاخب وهي تمسك بيده وترى كل شيء حولها بعين مختلفة، لا تشعر كسائحة عابرة تستكشف أسرار دمشق بكاميرا هاوية، كل شيء يكتسب معنى جديدًا، تنظر إليه من خلال قوة الألفة وإمكانية التوحد معه، تصبح هي نفسها جزءًا من المدينة، التوقيت الذي يمنحه السائح لكل مكان يحتوي على خفة المداعبة وسيولة آلة التصوير الرقمية، لكن عندما يهدد الدوام والروتين الحياة اليومية، حينها كل تفصيلة تأخذ شكلها الحقيقي، دون مثالية أو تجميل.

فقط بالأمس قررت أن تبقي هنا، أن تغير مجرى حياتها، ومثل جاين ديجبي ستعتمد على قواعد مجتمع باطني مختلف مجهول، آملة أن تبني هنا شيئًا مختلفًا، لكن هيهات! ياللحسرة! الطريق الذي شرعت تسلكه كانت قد سلكته أماليّا من قبلها، آثارها واضحة على طريق بالميرا المستقيم، صدفة قدرية واكتشاف مؤلم وضعها في مواجهة مع المرأة الحقيقية التي كانت تتخفى منذ سنوات طويلة خلف شخصية أمها، أحبت هذه المرأة، العاصفة، بكل قواها، والآن تفهمها تمامًا، خلف

كل فعل وتصرف غير مفهوم كانت تجد مفتاح شفرته، البؤس والوحدة صار لهما اسم، عدم الأمان والآلام كانت مجرد أعراض، والنوم كان الملجأ الكبير، الهروب إلى الحلم الذي ذاقته، لكن لم يكن لديها القوة لتعيشه، كل شيء أخذ حجمه الأصلي، لم تغب عن بالها لحظة الاعتراف، أمها كان بعظمة ممثل تراجيدي وعذاب إنسان عاش التعاسة حتى عظامه، لم تستطع جيني أن تمنحها سوى اعتذارها، الذي لم تطلبه أماليّا، كانت تتوسل لتحصل عليها بلا كلام.

لم يتوقف رومانوس عن الكلام، تحول بجوارها إلى شيخ وسيم جذاب يجرُّها إلى شوارع أضيق، تركا خلفهما الشارع الرئيس، قاع نهر بردى، التقاطع الصاخب الذي يؤدي إلى محطة السكك الحديدية، بقايا الأناقة الفرنسية بين عمال اليومية المرهقين والسيارات المنهكة، ضجيج الشارع، صوت الصفير والأبواق الذي ينطفئ شيئًا فشيئًا، بينما رومانوس يقودها نحو شارع ضيق هادئ، مليء ببضائع ملقاة بلا عناية خارج الحوانيت، بلا صوت ولا ضجيج، تشعر وكأن قانون السوق هنا يعمل بشكل مختلف، رجال منحنون يتحاورون في مقاهٍ ظليلة، ونساء بأغطية رؤوس يخترْنَ الخضراوات من على أكوام هزيلة، للفقر رائحة بصل مسلوق ولون أبيض مصفر، أين حيوية وغزارة سوق الحميدية؟ البشر يعيشون خلف جدران مشروخة تبقعها الرطوبة، لا أثر للأشجار، فقط مسجد الحي، أبيض ناصع ينير الزقاق، الرب بلون الأمل، يقف إلى جانب ضحايا الفقر، العنف السلمي الذي ينتشر كفيروس ويلوث ويأكل كل ما يتنفسه،ليس هناك أي أثر للخوف أو القلق، فقط الفضول، لم تعد غريبة هذه المدينة، إنها مدينتهم.

-"انتهت الأشياء الجميلة السياحية، انتهت زهور الصحراء".

صار صوته خشنًا؛ لأن كل ما يراه يجرحه ويحزنه، بطرف عينه راح يراقب انطباعاتها، كانت جيني تنظر حولها دون أن تتوقف، تبدو كأنها تعبر الطريق مدفوعة بمؤشرات حياتها اليومية، كأنها مرت من هنا من قبل.

- "هذا ما لم أطلعكِ عليه، ما لا يراه السائحون".

الغضب ينسكب من يده إلى يدها.

- "لماذا أنت عنيد هكذا؟ ما نراه هو الحقيقة، ليس ذنب هؤلاء، لو تعلمت أنت أن تفخر بشيء آخر، فذاك تاريخ أيضًا".

- "أعتذر يا جيني، لكن الأمر فقط..".

- "لو أنك تأسف لوضعهم، فلا يكفي أن تأسف وتعتذر من أجل الوضع الذي هم فيه، ففي هذه الحالة لديك الأسباب لتبقي في سوريا".

توقف رومانوس فجأة، لمرة أخرى تعطي كلماتها قوامًا لأفكاره، كان لديها وسيلة مزدوجة لتقف أمام الأشياء، تقف على مسافة بعيدة أو تغوص مباشرة في الجوهر، غوصًا طويلًا، حتى تلمس القاع.

- "هل تعنين ما تقولينه؟".

ابتسمت له، لمع وجهها فصارت جميلة من نورها الداخلي الأخاذ.

- "أنتِ ساعدتِني كي أُخرج من داخلي كل ما يثقل روحي، كنت أعرف أن هذا ما يجب عليَّ أن أفعله، لكن أحيانًا نحتاج إلى الشخص المناسب، أتذكرين، هناك عند بحيرة الأسد حدثتِني عن القرى الغارقة التي تقبع في القاع، عن التاريخ، تنحنين فوقها بمهابة وتدرسينها، تعجبين بها، وبعد ذلك؟ الناس هنا ليسوا في حاجة لتاريخهم، لا ينحنون لأنهم لا يبحثون، لا يعنيهم! يتطلعون لمد رقابهم، أن يرفعوا رؤوسهم، يريدون شيئًا أفضل من هذه القمامة التي يطهونها والأحياء الفقيرة التي يعيشون فيها، وإن لم يوجد الشخص المناسب، فلن يُفتح الطريق أمامهم، ولو فُتح فسيكون مليئًا بالجثث والدماء...آه يا جيني! لو يسمعك الخال نديم!".

اقشعرت جيني، إلى متى ستظل تتظاهر باللامبالاة كلما سمعت اسم الخال نديم؟

- "ماذا سيحدث؟".

- "يقـول نفـس الشـيء، لكـن من يسـمع؟ كان مـن الأوائل الذين رحبوا بقدوم الأسـد الشـاب إلـى السياسـة، قـال الجميع: "مـاذا يدري هو؟ الأحزاب السياسـية سـتأكله"، الخـال نديم وآخرون دعمـوه؛ لأنهـم كان يعتقدون أنه الشـخص المناسـب الذي سـيأتي بالربيع لسـوريا".

- "وهل جاء به؟".

- "مـا زال الخـال يأمـل، إنـه وطنـي حداثي مجـدد، غاب فترة طويلـة؛ لأنـه كان لا يتفق دائمًا مـع كل شـيء، عـاد عندما مات الأب الأسـد، آمن وقتهـا كثيرًا بالرئيـس الجديد".

كانـت جينـي تسـتمع لما يقولـه رومانوس بورع، ماذا تعرف هي عن نديم؟ لا شـيء، كشـفت لهـا أماليّـا عـن مشـاعر وأحـداث ظهـرت فـي خـلال ثلاثـة أيـام فقـط، ماهـي ثـلاث أيام؟ تشـتاق لتطـرح أسـئلة أخـرى، لكنهـا تخـاف أن تفضح حالها، أن تكشـف شـوقها، لديها كل الوقـت أمامها.

وصـلا إلـى منتصـف الشـارع الضيـق فتوقفـا، علـى يسـارهما ممـر يـؤدي إلـى طريـق أعمى، أبـواب خارجيـة لبيـوت فقيـرة يدخـل إليهـا الضـوء بالكاد.

- "ها قد وصلنا"، قال لها وهو يجذبها إلى الخان المظلم.

- "ماذا هنا؟".

- "مطعم، الأول في المدينة".

دفـع البـاب من ناحيـة اليمين، بالفعل كان مطعمًـا جدرانه مطلية بلـون الجامع، أخضر فاتح، ومزينًا بنسخ من صور قديمة، على الطاولات مفارش بلاستيكية، الغرفة تطل على فناء داخلي مليء بالزبائن مغطًّى بغطاء بلاسـتيكي قوي شـفاف يحميه من المطر والآن يترك النور يغسـله، عائلات صغيـرة وأزواج وبعـض الرجـال الفرادى ينحنون على أطباقهم يأكلون بشـهية، في العمق لوح من شـاورمة اللحم البقري يدور ببطء على الشـواية تحت عيني الطاهي المنتبهتين، وجهه يلمع من

العـرق والشـواء، المشـهد كلـه ينتهـي عنـد الغرف المقابلـة للبيت التـي تسـتخدم كمطبخ، ومن هنـاك يخـرج النُـدُل حاملين الأطبـاق والأكواب.

- "هنـا الطعـام دائمًـا لا يتغيـر، شـوربة العـدس ولحم الشـاورمة بالخبـز، قائمة طعـام محلية تقليديـة، فـي النهايـة يقدمـون أفضل أطبـاق الحلوى في دمشـق".

- "بطعم الصحراء؟".

- "بالضبط، ليس هناك غيرها، أقسم لك!".

جلسا بجوار النافذة فلم يجدا طاولات فارغة في الفناء.

- "هكذا أفضل، فمن هنا أستطيع أن أراقب الناس"، قالت له.

شـاب مراهـق بـلا شـوارب أحضـر لهمـا الخبـز والشـوك والسـكاكين والأكـواب وإبريقًـا مـن العيـران.

- "المحل لا يقدم المشروبات الكحولية".

- "لماذا؟".

- "إن المنطقة سنية صرف، السنة هم المسلمون المتحفظون".

- "هل هؤلاء من كانوا يتظاهرون في الصباح؟".

- "نعم، إنهم أغلبية".

- "لكن سوريا تبدو كدولة علمانية".

- "هي دولة علمانية، الحزب الحاكم منذ عشرات السنين يدعمه العلويون".

- "تدعمه الأقلية ويفوز لعشرات السنين؟".

تسـمرت عينـاه السـوداوان عليها باستحسـان، هكـذا كما تجلـس وظهرها للحائـط، حاصرتاها وألصقتاهـا على الحائـط الأخضر.

- "أرى أنكِ بدأتِ تطرحين أسئلة شائكة"، قال لها ضاحكًا.

- "أريد أن أتعرف على بيئتي الجديدة".

- "إذن، هل ستجربين العيران؟".

أعطته كوبها، تستمتع جيني بما تعيشه مع رومانوس إلى أقصى حد، حديثه، الطعام بين البسطاء من الناس الذين يأكلون في صمت، النساء بأغطية الرأس الملونة الخفيفة المربوطة على رؤوسهن، بعضهن يرتدين رداءً طويلًا خفيفًا، الرجال يبدون عمالًا باليومية، من الممكن أن يكونوا مسافرين جاءوا للعاصمة في عمل، آخرون يبدون كزبائن مستديمين إذ يتحاورون مع صاحب المحل، الألفة لا تحتاج إلى ترجمة.

بينما كانت تشرب حساءها، كان رومانوس يأكل بعينيه كل حركاتها، حركة أنفها، مط شفتيها، روائح جديدة، طعم مختلف، نظرتها التي تدور طيلة الوقت من طبقها نحوه ثم إلى الطاولات المجاورة في الفناء، إلى كل زبون على حدة، ثم إلى الطاهي أمام لوح الشاورمة الذي يشوى ببطء، يريد أن يضمها إلى صدره، أن يقبلها، أن يقول لها إنها هي من كان ينتظرها؛ لهذا لم يحضر كاتيا ولا زوي إلى دمشق، لأن أيًّا منهما لم تكن لتليق بهذا الجمال هنا،قطعت حبل أفكاره.

- "هل تذكر أول ليلة لنا؟ ذهبت بي إلى ذلك البار، والآن هنا، إن ما تحاول الوفاق بينهما هما متناقضان كثيرًا؛ عالمين مختلفان، انظر إلى هذه النساء، من الممكن أن يكن في ذلك البار بسهولة مع السيجار والكحول، لكن الديانة حددت أنهن لن يجربن أبدًا مكان تسلية مثل ذلك المكان".

- "ربما بسبب الديانة، وربما بسبب وضعهن الاجتماعي، كل يوم تزداد النساء اللاتي يرتدين غطاء الرأس، في رأيي أنهن يعبرن عن هويتهن، اختلافهن عن النظام، لا تنسي أن النساء العلويات لا يغطين رؤوسهن".

- "أجد هذا الأمر شيقًا، لو أن الأمر كذلك، إذن فهناك اعتراض كبير ضد الحكومة في الشوارع، ولكن -أيضًا- هنا ربما يكون الجميع من المعارضين"، قالت وهي

تضحك بصوت خفيض.

- "لا أريد أن أفكر في الأمر".

أحضر النادل الشاب الفلافل الساخنة والشاورمة.

- "قل لي، لماذا رجل شاب لم يقم بالتغيير؟ حتى وإن كان قليلًا كي يتجنب الأسوأ".

- "كان قد أعلن عن تغييرات جذرية، لكن يبدو أنه أسير البيئة التي ورثها عن أبيه، فحتى الآن أشياء قليلة تحسنت، بالتأكيد الروس، والصينيون، والغرب بصفة عامة، يُبْدون دعمهم للرئيس الشاب بالتحدث الرسمي معه، أذكر في رحلته إلى باريس، تلقت السيدة الأولى تعليقات استحسان كثيرة".

- "كنت أظن أن السيدة الأولى، السيدة الكبيرة هي جاين ديجبي".

- "أحيانًا يتوافق الواقع مع الأسطورة، أجابها وهو يضحك، جاءتا كلتاهما من إنجلترا، عشيقتان للزعيم، امرأة الرئيس وُلدت وتربت هناك، إنها سورية من الجيل الثاني، تحمل على كتفيها حضارتين".

- "كتفيها! تتحدث وكأنه حمل ثقيل".

- "في حالتها هي ميزة، ربما أتعامل أنامع الأمر بصعوبة، لكن دعينا لا نعيد نفس الكلام".

سعيدٌ رومانوس بالوجهة التي اتخذها يومه، يعجبه فضول جيني الذي يغذي الحوار دائمًا، أسئلتها الثاقبة وحيوية وجهها، يجد اختلافًا كبيرًا في سلوكها ويرغب أن يكون قد لعب دورًا في هذا التغيير.

- "ستسألين الخال نديم في أمور أكثر في المساء، يمكن أن يحكي لكِ قصصًا كثيرة، لو أراد بالطبع، لديه دائمًا علاقات طيبة مع الرئيس".

- "خالك؟"، قالت جيني بصوت مرتفع.

- "لماذا تندهشين؟".

نظرت له بحدة.

- "يثير استغرابي عندما تقول لي إنه مجدد حداثي ولديه علاقات بممثل التحفظ بعينه، كما أحب أن أصفه برأفة شديدة".

- "هذا كلام كبير"، أجابها وهو يرفع كتفيه.

اتسع الفراغ فجأة أمامه، الثقب الكبير يهدد بابتلاعه، سيختفي بداخله، هذا هو السبب الذي يجعله يضيع في متاهات التاريخ، إحياء بريق الماضي كي يظلل على الحاضر، "كلٌّ في حصنه"، كان خاله يقول له برواقية. "ليس هناك معنى أن تشعر أنت بالذنب، المسؤولية تثقل كاهل هؤلاء الذين يعيشون في هذا البلد، نحن من نختار يا رومانوس، حياتنا هي اختياراتنا".

- "حياتنا هي الاختيارات التي نقوم بها"، قال لها وهو يسمع صوته يكرر كلمات خاله.

أدركت جيني كم هو موضوعي وآني هذا الذي همس به رومانوس، وكم هو حلقة مفرغة أيضًا، في حالة اختيار أماليًا أن تحدد حياة جيني، وربما حياة نديم ورومانوس في أغلب الاحتمالات، سلسلة من ردود الأفعال، تركيبات كيميائية، سوائل تغلي في معامل سرية، هكذا مثلما نطق آخر جملة قالها ببراءة، دون أن يكون لديه أدنى فكرة أن اختيار امرأة أجنبية، قبل سنوات مضت، سيهدم بعد قليل حياته التي في طور الإنشاء، انفجار مدوٍّ، يهدد بتدمير كل شيء، عاصفة رملية سوف تغطي كل شيء في طريقها.

سألته وهي تغير الموضوع:

- "هل صادفتك عاصفة رملية في الصحراء من قبل؟".

- "أحيانًا، لماذا؟".

- "كيف هي؟".

- "تحرق الأعين، تؤلم، ذات مرة جئت مع بعض زملائي من لندن وحوصرنا في بالميرا".

- "في بالميرا؟".

برقت عيناها، كأن لونهما الأزرق قد ازداد.

- "كان من المستحيل أن نخرج من الفندق، إلى أن تتوقف العاصفة كان الليل قد حل، اضطررنا للبقاء ليوم آخر حتى نشاهد الآثار".

- "هل يمكن أن تستمر لأيام؟".

- "قليلًا ما يحدث، أتخيل أنه في حالة كهذه يجب أن تكون الصحبة جيدة".

تلميح بريء، عبس وجهها، وضع رومانوس يده على مفرش الطاولة البلاستيكي طالبًا يدها، ترددت، لكن في النهاية تركت يدها في كفه، خفضت عينيها، أقل تلامس معه يسبب لها الارتباك، تجد تفاؤله غير مُجْدٍ وتصرفها محيرًا، تغير مزاجها، خمن رومانوس إرهاقها، تحولاتها تلزمه، بالنسبة له هو عنصر جاذبيتها، يمكنه أن يقسم أنه يبحث فيها عن نور فنارها الداخلي الذي يمسح السطح، وعلى حسب ما يجد تراقص الصفاء أو دوامة تغلي في أعماق البحر المظلم، هذا ما يحبه بالضبط، المظلم غير المتوقع.

- "لا أرغب في الحلوى"، قالت كأنها تعترف ودفعت بالطبق عنها.

ما معنى أن تتذوق طعم الصحراء؟ لن تشعر بالرمال تصر بين أسنانها، هواء الهضبة لا يرتفع أبدًا إلى هنا، ولو عاشت في وهم أنها تستحق الشيخ الجميل، ستغطيها العاصفة الرملية.

التفت رومانوس ناحية الفناء الداخلي يبحث عن النادل الشاب الذي يأخذ النقود في تلك اللحظة من زوجين من الزبائن، اندهش من طول قامة المرأة، مطوية تقريبًا

علـى المقعـد، نحيلـة، حضـور ضعيف للشـاب الـذي بجوارها، الملابـس الفضفاضـة تلمس الأرض وغطـاء الـرأس الملـون يغطـي شـعرها، يمكـن فقـط أن يخمـن عمرهـا من خـلال بروفيـل وجهها الـذي يأتـي علـى عكس عمـر الرجـل الـذي يرافقهـا، هـل هي أمـه؟ وحينهـا يتعـرف عليهـا، إنها تينـا! مـاذا تفعـل صديقـة خالـه نديم متنكـرة فـي زي مسـلمة متدينة؟ المـكان، المطعـم النائي والرجـل الشاب،تشـغله قليـلًا، أدهشـته ملابسـها وعنايتهـا بـأن تبقـي علـى وجهها مغطّـى، تينـا مسـيحية، تسـاءل إن كانـت بالفعـل هـي أم أنـه يتخيل، سـمع الكثير عـن تينا، لكنـه قابلها مرات قليلـة، هـل هـي صدفـة؟ تينـا سـورية وملامحهـا معتـادة، راح يعيـد النظـر كـي يتأكد، فـي هذه اللحظـة نهضـت المـرأة وهـي تمسـك بعنايـة غطـاء وجههـا، ليس هنـاك أدنى شـك، إنهـا تينا!

- "ماذا يجري؟"، سألته جيني.

التفـت نحوهـا رومانـوس ويبـدو عليه الانشـغال والقلق، سـيترك المبادرة لصديقـة نديم، قرر ذلـك بتلقائيـة، لـن يسـتطيع أن يفعـل شـيئًا آخـر، فليس مـن المسـموح أن يبدأ هو بتحيـة امرأة مسـلمة يرافقهـا رجـل، لـو أنهـا تينـا سـتقترب منهمـا، فلكي تخـرج مـن المطعم سـتضطر أن تمر علـى طاولتهما.

- "هل رأيت شيئًا؟"، سألته جيني هامسة.

هـز رأسـه بالنفـي، تـاركًا عـن قصـد جانب وجهـه مكشـوفًا، دخـل الرجـل والمرأة إلـى داخل المطعـم، شـعر رومانـوس بحضورهمـا بينمـا كانـا يمـران مـن بيـن الطـاولات الفارغـة، بعـد ذلك شـعر بهـواء بـارد وصـوت البـاب يعلـن عـن خروجهمـا مـن المحل.

- "ماذا حدث؟"، قلقت جيني.

- "بدا لي للحظة أنني أعرفها"، قال لها كي يطمئنها.

- "السيدة التي خرجت لتوها؟".

- "نعم، لكن من الممكن أن أكون مخطئًا".

- "وأنا رأيتها"، قالت له جيني بنبرة نصر في صوتها.

ظهر شيء مرح وصفيق في نظرتها، ماذا يحدث فجأة؟ هل تعرف جيني تينا؟ ثم، ما هذه النظرة الساخرة؟ ارتعب رومانوس، بِمَ تُذكّره نظرتها هذه؟

- "أنتِ؟ أين؟".

- "في بيت خالك، في إحدى إطارات الصور على مكتبه، بجوار تمثال النصر، لكن في الصورة كانت المرأة ترتدي بنطالًا وكانت لها خصلة شعر على جبهتها".

نظر إليها رومانوس مبهوتًا، فجيني -أيضًا- لديها خصلة شعر على جبهتها، خصلات كستنائية تسقط بخفة على جبهتها، خلفها تضحك بسخريةعينا الخال نديم.

**يسير نديم بعصبية** في الصالون، تعكر مزاجه والويسكي المخفف الذي يشربه لا يساعد إلا قليلًا، مع الأسف تأكدت الأخبار، كلها، الدهشة تقهقرت وحل محلها الغضب لمقتل كثير من المواطنين الذين خرجوا عزلًا يهتفون من أجل أمل في حياة أفضل، انتفخ الغضب وصار مثل سيل ربيعي فاض وغمر وأغرق كل ما قابل في طريقه، أكبر الضحايا كانت هيبة الرئيس. "كيف سمح لشيء كهذا أن يحدث؟" قال لأخيه عبر الهاتف، المستشفى الذي يعمل به كان في حالة تأهب قصوى وكان في دوام حتى إشعار آخر، اختفت تينا، الهاتف الآلي يجيب على هاتفها.

كان رومانوس متأكدًا تمامًا من أنه قد رآها في مطعم "الصديق"، سمع نديم الخبر وهو محني الرأس، وبالطبع في البداية كان يسخر من تشكك ابن أخته، فتينا بسبب عملها كانت تقابل رجالًا من أبناء الوطن أو من اللاجئين في أماكن كهذه، لم تتحدث معه لأن من الواضح أنها لم تتعرف عليه، وربما -أيضًا- كانت هي، لكن غطاء الرأس كان مصدر قلق، تردد نديم والشك في أن عشيقته كانت تلعب لعبة ما، كاد يفتك بعقله ويثير غضبه، لكنه لم يستبعد الأمر أبدًا، نشأت تينا وتربّت في بريطانيا العظمى، وعملها في برامج مختلفة لمنظمات غير حكومية كان دائمًا في بلاد عربية، لم تكن تتحدث كثيرًا عن ماضيها، ففي صباح اليوم فقط، وفي لحظة مفعمة وخاصة، أخبرته عن جدتها اليونانية، المنديل الملون الذي كانت تمسكه في يدها بالنسبة له، مستحيل! ماذا كان يعرف في الحقيقة عن المرأة التي يقاسمها الفراش لعام ونصف؟ تقريبًا لا شيء، لكن إلى أي مدى في الحقيقة كان مهتمًّا بماضيها؟ كان يكفيه علاقتهما الصافية المفتوحة وجسدها المشدود، الذي كان يمنحه لا مبالاة الشباب في غلاف ناضج، كانت الأسئلة تزداد، وعندما كان يطرحها كان يكتفي بإجابات مائعة، حاول أن يتذكر أحداثًا أخرى ذات علاقة، دون جدوى، لا شيء! لم يكن هناك ما يدينها، وهو لم يكن يشك في أي شيء، اختارت تينا أنسب الرجال للتخفي، "نديم! رفيق الكأس والبهجة".

كلما مر الوقت، كان غليان عصبيته يزداد ويصبح غضبًا، يزداد الغضب كثافة،

سخونة وحرقة، على الأكثر بسبب سذاجته، كان قد رفض عروضًا كهذه في الماضي، لكن بالتأكيد ليس لكي يحرض أبناء وطنه، هذه الأمور تحتاج إلى وقت، في البداية كانوا يتحدثون عن تعاون بسيط، دون أن يطلبوا شيئًا أصعب من المعلومات، بعد ذلك تأتي التعقيدات، كانت تينا في دمشق منذ عام ونصف، يكفي ويزيد، أشارت له في الصباح أن من يحركون الأمور ربما هم مدونون، من الشباب القلق، مثل ذلك الشاب الذي كانت تأكل معه، وهي كانت بارعة في ما يخص الحواسيب، لكن من يصدق أن كل هذه الأحداث تمت من خلال الكمبيوتر؟

لا يجب بأي حال من الأحوال أن يُظهر أمامها أي شك أو ريبة، فلو أن ظنونه خابت سيبدو سخيفًا، ولو ثبت العكس سيمنحها الفرصة كي تنظم دفاعاتها، خبيرة في عملها، لا بدَّ أنها قد احتاطت جيدًا، هل يتهمها بأنها كانت تأكل مع شاب مسلم؟ ستصفه بالثعلب العجوز الغيور، إنه يشعر بالفعل بأنه عجوز، نظرة أماليّا وهي تودعه في حديقة المتحف، كأنها أضافت لعمره سنين، ابتعد مثقلًا بالحزن والكآبة لأن تلك النظرة التي كانت تثقب ظهره سوف تثقل كاهله للأبد، وسيشعر بالصغر والضعف لأنه افتقد شجاعة المواجهة، رضخ مرة أخرى لقرارها، لإدانته.

دخلت سانتيا بلا صوت إلى الصالون تحمل صينية الأكواب، أعدت المائدة على طاولة مجاورة لأربعة أشخاص، خيبة أمل، مفرش الطاولة الثقيل المستوي وأدوات الطعام الفضية مرتبة، مناديل المائدة الكتانية والنبيذ في الإبريق الكريستالي، بقايا عادات أرستقراطية، كل روائح المعجزة الحمراء تترقب في رقبة الإبريق الضيقة"، اشربوا منه، فهذا هو دمي"، لم يتطلب الأمر سوى هتاف بلون رصاص العسكر روى شوارع درعا بالدماء، سفك الدماء، يرى الثورة تتمدد من الجنوب حتى الحدود الشمالية وتصل إلى شواطئ المتوسط شرقًا، في مناطق البترول، المناطق السورية الحساسة، يشعر برهبة تتملكه جراء مايمكن حدوثه مستقبلًا، ما الذي يمكن أن يوقف سفك الدماء؟

ترك الإبريق يسقط على الأرض، بقَّعَ النبيذ مفرش المائدة والسجادة، اللون الأحمر طلى النسيج الحريري للسجادة وتخللها حتى قلب عقدها العميقة، صدر

تـأوه مـن حلقـه، كمـا لو أن دمـه هو الذي انسـكب ويجـري تحت أقدامـه، همّت سـانتيا متوترة إلـى المطبـخ، عـادت ووقفت مبهوتة وتراجعت وهـي ترى رب عملها يبكـي بنحيب في منتصف الغرفـة، كانـت كتفـاه يهتـزان بينمـا خبـأ وجهـه بيـن كفيـه، كطفل صغيـر قام لتـوِّه بفعل سيئ، رجـل ناضج جُـرح بشـكل لا يمكـن إصلاحـه، لـم يسـتغرق الأمـر طويـلًا، اسـتند نديم علـى ظهر أحـد المقاعـد وسـيطر علـى نفسـه، بعد ذلك تـرك المكان لسـانتيا.

- "لقـد شـربت السـجادة السـائل كلـه، مـن الصعـب تنظيفهـا، آسـفة، آسـفة"، قالـت المـرأة وهـي تجمـع قطـع الزجـاج المكسـور.

كم من التسـامح تتسـع له صدور البشـر! هؤلاء الذين يسـيرون في الأمام ويحملون المزامير ويرتـدون القبعـات الملونـة يسـتطيعون إحيـاء الآلام، يجمعـون الأشـواك، الأخطـاء والقبـح، ثـم فجـأةً يشـعلون الثقـاب بـدلًا مـن أن تفهم بعـد ذلك.

- "المهـم أنـك بخيـر، ابتعـد قليـلًا حتـى أنظـف، هيـا، بعـد قليـل سـيأتي الآخـرون"، أجابتـه المـرأة بتوافق.

"ثعلـب عجـوز"، كـم كانـت محقـة تينـا وهـو كالسـاذج كان يظـن أنهـا مجاملـة! كانـت تينـا تتصرف كأنـه لورانـس آخـر، لكـن الصحـوة التـي يراهـا ضد العثمانييـن لـم تكـن لهـا أيـة علاقـة بالانقسـام الـذي تسـببه الثـورات فـي بـلاده، يتخيـل مـآل الأمـور والشـرارة التـي اندلعـت اليـوم ستنتشـر مثـل النـار كالهشـيم بمسـاعدة المدونيـن أو لا، لـو اشـتعل الفتيـل فلـن يحتـاج الأمـر للكثيـر حتـى يشـعل المنطقـة، قبـل سـت وعشـرين سـنة أحيـاء كاملـة فـي حماة سُـوِّيت بـالأرض كـي يخنقـوا أصـوات المعارضـة. اليـوم السـياح يعجبـون بالعجـلات الخشـبية التـي تحـرك مياه نهـر العاصـي، ويبحثـون فـي متحـف المدينـة عـن الفسيفسـاء الرومانيـة لـلآلات الموسـيقية، صـورة مثاليـة مطعَّمـة بالرصـاص، الموسـيقى تخنقهـا القنابـل، يخـاف نديـم كثيـرًا مـن الصراعـات الدينيـة، فجـروح بيروتلـم تلتئـم بعـد، لا، من أجـل الـرب! كان دائمًا يدعـم الرأي بـأن الديانتيـن المسـيحية والإسـلامية تدعمـان حـق وحرية العقيـدة للجميع، لكن حيـاة الأقليات كانـت تحتـاج إلـى المرونـة والمراوغـة، لهـذا كان يؤمـن بالرئيـس، لكـن مـا مـدى شـرعية أي

حكومة تقتل مواطنيها؟

دق جـرس البـاب فأخرجـه مـن أفـكاره، انحنى ومسـح حذاءه بمنديـل، ثم علـى عجل وضعه فـي جيبه.

دخلـت جينـي إلـى الصالـون، بدت مختلفـة، وجدها أطول قليـلًا، لكن كان يشـغله أكثر لو أن أماليّـا سـتأتي؛ لهـذا لـم ينتبـه إلـى الترقب فـي عينيها وهـي تقترب منـه لتحييه، دخـل رومانوس بعدهـا، مـد نديـم رقبته بعـد رأس ابن أختـه، بدا إحباطـه واضحًا.

- "أمك؟"، سأل بينما يمسك بيد جيني ليقبلها.

- "هي متعبة جدًّا، تعلم أنك ستتفهم".

- "دائمًـا كنـت أتفهـم غيابهـا"، علـق نديـم وهـو يلقـي بنظـرة علـى السـرفيس الرابـع علـى المائـدة المجـاورة.

كسـر الحزن لون عينيه الأزرق، وكأن ثوبه امتلأ بالثقوب إزاء غياب أماليّا، تحيرت جيني،نفس الجـرح الـذي لا يرحـم، ينفتـح لينـزف مـن جديـد! وعينـاه مليئتـان بصـورة الأخـرى! امرأةأخرى، دائمًـا هنـاك امـرأة أخـرى! ليـس هنـاك أحد لهـا! ولا حتى أبوهـا! الكابـوس يصر الأسـنان، يترقب خلفهـا، علـى بعد أنفـاس من رقبتهـا تكز أسـنانه مهددة.

مرر رومانوس ذراعه على ظهرها، الحامي، الملاك الحارس، هدأها في التو.

- "سامحها"، همست جيني.

الأخطـاء تحـدث كـي تصحـح، لـو لم تقتـرف الخطأ فكيف سـتعود لتنظـر إلى شـيء آخر غير الـذي تعلمتـه؟ كيف سـتجد الطريق الـذي ضيعته؟ ستكسـب معرفة ووقتًا للمـرة القادمة، الخطأ حكمـة، هـل نتعلم من أخطـاء الآخرين؟

قرأ نديم مندهشًا نظرة المرأة الشابة، توسل، نظرة غارقة في توسل صامت.

- "ابنتي الطيبة، كيف يمكن أن أتجاهل ما تطلبينه؟".

مثـل أمهـا.. حـزن يزحـف علـى ملامحهـا، لا يحتاج سـوى مسـاحة صغيرة كـي يسـيطر عليها، الاحتياجـات مغلفـة بقليـل مـن التواضع، المتطلبـات التـي تتسـع للكـف الضحـل، أماليّـا العطاء والهـروب، ذكـرى الحـب غيـر المكتمـل، مـد يـده إلى شـعرها، اقشـعرت جيني.

- "سامحها"، كررت جيني ووضعت يدها فوق يده.

أول اتصـال جسـدي، ارتبـك نديـم عندمـا شـعر بمـرور القشـعريرة مـن أصابعهـا إلـى أصابعه ومنهـا انسـكبت إلـى ذراعـه ثـم فاضت بقوة في جسـده، أهي قشـعريرة نجسـة بالنسـبة لثعلب عجـوز؟ جسـد تينـا الممشـوق وضحكاتها امتزجا مع جلد أماليّا المشـقق ورعشـة تلاقي العشـق، لا، ليـس نفـس الشـيء، مـن أيـن وجـدت هـذه الفتـاة كل هـذه العاطفـة والتأثـر فـي يدهـا؟ مـاذا تطلـب؟ اعتـذارًا؟ لا يفهـم، لمـاذا؟ نظـرة أماليّـا الموجَعـة تتشـبث فوقـه، تركهـا وحدها في المتحـف، الفـارس أدار ظهـره، كان عليـه هـو أن يطلب السـماح.

سأل:

- "أين هي الآن؟".

اشـتمَّتْ جينـي قلقـه فتركـت يدهـا تسـقط حـرة، فرغـت عيناهـا، تعـرف رومانـوس علـى الاستسـلام فـي ملامـح وجههـا، الشـفقة، يعبدهـا.

- "بقيت في الفندق، تستعد لرحلة الغد".

- "لقد تحسن وضع والدك، أليس كذلك؟".

- "ربما، هكذا يبدو".

- "سعدت بهذا"، همس نديم.

- "وحضرتك؟"، سألته جيني.

- "أنا؟".

عزلتـه، تكتيـك ينجـح دائمًـا، قطعـت صلتـه بالعالـم، هـي فـي دور المحقـق، العنيـد الملـحّ، وهـو فـي رحمـة الأسـئلة المعلقـة بينهمـا، كأن حياتـه سـتتوقف علـى الإجابـة التـي سـيعطيها، ثبتـت عيناهـا فوقـه، مديـن، هكـذا كان يشـعر نديـم، طلبت منـه أن يعتـرف بالوضـع التراجيدي فـي وطنـه، بمغادرتـه المتعجلـة من حديقة المتحـف، نظرتهـا المتفحصة أصابته بالشـلل، كذات أخـرى، زرقـاء كالبحـر الكبيـر، مثـل شـبابه قبـل نفيـه الإرادي، حينـذاك عندمـا رحل بعيـدًا، أبعد مـا يسـتطيع عـن وطنـه الصغيـر الخاص جـدًّا، الوطن الـذي يجرحـه، أزرق عميق، هـذا الذي كان يطـرح زميلاتـه علـى ظهورهـن فـي لنـدن، قـوي لدرجة أنـه ليَّـن مقاومة ميرنـا الجميلـة، لكن لم ينجـح فـي الإبقـاء علـى أماليّـا قريبة منـه، نفس اللـون الأزرق يتهمـه الآن.

طلب منها البقاء، توسل إليها.

تبـادل رومانـوس وجينـي نظـرات مرتبكـة، غيـاب أماليّـا يثقـل الأجـواء، ونبـرة صـوت نديـم المعترفـة باغتتهمـا، اختفـت كل رغبـة للمـرح، والفارس النبيل الـذي كان يقطع الصحـراء بالأمس متبختـرًا علـى حصانـه تحـوَّلَ إلى رجـل متعب علـى المعاش قبل ميعـاد نومه، الإحبـاط يحطمه، دوي مكتـوم يحـوم فـي الغرفـة، سـمعه الثلاثـة، لا أحـد يعـرف مصـدره، ولا قوتـه ولا أثـره، دوي أرض نائمـة، بـوادر عاصفـة رمليـة تهـدد حياتهـم، نذير خبر سـعيد أم نبوءة ظلاميـة؟ خائفين من الصوت المـدوي اقتربـوا بشـكل غريـزي مـن بعضهم، ثلاثة أجسـاد فـي حضن واحـد، أقارب من الدرجـة الأولى.

رومانوس المسـتريب شـعر بالفعل بالتأثر يسـري في جسـدها، كشـاهد قسـري على التواصل السـري الـذي يغذي شـرايينها، اندهـش نديم وجرفه الاتصـال الحميم من التلامس الكامل بجسـد جينـي،أوه! تمامًـا كمـا تخيلـه! تشـغل جيني بين ذراعيـه نفس المسـاحة التي تشـغلها أمها، حيز صغير.

بقـوا متعانقيـن، كمظلـة معلقـة فـي الهـواء، قبـل قليـل مـن سـقوطهم النهائـي، لكنهـم لـم يسـقطوا، وجدتهـم تينـا هكـذا فـي منتصـف الصالـون، خلفهـا كانـت سـانتيا تبتلـع

دهشتها على عجل ثم تعود إلى المطبخ.

كان نديم أول من استعاد سيطرته على نفسه.

- "عزيزتي تينا! مرحبًا! أي ريح طيبة جاءت بك عندنا؟"، سألها وانفصل سريعًا عنهما.

ظهورها المباغت ألقى حجرًا في بحر من الريبة، فللمرة الثانية في يوم واحد خرقت اتفاقهم غير المسمى، بالتأكيد لديها ما تقوله ولا تستطيع أن تنقله عبر الهاتف، لكنها -أيضًا- جاءت دون أن تتصل.

لم تجب تينا، بدا ارتباكها واضحًا من وجود جيني، وعلى الأكثر -مما لمحته فور أن دخلت إلى الغرفة- الطبق الرابع على المائدة، من هو الشخص الرابع الذي ينتظرونه؟ تفحصت المرأة الشابة على عجالة، الأمر واضح، لا بدَّ أنها قريبتهم التي أصيبت في حادث في بالميرا، صغيرة الحجم مثل نديم، ورث كلاهما نفس العيون الزرقاء الشاحبة من أحد الأجداد البعيدين، نفس الأنف الأنيق، لكنها تتردد من النظرة الحادة التي ترمقها بها المرأة الأخرى، سكين حاد، تعرفت على الفور على الهجوم الأنثوي للمرأة التي تدافع عن رفيقها.

لم تتأخر جيني لتفهم من هي المرأة الأخرى التي باغتتهم وأربكت عناقهم غير المتوقع، لم تكد تعثر على أبيها، وها هي امرأة غريبة تنحشر بينهم، آه! لا تتجنب أبدًا وجود امرأة ثالثة، غريبة! راحت ترمقها بغضب بنظرات سامة، مقررة في هذه المرة ألا تتزحزح ولو شبرًا واحدًا وتتنازل عمّا يئول لها، ستحاربها بكل ما أوتيت من قوة، لاحظت الأسلوب والتعبير المتشبع الذي كان على وجه السيدة باناس، نبرة السيطرة وهي تقترب من نديم وتمد يدها، لم يَفُتْها بالطبع الوشاح الملونالذي تعقده حول رقبتها، هو نفسه الذي كانت تغطي به وجهها في المطعم الصغير.

- "دعوني أعرفكم"، كسر نديم الجليد في الأجواء على عجالة.

تم التعارف المطلوب.

- "قولي لي إذن، أي ريح جاءت بكِ إلى هنا؟"، سألها نديم وهو يبتسم مجددًا.

"ريح الثورة؟" سيود لو يسألها، لكنه وعد نفسه بالتماسك، لا يحتاج الأمر لمشهد العاشقة أمام ابن أخته وابنة أماليّا.

- "يا قلبي، الطبق الرابع على المائدة"، أجابت تينا، كي تستقبل نظرة باردة أخرى من جيني.

تركت جسدها يسقط على الأريكة ثم أضافت:

- "أعتذر، لم أشأ أن أربك تجمعكم العائلي".

بدلًا من أن يجيبها، قدم لها نديم كأسًا من النبيذ، أسلوبها يولد الريبة والتساؤلات، لكن لم يظهر عليها أي تعجل، فعلى كل الأحوال الليلة دون أماليّا هي ليلة ضائعة.

- "لا ياقلبي، شكرًا، لن أشرب"، قالت لها وهي تبعد الإغواء الياقوتي الذي يقدمه لها.

- "ماذا لديك من أخبار؟".

- "أخبار حسنة وأخرى سيئة، سأبدأ من الأخيرة، الوضع ليس جيدًا على الإطلاق، الجامع في درعا مليء بالقتلى والمصابين، لكنهم يرفضون نقلهم إلى المستشفى لأن هناك تخوفات أنهم لن يصلوا أبدًا إلى هناك، القناصة يطلقون الرصاص الحي، الرئيس سيلقي خطابًا كي يهدئ النفوس، لكن المعلومات تتحدث عن قلاقل في منطقته أيضًا، في غرب وشمال البلاد، هل تتخيل أحداث شغب في مسقط رأس الرئيس؟ يتحدثون الآن عن خطف واعتقال عشرات المعارضين، على الحدود مع تركيا تستعد المعسكرات لاستقبال لاجئين سيرغبون في اللجوء إلى أراضيهم، هنا -أيضًا- أخبار متداولة عن انشقاقات".

- "أرى أن الجيران لا يضيعون الوقت والفرصة"، قاطعها نديم.

- "ما زال هناك وقت أمام الرئيس ليغير الوضع"، تدخل رومانوس.

- "هـذا بالضبـط مـا يفعلـه"، أكملـت تينا، سـيتحدث فـي خطابه عـن الأصابـع الخارجية التي تتدخـل في الشـأن السـوري وعن وحدة الشـعب.

- "هـل سـيجمع القناصـة؟"، تدخلـت جينـي فـي الحـوار موجهة كلامهـا إلى تينا كأنهـا ممثلة النظـام، كأنهـا هـي التي تطلـق الرصاص مـن على أسـطح المنازل.

تبادلـت تينـا مـع نديـم بعـض النظـرات متضايقـة، أطلـق هـو ضحكـة مـن قلبـه، كمـا اعتـاد دائمًـا كـي يهـدئ الأجـواء، احتضـن جينـي بـود وحمايـة.

- "يـا قلبـي، لا تسـيئي فهـم جينـي الصغيـرة، وصلـت إلـى دمشـق قريبًـا، أعجبتهـا بلادنـا وتحمسـت لهـا، هكـذا يفكـر كل مـن يقضـي وقتًـا قصيـرًا معنـا، التطـورات التـي حدثـت اليـوم أخافتهـا قليـلًا، دعينـا نقـول إنهـا فقـدت بوصلتهـا، كمـا يقـول أصدقاؤنـا الفرنسـيون، هيـا، دعونا نشـرب ونأمـل أن كل هـذا الأمـور سـتحل سـريعًا".

صـب النبيـذ للجميـع، رفـع كأسـه نحـو الجميـع كـي يفعلـوا مثلـه، نظـرت إليـه تينـا بعينيـن نصـف مغمضتيـن، اقتربـا مـرة أخـرى مـن بعضهمـا كمـا كانـا عندمـا دخلـت إلـى الغرفـة، نـواة عائلـة، لسـان الغيـرة يداعبهـا، لكنهـا دفعـت عنهـا مباشـرة هـذا الشـعور السـيئ، فـي كل حياتهـا كانـت حـرة ترسـم هـي خطـوط مسـيرتها، بالطبـع يعجبهـا نديـم الـذي يؤمِّـن لهـا مسـاحتها في الحريـة، وجـدت توازنهـا بالقـرب منـه، لكنهـا لن تقبل أي نـوع من الاعتمـاد عليـه، بالأخص الآن؛ فالأمـر يحظـى بمعنـى آخر.

ثمـة شـيء يضايقهـا فـي هـذا الثلاثي المـرح، مـن الثلاثـة كان رومانوس هـو المحايـد، كانت تينـا تعـرف كـم يحبـه خالـه، علاقتهما كانت أمـرًا واقعًا، أي أنه لا يسـبب أي حـدة أو خوف، رأت أن هنـاك علاقـة بيـن رومانـوس وجينـي، لسـان حـال الشـاب كان يصيـح مـن بعيـد: "أنـا أعشـق هـذه الفتـاة!"، لكـن هـي؟ هـي كانـت فـي ذروة السـعادة بيـن الرجلين، وهـذه السـعادة كانت تنتفـخ علـى شـفتيها وتسـري علـى ذراعيهـا العارييـن تحت ضـوء النجفة، فـي منتصـف الصالون بالضبـط، أمـا نديـم فقـد كلفـه كثيـرًا تبـدل روتيـن يومـه، إخفـاق آمالـه؛ فقـد كان يراهـن علـى التجديـد، والآن هنـاك مخاطـرة أن يخسـر اللعبـة بالكامـل، أم أن هـذا الحـزن لـه علاقـة بوجـود جينـي في دمشـق؟

دق ناقوس الخطر وراحت أصداؤه تهلُّ من بعيد وتصل إلى مسامعها، نهضت واقتربت من المجموعة الصغيرة، لغة الجسد تبين أن المرأةالجديدة قد وجهت سهامها نحو الهدف الخطأ، لن تترك لها الساحة فارغة.

- "لماذا لا تشربِ ياقلبي الليلة؟"، سأله نديم باهتمام.

- "لدي أسبابي، لكن هناك بالفعل سبب أهم سيجعلنا نترك رومانوس وجيني يستمتعان وحدهما بالعشاء الذي أعددته".

عندما رأت دهشتهما أضافت على عجل، بصوت يملؤه الحسم:

- "هناك من ينتظرنا".

وقف نديم مبهوتًا، وعلامة استفهام عميقة ارتسمت بالفعل على جبهته.

- "الآن؟"، سأل فقط.

- "المقابلة غير قابلة للتأجيل، لأن الأحداث تتلاحق".

لم تترك مساحة كي يحل اللغز، بكلماتها الأخيرة يبدو أنها أقنعته، أبْدَى نديم موافقته مرتبكًا في صمت، لكن قبل أن يغادر اقترب من جيني، أخذ يدها وطبع عليه قبلة.

- "سأراكما في الصباح في المطار، حاولا الآن أن تقضيا وقتًا سعيدًا"، قال لها برقة.

ابتلعت هي ريق مرارتها بصعوبة، لم تُخْفِ نظرتها العدائية نحو تينا وهي تغادر، في لمستهما اللحظية شعرت جيني بتيار بارد يكتنفها ويأخذ بعيدًا، لكن للأبد، والدها.

- "**ربما سنضطر** إلى إلغاء كل الرحلات الخريفية إلى سوريا".

قال بتروس كارافانداريس وهو يدوس على زر التيليكونترول كي يغلق التلفاز.

صدى الأحداث التي تجري في شوارع المدن السوريةامتد إلى الغرفة، جموع تهتف، دبابات تدخل إلى أحياء المدن مدججة بالأسلحة، مشهد حرب درامي، شاحب، مصور بكاميرات تقنية تحملها أيادٍ مهزوزة، القلق والتوتر أمام حرب أهلية وشيكة.

دخلت نادية من باب المطبخ تحمل كأسًا من الويسكي من أجل زوجها، حاولت أن تهدئه فأعطت نبرة لامبالاة لصوتها.

- "بالتأكيد هو وضع مؤقت، وعلى كل حال فسوريا في الصيف منطقة ممنوعة، والحر شديد".

- "في منطقة الفرات شهر مايو يُعد شهرًا نموذجيًّا".

- "كل هذه الرحلات ضاعت، من سيحجز رحلة إلى هنا وهو يشاهد الأخبار عمَّا يحدث هناك؟ يزداد عدد القتلى يوميًّا، وكأن الأسد يفعل هذا عن قصد، تخطى عددهم الخمسمائة، ناهيك عن المسجونين والمجهولين، أرتعد من فكرة أن تدخل الدبابات إلى المناطق الأثرية، هل تتخيلين بالميرا محاصرة من متطرفين مسلحين؟ من المستحيل أن أفهم هذا، أسير قادة الجيش، لقد أفلت زمام الأمور من بين يديه، أم أنه يبدو لي؟".

اختنق الغضب في حلقه.

- "لا تتسرع يا بتروس، دعنا نرى ماذا سيقول لنا نديم هذا المساء"، أجابت بكل هدوء ممكن ثم عادت إلى المطبخ لتعد العشاء.

نفاد صبرها لمجيء أخيها التوأم كان يفوق قلقها إزاء فترة ركود العمل في

المكتب، لقد حسمت أمرها، الأزمة الاقتصادية التي تهز أركان اليونان لن تستثني قطاع السياحة "نحن -أيضًا- مع الآخرين"، كانت تفكر، الأحداث في سوريا كانت لها تأثير أكبر على المكتب السياحي، بَيْدَ أن هذا وضع لن يتغير، نقطة ومن أول السطر.

بالتأكيد كانت ترتجف هي -أيضًا- من فكرة تدمير الآثار، هل ما حدث في العراق كان قليلًا؟ لو تم إغلاق سوريا كسوق سياحية ستكون لديهم مشكلة في العمل، لكن الشيء الآخر الذي كان له الأولوية الآن بالنسبة لناديه هو مصير إخوتها الذين يعيشون في دمشق، ومستقبل أولادهم وثرواتهم، تغيير الأنظمة الجذري لا يُبقي شيئًا حاله، كانت لديها أسباب -أيضًا- لتقلق بشكل أكبر بخصوص التغييرات السياسية وبشكل أقل في ما يخص تأجيل الرحلات.

أحداث الشغب في الشوارع لها كواليس عميقة، فإيران الشيعية تدعم نظام الرئيس، بينما السعودية الموالية للغرب كانت تمول المقاتلين من السُّنة، ما يجب أن ينتج عن هذه الأزمة هو نظام سياسي يمثل الأغلبية السنية وفي الوقت نفسه يحمي حقوق الأقليات من العلويين والمسيحيين في سوريا، التسامح ضد تعصب المتطرفين، وتعاون الجميع من أجل نهضة سوريا، بالنسبة لنادية كان هذا هو الربيع العربي.

ألقت نظرة على الفرن ثم خرجت إلى الشرفة، تنفست بارتياح، مثلما يحدث في كل مرة تسقط عيناها وتمتلئ بالمنظر الرائع الذي يُختص به القليلون من شرفتها، أضواء معبد البارثينون الذي يوجد على بعد أنفاس قليلة من شرفة بيتهم كان يحول الليل الصيفي إلى عيد، سحبت نادية أريكة خفيفة وجلست. كانت تعشق جنتها الصغيرة هذه، حولها زهور الكوبية والغاردينيا، زهورها المفضلة، أغلقت عينيها لبرهة ثم فتحتهما مرة أخرى لتملّي عينيها من اللوحة التي أمامها وبعظمة هذه التحفة المعمارية التي تلازمها منذ ذلك الحين الذي انتقلوا فيه إلى هذا الحي، كل مرة تنظر مستمتعة إلى المرأة تفكر في كم كان قرارًا صائبًا أن يبيعوا منزلهم في باليو فاليرو، آنذاك، في أواخر التسعينيات، فقد كبر الأولاد،

غـادرا البيـت والمسـافة مـن دلتـا فاليـرو إلى وسـط المدينة، قـد أجهدتهم، بقدر مـا كانت تحب حديقتهـا فـي شـارع أتالانتـوس، التـي كانت تذكّرهـا بمنزلهم في دمشـق وزهور أمهـا، كانت هي صاحبـة المبـادرة فـي تغييـر محـل السـكن، كانـا شـخصين، فيـمَ يحتاجـان منـزلًا كبيـرًا بحديقة؟ صـارت البنايـات العاليـة مـن حولـه تخنقـه، الشـقة فـي حـي الأكروبـول كانـت فكـرة مثالية من أجـل المنظـر والموقـع أيضًـا، كان علـى بعـد خطـوات مـن سـينداغما[1]، سـيرًا علـى الأقـدام مـن خـلال بـلاكا[2]، كان الطريـق مـن المنـزل إلـى المكتـب نزهـة وتدريبًـا فـي الوقـت نفسـه، وهـو الأمـر الهـام فـي عمرهمـا، لـم يعتـرض بتـروس كارافانديس، لقـد تعلـم أن يخضع لغريـزة زوجته ومبادرتهـا طيلـة هـذه السـنوات؛ لأنهـا أبدًا لـم تخذله.

تمـددت وفـردت سـاقيها علـى مقعـد آخـر، لـم تشـأ أن تتـرك نفسـها للإرهـاق، بالأخـص الليلـة، وصـول نديـم إلـى أثنيـا كان حدثًـا عظيمًـا، مثـل عيـد صغيـر، لهـذا أعـدت العشـاء فـي البيـت كـي تسـتقبل أخاهـا بـدفء وألفـة، كانـت الليلـة لطيفـة، سـيأكلون ويتحـاورون حـول الطاولـة فـي الشـرفة، سـيحكي لهـم نديـم بالتأكيـد الكثيـر والكثيـر عـن الوضـع السياسـي فـي سـوريا، وأيضًـا عـن كل الأشـياء التـي هـزت حياتـه مؤخـرًا، عندمـا اكتشـف أنـه وبرغـم عمـره أنـه سـيصبح أبًـا، صُدمـت ناديـة وصعـب عليهـا أن تسـتوعب الأمـر وتتعامـل معـه، كان للتـوأم دومًـا علاقـة خاصـة يحتفـظ بهـا غيـر العلاقـة مـع الأخ الآخـر، كانـت تعـرف أنـه دائمًـا يشـتاق ليكـون لديـه طفـل، ورغـم كل المخـاوف شـاركها فرحتـه وانتظـاره للطفـل الـذي سـيأتي فـي الربيـع، مـن حـق ناديـة أن تسـعد بتينـا، فـي مـا يتعلـق بهـا، فرفيقـة نديـم كانـت تبـدو امـرأة ناضجـة واختـارت بـكل وعـي الأمومـة المتأخـرة، رفضـت أن يعلنـا ارتباطهمـا بشـكل رسـمي، وميـلاد الطفـل خـارج مؤسسـة الزوجيـة سـوف سـيخلق ردود أفعـال واعتراضـات مـن المجتمـع الدمشـقي المحافـظ، إلا أنهـا أصـرت علـى رفضهـا لطلـب نديـم النديمالمتكـرر بالـزواج، فـي النهايـة بقـي الطعـم اللذيـذ للاسـتعدادات لقـدوم الطفـل بابتسـامة واسـعة مـن الجميـع دون اسـتثناء، وأصابـت الرجـال الغيـرة نحو الأب السـعيد، فقد أثبـت لهم على كل حال أنه برغم سـنه

---

1- ميدان سينداغما هو الميدان الرئيس في وسط أثينا (كلمة سينداغما تعني «الدستور»).

2- بلاكا: أحد أشهر الأحياء السياحية في أثينا على مقربة من الأكروبول، ويشتهر بالمطاعم والمحلات السياحية.

المتقدمة أنه قد أصاب الهدف. "فعلت مثل سارة[1]"، كان نديم يقول بسخرية، هبة من الرب، فماذا عساه أن يكون؟

فقط رومانوس أظهر شيئًا من الاضطراب اللحظي لم يمر دون ملاحظة على الأقل من نادية، لكنه لم يعطِ لها أي مساحة للحوار في الأمر، كان ابنها يتعرض لضغط نفسي كبير، عندما جاء إلى أثينا انفصل عن زوي وعاد بشكل مؤقت إلى بيت العائلة، كان كل اهتمامه منصبًّا بشكل حصري على التطورات الدرامية التي تحدث في سوريا وتخلخل التوازنات في المنطقة، كان وضعه وسلوكه يشغل نادية كثيرًا، فقد كان يبدو أنه يعشق زوي، انفصل عنها دون عذر وبدون إبداء أسباب، هكذافجأة، مثلما انفصل نديم عن زوجته الأولى، بينما كان مرحلة إعادة العلاقات، أطفأ أخوها من حياته للأبد اللبنانية فائقة الجمال، ماذا حدث حينها؟ لم يفهم أحد أي شيء، فقط الجدة رينا ألقت بسهامها على وجود أماليّا في ذلك الوقت بالضبط في دمشق، وجدت نادية تلميحات أمها ضربًا من المبالغة، محض صدفة، كم كانت مصادفة الآن أيضًا؟ تزامنت رحلة أماليّا مع انفصال رومانوس، لكن عندما تجرأت ولمحت له بذلك ضحك ونهرها: "ما بكِ يا أمي؟ ولما لا تكون هي -أيضًا- المسؤولة عن الشغب الذي يحدث في سوريا؟! فور أن وطئت قدمها أرض سوريا اندلعت الأحداث". لم تتمادَ نادية أكثر من هذا، لكنها سألت من بعيد عن جيني راليس، أما هي فدخلت في لُبِّ الموضوع مباشرة، شكت في أنه ربما يحدث شيء بين ابنها وبين ابنة زميلتها القديمة؛ لذا اتصلت بأماليّا، بالطبع بحجة وفاة زوجها السابق، فمنذ ذلك الحين، لم تعطِ زميلتها أي إشارة لوجودها، ربما غادرت إلى لندن، لم تصر نادية.

- "لماذا تأخروا؟"، سُمع صوت بتروس من الصالون وقد فرغ صبره.

- "لا بدَّ أن هناك زحامًا، اهدأ".

- "أي زحام؟ أثينا خاوية، أي سائح جاد سيأتي في خضم هذه الإضرابات والمظاهرات؟ الحال في المواني مُزْرٍ، الأبواب تغلق عمدًا في الأكروبول، وفي وسط

---

1- إشارة إلى سارة زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام التي حَملت وهي عجوز.

المدينـة المشـاغبون الغاضبـون والمواطنـون يتبـارون علـى النزال مع الشـرطة، إلـى أين تذهب بنـا الأوضـاع؟ الرب وحـده يعلم!".

لـم تجـب ناديـة على تذمـر زوجها، لكن بتـروس كارافانديـس كان محقًّا، الحكومة الاشـتراكية محاصـرة بالكسـاد الاقتصـادي العالمـي، متنكـرة كمنيـادا[1] يمينيـة مجنونـة، فسـبَّب هـذا التنكر تحديـدًا إزعاجًـا عالميًّـا كبيرًا، من يحتمل أن يرى الاشـتراكيين على الطبقة الوسـطى؟ أول مفاجأة صـارت غضبًـا، تحـول إلى غضب عاصـف لكنه لم ينفجـر؛ لأن تحركات الحكومة الواسـعة وجدت الجسـد الانتخابـي المخصـي نائمًـا، خَـدَرٌ تـامّ، منـذ متـى ثـار الحـس الشـعبي؟ خامـلًا كان دائمًا أمـام الفسـاد، ضائعًـا مرهقًـا أمـام وجبـات تليفزيونية سـيئة، طريـح الفراش، لم يسـتطع أن يقف على سـاقيه ويرفع رأسـه، أمام من؟ أمام الأوربيين؟ لكن لسـنوات كان اليونانيون يتلقون دروسًـا مكثفـة حتـى يتعلمـوا أن يكونـوا أوربييـن. مـن سـيقف ضـد مـن الآن، ضـد ذواتهـم المكتسـبة؟ كانـت ناديـة تحـب وطنهـا الثانـي، حاولـت كثيـرًا كـي تمنـح التـوازن لعائلتها، نجحـت من خلال هـذا النظـام، لكـن دون أن تختبـئ خلـف إصبعهـا، مثلما كانت تلقـي باللوم على النظام السـوري دون أن تتـورط عاطفيًـا، هكـذا لـم تكن تعطي العـذر للامبالاة والسـلبية التي أظهرهـا اليونانيون أمام تطـور الأحداث.

- "غيـر ناضجيـن، أطفـال صغـار، يمصـون السـكاكر التليفزيونية ويفضلـون أن يبقـوا صغارًا"، كانـت تقول كـي تسـتفز أصهارها.

- "ومـاذا يجـب أن نفعـل؟ أن نتقاتل في الشـوارع مثلما يحدث في سـوريا؟"، كانوا يعترضون هم بسخرية.

- "الأسـد يحمـي كل الأقليـات، مـاذا سـيحدث للمسـيحيين؟ إن سـوريا هـي الدولـة الوحيـدة التـي تتمتـع بهـذا التسـامح الدينـي، فـي المنطقة مـن حولهـا يبحثون لها عـن ذريعـة، بداية من تركيـا التي تسـن أسـنانها، وإسـرائيل..".

- "صـه! إسـرائيل تعـرف أن حدودهـا مـع سـوريا هـي الأكثـر أمانًـا، ليـس مـن

1- مانياذا أو مانيادا: هن النساء/ العرائس في حضرة فاخوس/ ذيونيسوس إله الخمر في الأسطورة اليونانية، وكن يشتهرن بالرقص والجنون والسلوك العنيف، وردت في كتابات هوميروس، واشتق من اسمها كلمة مانيا Mania التي تعني الجنون.

مصلحتها الشغب والصدامات".

- "المؤكد هو أنه كان من الواجب أن تحدث تغييرات، القمع الذي يحدث الآن ليس له مبرر لدى المجتمع المحافظ"، علق برتوس كارافانديس.

انفجرت نادية في الضحك وهي تسمع زوجها.

- "أنتم تتحدثون عن المحافظة؟ أنتم الذين لا تجرؤون على الهروب من ابن أخِ الواحد إلى ابن الآخر؟".

في التاريخ السياسي لليونان هناك اثنان أو ثلاثة ألقاب تتبدل بانتظام على السلطة، كيف تتخلص أمة من رذيلة حكم العائلات؟

- "الحرية تحتاج إلى الفضيلة والجرأة، الشعب المقيدة أياديه وأرجله بالقروض والديون ليس لديه متسع للاعتراض".

كانت نادية قلقة، تشم رائحة أيام سوداء على وشك الشروق، الغلاء، الضرائب الثقيلة واستفزاز السياسيين كانت تجلب الاستقطاب، والاستقطاب انقسام.

- "سيعترض الناس، سيتخلون عن الأحزاب الكبيرة، لكن أكثر ما أخشاه أن عدم النضج الذي يتسم به اليونانيون سيجعلهم يضيعون داخل أنانيتهم، في أوقات كهذه يظهر الفاشيون، سوف تتذكرون، سوف نضيع".

- "حينها سنخرج للشوارع"، كان أصهار نادية يعارضون.

- "يخرج إلى الشوارع هؤلاء الذين ليس لديهم ما يخسرون، اليائسون"، قال رومانوس فصمت الجميع.

كانت نادية تهز رأسها مفكرة، الخاسر الكبير دائمًا هو الشعب، هزيلًا من الفقر كان أو سمينًا من النعيم، ببطن مليء أو خاوٍ، الإنسان يتعطل، كانت هذه هي نظريتها، بالنسبة لها مقياس الحياة هذا كان يبدأ من المطبخ.

ألقت النظرة الأخيرة على الفرن ووقفت على الطاولة تعد السلاطة التي

ستصاحب السمك، قلوب الخس الرقيقة، فلفل أحمر مقطع لشرائح رقيقة، خس طازج مخلوط بحبات العدس والبقدونس. كانت نادية تعشق البقدونس، تتذكر مائدة أمها الرائعة بحنين، عندما كانت تثقلها الفلافل الشهية بالصلصة والرمان، الخبز الساخن والمحاشي التي تشبه الأصابع الصغيرة، هي لم تكن طاهية رائعة مثل رينا، ولم يكن لديها قط نساء يساعدنها في المطبخ في الولائم، كانت أمًّا عاملة تعلمت أن تطهي المحاشي مثل حماتها اليونانية، لكنها لم تكتفِ أبدًا بأكل العدس كشوربة فقط، كانت تستخدمه في السلاطات وكطعام بجوار السمك، تخلطهبالأرز البري أو تطبخه مع لحم الخنزير، كان مطبخها يعد مساحة لتلاقي حضارتين، في تلك المساحة كانت نادية تحاول طيلة حياتها أن توفق بينهما بحساب وعناية حتى لا تظلم أيًّا منهما.

جربت صلصة الزيت بالليمون وألقتها بسخاء على البقدونس، لم تكن متعجلة على الإطلاق، كانت تشك في أن رومانوس الذي ذهب إلى المطار ليستقبل خاله، سيستغل الفرصة لحوار أولي معه، كان لديه الكثير ليسأله، وبات من الطبيعي أن يتأخرا قليلًا، من الوضع السياسي حتى تينا والطفل الذي ينتظرانه، كانت علاقتهما دومًا وطيدة، فقد كان نديم يفرغ فيها كل مخزون الحب الذي يحمله بداخله، كيف سيتغير الوضع مع الأحداث الجديدة؟ لا أحد يعرف.

صوت مفتاح رومانوس في الباب الخارجي فاجأها، استبقها رومانوس ووصل إلى المطبخ قبل أن تغسل يديها وتمسحمها.

- "ماذا حدث يا رومانوس؟".

مزيج من التساؤل والقلق.

وقف ابنها تحت إطار الباب وهو على مسافة أمان من نادية، كما لو كان يعرف نتيجة ما سوف يقوله.

- "خالي يعتذر".

حجة مجربة مئات المرات، كان يبحث عن الكلمات المناسبة، تلك التي لا تؤجج

القلـق والفضـول أو الغضـب، كررهـا مـع نفسـه عـدة مـرات فـي السـيارة، بينمـا يهبـط طريـق كيفسـياس، كـي يسـتوعبها هـو نفسـه.

- "خالـي يعتـذر، لكنـه لـم يَطِـرْ إلـى أثينـا، فـي اللحظـة الأخيـرة غيَّـر تذكرتـه وتوجـه إلـى لنـدن".

خفض صوته في نهاية جملته، ربما سيقل الانطباع الذي ستجلبه.

- "إلى لندن؟".

ثارت نادية وهي تمد يدها بشكل أوتوماتيكي كي تغلق الفرن.

انتهـاء التنبيـه، إلغـاء العمليـة، لـم تكـن في حاجة لأن تسـأل عن سـبب تغيير أخيهـا لرحلته، ولـم يمـر بذهنهـا ولـو لحظـة أن تينـا كانـت السـبب أو الطفـل المنتظـر، لمـرة أخـرى زميلتهـا القديمـة أماليّـا، قفـزت مـن الكواليـس أمـام الجمهـور المشـدوه وسـرقت العرض.

**استغرق الطريق** من مطار هيثرو إلى لندن ساعة من الزمن تقريبًا، الازدحام على الطريق أجبر السائقين على السير بسرعة منخفضة، مستمتعًا بتأمل الغروب البديع الذي كان يعانق الريف البعيد حول المدينة، في عمق الأفق كانت الشمس تطلي السماء بكل درجات اللون الأحمر المطعم بلون ذهبي نادر، منظر يُذكّر بلوحات الأكواريل الرائعة لتيرنر[1] الذي يستحق بجدارة لقب معلم هذا النوع من الفن؛ فريشته تتنافس مع فخامة الطبيعة إذ ينسخ بدقة ألوان الغروب فوق نهر التايمز أو قنوات فينيسيا، لم يكن نديم ليشبع من اللون الأخضر الكثيف الذي يتهادى في كل مكان، فرق شاسع بين هذا المنظر والهضبة التي تحاصر دمشق، النور هنا رقيق، يمسد على شواشي الأشجار وأسقف المنازل، يلعب فوق أسطح السيارات اللامعة وعلى اللوحات الإعلانية الضخمة على الطريق السريع الذي يتبدل دون انقطاع، ويسوق بدقة مئات المسافرين إلى وسط المدينة، نحو قلب أكثر مدينة صاخبة وودودة تجاه الأجانب في أوربا، كان نديم يعشق لندن، بالأخص من أجل التسامح الذي تُظهره لأسراب البشر التي تتعلق بها، كل أجناس بني إسرائيل، كل لغات العالم.

لعق بلسانه شفتيه الجافتين، تملكه القلق كي يصل إلى وجهته، والتوتر بدا واضحًا في كفيه المتعرقين وزيادة طفيفة في عدد ضربات القلب عندما وصل إلى فحص الجوازات في المطار، بالرغم من أن التأشيرة على جواز سفره كانت مجددة بسبب كثرة رحلاته العملية، تأخر الموظف ليعيد له جواز السفر وانهالت الأسئلة الروتينية عن سبب زيارته السابقة للمملكة البريطانية، بالتأكيد بسبب آثار أحداث الشغب وطريقة قمعها العنيفة، نظر موظف المطار إلى نديم بحدة، وكأنه كان هو المسؤول عن الأحداث الدامية التي تذاع حول العالم في ساعة الأخبار.

سيارة التاكسي السوداء انحرفت نحو واحد من أغلى شوارع لندن، ثم بعد ذلك توقف أمام مدخل "Gadogan Hotel"، بناية محافظة من القرن التاسع عشر،

---

1- ويليام تيرنر (-1775 1851) فنان ونحات إنجليزي، اشتهر بقوة الضوء في أعماله.

ذاعـت شـهرتها لأن الشـرطة هنـاك ألقـت القبـض علـى أوسـكار وايلـد بتهمـة ممارسـة اللـواط، غرفـة 18، كان نديـم يحـب تميـز هـذا الفنـدق وتسـليه فكـرة أن هنـا فـي هـذا المـكان عـاش الشـاعر العظيـم الـذي انتهـك أخلاقيـات ونفـاق عصـره.

تـرك حقائبـه وهـو ينهـي إجـراءات الفنـدق وخـرج ليتمشـى فـي المسـاء الفاتـر الـذي مـلأ الطريـق بالخيـالات، تجنـب الفتاريـن التجاريـة وانحـرف إلـى شـارع أفقـي ذي بنايـات حجريـة مهيبة، سـار تحت أشـجار السـنط الكثيفة وهو يستنشـق الهواء البارد بعمق، هدوء! هذا ما كان ينصح نفسـه بـه دائمًا، لأول مرة يجد نفسـه محاصرًا في ركـن ضيق، حاول أن يغلـق على حياته بيـن أسـلاك منيعـة، لكـن فـي البدايـة كانـت أماليّـا ومـن بعدها تينـا واقتحمتـا معبـده فأصبحتا كالأزرار التـي تغـذي حياتـه بالنـور والماء.

عندمـا غـادرت أماليّـا دمشـق، غارقًـا في حـزن عميق لغيابها، سـمع مدهوشًـا تينـا تخبره بأنه سـيصبح أبًـا، بقـي معلقًـا فـي الهـواء، متأرجحًـا بيـن تلميح خلـود مسـتقبلي وبين إنهاء سـعادته بشـكل نهائـي، مشـهد خـراب وطنـه كان ينـزع قلبه نزعًـا، كيف ينسـج الأحلام عند آخـر انعطاف للطريـق؟ بطـن تينـا المسـتدير أغلـق حلقـة آخـر أمـل، مثل القفـص الذي سـبح في النيـل مخبئًا بداخلـه بـذرة النهضة.

لـو كان للروتيـن ألـوان باهتـة لغرفـة أطفـال صغيرة، من سـيعترض؟ فـكان بإمكانـه أن يحيى حفيـدًا، بالتأكيـد باسـتطاعته أن يربـي طفـلًا، حكمـة الآبـاء تُصَـبُّ وتنتقـل بالكلمـة والحـب مـن القلـب، أي طفـل يحتـاج إلـى شـباب أبيـه لكـي تتسـع لـه أحضانـه؟ الريبة بشـأن مفهـوم العدل فـي اتخـاذه قـرارًا مثـل هـذا كانـت تقـرض عقلـه لفترة مـن الوقـت. الأنانية هي أسـوأ مستشـار، لكـن جسـد تينـا المشـدود كان يمحـو الريبـة كلهـا، ومسـحورًا راح يتنـاول المعجـزة التـي كان الزمـن يكتبهـا عليهـا، كانـت تينـا تتنصـت علـى دقـات القلـب فـي بطنهـا وقعقعـة المقاومـة خـارج البـاب، الأيـام حُبْلَـى بالتقلبـات، فـي تلـك الليلـة، وبعـد أن خطفتـه تقريبًـا مـن البيت أمـام أعيـن رومانـوس وجينـي المندهشـة، أوصلتـه مـع أحـد المستشـارين "المختصيـن" لإحدى السـفارات الأجنبيـة، مخربـون متعجرفـون، عندمـا يتحـول الأمـر ضـد مصالحهـم، كانـوا ينبشـون

فـي مكاتبهـم الرطبـة ويخرجـون متقاعديـن مختلفيـن، الذيـن كانـوا يعملـون لحسـاب العـدل والنظـام والديمقراطيـة، تدخـلات لأسـباب إنسـانية، الغـرب الرحيـم!

الآن تأكـدت شـكوكه فـي تينـا وفـي الـدور الـذي تلعبه، نشـاط سياسـي مـن أجـل التحديث، لـم يكـن نديـم سـاذجًا، لكنـه كان مغـدورًا به، كان ينتظـر الربيع الـذي كان يَعِدُ بـه الرئيس الذي احتـرق هـو -أيضًـا- منـذ الصيـف وخـرَّب بلده، الصـدام بيـن السـوريين كان يجري في الشـوارع، وشـجاعة أبنـاء وطنـه أمـام دبابات ومدرعـات النظام كانـت تحبس الأنفـاس، المغـدور بهم كانوا يلقـون بأنفسـهم علـى المدافـع، رئيسـهم الحبيب قـد تخلى عنهـم، أين ذهـب اللطـف من عيني الرئيـس؟ الأفيـش المعلق بهتـت ألوانه.

"إلـى أي عالـم نأتـي بهـذا الطفـل؟" تسـاءل نديم. "الـدم الضائع يعـوض"، كانت تينـا تجيبه، لقـد رأت أمهـات فلسـطينيات يلـدن علـى الأرض الطاهـرة ثـم بعدهـا يذرفـون دمعًـا مريـرًا مـن أجـل مقتـل فلـذات أكبادهـن، لكنهـن كُـنّ يحبلـنَ مـن جديد، أمهـات عجائـز، لا يعرفـن الكلل.

"أي طفـل سـيكون؟ أيـن سَـيُرَبَّى؟" سـألها ذات مرة وقد سـيطر عليه اليـأس والإحباط، عجوز، اسـتهلك كل مخـزون الأمـل، "اكتـب: أنـا عربـي"، أجابتـه تينـا بأبيـات مـن قصيـدة "سـجِّل أنـا عربـي" لشـاعر فلسـطين محمـود درويـش، بكـى مـن التأثـر؛ لأنـه فهـم أن ابنـه أو بنتـه سَـيُربَّى بوصفـات ابـن سـينا وأبيات الشـعراء فـي أحضان أمه، بعيـدًا عن أفنيـة المدارس الدوليـة، الوطن فـي حاجـة إلـى أولاد هكـذا يسـتطيعون كتابـة أشـعار جميلـة، أشـعارهم. كانـت تينـا تبشـر بمجتمـع سـيكون فيـه الحمـاس العربـي هـو مانـح الهويـة للبشـر بعيـدًا عـن الديـن والجنـس، مسـلحة بـإرادة ورؤيـة كانـت تحـاول أن تحقـق المعجـزة، مـن سـيمنعها؟ مـن لديه الحـق؟ كان نديـم يسـافر بعربـة قديمـة دون أي رؤيـة، لسـنوات يـدور فـي تـروس البنـوك ويـرى الـدروب التـي تفتحهـا طليعـة المحدثيـن، شـمت الـكلاب رائحـة الذهـب فألقـوا فـي الشـوارع بالزمارين ذوي القبعـات الملونـة كـي يجمعـوا الفئـران، بقـي أمـل أن فـي هـذه المـرة المنقـذون سـوف يتولـون مهمـة دفـع المقابـل حتـى لا يضيـع الأولاد الصغـار فـي النهـر، الصغيـر، ابنـه الصغيـر،

هذه كانت رؤيته، المشاركة في أفق واسع، لهذا برَّأ تينا وتشبث بالفرصة الثانية.

كان يحـزن فقـط لأنـه لـن يكـون بمقـدوره أن يفخر بهـذا الولـد، أن يجلس معه ويتحـاور، أن يمـزح، أن يتنصـت علـى قلقـه وهمومـه وآمالـه، طفل محكـوم عليه سـلفًا، يتيم قبـل أن يولد، إلا أنـه كان علـى ثقـة بأنه سـيحمل فخر أمه، شـخصيتها الصلبة، سـيرث جسـدها الممشـوق، ويأمل أن يـرث مـن أبيـه "الثعلـب العجـوز" حب الحيـاة الذي لا ينضـب وبهجتها، علَّـه لا يفقد الضحك والتفـاؤل، أن يحـب كل مـا حولـه، من أصغـر زهرة في الحديقـة حتى قهقهة غريب في الشـارع، سـيدة البيـت التـي سـتدفئ له اللبـن، وزميله الـذي سيشـاركه الطعنات مـن الخلـف والتعليقات الشـائنة، الشـفافية التامـة لصحـراء بالميـرا وأضـواء بحر بيـروت، آه لـوكان لديه آلـة للزمن! فقط ليقـول للشـاب المتخـوف أسـرارًا كثيـرة، كيـف يفتن امرأة؟ كيف يسـرق بسـمة في سـاعة حزنها فيجفـف جفونهـا؟ كيـف يطعِّـم ابنتـه ضـد عـدم الثقـة باليقيـن الـذي تمنحـه القيادة إلـى قلب الأب؟

كان مدينًـا بالامتنـان لتينـا للقـرار الشـجاع الـذي اتخذتـه، هـذا الطفـل سـيعطيه قـوة هائلـة ليتجـاوز الزمـن الـذي صـار مثل أسـلاك شـائكة تحيطه مـن كل مـكان، كان الأثر في ذاكـرة طفل، راح يحلـم مـن جديـد، حتـى وإن كان الإخـوة بين أبناء وطنـه يتبادلون إطلاق النـار، بالتأكيد ثمة شـيء قـد فشـل، لكـن الألم يثبـط عندما تلمـس أصابعه بطـن تينا المنتفـخ، كان يشـعر بالحرية، إذن عـمَّ يبحـث خارج بيـت أماليّا؟

حـلَّ الظـلام فـور وصوله، إنارة الشـارع ألقت بضـوء برتقالي مـن بين أوراق الشـجر، والأبواب الداكنـة راحـت تبـرق عليهـا مقـارع الأبـواب اللامعـة، وقـف مفكـرًا للحظـة أمـام البـاب الثقيـل، عندمـا تأتـي أماليّـا وتخرج من وإلـى حياته فجأة، وتهـرب كالمطاردة، كأنها اللحظـة الأخيرة التي سـتخطف فيهـا شـيئًا ثـم تهـرع إلى النافـذة وتقفز خارجهـا، الأثر الوحيـد الذي تركتـه خلفها كان الحـزن لغيابها، ولا شـيء آخر.

رحبـت بـه بابتسـامة، لـم تكـن واسـعة، أعطتـه يدهـا، بـاردة وعاريـة مـن الحلـي، غـاب عـن معصمهـا سـوار دمشـق الفضـي، مخـدَّرًا دخـل إلـى الصالـون الداخلـي يتبعـه خيالهـا الضئيـل، لـم تكـن ترتـدي اللـون الأسـود. فلمـاذا؟ علاقتهـا برالـيس انتهـت قبـل سـنوات

طويلة قبل وفاته القريبة.

- "فاجأتني بموافقتك على المجيء؛ مع كل هذه الظروف في سوريا كنت أظن أنه من الصعب أن تغادر"، قالت له وهي تشير له إلى الأريكة بجوار النافذة.

- "لم تطلبي مني من قبل أن آتي ولم أحضر، فهمت أن الأمر لا يحتمل التأجيل، كنت أود أن أعبر لكِ من قريب عن حزني لوفاة راليس"، أجابها وهو يستريح في مكانه على الأريكة قدر المستطاع، لقد تعب من التمشية واحتاج أن يلتقط أنفاسه قليلًا كي يسترد كامل وعيه، رفعت أماليا كتفيها.

- "شكرًا، بالكاد لحقناه، مات بعد يوم من وصولنا، أصيب بذبحة صدرية ثانية أقوى من الأولى".

- "أرسلت تليغرافًا إلى جيني فور أن علمت".

- "لا بدَّ أنها قد تسلمته، أعتذر نيابة عنها لو لم تُجِبْ".

- "أُقَدّر أنها في حالة حزن وحداد".

- "كفى، أقول..".

بقيا صامتين فجأة، الحوارات انتهت، رجع نديم بظهره على الأريكة.

- "لقد أعددت الشاي"، قالت له وهي تشير بجوار الأريكة إلى طاولة منخفضة عليها آنية الشاي الفخارية وفنجانان، "لكن إن رغبت يمكن أن أقدم لك النبيذ الأحمر أو كأسًا من الويسكي".

- "كأس ويسكي من فضلك، ومعها قليل من الماء المثلج".

أول مرة تصب كحولًا لرجل بعد أن فقدت دايف، رائحة الويسكي المعتق وصوت قرقرة السائل وهو يملأ الكأس، أعاداها للخلف إلى سنوات سعيدة، ذكريات، مساءات فاترة في فترة قضتها وحيدة، خنقت تأثرها لأنها يجب في هذه اللحظة ألا تفقد وجهتها، الأولوية لجيني، قررت أماليّا أن تشق غرورها الورقي الهش،

فـي كل حياتهـا كانـت أمًّـا مراهقـة، تخلـت عـن مراهقتهـا الممتـدة بعـد عـزاء دايفيـد ولـم تنضج بالرغـم مـن وفـاة راليـس، أمـام جسـد الرجـل الـذي بغـى علـى حياتهمـا، أدركـت كلٌّ من الأم والابنـة أنهمـا قـد أنفقتـا الكثيـر مـن الدمـوع سُـدًى مـن أجـل الـزوج السـابق، والمعـروف بـالأب، فلـم يكـن لديهمـا دمـوع للـوداع، فقـد أنفقتـا الكثيـر منهـا فـي لحظـات هيسـتيرية مـن أجـل صورتـه، ومـاذا بعـد؟ لـم يعـد راليـس موجـودًا، خـرج مـن المشـهد متجنبًـا فقرتـه الأخيـرة، بقيـت الاثنتـان تلـوكان كلمـات الصـدام الأخيـر علـى نفـس الخشـبة، يتيمتـان مـن عنصـر ألمهمـا، أماليّـا نظـرت بحـدة إلـى جينـي، "لنغيـر السـيناريو..." قالـت لهـا وجذبتهـا بعيـدًا عـن أثينـا.

بينمـا كانـت تعـد كأس الويسـكي، كان نديـم يلقـي نظـرات خلسـة، حركاتهـا كانـت ثابتـة، كأنهـا تتحكـم فـي كل شـيء للمـرة الأولـى، كأنهـا لا تعيـش فـي هـذا البيـت، كانـت تسـير بيـن الأثـاث بحـذر حتـى لا تتعرقـل فـي زاوية الأريكـة أو تلقي الكريسـتال أرضًا، كانت للأجـواء رائحة طازجـة وثـراء على اسـتحياء، خشـب داكن، سـجاد ثمين أحـادي اللون، لوحات لمواقـع في البحر المتوسـط وطبيعـة ميتـة للجنـوب، الشـرق هو الكبـت الأبدي للطبقـة الثرية الإنجليزيـة، صيادي الفـرص، للحيـاة الشـرقية الخاملـة المجهولـة، الشـرق المشـتعل الممـزق، الغـرب يسـاند الثـوار متذرعًـا بأسـباب إنسـانية، هبـوط مستشـارين مختصيـن فـي الصحـراء الليبية بهـدف وحيد وهو اصطيـاد الديكتاتـور الخـارق للقانـون، الـذي قبـل شـهور قليلـة اسـتضيف فـي خيام فـي حدائقه الإنجليزيـة والفرنسـية، يـا للجنـون! تكـرار ممل، معركـة نافارين البحرية والاسـتيلاء علـى العقبة، غـزو المعارضيـن القـادم لطرابلـس كان يختلـف قليـلًا عن غـزو الحلفاء لدمشـق في عـام 1920، كانـت تغيـب فقـط كاميـرات التليفزيـون، الآن البريطانيـون SAS وقـوات المارينـز الأمريكيـة، المدربـون علـى التكنولوجيـا الحديثـة، كاستنسـاخ للورانـس، مسـتعدين للحـرب، راحـوا يوزعون مـن جديـد أجـزاء الدولـة المتمزقـة، هـل بات الـدور على الأسـد؟

انتابـت نديـم قشـعريرةٌ بـاردة فـي منتصـف الغرفـة، راح يسـير بعصبيـة محـاولًا أن يغيـر تفكيـره، صـورة رجـل فـي منتصـف العمـر موضوعـة علـى البوفيـه، المضيـف، هـو علـى الأقـل فـاز بحوريتـه بسـيفه ونقلهـا إلـى ضبـاب لنـدن بـكل الأشـكال، بيـن

المعروضـات الفضيـة من كل شـكل ولون التـي كانت مرصوصة حوله: شـمعدانات، أكواب عميقة وأوانـي الشـاي. أضحـى هـو الآخـر عنصـرًا معروضًا، بلا اسـتخدام، ذكـرى من الزمـن الماضي، كان للمرحـوم شـفاه كبيـرة وعيـون مدببـة، علـى العكـس من ذقنـه التي كانـت بها منعطفـات خطرة فـي توازن تـام مع خطـوط أنفه.

قال لها وهو يأخذ الكأس من يديها:

- "لا بدَّ أنه كان شخصًا مثيرًا للاهتمام".

سألت مندهشة:

- "من؟ راليس؟".

ضحك نديم، طبيعته الساخرة المعروفة برزت في عينيه، استراحت أماليّا.

- "أتحدث عن الزوج الثاني".

وأشار إلى البورتريه أعلى البوفيه.

- "آه! تتحدث عن دايف، كان يطوي الحديد".

كان بصوتها نبرة حنين، ثم فجأة صارت قاسية لا تلين.

- "قضى عليه السكري".

أجابها متوافقًا:

- "كلنا لدينا كعب أخيل".

"ماهـي نقطـة ضعفـك، كعبـك الأخيلـي؟" جـاءت لهمـا نفـس الفكـرة فابتسـما فـي الوقـت نفسه .

- "هل أفترض أنها الطفل الذي تنتظرانه؟".

تلميـح عشـوائي أم غيـرة خاطئـة؟ ارتشـف مــن كأسـه، آه! لا تعـرف أماليّـا بالأمـر،

كيـف سـتعرف؟ عـدم الأمـان الأنثـوي، أمـر يسـهل التعـرف عليـه، شـبَّ مـن داخلـه غضبـه الدفيـن، سـريع ووقـح، تماسـك، تفـوق عليـه أدبـه فـي الطـول، مـن المسـتحيل أن يغضـب منهـا، فـي بيتهـا.

- "وأنت؟".

تغاضت عن الهجوم، تذكرت جيني وطريقتها، كيف جرده من أسلحته تعبيرها المتفحص!

- "وأنتم؟" سـألته، استسـلمت بهذه السـهولة كأنها كانت تنتظر الفرصة للاعتراف بما سـيلي، كانـت تريـد أن تصرخ كيـف آلمهـا رحيـل أمهـا، غيابها الذي تحـول إلى فقـدان، حرمـان وحنين، عصيـر مـر، بعدها مـاذا حدث وبقـي الاعتـراف معلقًا في منتصـف الطريق؟

- "أنا؟ آه، يا نديم! تدري ما هي نقطة ضعفي، هذه المرة الأمور جَدٌّ صعبة".

حلت الغيوم على وجهها وظهر على جبهتها خطان عميقان خائنان.

- "هل الأمر يتعلق بجيني؟".

- "بالضبـط، أعـرف كـم هـو صعـب أن تأتـي إلـى هنـا مـن دمشـق وأقـدر هـذا كثيـرًا، أنـت الشـخص الوحيـد الـذي يسـتطيع أن يسـاعد".

- "أنا؟ كيف؟".

لم تُجِبْ أماليّا، كانت لديها خطة، عودته من سوريا ووفاة راليس كانا نذيرين بتغيير كبير في سلوك جيني، بعد أن تلقت العزاء بين زملاء قدامى وصديقات ناضجات، تستقبل، كوريثة وحيدة، الحـزن والنفـاق الفائـض، لـم يَكْفِ الحداد كـي يبرر لأحد جرحهـا العميق للتخلي عن أي نشـاط، ففـي أعماقهـا كانـت جينـي حزينة وفي حداد لسـبب آخر، لأبيها المجهول حتـى الأمس، من أجل إلغـاء كل أمـل بـأن تحظـى بحبـه واعترافه، رغبتها الشـديدة في أن تولد مرة أخرى، بشـكل فعلي كامـل ورمزي في سـوريا، صارت حلمًا تذروه الريـاح، قبل خط النهاية، وبينما كانت جاهزة -فائزة

في سباق الخلافة- لأن تلقي بنفسها بين أحضان أبيها، سقط سقطة مدوية إزاء خبر حمل تينا ونديم، النبأ البهيج الذي أثار عائلات كثيرة، أجابت بداخلها، وجود رومانوس لم يغير من الأمر شيئًا، كان محبطًا، صار على الهامش، حاولت أماليّا في البداية بهدوء، وبإرشادات الدكتور أشلي نجحت على الأقل في أن تقنعها بالعيش في لندن، لكن هي كانت غير مكترثة بما يحدث حولها، كانت لا تستجيب لمحاولات أمها، لم يكن أمام أماليّا أي اختيار آخر، الاتصال بنديم كان صرخة اليأس، وهو لبى بسرعة، وهي نضب منها الكلام، ثقب كبير بدلًا من فم، استغاثة صامتة، لكن صداها كان يثقب أذنيه، كانت غريزته تنذره بالغارة الخطيرة، بالضربة القاضية.

قالت له:

- "هي في حالة حداد".

- "أجده أمرًا طبيعيًّا".

- "إن الوضع أكثر تعقيدًا".

لم يدرك نديم أن يسأل شيئًا آخر، فُتح بابٌ خلفه وأصدر صريرًا خفيفًا، وسُمع صوت خطوات على الأرضية الخشبية، التفت ليرى جيني على بعد أمتار منه، نَحُفت، بتعبير وجهها اللامبالي المعهود، ونظرتها الشاحبة تزداد تحجرًا، وتنظر تارة إليه وتارة إلى أماليّا، لم تَبْدُ مندهشة، وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة وتترصدها خلف الأبواب المغلقة، أيامًا وليالِيَ حاربت شبحها الشرير، جسدًا بجسد في معركة لايمكن التنبؤ بنتيجتها. في الليالي الباردة التي كانت تتنصت فيها على غرفة أمها المجاورة، كانت تشم رائحة الدموع من خلف الجدران المبطنة، السهر كان يغذي توافقهما، كان يمر عبر أزقة السوق وأماكن الرب المقدسة، ثم يتبع طريق القوافل على الهضبة، أمٌّ عنكبوت، تغزل القصة بلعابها من البداية، الحكاية التي كانت مدينة لها بها، كانت جيني تسمعها وتتدفأ داخل الأمل، الذي يغذيه الصبر ويمتص نخاع الجسد، أصابها بالإعياء، كانت ترتعش من الرفض، هذا الظل الثقيل الذي يتتبعها، لكن الآن وأخيرًا قد جاء نديم.

نهضت أماليّا، قرأت وجه ابنتها والهجوم الذي تُعدُّه، الضربة القاضية التي ستثقب الخراج الذي يخنق حياتهم، رائحته النتنة ستكون أفضل من الهواء الشحيح القذر الذي يتنفسونه هم الثلاثة في الغرفة، الاختناق سيصيبهم بالشلل.

رأى نديم التوتر في عيون كلتا المرأتين، وفي حِدة جسديهما، تشويق مميت قبل الانفجار الأخير، ألهذا إذن لم تتصل به؟ كان هو ضحية الهجوم الموجه الذي كانت تعده الأم والابنة، مدا أيديهما وهو استجاب، كيف سيستطيع أن يفعل شيئًا آخر؟ اقترب منهما، على جبين أماليّا لمح بريق نقطتين من العرق، جاء بذهنه ليل بالميرا، قبل أن ينطفئ النور، اقشعر وهو يضغط على يدها، تمسكا، الأيادي مربوطة والمشاعر تتسارع، العيون مفتوحة على أشدها، كما ينتظر المؤمنون المنتشون المعجزة، تحدثت جيني فقط، اصطدام بالماضي، هلاك، الحقيقة مثل تيار كهربي اخترقت أجسادهم التي تمددت من القسوة، كأنهم يمتطون أجسادًا فارغة، تحمل نديم الهزة القوية، عربي معتاد على حرب العصابات، صليبي محاصر، صياد ومحارب للمستحيل، كل هذا كان يعتريه، وسادة الأمان الهوائية، استطاع وتماسك بسرعة من زُرقة عينيها، تراجع فقط خطوة للخلف، أمام تلك العلاقة التي انفجرت بينهما، قنبلة ذرية، انفجرت بلا حساب وأنارت الثلاثة ببريقها، منظر مذهل، لم يركضوا لينقذوا أنفسهم، بقوا متحدين، كعائلة.

كلمات جيني كانت سهامًا انغرست في صدره وبطنه، فمها كان سلاحًا يصوب، الشظايا انتشرت في كل مكان، في كل قطعة من جسده، في كل تجويف لجمجمته، ألم غير معروف، لم ينزف نديم، بدا كأنه ينتظر، كأنه قد حَبَلَ في ابنته، ثلاثين عامًا، في قلبه، في رأسه، كأنها زيوس آخر ولدت ناضجة.

انحنى نحوها، قبلة تعارف رسمي.

- "مرحبًا، يا أميرتي"، قال لها فقط.

**صمت تام**.. تخدَّرَ عقله من التأثر، مستحيل أن تتسع الكلمات لكل هذه المشاعر، يكفي أن أنظر هنا أمامي، شاحبة وخائفة، عيناها متاهة، كيف تتسع متاهة كهذه للكلمات؟ وكم من الكلمات يمكن أن تقال؟ لن أرحل، أحتاج للوقت، كيف أهدم حياة كي أبني بجوار حياة قديمة حياة أخرى؟ وكيف سأزرع في حديقة جديدة من البداية؟

آه، هواء جديد، ضوء مختلف! في ممر البيت سأقابل وجهها، مجهولة حتى قبل الأمس، الآن لا بدَّ أن أعرفها، أن أطمرها بداخلي، كنت دائمًا أحبها، كلمتان تتصارعان، الفم ينتفض مثل امرأة على وشك الولادة، لكن الكلمات لا تخرج، من الأفضل هكذا، وماذا لو لم تكن تليق؟ لو كانت مؤلمة؟ الجسد ضعيف كي يحتمل، قاسية هي السنين، بضربات متتالية طرحتنا أرضًا، ونحن الحمقى، ظننا أن الزمان يعود للخلف، انجرفنا، وقعنا في فخ الحنين، الزمان يؤلم، لهذا أخشى الكلمات، أخاف من كل شيء.. لقد صرت امرأة عجوزًا، ماذا تنتظرين؟

هذا الصمت حولنا يتدفق مثل الماء، أصبح مثل شجرة تتغذى على الصمت، تبقي ثابتة و... أضرب جذورًا... آه! يمكنك أن تتنصتي على الدوِيّ الداخلي، الصخرة تنكسر، حاضر يتفتت، لو أنك شجرة ستصلين إلى القمة، لديك قمة لتلمس الشمس، كيف يمكن أن أتعامل مع هذا النور؟

**اسمع قلبي**، يدق من الخجل بلا انتظام، سأقوم بمحاولة أخيرة كي أضبط جملة، هذا الصمت بيننا يمزقنا مثل السلك، نديم!

**قلت:**سأهديك الجنة وأدرت ظهرك لباليرا، وخسرتها أنا أيضًا، آه، يا أماليا! الآن تعيدها إليَّ... مع هذا النور الذي يغسل حياتي، كيف يمكن أن أشكرك؟

**أطلب** منك السماح يا نديم.

**أطلب** أنا الوقت. وقت، كي أفرح بكما مثلما لم أفرح بكما من قبل، أن أسير بينكما، أن تفيض أحضاني من جسديكما، وبيتي من صوتيكما، وقت، كي أحصد حتى النهاية، يا إلهي! أتوسل إليك! أعطني وقتًا.

**كانت رائحة الهضبة** في انتظارهما فور أن عبرا الحدود، مألوفة كصديقة قديمة، مع أفيشات الرئيس الضخمة الموزعة على الجدران والأعمدة، نظرته الهادئة الآن تمتلئ بالتهكم، ابتسمت جيني، فعيناه بدت لها شديدة الحمرة.

عند نقطة الحراسة الحدودية رحب بهما الجنود المسلحون، تعلو وجوههم الريبة، الفحص دقيق وشامل، فقد ندر وجود السياح، التأشيرات تُمنح ببخل شديد، والتأخير صار مبرمجًا، أعادوا لهما جوازي السفر، تنفسا الصعداء، ثم امتدت أمامهما الطريق للأمام بسرعة.

تركت جيني نافذة السيارة مفتوحة، الهواء الجاف راح يملأ رئتيها، فتنعكش شعرها، مع كل المشاعر التي تغمرها، يا لها من مغامرة! نظرت إلى رومانوس بجوارها، تتبعه مرة أخرى في رحلة هادئة، وكأن الربيع العربي لم يطرأ، الربيع القاسي والمجهض، الصيف الدامي، موت ميخاليس راليس، وموت الآلاف من السوريين،

الآن تسافر مرة أخرى في طرق سوريا المستقيمة، تطير مثل ورقة شجر يجرفها الهواء، منّة من السماء، بخفة تقوم برحلة نحو السعادة، بالنسبة لجيني كانت السعادة هي نظرة نديم الحنونة، غارت منها، اشتاقت إليها كثيرًا، والآن لا تشبع منها، تسعى إليها دائمًا، بتعصب مؤمن جديد، بجوار هذا الأب الجديد، أميرته!

من أجلها صار الملك العجوز محاربًا، بحماس فارس شاب وحكمة زعيم خبير أعيد تشكيله ورحل للمعركة، الموقف الواضح الذي اتخذه في الأحداث السياسية بهر الأصدقاء والمعارف، لم يكن سهلًا بالنسبة لمسيحي، مؤيد سابق للنظام، أن يغير وجهته ويتخلى عن الرئيس، الناس في دمشق يكتنفهم الخوف، كانوا يخفون رأيهم وانحيازاتهم، سواء كانوا مؤيدين للرئيس من الآملين في انتقال سلس للسلطة، أو حتى كانوا من الذين يطلبون رحيل الرئيس بقوة، كلهم كانوا خائفين أمام غدٍ يبدو ككهف عميق، مجهول ومتاهيّ، كان ينتظرون بلا ارتياح خارج الثقب، أصدقاء صداقات قديمة انتهت، وتفتت الصحبات، ماذا كان لديهم

ليقولوه في تجمعاتهم؟ بينما الأقارب صاروا يتجنبون الزيارات، العم سمير انضم لجانب الرئيس مؤمنًا بأن الحكومة تكسب وقتًا وسوف تعكس الوضع، آخرون كانوا يتحدثون عن نهاية الأسرة الحاكمة، وأنها قد وصلت إلى طريق مسدود.

كان نديم يعرف أن السجادة الجديدة كان يتم نسجها بالفعل، البعض كان ينهي التصميم ويعمل بلا كلل على الألوان فوق تصميم قديم، اتخذ موقفًا، الابنان، مرسلين من السماء، منحاه الدفعة، بالتأكيد شغلا بقوة ثرثرة الصالونات، المجتمع الضيق في دمشق كان يسعى إلى فريسة يبرد عليها أسنانه ومادة خام لتشتيت رائحة الدم، مفاجأة الطفل المرتقب لم تكن شيئًا أمام الظهور المفاجئ لابنة ناضجة، وبالطبع نصف يونانية، تجاهل نديم كل التعليقات وسعى إلى دور في المعارضة، الآن لديه آلاف الأسباب للتورط، كان لديه ابنة كبيرة وأراد أن يثبت لها أن أباها لن ينتظر الآخرين ليمنحوه المساحة التي يستحقها، مستقبل بلادهم كان هو واجب الجميع وليس امتياز القلة، جدية حديثه وشجاعة موقفه أعطياه مكانة وهيبة، وكان يتحرك بحيطة وحذر.

"سأهدي لكِ الجنة!" وعدها في الليلة الأخيرة قبل أن يغادر لندن، "أمك أبعدته عندما كان يقدمها لها"، حزن مديد مغطى بسخرية زاحفة، سارا هم الاثنان مشبكين أياديهم في حدائق ساوث كينجستون حتى ضفاف نهر التايمز، حل الليل والطيور أعلى الأشجار أنهت أغاني وداع يومهما في اليوم الذي يغرب، الشارع بينهما ذو الأفنية المزهرة والأسوار الأنيقة ساقهم إلى جسر الأمير ألبرت، الذي كان مضيئًا ناصع البياض بدعاماته المعدنية، كان يشبه سفينة على أهبة الإبحار، عصرها بين أحضانه، كان بإمكانه أن يُبقي عليها بجواره، أن يلمسها، ويشمها، أخفى شدة تأثره، فقط قبَّل شعرها وهمس لها: "لا أريد أن أضيعك"، جملة حفرت على رخام عقلها، حتمًا لا محالة.

لم تتوقف أحداث الشغب، بالأخص في أيام الجمعة بعد الصلاة في المسجد كانت الجموع تنهال إلى الشارع، الشارع الذي كان يتغذى على الدم، وحش كاسر آكل للحوم البشر، نهم لا يشبع، القتلى والمعتقلون أجبروا المجتمع الدولي أن

يفرض الحصار على سوريا، لم تكن المرة الأولى، فقد تعلمت البلاد أن تعيش لزمن طويل خارج البيئة الدولية، النظام لم يجفل، ولا جيني من المشاهد العنيفة في التلفاز والرعب المنتشر على شبكة الإنترنت، لن يقف أمامها أي سياج حديدي شائك، راحت تركض بسيقان أرتميس السريعة، كي تقابل أباها، الرجل الوحيد في حياتها الذي حظي بها بحقيقتها كما هي.

"على الأقل يكون معك شخص تعرفه"، قالت أماليّا مرتجفة، لكن سعيدة، فكرة أن ابنتها ستتجول في بلد القانون العسكري فيه يطلق الرصاص كل يوم على الأبرياء، كانت ترهبها، لكن التحول الذي اتخذته علاقة ابنتها مع أبيها الطبيعي، كانت تريحها كثيرًا، حتى أن حالتها النفسية كانت تصل إلى مستويات السعادة، "هل مع رومانوس؟" تجرأت واقترحت ببراءة وبلا أي ريبة.

قبِل رومانوس، يقولون إن داء الحب ترياقه الحب، لكن الحب غير المكتمل يتعطش للألم ولجلد الذات، وكان رومانوس يمر بهذه المرحلة بالضبط، التنين الشرير اختطف حبيبته، في حالته هو كان التنين رجلًا ستينيًّا في حالة جيدة، من أقاربه، بكرش ونظارات، أنفق مخزون قلبه بسرعة عاشق وراح يكسب النقاط والاعتراف، استسلم رومانوس لفكرة أن جيني قد أصبحت جزءًا من لقاءاتهم العائلية وقرر أن يرافقها مرة أخرى في سوريا، الوضع السياسي في اليونان وفي سوريا وصل إلى نقطة المنحنى، ذيويجينيس نادية الفخور يشاهد وطنيه يُظهران أحشاءهما ويتألمان، المعارضون يواجهون عجرفة النظام بصدورهم، أبرياء كانوا يسقطون على أغصان الشوارع، حرب عصابات قذرة، غير معلنة، على العكس كانت أثينا في قيظ الصيف، ذابت على الأسفلت وأرسلت معارضتها إلى الشواطئ، الميادين خاوية، ذهب النضال في إجازة.

هذه الرحلة، عبر الأردن، كانت بالنسبة لرومانوس بمثابة اختبار تحمل، مهزوم في الحب بالمعنى الحرفي للكلمة، ثائر فاعل في صفوف المعسكر المعادي،

"ولا بالنسبة لي الأمر سهل"، قالت له جيني وهي تقترح عليه الرحلة: "يمكن أن يبدو غير عادل، لكن ربما كل عائق يجلب الخير".

اتفقـا ألا يتكلمـا عـن الأحـداث في سـيرغوبوليس، بقي لدى رومانـوس الطعم الـلاذع للفراق، ولجينـي حبيب آخـر ضائع.

- "لا يزال الوضع محتدمًا"، قالت له وهما يمران على دورية عسكرية.

- "ستتأخر النفوس كي تهدأ، هذا ما أراه".

- "هل سيحدث هذا ذات يوم؟ هل تظن؟".

- "بالتأكيد، سيتأخر لكن، ستحدث تغييرات والسياح سيعودون".

- "وسـتكتب أنـت دليـلًا سـياحيًّا خاصًّـا بـك، لسـوريا"، قالـت لـه وهـي ترمقـه بنظـرة ذات مغزى.

الآن وأكثـر مـن أي وقـت مضى كان لهما درب مشـترك تسـير فيـه حواراتهمـا، الوطنان، واحد داخـل الآخر، وكلاهمـا لا يحتمل.

فـي عمـق الطريـق رأيَـا لأول مـرة نقطة تفتيـش، توجد في الطريق السـريع الذي يسـوق إلى العاصمـة قاطعًـا منطقـة الـدروز، هنـاك حيـث حدثـت أول مشـاهد للثـورة، راحـت جينـي تتابع رومانـوس وهـو يتفاهـم مـع الجنـود، مـر وقـت علـى آخـر مـرة قابـلا فيهـا كميـن الحراسـة عند بحيـرة الأسـد، حينهـا كانـت لمسـات رومانـوس طازجـة فوقهـا والخـوف الطـازج مـن المسـتقبل الـذي رسـماه بجسـديهما علـى المذبح الرخامي فـي سـيرغوبوليس، الآن الجنود تصيـح، حركاتهم تشـي بالتعجـل والعنـف، كـم اختلفـوا منـذ شـهر إبريـل! كـم مـن الأمـور حدثـت ومـلأت ثلاثـة أشـهر! تحـاول أن تخمـن مـن نبـرة صـوت الجنـدي مـاذا يحـدث بالضبـط، أن تفسـر الإشـارات المفاجئـة والأوامـر، لغـة قاسـية.. مُرَّة.

- "سـنغير الطريـق، لقـد أغلقـوا الطريق الدولي السـريع، أعادونا إلى طريق دمشـق، لا داعي للخـوف"، قـال لهـا رومانـوس بتعبير مُطَمْئِن يرتسـم علـى وجهه وهو يقـوم بانحرافات بالسـيارة كـي يتجاوز أكـوام الأجولة المليئـة بالرمال.

مشـهد حربـي، مـمّ تخـاف؟ لقـد حذرهـا نديـم، لكـن نديـم هـو أبوهـا، مـن يخـاف وأبـوه

بجواره؟

- "أنا لا أخاف"، أجابته، لكني أريد أن نمر كي نرى المسرح الروماني في بورصا، إنه مثال نادر لبناء تم الحفاظ عليه.

لم تفقد السهولة لتستبقه، نظر إليها باستفهام.

- "الآن أقرأ عن سوريا"، اعترفت له.

- "الآن لديك الأسباب لتحبي أنتِ الأخرى وطنين".

- "إنه مثلما تحب رجلين معًا، صعب".

ضحك رومانوس، لقد دفع ثمن هذا في الماضي، لكنه تعلم أن يتصالح، بالضبط مثلما تعيش مع امرأتين، في ما بين تقبيلك للأولى ومعانقتك للثانية، لديك احتياج لهذه المساحة، لهذه الفسحة من الزمن الميت، فراغ تام من حضورهما، يبرئك ويدينك في نفس الآنِ.

وصلا إلى بورصا بعد أن مرَّا على نقطة تفتيش أخرى، بلا أي مفاجآت، المدينة عابسة، شاحبة، تمامًا مثل الناس الذي يزحفون في الشارع الرئيس المستقيم، الحوانيت مفتوحة، البضائع مكومة على الأرصفة، الحداد معلق حول الشرفات، أسود مثل لون البازلت، الحجر الداكن الذي يبرز من الأرض لقرون الآن ويرفع الجدران والبوابات والمعابد والمنازل، كل شيء يبين أن الموت قد مر من هنا، مثل سيف يهوذا المكابي الذي دمر المدينة قبل قرنين من قدوم الرومان، لكن بعد ما صارت غنيمة فيلق برقة الثالث، تحت حكم الرومان، شهدت المدينة الثراء وصارت عاصمة الريف العربي، ومنحت قصرًا للحم، ينابيع ساخنة وسوقًا، معابد من آجل الآلهة، ومسرحًا كان درة تاج يعظم مجد الأنطونيين.

قطعا السوق الحديث سعيًا خلف اللافتات التي تسوق إلى المدينة القديمة، المنحنى الأخير ظهر فجأة أمامهما، بورصا السوداء، كأنها تخرج من العالم الآخر، ترتدي لون الموتى، تفوح من أطلالها رائحة تخللت البازلت الأسود، رائحة القرون،

توقفا أمام المسرح، كتلة ثقيلة، حالكة السواد، أشبه بحصن على أهبة الاستعداد لصد أي عدو يقترب.

صف من السيارات العسكرية يسيطر على المكان، هناك في أيام أفضل كان يقف الجمَّالون بجِمالهم من أجل الصورة الأخيرة التقليدية، أو الصعاليك الصغار الذين يبيعون الهدايا التذكارية، قطاع صناعة السياحة مسلح بكلاشينكوف حقيقية.

- "لم يحب العرب المسرح أبدًا"، قال رومانوس.

طبيعي فالعرب ليسوا بحاجة إلى المسرح، كانوا يرفعون الأسوار ليحموا ممتلكاتهم الجديدة، كانوا يجندون الرجال لينشروا دينهم، ردموا المسرح الروماني وأحاطوه بجدار ثانٍ، مكونين بهذا الشكل أكروبول جديدًا ذا ثمانية أبراج وحفرة تدعم شخصية البناية الحصينة للدفاع، فقد المسرح دوره لكنه نجا من اضمحلال الزمن، في القرن العشرين عندما انتهى الأثريون من أعمالهم، سلموا الجماهير المسرح في حالة رائعة، مسرحًا ذا ثلاثة طوابق غنيًّا بالزينة ونظام صوتي بديع، واحد من الأمثلة النادرة للعمارة الرومانية، تعتمد على تقنية القباب التي تسمح للفنانين أن يبنوا بنايات دائرية دون أن يستندوا على جوانب التل، مثلما كان يفعل اليونانيون.

قطعا الممر الداخلي المغلق الذي يربط بين الحصن العربي والمبنى الروماني، ضوء شاحب فاتر، خلفهما صدى صوت خطوات رجال الشرطة المنتشرين على استحياء على الحجر في ملابس مدنية يراقبونهم، أيام صعبة، بين الحين والآخر تهجم أشعة من المسرح المكشوف وتبدد ظلال الكواليس قليلًا، على الدرج، وبعد قليل تصبح فجأة الممثل البطل. ترددت جيني، تعيش من جديد الحلم الذي رأته في تلك الليلة، نفس الشعور، نفس الضيق الشديد في المعدة وإن لم تكن في مسرح بالميرا، من التجويف المفتوح تصل حتى تصفيق الجمهور الحيوي، حياتها نسخة طبق الأصل من رواية قُرئت وكُتبت آلاف المرات، ولكن هذه الصدف تخلب لب الجمهور بينما الشعراء ينسخون الحياة ويبدعون عناوين وأسماء.

"التراجيديا هي محاكاة لفعل جاد". تحت نظرة رومانوس المشجعة بقيت مترددة، ستستطيع أن تتسلق العتبة وفجأة ستجد نفسها في وضح النهار، فوق خشبة المسرح، أمام التجويف المهيب ذي الأفاريز الثلاثة والممرات الخمس، خلفها المشهد ذو الثلاثة طوابق، قصر من القرن العشرين وهي مكشوفة على البهو المعمد، أمام أعمدة من الحجر الرملي، أنيقة بالقدر الكافي كي تهدأ نظرة المشاهد من الحجارة السوداء، كان يمكنها أن تلعب لمرة أخرى الدور الذي يناسبها كقفاز، لكن أي سبب لديها لتتوحد مع أب بالاسم فقط؟ فهي ابنة نديم، ليس لديها حاجة إلى أدوار ولا سيناريوهات، تلعب حياتها -"... محاكاة لأحداث عظيمة وتامة"- التي صارت في الحقيقة أكثر تشويقًا من أي قصة، هي ابنة الملك، من جيل عربي، تراجعت.

- "لن ندخل؟"، سأل رومانوس.

- "لا يا رومانوس، هيا بنا أفضل".

يبحث عن المخرج راكضًا تقريبًا، فأثار عصبية الضباط خلفه،

من أحد الدروب خارج القصر- المسرح، دخلا إلى المدينة العتيقة، تشابكات من الآثار الرومانية والأطلال تبرز من الأرض، بينما دخان من مداخن عشوائية يلطخ وجه السماء الخريفية.

المدينة مسكونة حتى اليوم، المتشردون يستخدمون الأطلال ويصنعون منها بيوتًا بدائية، روائح سلق البقول تهرب من بين أحجار الجدران، والملابس المعلقة تجف بين الأفنية المرمرية، الماضي والحاضر يقترنان تحت الحاجة للتسامح، مواسير المدافئ بجوار المنحوتات، أوراق الغار مطعمة بالصلبان، تيجان أعمدة مؤكسدة من المزاريب وتراب الرخام.

- "لم يعد شيء يفاجئني"، قالت جيني.

نساء تتشح بالسواد تمر بمحاذاة ركن الشارع، ظلال تمتص اللون الأسود للبازلت، من الباب المفتوح للمقهى تسمع كركرة النرجيلة، بينما بعض الشباب

يدخنون بنهم على الأرض مستندين بظهورهم على قاعدة بوابة رومانية، يتفحصون جيني بشهوة ويبتلعون شوقهم وتساؤلاتهم خشية المخبرين المتخفين، السياح قد ندروا في مناطقهم، كل من يجرءون على الوصول لسوريا، يكتفون بالعاصمة ويتوجهون فقط نحو الأماكن الخاضعة للإشراف، هنا طليعة الثورة دفنت الكثير من القتلى، لكنهم يجوعون بجوارهم، لأنهم حُرموا من مصدر الدخل الذي كان سببه الأجانب.

- "توريست؟".

راحوا يصيحون بصوت عالٍ بينما كانوا قابعين على الأرض.

"مساعدة!" سمع رومانوس وأصابه الهمّ، هي بالتأكيد فكرته، لكن كل الفخر الذي يشعر به تجاه هذا البلد صار مشنقة يشتد خناقها حول رقبته، حنى رأسه ومضى.

قالت له:

- "لا تخجل! لقد دفعوا أكثر مما يستحقون".

عندما انحرفا يمينًا قابلَا الشريان الرئيس، مبلطًا ومحاطًا بالأعمدة، سوداء، كأن الحزام الأسود الذي يطوق البلاد من أقصاها إلى أقصاها قد سوّدَها. "كل هذا السواد!" فكرت جيني، مضيا وحدهما في الطريق المستقيم المشبع للمدينة، كأنهما جنود منتصرة في ساحة قتال، فجأة صمت المشهد المظلم كسرته أصوات أطفال تهرول في السوق العتيقة، جيني توجهت إلى هناك، بينما رومانوس في حالة ترقب دائمة، تبعها، خلفهما، على مسافة آمنة، برز رجال المخابرات، السوق، محفورة لبضعة أمتار تحت سطح الأرض، فتحت أمامهم بصفوف الأعمدة يتيمة من الحوانيت التي كانت تتجمع فيها الخيرات التي كانت تصل من موانئ البحر المتوسط، الآن هي لا شيء غير خرابة، خمسة أو ستة أولاد. صياح وصفير، يخرجون للهرولة ثم بعد ذلك يتسلقون على أجزاء الأعمدة الساقطة على الأرض، هل هم فقراء فريسة للجهل أم متواطئون مع الفقر؟ حجارة متدحرجة وأطفال

فرسان في مباراة عَدْوٍ بين الماضي والحاضر، بقايا التاريخ التي ملت من دور الأطلال تتحمل مسؤولية الدور الجديد بلا تذمر، الأولاد الفرسان يقتلون ملل وقت فراغهم الطفولي، ويدمرون بجهلهم آخر آثار بعض الأجداد البعيدين.

لا يدري رومانوس هل يضحك أم يبكي.

- "لا تيأس"، استبقته جيني، لم يعلمهم أحد ما هي كل هذه الأشياء التي تنبت في أفنيتهم صيفًا وشتاءً، يبدو لنا أن براءتهم تقتل حضارتنا أو ما نعتبره نحن حضارة، لكن ماذا يعرف الأولاد؟ لا شيء! لقد عزلناهم عن تاريخهم.

- "في الواقع أنا حزين لأنني لا استطيع أن أوثق ما أراه، شيء لا يصدق!".

- "ألا تكفي ذاكرتك؟"، ابتسمت له بتآمر.

- "بعض الأشياء لا تكفي أن تتذكريها كي تتشاركي فيها".

- "أنا أتبع نصيحتك، عن الذاكرة أتحدث، تخلصت منها، واسترحت".

- "بطل حياتك الجديد لا يدع لك المساحة كي تتذكري شيئًا آخر".

بررت جيني نبرته الساخرة تمامًا.

- "يا رومانوس... افهم أنني الآن أعيش ما كنت أحلم به".

- "تصنعين الذكريات، إذن، لما بعد".

- "لا تكن نكد المزاج"، رجته.

ما زال الصفير يملأ الهواء الذي يمتطي فيه الأولاد أحصنتهم الحجرية داخل سحابة من التراب، أنهوا عَدْوَهم في الخرابة، رُكَب مخدوشة وحجارة مجروحة، ذكريات طفولية من مكان سيبقي لسنوات منطقة محظورة لهؤلاء الصعاليك، عندما سيتخلى أهل الكهف في بورصا السوداء عن مخابئهم، مطاردين من إحدى أجهزة الدولة، والمكتشفات من السوق القديم ستثير فضول وتساؤلات العلماء من أثر الزمن والاستخدام المهترئ للآثار، أماكن كهذه كانت تجذب الرحالة في

القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على هوامش الأكروبول.

- "أراهن أن الأولاد لا يعرفون بالضبط ماذا يلعبون"، هز رومانوس رأسه.

- "أنا أراهن أنهم يعرفون، لكنهم لا يكترثون، مثلما يحدث في أثينا، هؤلاء الذين يعتدون على التماثيل يعرفون بالضبط ماذا يفعلون".

- "بماذا تقارن؟ في أثينا يحدث هذا على سبيل الاعتراض، الناس ترى ضياع السنوات مكسبًا، هنا؟".

- "وهنا على سبيل الاعتراض يحدث، بينما يغيب السياح الذين يأتون بالنقود، تفضلي، أي قيمة بقيت لهذه الحجارة دون المعجبين المجانين بكاميراتهم الفوتوغرافية؟".

- "آه يا رومانوس، لقد أصبحتَ معقدًا للغاية! أنا لا أتصور أن الأولاد يفكرون هكذا".

كم أود لو أستطيع سؤالهم، هذه اللعبة العشوائية تخفي جهلًا أم ذمًّا؟ أن يعيشوا في مدينة عتيقة ربما كان سببًا في أن يحبوا الأرض أكثر، لكن هل هذه القصة لهم؟

- "لا بدَّ أن أتعلم العربية، بأسرع ما يمكن"، قالت بحسم.

*إنه شعب غريب وتبنيته كأنه شعبي.*

- "أحيي فيك تفاؤلك".

أخذت جيني نفسًا عميقًا.

- "يا رومانوس، وأنت في النهاية يجب أن تختار، هل يجب أن تظل غير مشارك؟ انظر ماذا يحدث في اليونان، وهنا؟ العالم يضيع.. هل سنظل مجرد مشاهدين؟".

- "ماذا قررتِ؟".

- "سأقيم هنا، بالقرب من أبي، أنا في حاجة لهذه العلاقة أكثر من أي شيء".

- "الواقع هنا قاسٍ، هل فكرتِ في الأمر؟".

- "وهنا -أيضًا- سوف أتألم".

أدرك رومانـوس الحـزم فـي نبـرة صوتها، حسـمت أمرها بغيـر رجعة، الألم مثـل ملابس أخرى مفصلـة عليهـا، صيـاد للفراق، جاين ديجبي أخرى حسـمت أمرها أن تتسـكع فـي طرقات الهضبة، في وطنها الجديـد المجهول.

**برنامجه الجديد** تغيرت عاداته وإيقاعه كليًّا، انتهت الصباحات البطيئة الهادئة حتى يذهب إلى مكتبه، يقرأ الصحف على عجل في السيارة، كان يميل برأسه ويغلق عينيه قبل وجبات ممثلي منظمات غير حكومية، حوارات ولقاءات، لم يعد يركض خلف الأحداث وتطوراتها، كان يصنعها، كل شيء تغير، هب إعصار وبدل حياته، اسمه جيني، هذا كان اسم إعصاره، ترك نديم كل النوافذ والأبواب التي تؤدي إلى أحضانه مفتوحة على مصراعيها، حتى جسده وحياته، فتح كل شيء ليستقبل الإعصار الذي زلزل كيانه، لهذه الابنة التي نبتت فجأة كثمرة في حديقته، شمسه وقمره، كان صوتها كل صباح يحدد مزاجه. "صباح الخير يا أميرتي"، بين المقابلات الهامة والخاصة كان يسرق قليلًا من الوقت ليتحدث معها، ليسمع كركرة ضحكاتها، الأخبار كانت تضع الخطط للقاء قصير في أثينا، في الليل، قبل أن يضع رأسه على الوسادة، كان يسعى لسماع "تصبح على خير" منها، طقس لا يتجزأ عن حياته الجديدة: "تصبح على خير يا بابا"! لقد فقد صوابه وجنَّ! كان يرى هذا في عيون من حوله، وفي النظرة الودودة لأصدقائه وزملائه في العمل، وفي الابتسامة الغاضبة لسمير، حاول أخوه ذات مرة أن يتحدث معه ليختبر وطنيته، متحججًا بالطبع بحماية اسم العائلة، تجاهله، ألم يَرَ عينيها؟ كان نديم يتساءل كيف لم يفهم من أول لحظة قابلها، أما تينا فكانت تتابع بحذر تحول رفيقها من رجل مسن هادئ يرشف بامتنان من عصيرها، إلى أب مُدلل، إلى أب شغوف بلا حدود، وبالطبع ليس من أجل الطفل الذي تحملها هي، لكن من أجل امرأة هبطت إلى هضبة دمشق في أكثر اللحظات غير الملائمة، قلقت، بالأخص لحالتها، فقد صارت أكثر حساسية ورقة، نديم كان يسيطر عليه تلهفه من أجل جيني.

تينا كانت امرأة عانت كثيرًا في حياتها ونجحت أن تسير في الحياة بخطوات رجولية في عالم ذكوري عدائي، حملها كانفترة تترك فيها نفسها تمامًا لعالم الهرمونات الأنثوية الرائعة، أن تستمتع بالأمومة واكتمالها الإنساني، في هذا الكون ستسبح أخيرًا عارية من أي طموح أو منافسات، كانت تصب المرارة في حياته إلى ذلك الحين، بثقة في أنها قد اختارت الرجل الأفضل كأب، بعيدًا عن أي أكروبات

عاطفيـة، هـي وطفلها كانـا المعيـار، نديـم في مسـار مـوازٍ، كوكب يتجـول حولهما على مسـافة آمنـة، كيـف تبـدل هـذا المنظـر الرائـع؟ ومـن أي ثقـب انقضَّت علـى الغرفـة المرتبـة الغيرة من ابنـة نديـم؟ كانـت تقلـق حتـى وإن ذهب كل شـيء إلى الجحيم، كان حملها يسـير بشـكل رائع، وافـق هـو علـى كل شـروطها، حتـى إنـه وافـق علـى المعيشـة المنفصلـة، والأهـم أنه قـد تورط، كمـا دفعتـه تينـا، إلـى المعارضـة التي تفقس، هـذا كان هدفهـا الموضوعي وكل الفضـل لها، إذن لمـاذا تتذمـر الآن؟ مـاذا سـيضير الطفـل لـو كان لـه أخـت مـن أم أخـرى؟ فعلـى كل حـال كانت جينـي عامـلًا خارجيًّـا لـم يكـن بمقدور أحـد أن يتوقعـه، هذا الضعـف كان يضايق تينـا ويرهقها، بالإضافـة إلـى أنهـا كانـت تغضـب مـن اعتماد نديـم المتضخم علـى ابنتـه الجديـدة، لكنها كانت تبتلـع غضبهـا وغيرتهـا مـع هرموناتهـا الهائجـة، وكل هـذا كان مزيجًا لا يلائـم حالتهـا، بالطبع لم يسـمح لهـا ذكاؤهـا أن تبيـن أي شـيء لنديم، وهكذا لم يشـك نديـم في الاضطرابـات التي كانت تحـدث فـي روحها.

البرنامـج اليومـي الثقيـل كان يطرحـه فـي الفراش منهـكًا، أنفق لتـوِّهِ آخر مخـزون للرقة على تينـا الحبلـى، وهـذا فـي كل المـرات التي سـنحت لـه الفرصة فيهـا أن يشـاركها النـوم، حينها كان يغلـق عليهـا أحضانـه ويتـرك كفه على بطنهـا الناضج، يعـد ركلات الطفل غير الصابـرة، نفد صبره هـو -أيضًـا- مـن أجـل اللحظـة التـي سيحمله فيهـا بيـن يديـه، ثـم كانـت عينـا ابنتـه الزرقاويـن تضيئـان الشاشـة المظلمـة للغرفـة، وبـذاك البريـق كان يغرق في النوم مباشـرة، نوم صـافٍ كنوم رضيـع، كانـت تينـا تـروض أفكاره بفكـرة أن التواصل مع الطفل سـيهدئه، وهكذا ستسـتعيد أجزاء مـن هيمنتهـا الضائعـة، بينمـا نديـم أبـدًا لـن يكشـف لهـا عـن المفتـاح الخفـي لنعيمـه، لحسـن الحـظ كانـا كلاهمـا عاشـقين ناجحين وصـلا لذروة اتحادهمـا دون أن يتقاسـما أبـدًا خيالاتهما.

رائحـة القهـوة الزكيـة تفـوح فـي الشـقة، تحركـت تنيـا تحـت المـلاءة، مسـدت علـى بطنهـا الثقيـل ثـم ذهبـت إلـى نديـم في المطبـخ، كانت تمتـنُّ كثيرًا لهـذه اللحظات، عندمـا تكون معه فـي الصبـاح الباكـر قبـل أن تصـل المسـاعدة المنزليـة وقبـل أن يبدأ هـو برنامجـه اليومي.

- "صباح الخير يا قلبي".

رائحة الكولونيا ممزوجة برائحة القهوة، يرتدي ملابسه، يبتسم، مستعدًّا لقفزته اليومية.

- "تغادر اليوم مبكرًا"، قالت له شاكية، لكنها ندمت على الفور.

- "لا بدَّ أن أكون في حمص ظهرًا، سأزور أراضي العائلة، سأمر على البيت الآن، اليوم سيأتي الأولاد من أثينا".

لقد تمت أعمال التجديد منذ أيام، فبخلاف غرفة المولود في بيت تينا، كان نديم قد أقام الدنيا من أجل جيني، من ناحية كانوا يشترون الزينة لاستقبال المولود الجديد، ومن ناحية أخرى وبنفس اللهفة كان يعد بيته ونفسه ليعيش مع ابنته، قام بكل ما يستطيع دون أن يهتم بالمصاريف، على الأقل حتى وصولها لا بدَّ أن يكون كل شيء على ما يرام، غرفة النوم تحولت إلى غرفة نوم جيني، بينما اكتفى هو بغرفة الضيوف راغبًا في أن يوفر لها كل سُبُلِ الراحة، غيَّر الأثاث، اشترى ملاءات جديدة، مناشف، برانس، كلها مستوردة من لبنان، ألقى كل ما كان مستعملًا في المطبخ، علَّقَ في الصالون ستائر جديدة وفي الشرفة زرع زهورًا جديدة، صارت الشرفة مليئة بالبراعم، أعطى أوامر صارمة لسانتيا أن تملأ البراد بالفاكهة والخضروات، كيف سترتب الغرف، وكيف تفرش الفراش، في الخزانة علق أكياسًا كتانية مليئة باللافندر الطازج وملأ الأدراج بالصابون الفرنسي كي تشم رائحته فور أن تفتحها، ذهبقبل يوم إلى الشقة، كجنرال صار يفتش الغرف، الخطوط على الملاءات والوسائد من أثر الكي، الترتيب الفائق لمستحضرات التجميل في حمام جيني، أحدث i-pad كان موضوعًا على مكتب صغير بجوار النافذة، مع شوكولاتة اللوز البلجيكية من "Neuhause"، صار نديم يعرف كل صغيرة عن ابنته.

- "طلب الأولاد أن يسكنا معي، سأمر لألقي نظرة، ربما تريد سانتيا شيئً".

سأنتظرهما ثم سنذهب معًا إلى حمص، حصلت على تصريح خاص.

بقيت التفصيلة الأخيرة، الورد الأصفر، بسبب الوضع السائد في سوريا كان من

الصعب أن يجدها في اللحظة التي يرغبها، لكنه لم يتردد أن يدفع فيها ثمنًا غاليًا ليحصل عليها طازجة في الصباح.

الحدة في صوته كانت تبين لهفته وعدم صبره، سارت دودة الغيرة في بطن تينا، ركلها الجنين بركبته.

- "ماذا يحدث؟".

انحنى نحوها.

- "تعلم كم أود أن أكون أنا -أيضًا- هناك".

- "حمص ليست أفضل الأماكن بالنسبة لكِ الآن".

كتائب الجيش حاصرت المدينة بغرض الإجهاز على كل بؤر المعارضة، التاريخ يعيد نفسه، اقتلاع الشر، كل يوم يشيعون الموتى من رصاص القناصة، الاتحاد الأوربي يهدد بإجراءات إضافية تصعيدية ضد النظام، لقد توقفت كل أنواع القروض للدولة بالفعل.

قالت له:

- "أنا قلقة عليك".

- "إنهم يبقون على بعض الشكليات".

- "الأمر صعب -أيضًا- بالنسبة للأولاد، لم تعد سوريا كما كانت في إبريل الماضي".

إلى متى سيبقيان؟

هذا ما أرادت أن تسأل عنه من اللحظة الأولى التي علمت فيها بوصول جيني إلى سوريا، لكن بدافع الأدب خبأت سؤالها في الدرج لعدة أيام.

- "كثيرًا، أظن، لهذا سيتجنبان الفندق، الأوضاع في اليونان صارت صعبة،

لحسن الحظ البيت كبير“.

تلك الدودة عضت بقسوة وإصرار هذه المرة.

- ”يمكن أن تبقي هنا لو احتاج الأمر“، اقترحت عليه هذا لتخفيف الأعباء.

- ”أشكرك يا قلبي، لكنها فرصة جيدة كي أتعرف على جيني، نعيش معًا“،

العضة الأخرى للغيرة كانت أقوى.

- ”في البداية بدا لي كأنهما على علاقة“، قالت له.

باغتته.

- ”رومانوس وجيني؟“.

- ”نعم، كان يبدو عليه العشق“.

نظر إليها عابسًا، كان يؤمن بالغريزة الأنثوية وبالأخص لديها، لكن هذا التلميح ضايقه، في البداية علاقة عشق بين جيني ورومانوس كانت تبدو واضحة ومنطقية، عندما علم بخروجهما المباغت من مستشفى بالميرا، هذا ما جاء إلى عقله، لكن الآن الوضع يختلف، وتلميح تينا لا محل له من الإعراب، مستفز، له رائحة سيئة، كان قد قرر أن ينتبه ويكون متوازنًا بين المرأتين، فقد كان يتوقع احتمالات صدام بينهما، كانت ابنته صريحة تمامًا وأسرَّت له بقلقها بشأن تينا، على العكس من تينا التي أبدت قبولًا غريبًا لحضور جيني المفاجئ في حياتهم، النضج كان يبرر موقفها نسبيًّا، لكن نديم لم ينس تفانيها الاحترافي بالأخص في ما يخص عملها، إدمان السرية، تخدير العواطف، الحساب بدقة.

- ”متى حدث هذا؟“، سألها بأكثر خفة ممكنة.

رفعت تينا كتفيها، لقد تجاوزت بما يكفي فآثرت التراجع.

- ”هل ستقضون الليلة في حمص؟“.

- "على حسب، هل ستذهبين إلى مكتبك؟".

- "ربما سأذهب مباشرة إلى المرصد الدولي، أوربا تطالب بفرض عقوبات على النظام، لكن روسيا تعارض".

- "أرسلي لي بأي طريقة محتوى المشاورات؛ كي تكون بين يدي وأنا في حمص".

نهض وقبلها برقة ومسد على بطنها، شعرت تينا بوخزة أخرى في بطنها، لقد بات تعجله واضحًا.

- "تحياتي إلى الأولاد"، قالت وهي تحاول أن تخفي تظاهرها.

- "بكل سرور".

ثم، وكأنه قد ندم، عاد إليها.

- "تينا، إن ما أشعر به تجاه جيني يختلف كليًّا عن الشيء الذي يربطنا أنا وأنتِ.. أتفهمين؟".

طأطأت رأسها، يالها من امرأة ضيقة الصدر بالفعل! لم تعد تعرف نفسها، هذا ذنب الطفل الذي تحمله في بطنها، لقد فقدت استقلالها وتفكيرها الواضح.

- "اسمعي يا قلبي.."، عانقها وقبّل شعرها برقة، "اسمعيني، إن ما يربطنا أنا وأنت هو رباط دم لن يضيع أبدًا، أي أب يفرق في حب أولاده؟ كيف يمكن أن أكون منقسمًا؟ الأمر ليس مثل وطنين أو امرأتين، لا تخافي إذن من أجل ابنك، ولو كنت أتحدث برقة أحيانًا عن أماليّا، حتى في هذه اللحظة لا تخافي، فحتى في آخر لحظة كانت لديها الشجاعة كي تنير حياتنا، أنا مدين لها بهذا، لا أدري كيف أقول لك عن كم المشاعر التي تحررت! مشاعر إيجابية محفزة، الأحداث خلفنا بقيت باهتة، من يتذكر بالميرا بعد كل هذه السنين؟ لكن قوة المشاعر كانت مروعة، لولاها لكنا فقراء محرومين، أكثر فقرًا بكثير، ولو أنني أتعجل كثيرًا بشأن جيني، فهو لأنني معها أعيش في حالة وظروف كنت دومًا محرومًا منها وأحلم بها، ومع

الأسـف لـن أدركهـا مـع طفلنـا، كـم سـنة سـأعيش يـا حبيبتـي؟ سـأقول لـك ولآخـر مـرة وأريد أن تشـعري بمـا أقولـه وتفهميـه، حبـي لجينـي شـيء وحبنـا نحـن شـيء آخر".

كلماتـه هـدأت روحهـا فارتخـى جسـدها، أمام البـاب الرئيس نصـف المفتوح بقيـا متعانقين، يربطهمـا ويفصلهمـا مؤقتًـا بطنهـا المسـتدير، كانـت المـرة الأخيـرة التي تسـمعه فيهـا، آخر مرة تراه.

**المدينـة صامتـة**، وكأن البشـر نسـوا الـكلام، والصيـاح، والإشـارات، كأنـه ليـس هنـاك أي أثـر للسـيارات فـي الشـوارع، كل هـذه السـيارات التـي كانت تُخـرج دخانها الأسـود وتـدق أبواقها بلا سـبب، المدينة تشـبه أفلام السـينما الصامتة، كلٌّ يفتح فمه ويغلقه، ولكن دون أن يُسـمع شـيء، حتـى صفيـر شـرطي المـرور عنـد التقاطـع يقطـر صمتًـا، ينتفـخ فمـه ويزفـر الهـواء بـلا صـوت، الحركـة قليلـة، وإن كانـت سـاعة الـذروة، النـاس يتجنبـون وسـط المدينة، لنقـصٍ ما فـي النقود، ولكـن أكثـر بسـبب الخـوف مـن التظاهـرات التـي قتلـت السـوق، التبايـن الوحيـد كان الجنـود المسـلحين، لا تذكـر جينـي آخـر مـرة رأت فيهـا الجنود في الشـارع، فـي وضع القتـال، على طول وعـرض وسـط المدينـة كانـت الأسـلحة الممـدودة تمثـل غيـاب السـياح وأهـل المدينـة، الذيـن كانـوا يجلسـون يومًـا ما بخمـول على الأرصفـة، المعيار الوحيـد الثابت كانت الأفيشـات الضخمة للرئيـس، يـده المرفوعـة بارتبـاك، نظرتـه إلـى المدى.

صـف رومانـوس السـيارة بجـوار بيـت خالـه، عند البـاب الرئيـس، ومن أحد أكشـاك الحراسـة العسـكرية العشـوائية يُسـمع صـوت عالٍ لموسـيقى عربية، الحـراس يتفحصـون أوراقهما ويلقون خلسـة بنظـرات نحوهمـا، اسـتطاعت هي أن تـرى أريكة مرتبكة، يتسـع لها الكشـك بالكاد، نفس المنظـر بالضبـط مثل إبريـل الماضي.

سألت جيني:

- "ماذا يفعل هؤلاء هنا؟".

- "الحكومـة تحمـي أعضـاء المعارضـة، هكـذا يقـول علـى الأقـل، وأنـتِ -أيضًـا- بمـا أنـك ستسـكنين هنـا".

- "ممَّن؟".

- "الـرب وحـده يعـرف، أتوقـع أنـه بعـد قليـل مـن الوقـت سـيبدأ مؤيـدو الرئيـس فـي إلقاء الحجـارة علـى السـفارات والقنصليـات، هـؤلاء الأشـخاص هـم بالأسـاس بـلا فائـدة".

- "كم يصيبني كلامك بالنشوة يا رومانوس، برافو!".

- "نعرف يا جيني أننا لم نأتِ إلى الجنة"، قال لها بينما يفتح حقيبة السيارة ليأخذ الحقائب، ابتسم نحوها.

"بالنسبة لي هي الجنة" فكرت وهي ترد ابتسامته بابتسامة.

استقبلتهم سانتيا بحرارة في الشقة، رائحة الطلاء الطازج ما زالت عالقة في أجوائها، توقفت جيني مضطربة قليلًا في الصالة وهي تمسك بالمفتاح في يدها، بيت آخر، بيتهم. "لديك مفتاح قلبي وبيتنا"، قال لها قبل أن يغادر لندن بقليل، ذهبت سانتيا نحو الصالون، أشارت لها بفخر إلى الستائر الجديدة والزهور المتفتحة في الشرفة، تتكلم العربية وهي تحرك رأسها ويديها.

- "تقول إن كل شيء جديد"، قال لها رومانوس وقد فهم حجم التغييرات التي تمت بسبب جيني.

كان قد حدثه الخال نديم عن التجديدات بعد أن وعده بألا يخبر ابنته بأي شيء، صار بُسَاطًا من أجل الغريبة التي تخصه، هدم الأساسات وأعاد بناء قصره ليستقبل أميرته، حياته الجديدة.

المفاجأة الأولى صارت تأثرًا بسرعة شديدة، اقشعرت جيني، في غرفة النوم مسدت على عناية أبيها بالسرير المفروش والوسائد المكوية، على الحذاء المنزلي القماشي أمام الكومودينو، الشوكولاتة المفضلة لديها على المكتب، البرنس المنقوش عليه أول حرف من اسمها، الصابون الفرنسي الماركة التي تحبها في الخزانات، والعلاقات المكسوة بالدانتيل وبيجامتها الحريرية، الورد الأصفر في كل مكان بجوار اللاب توب. الآن رأته، تمثال نيكي ثاموسراكيس البرونزي، جسد مشدود مثل سهم على أهبة اقتحام الغد، حاولت جيني جاهدة ألا تبكي.

سألها رومانوس من خلفها محاولًا أن يكسر من وطأة الحدة التي كان يخمنها:

- "هل يدللك أم أنه يبدو لي؟".

- "اللعنـة!" انفجـرت جينـي، "كان يجـب أن نأتـي مـن الحـدود إلـى هنـا مباشـرة، مـاذا أردنا وتأخرنـا فـي بورصا؟".

- "اهدئـي يـا جينـي! إن حمـص تبعـد نصف سـاعة عـن هنا، سنسـتريح قليلًا ثـم نرحل، على كلٍّ هـو قـد قـال لنـا إننا سـنلتقي في المسـاء لأن برنامجه اليـوم مزدحم".

جلـس بجوارهـا علـى الفـراش الكبيـر واحتضنهـا، يعشـق دموعهـا، كانـت تبكـي فـي صمـت وهـدوء ودموعهـا تنسـاب بسلاسـة، قطـرات ثقيلـة تسـقط علـى قميصهـا، يريـد أن يجمعهـا، ويشـربها، قبـل أن تضيـع الدمـوع سُـدى، مسـحت جينـي عينيهـا وأنفهـا.

- "لقد بكيت من أجل كثيرين، في الحقيقة، لكن ليس هكذا"، قالت لنفسها.

- "أنا متأكد أنه لم يفعل شيئًا كهذا لأي امرأة أخرى".

فكرت جيني فجأة في أمها، لقد أهداها نديم الجنة، لكنها بضعف إنساني فضلت الأفعى.

سألته:

- "أنت أين ستنام؟".

- "لقد أعد المكتب منأجلي، حوَّله إلى غرفة للضيوف".

مـدت كفهـا ومسـدت علـى شـعره، انعـكاس الشـروط، لقد اقتلعـه نديم مـن المكانـة الأولى فـي قلبـه، هكـذا كان يشـعر، كان ضجـره وحزنـه مبررين.

- "هيـا، لا ترسـمي هـذا التعبيـر الحزيـن علـى وجهـك، كنـت أنـام دائمًـا فـي غرفـة الضيوف عندمـا كنـت أقيـم فـي هذا البيـت"، اسـتبقها.

- "أنا أسرق حبك".

غراب العقعق الذي يدق على كل الأعشاش، إلى متى؟

- "سـتعتادين شـيئًا فشـيئًا أن تتعاملـي مـع دورك الجديـد، لـم يعـد دورًا يـا جينـي،

أنت ابنته، لا تسرقين شيئًا، هو من حقك!".

محقٌّ هو رومانوس، لكن كل ما يغرس بعمق كالجذور، يصعب اقتلاعه.

- "أنتِ لا تمنحينه سوى السعادة، لا يمكن، يكاد يخرج إلى الشرفة ويصيح: "أيها العالم، أحب جيني، أعشقها"، هيا، قومي، اغسلي وجهكِ واستعدي لنغادر، سنصل على ميعاد الغداء، سيفرح كثيرًا كي يعرفك على أهله في حمص".

خرج رومانوس من الغرفة وألقى بنفسه على أريكة الصالون، في فمه طعم اليأس، هو مرهق، ليس من الرحلة لكن من الحدة في الساعات الأخيرة، من اللحظة التي عبرا فيها حدود الأردن فهم أن البلد لم يعد هو البلد الذي يعرفه، الهواء له رائحة الموت، لا يستطيع أن يحدد بالضبط، لكنه يشعر بقوة بالتغييرات التي حدثت بالفعل، لقد تغير الناس، عيونهم تخفي تهديدات وإيماءات بالخطر، حتى وإن ظلوا يقومون بحياتهم اليومية، كان الموت حاضرًا، يشعر به في كل مكان، حتى داخل البيت، الديكور الجديد لا يتحمل قعقعة خطواته، لا يختبئ خلف ابتسامة الأب والابنة في الصورة الفوتوغرافية الموضوعة على البوفيه، يبتسمان بورع، غاطسين حتى رأسيهما في حكايتهما، لمن يا تُرى صور المبتهجين الأبرياء كأنهم بداية الخلق؟ أماليّا؟ العائلة في أول نزهة على طول ضفاف نهر التايمز، الجاني والضحايا، فماذا غير ذلك كانت أماليّا؟ الْتزمت صمت القبور أمام جيني، صمت لثلاثين عامًا، وتأتي الآن تحتفل بإعادة تشكيل بؤرتها، جلادة ابنتها، غير مغفور لها، كي تلحق جيني أن تمحو من سلسلة حرمانها الطويلة؟ وخاله؟ كيف سيدرك نديم أن يفرح بمولده الجديد؟ يحاول المسكين محاكاتها، يؤدي بولع عروض مناورات متقنة سعيًا للاعتراف والحب، فما الذي يعنيه تورطه في السياسة؟ إنه يضع حياته على المحك، وكل هذا التحديث للبيت، قوقعة جديدة، فكيف ستغطى شروخ ثلاثين عامًا؟ مراوغة، مثلما يفعل النظام في سوريا، يُفرج عن البعض المعتقلين ويطلق الرصاص على أضعافهم من المتظاهرين، يبتسم ببراءة في الصور الفوتوغرافية ويغرق عشرات العائلات في الحزن والحداد، بالنسبة لرومانوس مجرمة وقحة، مثل الجنود السوريين، يستحقون الشنق.

غاضب هـو مـن كل شـيء، غادر اليونان بحجـة جيني، لكنه يعلم أنه ترك بـؤرة من التطورات الشـاذة، محـض خـداع، ألعـاب سـلطة وسياسـة خبيثـة، وهنـاك تفـوح رائحـة تعفُّـن، غـادر باحثًا عـن ملجأ فـي الوطـن الآخـر، فـي وطـن الثـورة والأمل، لكـن هيهـات! الجريمـة هنا قـد ارتُكبَت بالفعـل، القيادة السياسـية تدق مسـامير نعشـها بنفسـها، هاهـي مصادفة أخرى، أبنـاء الزعيمين كان لديهـم فرصـة التملـص مـن الماضـي وكتابـة تاريـخ جديـد بدعموحب الشـعب، هـواء جديد يهـب، لكـن يـا للخسـارة، كانـت رائحته عفنـة، غرق البشـر واختنقوا، ولـو أن علـى الضفة الأخرى مـن البحـر مـازال الصبـر يحتمـل، هنـا اليـأس اليومـي يشـيع منتحريـه المجهولين، فمـن هم كل هـؤلاء الأولاد الذيـن ينقضُّـون علـى المدافـع؟ وطنيـة مهدرة، تضيع سُـدًى علـى الأرصفة.

"الفيلـم نفسـه، فـرِّق تَسُـد"، يقـول الخـال نديـم. الغـرب لا زال يتصـرف مـرة أخـرى، يتعامل بـلا هـوادة مـع مواطنيـه، قبـل مائـة عـام عندمـا انتفـض العـرب، وحَّدهـم كـي ينجـح فـي طعن العثمانييـن مـن الخلـف، الآن يفـرق العرب كمنظم ومسـيطر على حقوق الإنسـان، يا للسـخرية! إلـى متـى سـيتم تفـادي حـرب أهليـة بـكل هـذه الأسـلحة التـي تتبادلهـا الأيـادي يوميًّـا كأنها عمـلات معدنيـة؟ سـوريا هـي البـاب الخلفـي لإسـقاط معقـل الفـرس، المـارد الأخير.

رومانـوس لديـه هاجـس سيئ، لقـد انفلـق نصفيـن، جاهديـن يحاولـون إعـادة إلصاقـه ولا يسـتطيعون، الانقسـام، كأنـه فُصِّـل عليـه، يطـوق رقبتـه بشـكل خطر، يضيـق عليه، وكأن جسـده قـد كبـر فجأة بشـكل غير مسـموح، يريـد أن يرفض هويتيـه؛ فهمـا يدمرانه، يرغب في كَشْـطِهما مـن عليـه، يـود أن يتحـرر، هـو ذيوجينيـس، شـجاع أمـه، كل شـيء حولـه عدائـيّ، حتـى هـذا الصالـون الأنيـق، بألوانـه الهادئـة وثرائه الناعـم، ينقصه الأكسـجين، ربما يرجع هذا إلى مشـاعره السـيئة تجـاه شـخصية نديـم الجديـد، يبتسـم من داخل الإطـار الفضـي وهو يضم جينـي بحنان، لكـن نظـرة عشـقه تتجـه إلى مـكان آخـر، بالتأكيد لا يعجبـه خاله هكـذا، بابنة إلى جـواره، وبين حيـن وآخـر بطفـل فـي عربـة أطفـال، ليـس لرومانـوس مـكان، لا يتسـع لـه الـكادر، لـم يعـد لـه مـكان فـي هـذا البيـت، ولا فـي دمشـق، هـذه المدينـة هي مـرادف لخالـه نديـم، ينتظـره دائمًا بـأذرع مفتوحـة، جاهـز ليعمـده بالتاريـخ، خليـل صـدوق فـي البحـث والاسـتمتاع بالمذاقـات،

معلـم لأسـراره، لكـن ربمـا يكـون من العـدل أن تعود له جيني، تسـرق منه جزءًا كبيـرًا من خاله، ثـم إن صلـة القرابـة بينهما تطرده خـارج أحضانها، منبوذ مـن كليهما، كنفاية.

جاءت جيني ووقفت أمامه، لقد بدلت ملابسها، مشطت شعرها، تتلألأ.

- "ألست جاهزًا؟"، سألته بلا صبر.

- "في دقيقتين".

أصابتـه الدهشـة فـي الممـر الـذي يـؤدي إلـى غرفتـه - غرفـة المكتـب القديمـة، حـان دوره ليقـف مبهوتـًا، أرفـف الكتـب التـي كانـت تكسـي كل جـدران الغرفـة اختفـت، وفـي محلها بقي فـراش بسـيط ومكتـب صغيـر أنيـق، المـكان يبـدو ضعـف حجمـه دون الكتـب، وهنـا السـتائر والديكـور مختلفـة، مدهـش نديـم في كل شـيء، حول هـذه الغرفة إلـى غرفة نوم، فـارس حنون وكريـم يمنحـه هديـة حياته الجديدة، تغيب بالطبع الشـوكولاتة والزهور، لكـن فوق رأس الفراش كان هنـاك مظـروف لفـت انتباهه، شـق رومانـوس المظـروف فعليًّا.

*أنتما أغلى ما لدي،*

نديم

الكلمـات مكتوبـة بطريقـة قديمة، اللغة اليونانية لمدرسـة سـان جوزيف، الحبر الأسـود جفَّ لتـوه، وقـف رومانـوس مشـدوهًا، راح ينظـر وينظـر للرسـالة، انقبضـت معدتـه مـن القلـق، ذاب غضبـه، هـذا الشـعور الجـارف باليـأس يقـف ثقيـلًا فـي صـدره، غيَّـر قميصه فقـط، طـوى الورقة ووضعهـا فـي جيبه.

وجـد جينـي منحنيـة علـى سـور الشـرفة تتابـع الحركـة فـي الشـارع، الخريـف لطـف الجـو، الشـمس تسـقط بميـل عليهـا، كـم هـي ضئيلـة الحجـم، غاليـة! بالنسـبة لخالـه نديـم، وبالنسـبة لهما .

- "هل انتهيت يا شيخي الوسيم؟".

دلال أكثـر مـن كونـه توبيخًـا، أعجبـه كيـف تناديـه، مثـل أمـه، تسـبقه دائمًـا بخطـوة،

تُرى هل وجدت رسالة تحت وسادتها؟

- "هل استرحتِ قليلًا؟"، سألها بلا مبالاة.

- "لم آتِ إلى سوريا كي أنام، يا رومانوس"، اكتسحته ثم خطفت حقيبتها وهرعت نحو الباب.

- "اتصل أبي، هيا بنا، أسرع!".

- "متى، ماذا قال؟".

- "بينما كنت تستعد، لا بدَّ أن نمر على "سميراميس" لنأخذ الحلوى التي نسيها، عشرة كيلوجرامات من حلوى فستق الشام، من أجل الأصدقاء في حمص".

راح يتبع خطواتها، هي تتدحرج على الدرج، عبرت الحراسة ووقفت غير صابرة أمام السيارة.

- "ألم تقل إنهم يصنعون حلوى بطعم الصحراء؟"، صاحت قائلة، ودون أن تنتظر إجابة أكملت: "سأجربها أخيرًا من منبعها، وعدني أبي بهذا، لقد طلبها بالفعل!".

وصل بالقرب منها، يستعد ليفتح باب السيارة الروفر، دقت هي بكعبها على الرصيف، دق صوت الهاتف الجوال بنواح، حاد كشفرة يرشق مباشرة في عنقه، إنذار، جرس الخطر.

صوت الخال سمير كان مبحوحًا، نذير الموت، هدوء، فضيلة العائلة، ضاعت مع لون وجهه، كان يسمع فقط، ويرى القلق على وجه جيني الصغير الضاحك يلتهم ضحكتها، وهدوءها النفسي، وسعادته، حياتها، آه! ما هي الحياة؟ كل شيء في لحظة! قناع الموت يغير كل شيء، عيناها الزرقاوان تغربان.

- "لقد ضربوه، ضربوا الخال نديم!".

تجمدت في مكانها، شفتاها ترتعشان، وجهها ينتفض بأكمله، تبحث عن التوازن، عن المستحيل، تبحث عن تكذيب، المحال، تبحث عن الأمل.

**نحـن في الشـارع مجـددًا**، قذائـف تقطـع المـكان اليابـس الجـاف، لا نتحـدث، فقـط لنـدرك الوقـت، وحَّدَنـا صمتُنـا، كأننـا هكـذا سـنلتهم مسـافة الطريـق ونصـل أسـرع، لنـدرك مـاذا؟

مـع مـرور الوقت، أشـعر بجسـدي يتمدد، شـعور غريـب، في الوقت نفسـه تخفـت الضوضاء حولـي، صـارت غيـر محسوسـة، صـوت محـرك السـيارة يخفُـت، لـم تعـد تسـمع صـوت أنفـاس رومانـوس الثقيلـة، وكلمـا صـار جسـدي ينتفـخ شـيئًا فشـيئًا، فقـد كل تواصـل مـع كل مـا يحدث حولـي، أُصِبْـتُ بالصمـم، جربـتُ أن أسـعل، لا أسـمع شـيئًا، حولـي نفـس المـكان، درب أرضـي يابـس، أنظـر إلـى يـدي، قدمـي.. هـي نفسـها، ولكـن أشـعر باسـتمرار أن جسـدي يمتلـئ بالماء، هـذا بالضبـط! أنـا أمتلـئ بالمـاء.. دمـوع، دمـوع لم تَسِـلْ، ضلـت طريقهـا، نهر لا يعـود للخلف، ليـس هنـاك نهـر يعـود للخلف، نهـري.. هنا نهـري، يتجمع المـاء بداخلـي، أنتفخ كالبحـر الكبير، أنـا بحـر أبـي الكبيـر، أنا إنعاشـه، أنا المغـذي لنهر حياته، لكـن النهر لم يعد يجـري، يتجمع الماء بداخلـي.. ميـاه كثيـرة! مثـل بحيـرة الأسـد.. مياه محبوسـة، تحت الأسـر.

لنلحـق! لكـن مـاذا سـندرك؟ كل ما لم نعشـه.. بعض اللحظـات اليومية، بديهية لـدى الجميع، رفاهيـة بالنسـبة لنـا، كنـا سنحشـرها في الزمـن، في الوقـت القليل المتبقـي، مـع الأحاديث التي لـم نقلهـا، وتلـك التـي أجلناهـا، ألغيناهـا، ضـم كل منـا الآخـر مفعميـن بالسـعادة التـي يحملهـا كل منـا للآخـر، بـأن وجـد كل منـا الآخـر، كان هـذا يكفـي.. لـلآن علـى الأقـل، لكـن الآن؟ أنـا أمتلـئ بالدمـوع، دمـوع ليـس لهـا مخرج، تغمرنـي، أنا كلي مـاء، سـحابة داكنة ثقيلـة، على أهبة الانفجـار، أسـافر فـي الصحـراء وآتـي كي أغسـل كل شـيء فـي طريقي.. عـدل، آلهـة، وأوطان، لا أحتـاج إلـى شـيء كـي أحبـك، أحلى وطـن هو القلـب، آه! فقـط أن أدرك أبي! لا أريـد أن أفقده!

**جلست المرأتان أمام بعضهما**، الغرفة معبأة بالأنفاس الثقيلة، الضوء شاحب، تحارب تينا مع علبة صغيرة، تحاول أن تفرغ عصبية أصابعها، يبدو بوضوح أنها لا تدري ماذا تفعل، هذه الأيادي معتادة على الحاسوب والأعمال المكتبية، لم تتعلم أي مهارات يدوية أخرى، بطنها مشدود أمامها، نافر بلا صبر يرتسم تحت القماش الخفيف للجلابية الزرقاء التي ترتديها.

- "هل هو صبي أم بنت؟"، سألتها جيني.

- "لا أريد أن أعرف".

تساءلت جيني كيف يمكن أن تحمل امرأة طفلًا بداخلها دون أن تحترق من الشوق كي تعرف نوعه؟ "عامليها بطريقة حسنة"، كانت أماليّا قد نصحتها بذلك،

تينا تبدو في قمة الألم، لم ترغب في حضور أي طقس وفضلت أن تبقى بعيدًا عن الإجراءات الرسمية، قبلت زيارة تقليدية من سمير ورومانوس بعد يوم من الجنازة، أعادوا لها كل المتعلقات الشخصية لنديم، تلك التي كانت معه، رفضت هي أن تذهب إلى المقابر، أجابت بأدب على مكالمات نادية ودعوتها لها ليتناولوا الطعام كلهم في بيت العائلة، في المدينة القديمة، حتى أنها لم تسألهم أين دفنوا نديم.

في المساء أشعلت كل الأضواء في شقتها، دارت على كل الغرف، رتبت أغراضه، كما لو أنها تنتظر عودته ليقضيا عطلة الأسبوع معًا، بدلت شراشف الفراش، رتبت خزانته، أدوات حلاقته والكولونيا في الحمام، برنسه المخطط، فتحت درج الكومودينو، نظرت إلى أزرار القميص في علبتها الجلدية، مرارًا وتكرارًا، بيجاماته وروب المنزل الكشميري على المشاجب، طوت ثم فتحت الجريدة على الطاولة، الجريدة الأخيرة، ووضعت بجوارها محفظته وهاتفه الجوال وساعته، أجندته المروية بدمائه، عديمة الفائدة، بين الحين والآخر كانت تفتح باب غرفة الطفل، قليلًا، بقدر ما يتسع لرأسها، عسى أن يكون هواء الموت قد دخل إلى البيت، الألوان

الهادئة والترتيب الفائق كان يهدئها، وضعت كفيها على بطنها وكتمت تنهيدة مترصدة.

في الليلة الثانية فعلت نفس الشيء، راحت ترتب مكتبها، ألقت كل الأوراق التي لا تحتاجها، أنهت كل التفاصيل المتعلقة بالمنظمة ثم جهزت حقيبة مستشفى الولادة.

لقد قررت أن تضع المولود في دمشق، فليس لديها الوقت على كل حال كي تسافر خارج سوريا، كان الوضع خارجًا عن السيطرة، الصدامات تتحرك على بعد أنفاس من المدينة، وكل شيء كان يشي بأن المعارضة تتسلح بأحدث الأسلحة، لا يلعبون، وضعت في الحقيبة ملابس الرضيع، قميصي نوم وملابس داخلية، بعض الكتب وذاكرتين خارجيتين للحاسوب، وفوق كل هذا صورة نديم، التُقطت في بداية علاقتهما في شرفة المنزل في بيروت.

في الليلة الثالثة كانت منهكة من قلة النوم فنامت، في الصباح فتحت هاتفها واتصلت برقم جيني، لم تكن تعرف إن كانت في دمشق أو أن الفتاة قد غادرت بالفعل إلى أثينا، لكنها كانت متأكدة أن جيني كانت الشخص الوحيد الذي أراد نديم أن يكون بجوارها تلك اللحظة.

- "هل ترغبين حقيقة أن تلدي هنا؟".

- "وأين غير هنا؟".

- "في بيروت ربما، كان نديم يحب بيروت، هكذا قالوا لي".

شذرات من حياته، مقتبسة، غريبة، ما زالت تتجنب أن تطلق عليه "بابا" أمام تينا.

- "نديم كان يحب سوريا كثيرًا، كان يعود إليها دائمًا.. أنا وُلدت بعيدًا وتعلمت أن أحبها بشكل مختلف، من بعيد وبطريقة مغايرة، لديك هويتان، تضطربين.. نريد لهذا الطفل أن يولد ويتربى هنا".

- "وتريدين هذا الآن؟".

خبر اغتيال نديم انتشر في كل مكان، كل وسائل الأنباء كانت تشير طيلة الوقت إلى شخصيته الهادئة ومحاولاته لمد الجسور بين المنظمات المختلفة التي تحارب النظام، التصريح الرسمي الحكومي لم يكن محددًا ولم يقنع أحدًا، كان نديم خارجًا من محل الحلوى في حمص، كان قد طلب في اليوم السابق بعض الحلوى المحلية، تلك التي تصنع من الجبن الأبيض والشربات، طعم الصحراء! هجوم القناصة كان سريعًا ومنظمًا، في تلك اللحظة كانت حركة السيارات هادئة، عاد الناس إلى بيوتهم لطعام الغداء، الهدف واضح دون أي معوقات وخسائر، كانت هذه حجة المعارضين، خطأ النظام، لم تكن هناك مظاهرة أو أي حدث ضد النظام في تلك الظهيرة، الهدف كان نديم ومرافقيه، للعبرة أم للاستفزاز، لم يعد أي معنى يهم.

- "وحتى في أثينا إن شئت"، أصرت جيني.

شبهة حنين تظلل وجه تينا، بالتأكيد هناك ذكرى تطفو على سطح ذاكرتها، لحظات تقاسمتها مع نديم، لحظاتهما معًا، شفرة الدخول مجهولة للآخرين، تنتظر جيني بإصرار، خارج عالمهما؛ تعرف أنه ليس لها أدنى الحقوق، لا هنا ولا في أي مكان آخر، بالنسبة له كانت بريق سعادته، العالم كله صار متناولًا لفرحتها البائسة، الجميع عرفوا عن الابنة التي ظهرت فجأة وامتصت كل طاقته، لكن رسميًّا كانت إيفيغينيا راليس غريبة، ابنة أحد الممثلين الذي كانت تخفق قلوب الفتيات من أجله في حقبة الستينيات، ولا شيء آخر.

- "سأبقي هنا، هكذا خططنا".

لم تُجِبْ جيني، نظرت إلى بطن تينا، أين هو الحسد الذي كان يسكن قلبها طيلة تلك السنين؟ لماذا لا تسمع صوت لهاثه وصهيله خلف رقبتها؟ راحت تراقب جسد تينا الثقيل بهدوء، كيف تستطيع، لو تركتها لتمسد بكفها عليها، أن تربت عليها؟ لا تجرؤ على طلب شيء كهذا، "هي إنجليزية جدًّا" لقد لقنها رومانوس.

حسبت أنه في شهر إبريل عندما قابلت أباها في بيته كانت تينا بالفعل حبلى،

هـل كان يعـرف؟ لمـاذا إذن حـزن مـن أجـل هـروب أماليّا؟ "هل لا زلـت تحب أمي؟" سـألته في إحـدى نزهاتهمـا الرقيقـة فـي حدائق لندن، "الآن بشـكل مضاعـف" أجابها، كان هـذا يكفيها، لم تسـأل شـيئًا عن الأخرى، وإن كان بطنها ينتفخ، لم تكترث، سـعادتها كانت تتسـع للجميع، كانت ثملـة مـن ذلـك الإحسـاس الجديـد بالاكتمـال، كم كانـت الأمور سـتختلف لـو بقت أماليّـا معهم! أحقًّـا؟ قفـزت بعـض الحكايـات مـن خيالهـا، سـيناريوهات تُكتـب وتمحـو الأحـداث، الحقيقيـة والمؤلمـة، إحسـاس كاذب كـي تخـدع ألم الفراق، ولدغـة الغياب، لو أن أمها بقيـت بالقرب منها، ربمـا لـم يكـن سـينخرط فـي براثـن السياسـة، كان سـيتبعها مثـل جـرو، تمامًـا كمـا فعـل دايف، هـذه الرصاصـة التـي اسـتقرت فـي بطنـه لم تكـن لـه، ولا الرصاصـة الأخرى التـي اخترقـت رئته، ولا حتـى الثالثـة، لا، لـم تكـن أمهـا سـتتركه يعـود إلى سـوريا لأنها كانـت تريده بطلًا لهـا، نظرت لهـا تينا باسـترحام.

- "صعب هو، أعرف".

- "فور أن وجدته.."، اعترفت تقريبًا.

- "كان مهووسًا بكِ".

ثم تعجلت لتضيف:

- "الشهور الأخيرة كانت الأهم في حياته".

- "لماذا لم تمنعيه؟".

- "عن ماذا؟"، سألتها تينا وكيانها مليء بالتساؤلات.

- "من التورط.. من السياسة".

مررت تينا كفها فوق بطنها.

- "هو فعل هذا من أجلنا".

- "لم يكن في حاجة..".

- "هو كان لديه حاجة، كان يريد أن يثبت شيئًا، لكِ وللطفل".

تركا الصمت قليلًا بينهما، صمت مُجد يملأ الفجوات التي تفصلهما، كان بإمكانهما أن يتحابا، كجنود مهزومين، الآن ضاعت غنيمة الحرب، ليس لديهما ما يتقاسمانه، فقط ذكريات معركة لم تحدث قط.

وضعت تينا الكروشيه على ركبتيها، تخلت عن المظاهر.

- "غادر في الصباح سعيدًا.. كان فخورًا".

بقيت جيني صامتة.

- "قولي لي"، طلبت منها تينا بهدوء.

رجاء متواضع لتتقاسم معها آخر اللحظات، المجهولة، تلك التي تطردها جيني من رأسها، دفنتها وأقسمت ألا تسحبها من جوف روحها، ولا حتى لأمها،

تشعر بالحزن أمام نظرة تينا المتوسلة، استسلمت واستعدت للغوص في الألم، فشعرت بقليل من الخفة، تستطيع هذه المرأة أن تحمل سعادة أكبر في أحشائها، لكن كيف تبدأ شيئًا جديد دون طعم النهاية اللاذع؟

- "قولي لي"، أصرت تينا.

رأت جيني في التلفاز تلك اللقطات، في أفلام سينمائية مشاهد المستشفيات وظروف حرجة، كل العاملين في حالة طوارئ والأقارب في قلق شديد، المصابون والأموات بلا دور، لم تسمع، كانت تخمن الأصوات والنحيب حولها، وتعبيرات الوجوه، اللغة القاسية في تلك الساعات تزداد عمقًا من الألم والبكاء، البكاء بكل اللغات هو نفس الشيء، أجساد ملقاة على الأرض، بطاطين ملطخة بالدماء تغطي أجسادًا بلا روح، نقالات عليها رجال ونساء وأطفال ممزقون، الدم في كل مكان،

تشبثت بحزام رومانوس وسارت.. بجسد ثقيل مليء بالماء، تضاعف طوله، صار عملاقًا يفتح الطريق بطوله وصوته، بوحشية في عينيه تقطع أكباد الآخرين،

كان يطلق رصاصه بلا سلاح في طريقه والآخرون يتراجعون مفسحين الطريق لهذا الشيخ المجهول الذي يبكي ويسب، من الغضب أكثر من أي شيء آخر، لأن الألم لم يأتِ بعد، الألم يأتي بعد القطع.

خطوتان من غرفة العمليات، استوقفوهما، بأسلحة حقيقية، سقطا بوجهيهما على صدور الجنود القاسية، فوق الكلاشينكوف، رائحة عفنة تفوح من أنفاسهم وملابسهم، أعينهم تطلق الشرر كتنانين تحرس أبواب غرف العمليات، في المتاهة الصامتة كانت صرخات المصابين تصل ضعيفة مع أوامر الأطباء، وكلها معًا كانت تبشر بالجحيم.

أخرج رومانوس من جيبه حفنة من النقود، ثم أخرج حفنة أخرى، شبعت أعين الجنود المتعرقين، رأت الأصوات وأصواتًا أخرى تتقاطع في الهواء، وجه رومانوس ووجه رجل الأمن صار وجهًا واحدًا، التصقا من الكلمات واللعاب، وكأنها تخرج من نفس الفم. "لا أريد، لا أريد أن أتعلم هذه اللغة، عسى ألا أتعلمها أبدًا" فكرت جيني في نفس اللحظة لأن الساتر البشري تراجَعَ، تقهقرت هي -أيضًا- ملتصقة في ظهر رومانوس إلى الجانب الآخر.

"لا تشاهدي!" أمرها بوحشية، كان فمه يُفتح ويغلق، رأت صوته خشنًا ينطلق نحو الغرف العارية المتسخة للمستشفى، صوت كابوسي، هذا ليس صوت شيخها،

أغلقت عينيها، من هناك فصاعدًا صارت ذاكرتها انتقائية، أو بشكل أدق، كانت تتذكر القليل من الأشياء، أحدها كان الطبيب الذي فحصها في بالميرا، ذلك الذي رسم تاريخها الطبي على الورق وأصر كثيرًا أن يفحص جسدها بيديه، رذاذ راحة لحظية، أبوها في أيدٍ أمينة، تُرى ماذا سيرسم الطبيب الآن؟ لا يوجد وقت للمهارة اليدوية، الكلمات كانت تخرج من الفم ثقيلة، بصعوبة، على جبهته كان العرق يلمع، كأنه قد انتهى لتوه من التريُّض، بريق متفرق في الذاكرة، "ليس هناك أمل"، كانت يد أبيها دافئة، وجهه مشوه من أنابيب القمع، الدماء في كل مكان، متاح للتضحية، ملأ الماء فمها، انتفخت الدموع بداخلها، البحر الكبير يهدد بالفيضان وإغراق كل شيء وخط حياته، موجة تلعق شاشة المونيتور، هل ينتهي البحر؟ لا ينتهي..

ثـم شـعرت فجـأة بـأن جسـدها يفـرّغ كل مـا فيـه، كل ذلـك المـاء خـرج فـي لحظـة، فجـأة، ودفعـة واحـدة، انكمـش جسـدها، عصـر كل المـاء وبقـي جافًـا، فقـط الجلـد، بـلا روح.

كانـت تينـا تسـمع بعينيـن فارغتيـن، يداهـا تمسـدان علـى بطنهـا، تهـدئ الجنيـن بحـركات ناعمـة، ويسـمعان معًـا، تتقاسـم معـه الكلمـات التـي تنطقهـا جيني، كلمات وحشـية، ليسـمعها الطفـل الآن، ليولـد وهـو يعـرف، كـي لا يحتـاج أحـد أن يقولهـا مـرة أخـرى، أبـدًا، لتكتـب علـى خلايـاه مـع جينـات نديم، أبوه سـقط من رصـاص أبناء وطنه، رحـل واقفًا على قدميـه مثلما أراد، فـي حـرب أهليـة، كما كان يخشـى، كانت جينـي تبحث عن الدمـوع في أعين تينـا، دون جدوى، هـدوء بريطانـي بـارد، ربمـا تمتلئ هي الأخـرى بالماء، تمتـص دموعها للداخل، بحر سـيفيض في جسـدها نفسه، سـتخنق الطفل.

- "لا بدَّ أن تبكي، أنت تنفجرين"، قالت لها جيني.

لديهـا وقـت، مثـل الجمـل الـذي يجمـع الدهن في سـنامه مـن أجل الرحلـة، تجمـع الدموع، لديهـا وقـت للبكاء.

- "أين دفنوه؟"، سألت فقط.

بعـد طلاقـه الأول مـن اللبنانيـة، غيَّـر نديـم عقيدتـه، صـار بروتسـتانتيًّا، "حتى لا يضـع القس العوائـق أمـام النسـاء" قـال الأقـارب، ضحكـوا مـن هزليـة الأمـر، وكانوا قد شـربوا بعـض الكؤوس فـي ذكـراه، علـى المائـدة التـي كانـت بعـد العزاء، جلسـت جينـي بين ناديـة وررمانـوس، أقارب دم مـن الدرجـة الأولى.

- "في المقابر البروتستانتية، بجوار جاين ديجبي".

فـي أثنـاء الطقـس الصغيـر وقفـت جينـي بجـوار رومانـوس، تمامًـا مثلمـا حـدث قبـل شـهور، الحجـارة تمتـص الرطوبـة، شـعلات الشـموع ترتعـش فـي الهـواء البـارد، ومـن النوافـذ المجـاورة هـدأت أصـوات البيـوت، كانـت عينهـا تنحـرف طيلـة الوقـت ناحيـة القبـر الجرانيتـي للإنجليزيـة، قبـل أن تغـادر المقابـر، اقتربـت مـن القبـر البسـيط تحـت

شجرة التفـاح ثلاثيـة الجـذوع وتركـة باقة مـن الورد إلى السـيدة ديجبـي الميـزراب، لمرة أخرى تتقاطـع حيواتهمـا، هـي أحبـت شـيخها والمـكان وبقيـت حتـى اللحظـة الأخيـرة يغطيهـا التراب تحـت سـماء منفاهـا، جينـي بـدأت بالضبـط رحلتهـا من هنا إلى سـوريا وسـتظل تعـود إلى هذه الأرض فـي ذكـرى أبيهـا، وطن آخـر لكلتـا المرأتين.

اكتسـبت عيناهـا لونًـا أزرق عميقًـا، مثـل سـماء الهضبة، تعرف تينـا هذه النظـرة وتحبها، هي نظـرة نديـم الواضحـة عندما كان فـي لحظات يتـذوق الحياة بلا مـرارة الأعباء.

- "من هي جاين ديجبي؟".

- "شبح الصحراء".

ابتسمت تينا.

- "هل فكرتِ في اسم للطفل؟"، سألت جيني.

- "ليس بعد.. أريد أن يكون له نفس لون أعينكم! هذا ما أفكر فيه".

**سافرت إلى دمشق وحدها**، لم يكن وضع بتروس يسمح بأن يسافر معها، ولا سيّما في ظل تلك الظروف، الوضع السياسي المتأزم والتوتر المحتدم بسبب جريمة القتل منعا ابنتيهما، أما بالنسبة للأصهار فلم يكن هنا ما يدعو، كان لصدمة نادية في اللحظة الأولى وَقْعُ قنبلة انفجرت في منتصف الشارع فنثرت الرعب والدماء والحكام والزجاج المكسور والحديد المنصهر في كل مكان، أجساد ممزقة والجثث سليمة، هلاك، تركت في المنتصف حفرة تتثاءب، الدخان في كل مكان، غيمت العيون والعقل، فور أن وطئت بقدمها أرض مولدها فُتح ثقب في الجسد. نديم، الجزء الذي لا يتجزأ من نفسها، خليلها، غير موجود، كان الثقب يتسع بينما تمر الساعات، يزداد عمقًا، كانت تتحسسه وتحسب مدى عمقه، لم يكن يؤلم، لكنه كان هناك، في منتصف جسدها غياب نديم كان يتسع لحياتها من قبل ومن بعد، وفي هذا الـ بعد كانت تسير وحيدة.

في الخامسة والستين من عمرها لم تشعر أبدًا بوحدة كهذه، زوجها وأولادها وعملها لم يملؤوا دائمًا الأركان الفارغة لحياتها اليومية، الحياة ليست سهلة أبدًا، عندما تحفرين تثمر في أرض غريبة، في أثينا كانت تشعر في الكثير من المرات أنها منعزلة ووحيدة، لكن كان هناك ذلك الأخ، كوكب في مكان ما في العالم، والنكات دائمًا على لسانه، هو، المقطوع من نفس الحبل السري، التوأم، كان صوته عبر الهاتف يهدهدها، تستمتع بقصصه، همومه تضاعف أحزانها، المسافة تفعل هذا دائمًا، تقطع الفرحة وتزيد الألم، التوأم لا يحتاجان الكثير كي يكونا على نفس الموجة، أقل نفس، مختلف، يصل إلى كليهما بشفرة جاهزة، كانت تشعر باحتياجاته وهو يستقبل شكواها وقلقها، كان إلى جوارها، ظهر لها، هذه العلاقة المشتركة كانت هكذا حتى عندما كانت نادية ونديم يعيشان معًا، حينها كان يقترض منها حزنها ويهديها من فائض لامبالاته الذي وُلد به في لحظة خروجه من رحم رينا.

الآن. يتيمة، مشوهة، تتجول في الحفرة، عند منطقة السرة، من المنزل في

المدينة القديمة حتى شقتها، من دمشق إلى أثينا، ودون أن تشعر كانت تحاول أن تحمي الجرح المفتوح، غيرت شكلها، التفتت للداخل، انحنت، تغيب عن حياتها أمها والأخوات في سان جوزيف ينهرنها طيلة الوقت كي لا تحني ظهرها، دون نديم ليس لها ظهر، النصائح تذهب سُدى.

اتفقت على لقاء أماليّا في مقهى في شارع بانيبستميو، ما زالت لديها منذ أيام شبابها ذكريات كثيرة في هذا الركن من أثينا، الهواء بارد، كان الزبائن يستمتعون بقهوتهم والجو الدافئ خلف النوافذ، متحررة من دخان السجائر. وصلت نادية أولًا، جلست في مكان يتيح لها مراقبة المدخل، لم تكن متأكدة أن أماليّا ستتعرف عليها، مرت سنوات ولم تتقابل زميلتا الدراسة، لا تتذكر عدد السنين، أرادت أن تستبقها وتتعرف عليها.

بأعين مسمَّرة على الواجهة الزجاجية كانت سيدة أنيقة حاولت جهدها لتخفي السنين تنتظر، دون أي وزن زائد وخطوة ثقيلة، هكذا قد وصفها نديم.

عندما عاد من لندن وبعد أن اكتشف وجود جيني، انفرد بأخته، اعتراف مُقتَضب.

- "لن تصدقي.."، قال لها، كان جادًّا وهادئًا، الفرحة طلت عينيه الشاحبتين وكان وجهه يتلألأ.

- "أقسم بالرب، لم أرَكَ هكذا من قبل.."، قالت له نادية مصعوقة.

- "آه، لا تعرفين ماذا تعني هذه الفتاة بالنسبة لي!".

- "وأماليّا؟"، سألته.

ابتسم لها ومرارة بقيت على جانب ابتسامته.

- "هي المكبوت، الحلم الذي لم يحقق، كلما ازدادت سنواته صار أغلى، مثل الويسكي".

بعد ذلك حاول أن يبدل مزاجه، لكن دون جدوى، كيف يضفي الدعابة على وجع كهذا؟

- "كانت ترقص في حياتي من النافذة، لكنها تأخرت".

الشيء غير المحقق بقي معلقًا في نظرته، محكوم عليه بالانتحار.

- "من النافذة.. لكن وجدت ابنتك وأنت عجوز"، قالت له نادية محاولة أن ترده إلى وعيه كي تغيب الغيوم عن عينيه، كانت تشعر به، كانت تعرف أن جيني قد أصبحت مركز حياته.

- "هي نسخة من أمها"، أجابها ولون عينيه الأزرق يزداد حيوية، من الفخر،

أمها! أماليّا كانت تقف عند المدخل مترددة تبحث بين الزبائن، انقبض قلب نادية، هذه المرأة التي تقف على الباب ليس لها أي علاقة بزميلتها القديمة التي أثارت مشاعر الغيرة والتعليقات في لقاء زميلات المدرسة القدامى، رفعت يدها قليلًا كي تراها، أجابت بنفس الإيماءة وتوجهت بخطوات ثقيلة نحوها، نهضت نادية بصعوبة كي تستقبلها، وقفت متفاجئة أمام صديقتها القديمة، تعرفا على بعضهما من الثقب في منتصف الجسد، قد أصابتها نفس القذيفة المميتة، في نفس المكان بالضبط، غياب نديم حفر جسديهما حتى أكتافهما وأذبل وجهيهما تمامًا، احتراق تام غير قابل للعلاج.

تصافحتا وجلستا وتظاهرتا بأنهما لم يدركا التشابه في ما بينهما، سيدتان في منتصف العمر تلبسان الأسود، نظرت كل منهما طويلًا في عيني الأخرى دون أن تنطق أي كلمة، فيم يحتاجان للكلام على كل حال؟ أول من كسر الصمت كانت نادية:

- "تعرفت على ابنتكما في دمشق".

تنهيدة ارتياح انطلقت من شفتي أماليّا، حاولت أن تفرد ظهرها، لكن الحفرة لم تمكنها من ذلك.. تشجعت نادية، كانت قد تدربت على كلماتها، لم تَدْعُها إلى هنا فقط على سبيل المجاملة، ولا من أجل أن تواسي كل منهما الأخرى.

- "سأناديها ابنتكما لأنني أعرف جيدًا مشاعر أخي، وكل ما لم يقله، فهمته".

- "كان خطأ مني أن ذهبت إلى دمشق.. في المرتين"، أجابت أماليّا.

قررت أن تحمل كل الخطأ على عاتقها.

- "لسنا هنا من أجل الأخطاء؛ لقد مرت سنوات طويلة على ذلك".

اتفقت أماليّا دون أن تنطق بكلمة، فكَّت أصابع يديها ثم شبكتها من جديد، ثم أخذت نفسًا عميقًا.

- "أنا قلقة على جيني.. الأمور في سوريا تسير إلى الأسوأ".

وصل عدد القتلى منذ إبريل إلى أربعة آلاف، الجامعة العربية أسقطت الدولة من حساباتها، الغرب يهدد وهو يلوح بأصبعه بعنف، الرئيس اعترف في القنوات التليفزيونية وراح يغسل يديه مثل بونتيوس بيلاطيس، حلفاؤه ينشقون عنه أو كانوا يقتلون في هجمات انتحارية، مقاتلو القاعدة ووكالات أجنبية أخرى كانوا ينضمون إلى الجماعات المحلية المسلحة، وآلاف اللاجئين يتجمعون في مخيمات على الحدود مع دول مجاورة، الحرب الأهلية على وشك الاندلاع، ماذا تفعل جيني هناك؟ لماذا لا تعود؟

- "اهدئي يا أماليّا، لديك ابنة رائعة، أفهم تمامًا ولع نديم بها، رأيتها قليلًا، تحاورنا وتركت مشاعرها الثرية انطباعًا لدي، كم هي شجاعة".

طأطأت أماليّا رأسها، بحثت نادية عن يد زميلتها فوق الطاولة الرخامية، أصابع رقيقة معتنى بها، طرية، هشة، ذكرتها بأيدي أمها.

- "إنها تنتظر ميلاد الطفل الوشيك، بعدها ستعود، ثم إن رومانوس معها، لا تقلقي".

مرت غيمة في عيونهما في الوقت نفسه، حوَّلا نظراتهما إلى وجهة أخرى.

- "أنا مدينة لابنتك"، قالت نادية.

- "بم أنتِ مدينة لها؟ لماذا؟".

- "اتصلت بها مرات كثيرة في بيت العائلة في المدينة القديمة، يوم الجنازة لم يدركنا الوقت أن نقول شيئًا وحولنا الناس، أردت أن أريها المنزل، حيث ولد أبوها، حيث كان يقضي إجازاته، بيت جدها وجدتها"، انقبضت أصابع أماليّا داخل كف نادية.

- "تعرفت على عائلة سمير أكثر، سرحنا على دولاب الصور العائلية، صور الزواج والتعميد، تعرفين.. لحظات عائلية، حينها قالت لي إن أبويها لم يكن لديهما صورة مشتركة، لم يلتقيا أبدًا أمام عدسة الكاميرا، ولا حتى في تلك الرحلة إلى بالميرا التي قمتما بها معًا، ولا حتى بعد ذلك.. وجدت هذا الأمر مرعبًا، بالنسبة لجيني، أعني، لكن ليس بالنسبة لكِ، فكرت في هذا الأمر كثيرًا، من حاجتي أنا إلى الذكريات من سنوات الطفولة؛ بحثت في صندوق قديم، كنت أتلهف كي أرى صورة أخي صغيرًا، وهو طفل، أو مراهق وطالب شاب، هكذا حتى أنعش ذاكرتي، آه يا أماليّا! وعندئذٍ وجدتها، ما كان ينقص ابنتك وينقصك، انظري!".

فتحت نادية حقيبتها وأخرجت مظروفًا سحبت من داخله صورة وانحنت نحو أماليّا... صورة أبيض وأسود، مجموعة من الأولاد على درج مدرسة سان جوزيف، حول الأخت جوزيفين، وجوه ضاحكة، بريئة، تنظر إلى العدسة بتململ ودهشة، فقط سمير بجوار الراهبة، جامدًا ينظر إلى عدسة المصور بغضب، بخجل بين كل هذه البنات، كان دائمًا يعتبر مروره على مدرسة البنات نقطة سوداء في حياته، على جانب الصورة التوأم يشبكان أيديهما، التعبير الماكر على وجه نديم كان يأتي على عكس وجه نادية الخجول، التي كانت تواجه المصور برهبة، في التاسعة أو العاشرة من عمره كان يقف بفخر بجوار البنات، مثل ديك على أهبة الاستعداد لمطاردة الدجاج، خلفهما بالضبط، تسلقت أماليّا مثل جرو غير عابئة بالمصور والتفتت قليلًا برأسها ونظرتها تتجه نحو السماء، كما لو أنها رأت شيئًا غاب عن انتباه الجميع، هكذا تجمعوا في عين المصور.

أمسكت أماليّا بالصورة ونظرت بتمعن في وجوه الأطفال بالقرب من الأخت جوزيفين، بنات بشعر مجعد قصير أو معقود في جدائل قاسية، مراويل قاتمة

بياقات بيضاء وجوارب وأحذية قاتمة.

ابتسـمت برقَّـة وهـي تنظـر إلـى وجـه نديـم المـرح الـذي لـم يكـن يختبـئ خلـف نظارتـه، ضحكتـه العاليـة، بـلا صـوت، هـي تنظـر إلـى السـماء.. ذكـرى كنسـيم بـلا عطـر هبت فجـأة من صندوقهـا العميـق، تذكـرت أماليّـا الضحكـة الماكـرة التـي فضحت المزحة، المشـهد الذي يسـبق اللقطـة.. لحظـة قبلهـا، فـي الوقـت الـذي كان يعد فيه المصـور حتى رقم ثلاثة حتـى يضع الأولاد أفضـل ابتسـامة لديهـم، وضـع نديـم يـده خلسـة خلـف ظهرهـا وجذبهـا مـن مريولهـا. "انظري، انظـري فـي العمـق هنـاك عاصفة رمليـة قادمة"، رفعـت أماليّا رأسـها عاليًا وراحـت تبحث على قمـم الأشـجار، دون جـدوى، العاصفـة الرمليـة التـي تقتـرب مقلـب مـن صديقهـا وسـذاجة منها، بـراءة طفولتهمـا، مطبوعـة علـى صـورة عمرها خمسـون سـنة، صورتهمـا الوحيدة.

كان الرمـل يصـر تحـت أسـنانها، طعـم الصحراء حلى فمهـا، العاصفة الرملية تترصـد من وقتها لتعصـف بحياتهمـا، هـل تنبـأ نديـم بها أم كان سـببًا فيها؟ هـل ارتابـت الطفلة وانتابتها الشـكوك بشـأن عاصفـة سـتعصف بحياتهـا؟ كانـت تتجنبـه طيلـة هـذه السـنوات عـن قصـد، وفـي النهاية تحدَّثْـه، مـلأت العاصفـة الرمليـة عينيهـا، جمـرات مرشـوقة فـي بياضهمـا، آلاف الشـذرات، سـرى ألم شـفاف علـى خديها.

وضعـت الصـورة وضغطتهـا علـى منتصـف البطـن، على الحفـرة التـي كانت تؤلـم، "ملكتي!" سـمعت صوتـه، ملكـة فـي حكايتهمـا، فـي منفاهمـا الرحيم عـن حياتهمـا، الهاربة من السـعادة، نادمة.

**لا تـزال دمشـق نائمـة،** تعـب اليـوم يهـدّئ مـن آلام البشـر، الصدامـات المسـلحة تسـري فـي الأحيـاء، يَعُـدُّون الموتـى كمـا كان التجـار يعـدون نقودهـم، الخوف والشـجاعة أصابهمـا الضجر، استسـلما للشـفق، مجرمـون وضحايـا يمجدون الـرب، يطلبون القـوة والتنوير والشـفاء، الآلام هنا بـلا نهايـة، وبـلا قيامة.

عيـون الزجـاج تنيـر، خضـراء مثـل أعيـن قطـة فـي الظلام، عشـرات القطـط تسـهر مـع جيني، فـي هـذه السـاعة فـي الشـرفة، تترقـب المؤذنيـن الذيـن سـيبدؤون الأذان الأخيـر، تفتـح قلبهـا وتستسـلم لصفـاء الأذان الـذي سـيملأ هـواء المدينة الملـوث، الآن على الهضبة بـرد الجو وبدأت التدفئـة، وصـار يعتـم مبكرًا.

- "أغلقـي الشـرفة"، رجتهـا تينـا، حتـى لا يصـل الهـواء الملوث إلى خلايـا الطفـل، ولدها ينام بهدوء.

تترقـب جينـي بـكاء الجوامـع لتبكـي معهـا، أحيانًـا هـذا الصمـت الثميـن الذي يسـبق الأذان يـدوي مثـل طلقـة، ثـم يتبعه الآخـر، ليذكّر بـأن الرب وحـده لا يكفي، البشـر عاجـزون ويلجؤون إلـى التعاسـة، عقـدت حولها جيـدًا روب نديـم الصوفي.

المـؤذن الأول نثـر رنيـن نشـيده فـي الهـواء، الثانـي جاء مـن جامع قريـب، كان أكثـر رخامة، ذبـذب الهـواء، رفعـت جينـي عينيهـا نحـو السـماء، تبحـث فـي السـقف الغائـم عـن نجـم، هـذا الـذي يهـرب مـن الغيـوم إلـى القبـة البعيـدة، قلـب أبيهـا يومض، يتسـلل مـن بين الغيـوم، يقف فوقهـا، خيـط ذهبـي معلـق فـي السـماء، قبلـة فـي الليـل "تصبحيـن علـى خيـر يـا صغيرتـي"، أناشـيد جوامـع المدينـة تكسـر الظـلام إلى قطع صغيـرة، يئزُّ الليـل بينما يحطُّ علـى جيني، لكنها لا تـزال تمسـك بالخيـط الذهبـي بين شـفتيها.

- "هيـا إلـى الداخـل يـا حبيبتـي، سـتبردين هنـا"، قالت لهـا تينا وهـي تفتح باب الشـرفة مرة أخرى.

صـوت الأناشـيد يدخـل إلـى الغرفة، أرجوحـة الصغير، ابن نديـم لا ينتبه إلـى النجمة الذهبية المعلقـة فوقـه، تنهد تحت أجفان زرقـاء راح يحلم.

تَمَّتْ